المملكـــة العربيـــة السعوديـــة
وزارة التعليـــم العـــالـــي
جامعـــة أم الـــقـــرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنــة

التَّناسقُ المَوضوعيُّ في سورة الفتح

رسالة مقدَّمة لنيل درجة الماجستير

أعدَّها

إبراهيم بن محمد أبكر عباس مليسي

الرقم الجامعي: ٤٣٠٨٨٠٤٦

أشرف عليها

أ.د. جمال مصطفى عبد الحميد النجار

١٤٣٤هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

Abstract

The title of this thesis is : " The objective co-ordination in Surat Al Fat'h ". The meaning of Al Fat'h here had been approved by the prophet Mohammad peace be upon him to be: "The Hodaebia Peace Agreement" which had been signed between the Prophet Mohammad and his companions, and the infidels of Makkah.

This Surah mainly discussed this subject. It mentioned the characteristics for each of these two groups, and their final results. i.e. the rewards of believers and the penalty of disbelievers. Besides the promise of believers by conquests and abundant spoils that they will capture in future. This has been the way of Allah that His almighty rewards his believers with victory. The versuses of Surah were divided into seven sections and a special subject was made for each.

Through the analytical interpretation of versuses of Surah, It appeared clearly to me the nicest and the most proper co-ordination among its versuses and sections, which indicates that the theme of this Surah is: "The victory for the believers and the highness for Islam ".

During the search I touched upon the clews of victory. And milestones in the way of victory had been summarized at the end.

ملخص الرسالة : عنوان هذه الرسالة هو : التناسق الموضوعي في سورة (الفتح). والمراد بالفتح هنا: " صلح الحديبية " بإقرار الرسول – صلى الله عليه وسلّم – بأنه فتح.وقد تحدثت السورة عن هذا الصلح الذي حدث بين الرسول – صلى الله عليه وسلّم – والمؤمنين معه، وبين كفار مكة.وذكرت صفات الفريقين وجزاء كلٍّ منهما، كما اشتملت على وعد المؤمنين بفتوحات ومغانم كثيرة في المستقبل، وتقرير سنَّة الله الماضية في نصر عباده المؤمنين.وقد قسّمتُ آيات السورة إلى سبعة مباحث، وجعلت لكلّ مبحثٍ موضوعاً. ومن خلال التناسق الموضوعي لآيات السورة الكريمة ومقاطعها بان لي أنَّ موضوع هذه السورة هو : "نصر المؤمنين وظهور دين الإسلام" وفي أثناء البحث تطرقت إلى دلائل النصر في هذه السورة الكريمة، ثمَّ ختمته بمعالم في طريق النصر في ضوء آياتها.

المقدّمة

الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وجعله هدى للناس وحجةً ونورًا، وأشهد أنّ سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله ربُّه هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلَّغ الرسالة أتمّ بلاغ، ونصح للأمة أجلَّ النصح، فلا خير إلا دلّ أمته عليه، ولا شر إلا حذرها منه، حتى تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرًا أما بعد:

فإنَّ من نعم الله تعالى علينا أن اختار لنا أقومَ دين، وهو الإسلام. وخيرَ الرسل، وهو محمَّد – صلى الله عليه وسلّم – . وأفضلَ الكتب، وهو القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو كتابٌ ميسَّرٌ للذكر، محفوظ من التغيير والتحريف، فيه شفاءٌ ورحمة، وبيان وتذكرة، وهدى وموعظة. وهو منهاج قويم، ونور مبين، يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن سبل الغواية إلى الطريق المستقيم.

والقرآن الكريم كتاب معجز في تشريعه وأحكامه، ومعجز في بلاغته وبيانه، وفي كنوزه وعلومه، وفي آياته وفواصله، وفي جمله وكلماته؛ وهو بحر زاخر لا تنتهي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرَّدِّ، بل تتجدَّد موضوعاته مع تجدد الزمن؛ فمهما اغترف من حكمه الحكماء، أو استنبط من فوائده العلماء، أو استخرج من جواهره أولو الألباب، فإنه يظل معينًا لا ينضب، ونهراً متدفقًا لا يجفّ. وكل آياته مشرقة وضاءة،

فيها الهدى والنور، تنير السبيل للسالكين، وترسم منهج الحق ومعالمَ الهدى للراغبين، وتقيم الحجة الدامغة على المعرضين عنه والغافلين.

ألا وإنَّ كتاباً هذا شأنه لجديرٌ بأمته أن يهتدوا بهداه، ويستضيئوا بنوره، ويعملوا وَفق آياته؛ بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والعمل بمحكمه، والوقوف عند متشابهه، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، واتباع من أُرسل به – صلى الله عليه وسلّم –؛ ليحصلوا على الرفعة والسيادة في الدنيا، والنجاة والفوز في الآخرة؛ لأنَّ هذه الأمة هي خيرُ أمَّةٍ أُخرجت للناس، فمتى اعتصمت بحبل الله المتين، ونوره المبين، وصراطه المستقيم تبوأت مراتب العزة، ومراكز القيادة، وكان النصرُ حليفَها والمجدُ مركبَها.

وإذا كان خيرُ الكتب كتاب الله الذي يهدي للتي هي أقوم، فإنَّ خير العلوم علمُ التفسير، الذي يعلم به الإنسانُ الطريقَ الذي هو أهدى وأسلم.

وإنني أحمد ربي وأثني عليه الثناء كله الذي وفقني لطلب هذا العلم، وسلوك دربه، للاستفادة من أهله ومصادره، وذلك أن علم التفسير علمٌ باقٍ ما بقي القرآن. والقرآن منذ أُنزل، قد جعله الله منهاجَ حياةٍ للناس في كلِّ العصور والأزمنة، مهما استجد في هذه الأزمنة من مستجدات. ومن هنا كان علم التفسير متجدداً يفي بحاجات الناس، ويناسب مراحل تفكيرهم العلمي ونضجهم العقلي. ويمكن لعلماء الشريعة في كل زمان ممن صدقوا مع الله، من خلال معرفتهم لمنهج السلف الصالح في التفسير، ومن خلال ما يفتح الله عليهم في تدبرهم لآيات هذا الكتاب المجيد أن يقدموا حلولاً لمشكلات عصورهم، وأن يبرزوا هدايات آيات القرآن المجيد بالصورة التي تناسب مدارك الناس حولهم.

ولا شك أن التفسير الموضوعي للقرآن يعتبر حلقةَ وصلٍ يربط واقع المسلمين بالطريق المستقيم والمنهاج القويم؛ وذلك من خلال طرح الموضوعات التي تحتاجها الأمة بنظرة منهجية مستقاة من أسلوب القرآن الفريد في معالجة أحوال البشر، وردِّهم إلى ربِّ البشر.

ومع تطور هذا القسم من أقسام التفسير ظهر الحديث عن الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم وبدأت الكتابة فيه. ومؤخرا ظهر الحديث عن التناسق الموضوعي لسور القرآن الكريم، وقد وفق الله قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة أن يتبنى هذا المشروع العظيم، ليكون له قصب السبق في ذلك، وقد طرح هذا المشروع على طلبة الدراسات العليا في شعبة التفسير وعلوم القرآن فاخترت المشاركة فيه .

أسباب اختيار الموضوع :

أولاً : أهميّة الموضوع :

لا شكّ أنّ الحديث عن التّناسق الموضوعيّ في السّورة المفردة في القرآن الكريم له أهميّته في التّفسير الموضوعيّ ممّا يجعله يستحقّ البحث والدّراسة لأسباب منها :

١- إنّ لكلّ سورةٍ خصائصها وإن احتوت محاور ذات أغراضٍ متعدّدةٍ .

٢- إنّ الوقوف على التّناسق الموضوعيّ في آيات السّورة يبرز اللّحمة المتينة والبناء المحكم بين أجزاء القرآن الكريم. ومن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعضٍ .

٣- إنّ فهم آيات السّورة في ضوء التّرابط والتّناسق الموضوعيّ يعين على إدراك مقاصدها، وتظهر فائدة هذا الفهم عند إرادة التّطبيق الواقعي لمنهج القرآن الكريم في حياة النّاس، وعند تصحيح المفاهيم الخاطئة التي تعارفوا عليها وتشبّثوا بها دون الاستهداء بنصوص الوحي .

٤- إنّ معرفة التناسق لآيات السّورة يساعد على فهم المعنى العام للآيات بما لا يقلّ أهمية عن معرفة أسباب النّزول.

٥- من خلال الوقوف على الارتباط الوثيق بين محاور السّورة يبرز بديع النّظم ودقّة السّبك؛ ومن ثمّ إعجاز القرآن الكريم بصورةٍ لا يجادل فيها إلا جاهل أو معاند .
حيث يظهر من خلال ذلك جوانب متعدّدة من الإعجاز القرآني فكما أن القرآن العظيم معجز في فصاحة ألفاظه، ومعجزٌ من جهة ترتيبه ونظم آياته، فهو معجزٌ كذلك في شرف معانيه وتناسق موضوعاته ؛من جهة اتساق النظم في عقدٍ واحد في جملة الآيات ، ومعجزٌ كذلك في التناسق البديع في مقاطع السورة ومحاورها كتناسق مجموعة العقود في جيدٍ واحد .

٦- إن إبراز التناسق الموضوعي في السورة يعد دعوة إلى مزيد من التأمل والتدبر لآيات الذكر الحكيم من أجل الوقوف على هداية القرآن المجيد في المجالات المختلفة التي تحتاج فيها الأمة إلى حلولٍ مناسبة وصالحة للتطبيق.

٧- إن الوقوف على التناسق الموضوعي في السورة يساعد النفس المؤمنة للوصول إلى ما يصلح حالها وحال مجتمعها الذي تعيش فيه وحال الأمة المسلمة التي تنتمي إليها .

٨- في تقرير التناسق الموضوعي في السورة ردٌّ على المستشرقين ومن تأثر بهم ممن يدَّعون تشتُّت الموضوعات وتفرقها في السورة الواحدة.

ثانياً : أسباب أخرى ومنها ما يلي :

١- إدراكي للحاجة الماسة إلى إخراج هذا الموضوع لحيز الوجود ليكون في متناول طلبة العلم والعلماء والباحثين.

٢- حبّ المشاركة في ما ينادي به بعض علماء التفسير من بيان موضوعات التفسير بطريقة يظهر من خلالها عظمة القرآن المجيد وتدرك بها مقاصد السور القرآنية الكريمة.

٣- هذا الموضوع قد يسدّ فجوةً في مجال البحث العلمي حيث أن تناسب السور قد أشبع بحثاً وأثرى تأليفاً لكنّ البحث في التناسق الموضوعي في السورة لا يزال بكرًا .

ثالثاً : وقد وقع اختياري على سورة الفتح للأسباب التالية :

١- لما ورد في فضلها . فقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها : حديث زيد بن أسلم(١) عن أبيه(٢) في صحيح البخاري ، وفيه قول النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم- : " لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشّمس،

---

(١) زيد بن أسلم: هو زيد بن أسلم العدوي، أبو أسامة ويقال أبو عبدالله المدني، الفقبه مولى عمر ثقة عالم، مات سنة ست وثلاثين ومائة . [تهذيب التهذيب، جـ ٣ ص ٣٩٥ رقم: ٧٢٨]

(٢) وأبوه هو: أسلم العدوي، قيل أنه حبشي، وهو من جلّة موالي عمر، ثقة من كبار التابعين ، قيل مات سنة ثمانين وقيل بعد سنة ستين وهو ابن أربع عشرة ومائة سنة.[تهذيب التهذيب جـ١ ص٢٦٦]

ثمّ قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[١] وما كان أحبَّ إلى النبي – صلى الله عليه وسلّم – فإنه أحبُّ إلينا.

٢- لاشتمالها على قضايا متنوعة عقدية وتربوية وسيرةٍ وأحكام، وكلها متناسقة كأنها حبات لؤلؤ في عقد.

٣- لاشتمالها على أوصاف كريمة ونعمٍ جليلة اختص بها الرسّول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وأخرى اختص بها صحابته الكرام – رضوان الله عليهم – وثالثةً اختص بها المؤمنون.

٤- لما تميزت به من ألفاظٍ تدل على ظهور الدّين فقد تكرّر لفظ الفتح (مادة فتح وما يشتق منها) في السورة أربع مرات ، وتكرر لفظ السكينة ثلاث مرات، ولفظ النصر (مادة نصر وما يشتق منها) في السورة ثلاث مرات ، وذُكر الظهور باللفظ مرة : (ليظهره) وبالمعنى مرة : (أظفركم عليهم) ، وتكرر وصف الرّب سبحانه بالعزة والحكمة ثلاث مرات.

٥- سورة الفتح تحدثت عن صلح الحديبية الذي كان مقدمةً لفتح مكة، وبوابةً للفتوحات الإسلامية، ومن هنا كانت الإنطلاقة لظهور الدين وانتشاره، وتحقق عالمية الرسالة على أرض الواقع.

٦- لعدم عثوري في ما قمت به من بحث وسؤال على رسالة علمية أو كتاب منشور عن (التناسق الموضوعي في سورة الفتح).

---

(١) سيأتي تخريجه ص ٦٣

أهداف البحث في هذا الموضوع :

١- إظهار التناسق الموضوعي في سورة الفتح من خلال البحث العلمي .

٢- إبراز دلائل النصر وعلاماته في السورة الكريمة.

٣- الوقوف على الهدايات القرآنية في سورة الفتح والاستفادة منها في الواقع.

الجهود والدراسات السابقة :

لا يمكن غمض العيون عن ما كتبه علماؤنا الأقدمون ، مما له صلة وثيقة بموضوع الدراسة. وقد قيل إن أول من أشار في تفسيره إلى أهمية هذا الموضوع والتنبيه عليه فخر الدين الرازي.(١) الذي قال : "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(٢). ومن المؤلفات المهمة :

١- "البرهان في تناسب سور القرآن"، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي.(٣) وهو أول من أفرد علم المناسبة بمؤلف، والكتاب وإن كان في تناسب السور - كما دلّ عليه عنوانه - إلا أن المؤلف ربما تعرّض للتناسق بين الآيات وبيان الوحدة الموضوعية في السورة، انظر على سبيل المثال استطراده في الحديث عن سورة الأنعام وبيان التناسق الموضوعي فيها، وتحديد موضوعها الكلي وهو : (بسط

---

(١) الرازي : هو محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الشهير بابن خطيب الري، المفسر الأصولي المتكلم، صاحب التصانيف، ومنظر مذهب الأشاعرة، توفي سنة ست وستمائة. [طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ت : محمود محمد الطناجي، د.عبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ] جـ ٨ ص ٨١

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ١١٠

(٣) ابن الزبير الثقفي : هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي،جمع وصنف وحدث بالكثير، وجمع كتابا في التفسير، وصنف تاريخ علماء الأندلس،وكان ثقة قائما بالمعروف، والنهي عن المنكر دامغاً لأهل البدع. توفي سنة ثمان وسبعمائة . [البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٨هـ] جـ ١ ص ٢٦

الدلالات في الموجودات على توحيد الله عز وجل)[١] غير أنه لم يلتزم ذلك في جميع السور .

وقد ذكر في سورة الفتح ارتباط السورة بسورة محمد قبلها، ثمّ ذكر الارتباط بين أول سورة الفتح ووسطها وخاتمتها بإيجاز شديد لا يتجاوز بضعة أسطر.

٢- " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور "، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي.[٢] وهو العمدة في علم المناسبات، وقد قال المؤلف في مقدمة كتابه عن أهمية هذا العلم: " وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللبّ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بسبب التركيب، والثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب "[٣]. ولم يشر إلى المناسبات بين محاور السورة والتي تشكل حجر الأساس في التناسق الموضوعي إلا نادراً. وقد استُدرك عليه تكلُّفه أحيانا في إظهار المناسبة .

وفي سورة الفتح بدأ بذكر مقصودها وهو الفتح وآثاره، ثمّ ذكر مناسبة السّورة لماقبلها، ثمّ نقل كلّ ما كتبه ابن الزبير في كتابه البرهان، في سورة الفتح بنصّه، ثمّ تابع تفسير الآيات على طريقته في الربط بين الآيات، وفي ختام السورة ذكر مناسبة خاتمتها لمقدمتها.

---

(١) انظر البرهان في تناسب سور القرآن ،الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، ت :د. سعيد بن جمعة الفلاح،دار ابن الجوزي – الدمام، ١٤٢٨هـ ص ٩٤

(٢) والبقاعي هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط البقاعي، نزيل القاهرة ثم دمشق، الإمام الكبير برهان الدين ولد تقريباً سنة تسع وثمانمائة بقرية من عمل البقاع ونشأ بها، برع في جميع العلوم وفاق الأقران وتوفي في دمشق سنة خمس وثمانين وثمانمائة . البدر الطالع جـ ١ ص ١٨

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة ١٤٢٧هـ جـ ١ ص ١١

٣- "قطف الأزهار في كشف الأسرار" لجلال الدين السيوطي.[١] والذي يشير إليه في الاتقان بـ (أسرار التنزيل)، وموضوعه كل ما يختصّ بالنظم القرآني ، وقد اعتنى فيه مؤلفه بعلم المناسبة ، سواء المناسبة بين السور ، أو بين الآيات بعضها ببعض أو حتى في الآية الواحدة حيث بيّن وجه الربط بين أجزائها ، لكن الموجود من هذا الكتاب ينتهي عند الآية ٩٢ من سورة التوبة فقط. وله كتاب آخر هو "تناسق الدرر في تناسب السور" وقد طبع بعنوان : "أسرار ترتيب القرآن" وقد ذكر في هذا الكتاب وجه اتصال سورة الفتح بسورة محمد وبسورة الأحقاف، ولم يذكر المناسبة بين الآيات، وهذا الكتاب في غاية الاختصار، ووظيفته كما هو ظاهر من عنوانه لا تتعدى المناسبة بين السورة وسابقتها، في أسطر تكاد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. وفي الإتقان ذكر السيوطي ضوابط لمعرفة مناسبات الآيات.

أما **الدراسات المعاصرة** فمن أهمها وأقربها صلة بالبحث قيد الدراسة مايلي:

١- " في ظلال القرآن لسيد قطب "[٢]

- لا شك أن هذا الكتاب قد تميز في إظهار التناسق الموضوعي في موضوعات السورة حتى وإن لم يشر إليه باللفظ إلا في مواضع قليلة من كتابه. كما امتاز

---

(١) السيوطي : هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي،صاحب التصانيف، نشأ يتيماً، واعتزل الناس في الأربعين من عمره واشتغل بالتأليف، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة.[شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة – بيروت، ١٣٩٩هـ]، جـ ٨ ص ٥١

(٢) سيد قطب : هو سيد قطب إبراهيم ، مفكر إسلامي مصري، تخرج من كلية دار العلوم، كتبه كثيرة مطبوعة متداولة، من أشهرها : " في ظلال القرآن"، قتل سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف. الأعلام جـ٣ ص ١٤٧

في عرضه للموضوعات القرآنية بصياغتها بما يظهر الاعتزاز بالإسلام وصلاحيته للتطبيق في الحياة المعاصرة وفي كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- التزم المؤلف في كتابه هذا بأن يقدّم بين يدي السورة بمقدّمه تتحدث عن أغراضها ومحورها الرئيس ، وبعض القضايا المهمة التي تشير إليها الآيات مما له مساس بواقع الناس المعاصر ، ثم يعرض السورة كلها عرضاً إجمالياً، ثم يقسمها إلى مقاطع يتحدث عن كل مقطع بقدر من التفصيل .

ومن خلال قراءتي لسورة الفتح في هذا الكتاب ظهر لي:

- استطراده في مقدمة السورة ، في سرد الروايات التاريخية المختلفة لصلح الحديبية ولم يفصح عن محور السورة ووحدتها الموضوعية .
- وعند التفسير قسم السورة إلى مقطعين فقط مما ضاع معه الوضوح في موضوعات السورة والتناسق بينها .

٢- " التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم "، إعداد : نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف أ.د. مصطفى مسلم .[١] جامعة الشارقة ١٤٣١هـ

وقد اعتمد منهج البحث على تقسيم " التفسير الموضوعي للسورة إلى ثلاثة أقسام :

(١) مصطفى مسلم : أ.د.مصطفى مسلم محمد، أستاذ التفسير وعلوم القرآن، درّس في جامعة الإمام بالرياض وفي جامعة الشارقة بالإمارات، من المهتمين بالتفسير الموضوعي وله فيه مؤلفات، يعمل حالياً خبيراً في مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض. [موقع ملتقى أهل التفسير]

الأول : بين يدي السورة ، ومما تضمّن هذا القسم ذكر محور السورة والمناسبات.

الثاني : التفسير الإجمالي للسورة.

الثالث: الهدايات المستنبطة من المقطع.

ومن خلال الإطلاع على تفسير سورة الفتح في هذا الكتاب تبين لي:

١- الالتزام بالمنهج المعد سلفاً للكتاب من قبل جماعة المؤلفين . وكان من بنود المنهج تجنّب الجوانب البلاغية .

وفي ظني القاصر أن بعض النكت البلاغية قد تزيد من جمال التناسق وإبراز الإعجاز في النظم ، وربما ساعدت كثيراً على كشف معانٍ قيمة تساعد في الارتباط الموضوعي .

٢- كان الاعتماد في تفسير الآيات كلياً على كتاب (في ظلال القرآن) ففي بداية تفسير كل مقطع ، يقول المؤلف : قال صاحب الظلال : ... ثم ينقل عنه نقلاً مطولاً بنصه .

٣- يلاحظ أن هناك فصلاً واضحاً بين التفسير وذكر المناسبات ، حيث إن القارئ لا يشعر بالتناسق الموضوعي في الآيات أو في السورة .

٤- قال عند الحديث عن محور السورة : " اعتنت هذه السورة بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات والعبادات والأخلاق"(١).

---

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير، إشراف: أ.د. مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ جـ ص ٢٨٤

وعند قراءة تفسير السورة كاملاً في هذا الكتاب لم يظهر جلياً ذلك الموضوع الذي أشار إليه المؤلف خصوصاً وأنه موضوع عام لم يحدّده.

* وختامًا أحبّ أنّ أشير إلى أنّ التّناسق الموضوعي في السورة القرآنية شيءٌ والتّفسير الموضوعي شيءٌ آخر.

خطة البحث :

يتكون هذا البحث من مقدمة وبابين وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة : وفيها أهم أسباب اختيار الموضوع وخطته ومنهج كتابته والشكر والتقدير لكل من أعانني في إعداده.

الباب الأول : التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية

ويشتمل على تمهيد وفصلين :

التمهيد : التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحًا.

الفصل الأول : اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها.ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.

المبحث الثاني : ما ورد في فضل السورة من أحاديث.

المبحث الثالث : عدد آيات السورة وأقوال العلماء في ذلك .

المبحث الرابع : تاريخ نزول السورة الكريمة.

الفصل الثاني : مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به ومقاصدها.ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : المكي والمدني في السورة.

المبحث الثاني : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

المبحث الثالث : وجه اختصاص السورة بما اختصت به.

المبحث الرابع : مقاصد السورة الكريمة.

الباب الثاني: التناسق الموضوعي: دراسة تطبيقية

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : مناسبات السورة الكريمة والموضوع الكلي فيها.

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مناسبة اسم السورة لموضوعاتها.

المبحث الثاني : مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.

المبحث الثالث : الموضوع الكلي في السورة الكريمة.

الفصل الثاني : موضوعات السورة الكريمة وتناسقها.

ويشمل سبعة مباحث :

المبحث الأول وهو :

الموضوع الأول : وعنوانه : "المنة بالفتح العظيم وأثره على الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم-" ويشمل الآيات (١-٣) ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : سبب نزول السورة الكريمة .

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الأول

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث الثاني وهو :

الموضــوع الثـــاني : وعنوانـــه : "فضـــل الفـــتح المبـــين وأثـــره علـــى المـــؤمنين" ويشمل الآيات : (٤-٧)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها .

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ.. ﴾ الفتح: ٥

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الثاني.

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث الثالث وهو :

الموضوع الثالث : وعنوانه : "وظيفة الرسول الكريم وبيان حقه من الطاعة والتعظيم" ويشمل الآيتين : (٨-٩) ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما .

المطلب الثاني : الدراسة التحليية لهاتين الآيتين في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آيتي المبحث الثالث .

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيتين.

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيتان.

المبحث الرابع وهو :

الموضوع الرابع : وعنوانه : "التخلف عن نصرة الدين وفضح المخلفين وبيان المعذورين" ويشمل الآيات: (١٠- ١٧)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها.

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى :﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ .

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الرابع .

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث الخامس وهو :

الموضوع الخامس : وعنوانه : "الوعد بالأجر العظيم لمن نصر الدين والبشارة بنصر المؤمنين على الكافرين" ويشمل الآيات (١٨ – ٢٦)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها.

المطلب الثاني : أسباب النزول ويشمل :

١- سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

٢- سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

٣- سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الخامس .

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث السادس وهو :

الموضوع السادس : وعنوانه : "الوعد بدخول المسجد الحرام وظهور دين الإسلام" ويشمل الآيات (٢٧-٢٨)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما.

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لآيتي المبحث في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث السادس .

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيتين .

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيتان.

المبحث السابع وهو :

الموضوع السابع : وعنوانه : " الصفات الحسان لسيد الأنام وصحبه الكرام" ويشمل آية (٢٩) ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآية لما قبلها.

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية للآية في ضوء التناسق الموضوعي .

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آية المبحث السابع

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآية .

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآية .

الخاتمة : وتشتمل على النتائج وأهم التوصيات.

الفهارس العامة.

وقد سرت في كتابة البحث في الدراسة التطبيقية على المنهج التالي:

١- رجعت لكتب التفسير المختلفة عند دراسة آيات كل مبحث، فأدرس التفسير التحليلي للآيات، وأختار من ذلك المناسبات والروابط التي توضح المعنى أو تزيده قوة.

٢- أذكر بعض اللطائف البلاغية التي يظهر معها التناسق بين كلمات وجمل الآية أو بين الآيات بعضها ببعض.

٣- في نهاية الحديث عن التناسق الموضوعي في آيات المبحث، أوضح مواضع الدلالة والارتباط في المبحث بموضوع السورة الكلي.

٤- عند اختلاف المفسرين أشير أحيانا إلى القول الذي يتفق مع التناسق الموضوعي للآيات، وكثيرًا ما يكون هو القول الراجح.

٥- ما يختلف في تحديده المفسرون، أذكر أقوالهم معزوة لمصادرها، ثم أبين الراجح عندي من أقوالهم غالبًا.

٦- وضعت عناوين جانبية عند كتابة التفسير، حيث وضعت لكل مسألة عنواناً مختصراً يدل على مضمونها.

٧- في نهاية المباحث السبعة ختمت بثلاثة موضوعات وجدتها تكمل هذا البحث وهي: آثار صلح الحديبية، وحاجة الأمة المسلمة اليوم للنصر والتمكين، ومعالم في طريق النصر في ضوء آيات السورة الكريمة.

إضافة إلى هذا فقد قمت بالخطوات التالية في كتابة البحث من بدايته إلى منتهاه:

١- قمت بضبط الكلمات الغريبة وكل ما يشكل.

٢- قمت بشرح الكلمات الغريبة.

٣- عرفت ببعض الأماكن والبلدان والقبائل عدا المشهورة منها كمكة والمدينة.

٤- ترجمت لجميع الأعلام الواردة في الرسالة عدا المشهورين جدا كالأنبياء- عليهم السلام - ، والخلفاء الراشدين.

٥- نسخت الآيات القرآنية برسم المصحف بقراءة حفص من مصحف المدينة النبوية سواء كانت في أصل الرسالة أو في هامشها، وبجوار كل آية رقمها،

ما عدا آيات سورة الفتح فأذكرها دون ترقيم، لأنه قد سبق كتابتها في بداية كل مبحث برسم المصحف مع الترقيم.

٦- خرجت الأحاديث، فما كان في الصحيحين أو أحدهما أكتفي بذلك، وماكان في غيرهما فقد حرصت على بيان درجته، مكتفيًا بكلام المحققين من السلف أو من المعاصرين(١)، وغالب أحاديث الرسالة في الصحيحين أو أحدهما.

٧- عزوت الشواهد الشعرية إلى قائليها ومصادرها المعتمدة ما أمكن.

٨- وثقت النصوص المنقولة من مصادرها الأصلية ولا أنقل بواسطة إلا إذا تعذر عليّ الأصل.

٩- قد أحتاج بعض الأحيان إلى إدخال بعض كلامي في ثنايا نص منقول وذلك لبيان مبهم أو تفسير ضمير ونحوه وأضعه بين معقوفتين هكذا [ ] وأشير في الهامش إلى أن ما بين المعقوفتين من عندي.

١٠- نبهت على بعض الأخطاء في بعض النصوص في الهامش وهي يسيرة.

١١- ألتزمت الترتيب الزمني للوفيات في ذكر العلماء ومؤلفاتهم.

١٢- إذا ذكر المرجع للمرة الأولى أسجل بيانته كاملة في الهامش ثم أذكره مختصرًا بعد ذلك.

١٣- غالبًا ألتزم بذكر اسم الكتاب في الهامش بما لا يوقع في الاشتباه فتراني أقول تفسير القرآن العظيم للسخاوي احترازً عن مثله لابن كثير.

---

(١) مثل الألباني و أحمد شاكر – رحمهما الله – وكذا شعيب الأرناؤوط – حفظه الله –.

١٤- التزمت بطبعة واحدة لكل كتاب غالبًا، والأصل أن لا أعدد الطبعات إلا لفائدة، كوجود فائدة التحقيق مثلًا ،كما هو الحال في مسند الإمام أحمد فقد اعتمدت على الطبعة التي حققها أحمد شاكر وهي غير كاملة، واعتمدت كذلك على الطبعة التي أشرف على تحقيقها شعيب الأرناؤوط. وقد يوجد بين الطبعتين اختلافٌ في الحكم على الحديث.

١٥- عملت فهارس عامة في نهاية الرسالة تسهل الوصول إلى محتوياتها.

شكر وتقدير:

وفي الختام أحمد ربي وأشكره الذي أعانني على إتمام هذا البحث في صورته الحالية، وأشكر شيخي فضيلة الأستاذ الدكتور: جمال مصطفى عبد الحميد النجار المشرف على هذه الرسالة، والذي فتح لي قلبه قبل أن يفتح لي داره. وقد أفدت من علمه ومن منهجيته في البحث كثيراً، كما لا أنسى كرم خلقه وحسن استقباله، وكذا نصائحه لي حتى في غير موضوع البحث. وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

كما أشكر جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين، وأخص بالذكر مشائخي الأفاضل وأساتذتي العلماء في قسم الكتاب والسنة الذين حملت عنهم بعضًا من علم الشرع المطهر، فجزاهم الله عني خير الجزاء، وشكر الله لهم صدقهم في النصح والتعليم. كما أشكر رئيس قسم الكتاب والسنة فضيلة الأستاذ الدكتور : غالب محمد الحامضي الذي شجعني على مواصلة دراستي الشرعية

والالتحاق بالدراسات العليا. والشكر موصول لكل من أعانني في أمر هذا البحث بفائدة علمية أو رأي أو توجيه أو مشورة أو تصحيح أو تعديل. وفقهم الله جميعاً.

كما أشكر زوجي أم عبد الله التي هيأت لي الوقت للكتابة، وكانت تساعدني في الطباعة أحيانًا، والتي استقطعتُ جزءًا من وقتها ووقت الأسرة الكريمة في هذا البحث، فأطلب منهم العفو وأشكرهم على صبرهم ومساعدتهم.

كما أشكر أبنائي وبناتي جميعاً الذين ساعدوني في الطباعة أو التنسيق أو التوجيه فيما يخصُّ برامج الحاسوب .

وهذا الجهد الذي قمت به إنما هو – بعد توفيق الله تعالى ثم توجيه المشرف على الرسالة، وتوجيه كل من استشرته من المشايخ والزملاء–، جهد بشري قد يعتريه الخطأ أو النقص أو القصور أو النسيان كغيره من أعمال البشر، وحسبي أن بذلت فيه وسعي لإخراجه بالصورة التي أحسب أنها مرضية، فما كان فيه من صواب فهو من الله وحده، وما كان فيه من خطأ وقصور فهو من نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله من كل ذنب وخطيئة. والحمد لله أولًا وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتب

إبراهيم بن محمد أبكر عباس مليسي

جازان في ١٤٣٤/١/١٥هـ

البـــاب الأول

التّناسقُ الموضوعيّ : مقدِّماتٌ تعريفيّةٌ

ويشتملُ على تمهيدٍ وفصلين :

التّمهيـــــــــد: تعريفُ [التّناسق الموضوعيّ في السّورة] لغةً واصطلاحاً.

الفصل الأول : اسمُ السّورة، وفضلُها، وعددُ آياتها، وتاريخُ نزولها.

الفصل الثاني : مكيُّ السّورة ومدنيُّها، ومناسبتُها لما قبلها، ووجهُ اختصاصِها بما اختصّتْ به،ومقاصدُها.

التّمهـــــــــيد

التّناسقُ الموضوعيُّ في السّورة لغةً واصطلاحاً

ويشتملُ على ما يلي :

أولاً : تعريفُ التَّناسقِ الموضوعيِّ لغةً واصطلاحاً .

ثَّانياً : تعريفُ السّورة لغةً واصطلاحاً.

ثالثاً : المرادُ بالتّناسق الموضوعيّ في السّورة.

رابعاً : ثمرة دراسة التّناسق الموضوعيّ في السّورة.

أولاً : التّناسق الموضوعيّ في السّورة لغةً واصطلاحا:

التَّناسقُ الموضوعيُّ : مركَّبٌ وصفيٌّ مؤلَّفٌ من كلمتين هما: "التَّناسق" و "الموضوعي".

ولهذا سأورد تعريف كلِّ كلمةٍ منهما – في اللغة والاصطلاح- منفردةً، ثمّ أردف ذلك بتعريف "السّورة" لغةً واصطلاحاً، حتّى يتّضح لنا المقصود بهذا المصطلح "التّناسق الموضوعيّ في السّورة".

معنى التّناسق لغةً واصطلاحاً:

*** معنى التّناسق لغةً:**

التّناسق مصدرٌ، وفعله : تَنَاسَقَ، وهو مزيد، وأصل الفعل : نَسَقَ، والاسم منه: نَسَقٌ بتحريك عين الفعل، ونَسْقٌ بتسكينها.(١) "والنَسَقُ من كلِّ شيءٍ: ما كان على طريقة نظامٍ واحدٍ، عام في الأشياء"(٢) ويُطلق على "ما جاء من الكلام على نظامٍ واحدٍ"(٣). والنَسْقُ بتسكين السِّين : " مصدر نسقْتُ الكلام إذا عطفتُ بعضه على بعض"(٤) كما يُطلق على التّتابع "يقال : ناسق بين الأمرين أي تابع

---

(١) انظر لسان العرب، ابن منظور، مكتبة المعارف، بدون تاريخ. جـ٦ ص٤٤١٢

(٢) لسان العرب جـ٦ ص٤٤١٢، والقاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، تحقيق: مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٦ هـ. ص١١٩٥

(٣) لسان العرب جـ٦ ص٤٤١٢

(٤) المصدر السابق

بينهما"[١] ويقال : نسّقته بالتّضعيف وناسقْته بالتخفيف تنسيقاً، "والتنسيق : التَّنظيم"[٢].

و أصل استخدامه في الدُّرِّ والخرز واللؤلؤ وغيرها مما فيه زينةٌ وحليةٌ، وهي مما يُحتاج إلى نظمه بطريقةٍ متناسبةٍ توحي بالجمال والذَّوق.

١- واستخدامُه في الكلام من المجاز؛ يقال : كلامٌ مُتناسقٌ، وقد تناسقَ كلامُه، وجاء على نَسَقٍ ونظام.[٣] وعند النّظر والتّأمُّلِ في المعاني السابقة نجدُ أنّها ترجع إلى معنىً واحدٍ ؛وهو حسن النّظم والتّرتيب في الأشياء، والذي يهمّنا هنا هو تناسقُ الكلام،وبه يظهر أنَّ من معاني "تناسق الكلام" في اللغة، مايلي :

٢- نظمُ الكلام وحسنُ تركيبيه، وأصلُه من قولهم : "خَرَزٌ نَسَقٌ أي منتظم".[٤] ومن قولهم :

"نَسَقُ الأسنان: انتظامُها في النَّبتة وحسنُ تركيبها".[٥]ومن ذلك قولهُم: "نسّق كتبه: نظّمها".[٦]

٣- عطفُ الكلام بعضه على بعض. "والنّحويون يسمّون حروفَ العطف حروفَ النّسق"[٧] وهذا يدخل في المعنى الأوّل وهو جزءٌ منه؛ لأنّ العطف ممّا يُحتاج إليه

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

(٣) انظر أساس البلاغة، الزمخشري، دار مطابع الشعب – القاهرة ١٩٦٠م . ص٩٥٣

(٤) لسان العرب جـ٢ ص١٤٤٢

(٥) المصدر السابق

(٦) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، المكتبة الإسلامية – تركيا، ١٣٩٢هـ، جـ٢ ص٩١٨

(٧) لسان العرب جـ٢ ص٤٤١٢

لنظم الكلام. تسويةُ الكلام. وهو بمعنى الأوّل أو قريبٌ منه، وأصلُه : "ثغرٌ نَسَقٌ : إذا كانت الأسنان متساويةً".[١]

٤- الملاءمةُ والمتابعةُ بين أجزاءِ الكلام. وأصله "ناسَقَ بين الأمرين : أي تابع بينهما ولاءم".[٢]

٥- حسنُ مجاورة الكلام بعضِه لبعضٍ. وذلك من قولهم : "رأيت نَسَقاً من الرِّجال والمتاع، أي بعضها إلى جنب بعض".[٣]

٦- توالي الكلام واتّصالُ بعضِه ببعضٍ. من قولهم : "على نَسَقٍ أي على توالٍ واتّصالٍ".[٤]

وبهذا يمكن أنْ يقال: "**التّناسقُ لغةً**" - فيما يخص الكلام - هو:

النّظمُ الجيّدُ للكلام،بحيث يتَّصلِ بعضه ببعضٍ أو يتابع بعضه بعضاً، مع حسن التّركيب، وجمال التّرتيب، وجزالة اللفظ، وروعة المعنى.

---

(١) المصدر السابق

(٢) المعجم الوسيط جـ٢ ص٩١٨

(٣) لسان العرب جـ٢ ص٤٤١٢

(٤) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، المكتبة العتيقة - تونس، بدون تاريخ، جـ٢ ص٢٦

*** معنى التناسقُ اصطلاحاً :**

التّناسق في اصطلاح علماء التّفسير وعلوم القرآن يقصدُ به التّناسقُ في الكلمات والآيات والسّور القرآنية وموضوعاتها. وعند التأمّل في المعاني اللغوية السّابقة يمكن أن يُقال بأنّ "**التّناسقَ اصطلاحاً** " هو : **نظم كلمات القرآن وجمله وآياته بطريقة هي غاية في التناسب، وبمنتهى الدقة والإحكام لتؤديَ المعنى المراد، على أبلغ ما يكون التعبير، وأجمل ما يكون التصوير**.[١]

وبهذا يظهر أنّ التّناسقَ فنٌّ من فنون القرآن الكريم، يبحثُ في نظم الكلمات والجمل في الآية الواحدة، أو النّظم بين الآيات بعضها مع بعض، آخذاً في الاعتبار المعاني الرّابطة بينها حتى تبدوَ صورةً متكاملةً في نسقٍ واحدٍ وموضوعٍ واحدٍ.

ومما سبق يتضح **أنّ التّناسقَ له ثلاثةُ أنواعٍ**[٢]:

١- **التّناسقُ في الآية** : وخصوصاً الآية الطويلة،كآية الكرسي وآية الدين وآية النور وغيرها، وهو : التّلاحمُ والتّكاملُ بين ألفاظ الآية الواحدة ومعانيها وما تحمله من معنىً كلّيٍّ مشترك.

٢- **التّناسق في سياق الآيات** : وهو انتظامُ مجموعة الآيات التي تتحدث عن موضوعٍ واحدٍ وتتابعها في السورة الواحدة.

٣- **التّناسقُ في السّورة** : وهو الرّبط بين آيات السورة بمحاورها المختلفة مع إظهار المحور الرئيس الذي عليه مدار موضوع أو موضوعات السورة.

---

(١) انظر أسرار إعجاز القرآن، أ.د.جمال مصطفى النجار، مكتبة الحسين الإسلامية- القاهرة، ١٤١٧هـ، ص ١٣٥

(٢) استفدت هذا التقسيم من كتاب الوحدة القرآنية، محمد محمود خوجة، دار كنوز اشبيليا، الرياض١٤٣١هـ، الباب الثاني ص٢٤٩ - ٣٨٤

*** الفرق بين التّناسق و التّناسب :**

هناك فرقٌ بين التّناسقِ والتّناسبِ أو ما يُسمَّى بعلم المناسبة. **فالتّناسب** بأوضح وأقصر عبارةٍ هو: "**أوجهُ الاتّصال بين سور القرآن وآياته وكلماته**"(١) وأمّا التّناسقُ فهو اطراد التّرابط بين موضوعات الآيات. ولاشكَّ أنَّ وضوحَ التَّناسب يساعد على إدراك التّناسق؛ فإنّ "لمعرفة المناسبة فائدتها في إدراك اتِّساق المعاني، وإعجاز القرآن البلاغي، وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه"(٢).

ومع أنّ المناسباتِ تشكِّلُ جزأً كبيراً من التَّناسق إلاّ أنّ الفراهي(٣)- رحمه الله- قد فرّق بين التّناسب وما سمّاه بالنّظام؛ ويقصد به ما يسمِّيه الكتاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية (٤)-والتّناسقُ هو أسُّ النّظام- فذكر ثلاثةَ فروقٍ أساسيّةٍ فقال : " إنَّ التَّناسبَ جزءٌ من النِّظام، وإنّ التّناسب بين الآيات لا يكشفُ عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالبُ التّناسب ربّما يقنع بمناسبةٍ ما، فربّما يغفل عن

---

(١) الوحدة القرآنية ص٢٩

(٢) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠١هـ ص٩٧

(٣) الفراهي: هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان، ويعرف بحميد الدين الفراهي؛ نسبة إلى "فريها" قريته بالهند، ولد سنة ١٢٨٠هـ، وتوفي –وهو يقرأ القرآن الكريم سنة١٣٤٩هـ، كان بارعاً في العربية والفارسية والإنجليزية والعبرية، ألف في التّفسير وعلوم القرآن بضعة عشر كتابا، من أشهرها:نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ولم يتمّه، دلائل النّظام، مفردات القرآن، وإمعان في أقسم القرآن.. انظر ترجمته في مقدمة كتابه:[مفردات القرآن،الإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي- بيروت. ٢٠٠٢م]ص ١١-٤١

(٤) مفردات القرآن ، ص ٢٨

المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئاً واحداً، وربّما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتّصالها، فإنّ الآية ربّما تكون متّصلةً بالتي قبلها على بعد منها." (١)

معنى " الموضوعي " لغةً واصطلاحاً :

*** معنى الموضوعيّ لغةً :**

الموضوعيّ : نسبةً إلى الموضوع، وهو اسمُ مفعول، وفعله وَضَعَ. والمصدرُ: وضعاً وموضعاً.(٢)

والوضعُ : " الخفضُ للشَّيء وحطُّه"(٣)

وقيل : " الوضعُ أعمُّ من الحطّ، ومنه الموضع"(٤)

"والموضعُ : المكان".(٥)

وإنّما كان الوضعُ أعمَّ من الحطِّ، لأنّ وضع الشيء في المكان لا يكون بالإسقاط وبالإنزال فقط، بل يكون كذلك بالتّثبيت وبالتّركيب وباللّصق وغيرها. ولأنّ الحطَّ يَظهرُ في معناه الخفضُ والتّقييدُ بالجهة السفلى، لكنَّ الوضع أعمُّ؛ لأنّه لا يتقيَّدُ بجهةٍ من المكان غالباً.

---

(١) هذا ما يقصده الفراهي في الغالب، مع العلم أن النظام ربما يكون أشمل من الوحدة الموضوعية و التناسق . انظر دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها – الهند، ط [بدون] ص٧٤

(٢) القاموس المحيط ص٩٩٦

(٣) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤٢٩هـ ص١٠٥٥

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم – دمشق١٤٣٠هـ ص٨٧٤

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت ١٤٠٧هـ جـ ٣ ص١٢٩٩

ويقال: "وضعتِ الإبلُ وضيعةً: رعتِ الحمضَ حول الماء ولم تبرح... ووضعتُها: ألزمتها المرعى فهي موضوعةٌ".[١] وهذا المعنى هو الذي رجع إليه كثيرٌ من المعاصرين الذين كتبوا في التفسير الموضوعي، وقالوا: "وعليه يكون الموضوع بمعنى الشيء الذي له صفةٌ معيّنةٌ، وأُلزم مكاناً معيناً لا يبرحه إلى غيره".[٢]

ويستخدم "الموضوع" في وصف الإبل بمعنىً آخر؛ فيقال للبعير: حَسَنُ الموضوع إذا كان سيرُه سريعاً سهلاً يخالف المرفوع.

قال طرَفة[٣]:

مرفوعُها زَولٌ وموضُوعها   كمرِّ صوبِ لجبٍ وسطَ ريحْ

وموضوعها هنا: عدوها.[٤]

---

(١) القاموس المحيط ص٩٩٦

(٢) من أوائل من أشار إلى هذا المعنى د. عبد الستار فتح الله سعيد في كتابه: [المدخل إلى التفسير الموضوعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية – مصر١٤٢٨هـ]، ص٢٣ وتبعه الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم في كتابه: [مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم – دمشق ١٤٣٠هـ،] ص١٥ ثم تبعهما د. صلاح الخالدي في كتابه: [التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس – الأردن١٤٢٨هـ،] ص٣٣ ثم تبعهم آخرون.

(٣) طرفة: هو طرفة بن العبد بن سفيان، صاحب المعلقة: لخولة أطلال ببرقة ثهمد.كان في حسب من قومه، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم، قال في عمرو بن هند شعراً فأرسل إليه وكتب له إلى عامله بالبحرين فقتله. [الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي – القاهرة١٣٩٧هـ] جـ١ ص١٩١

(٤) انظر: لسان العرب جـ٦ ص٤٨٥٩، ومعجم مقاييس اللغة ص١٠٥٦ والمعجم الوسيط ص١٠٣٩ والبيت في ديوان طرفة من قصيدة مطلعها:

من عائدي الليلة أم من فصيحْ   بتُّ بنصبٍ ففؤادي قريحْ

[ديوان طرفة بن العبد ،عناية: حمدو طمّاس، دار المعرفة – بيروت١٤٢٧هـ] ص٢٠

فالأصل في لفظ " الموضوع " أنّه وصفٌ متعلّقٌ بالإبل. واستعير ذلك في الكلام، يقال: "تكلّمتُ بموضوع الكلام ومخفوضِه، قال ذو الرُّمة[١]:

يقطِّعُ موضوعَ الحديث ابتسامُها   تقطُّعَ ماءِ المزنِ في نطفِ الخمرِ"[٢]

"وأنشد ثعلب[٣] بيتين فيهما: موضوع جودك ومرفوعه، عنى بالموضوع: ما أضمره ولم يتكلم به، والمرفوع: ما أظهره وتكلّم به".[٤]

فالموضوعُ يُوصَفُ به الكلامُ من حيثُ سهولتُه وتسلسلُه، ومن حيث إضمارُه وإخفاؤه، ثم حصل التَّدرجُ والتَّوسّعُ في ذلك حتّى أصبحَ الموضوعُ : " المادّةُ التي يبني عليها المتكلِّمُ أو الكاتبُ كلامه".[٥] أو بمعنىً آخرَ: الأمرُ الذي يدورُ حوله الحديث.

وبهذا يتّضح أنّ "الموضوع" في اللغة يطلقُ على معانٍ متعددة؛ منها ما هو وصفٌ للإبل، ومنها ما هو وصفٌ للكلام. ولعلّ الرجوعَ إلى المعنى المتعلِّقِ بالكلام – في مجال البحث- أولى؛ فهو أقرب في الدِّلالة، وأنسبُ للمقام من الرّجوع إلى المعنى المتعلِّق بالإبل ومرعاها. والله أعلم.

---

(١) ذو الرمُّة: غيلان بن عقبة العدوي، يكنى أبا الحرث، وهو أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته مية [الشعر والشعراء جـ١ ص٥٣١]

(٢) أساس البلاغة ص١٠٢٧، والبيت من قصيدة يمدح فيها بلال بن أبي بردة، مطلعها:

أتعرف أطلالاً بوهبينَ والحضْرِ   لميٍّ كأنيار المفوّفة الخضْرِ

وهي في[ديوان شعر ذي الرمّة، شرح غريبه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت ١٤٢٧هـ] ص٢٦٤

(٣) ثعلب: هو أحمد بن يحيى بن زيد المعروف بثعلب، أبو العباس، إمام الكوفيين في النّحو واللغة، حفظ كتب الفرّاء وهو ابن خمس وعشرين سنة، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين.[إنباه الرواة على أنباء النحاة، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت١٤٠٦هـ] جـ١ ص١٧٣

(٤) لسان العرب جـ٦ ص٤٨٥٧

(٥) المعجم الوسيط ص١٠٤٠

والمعنى اللغوي المستخدمُ على ألسنة النَّاس اليوم هو ما أشار إليه مؤلفو المعجم الوسيط، وذكرتُه أعلاه. فيكون " **الموضوعي**": **وصفاً للموضوع. والموضوع: هو الأمر الذي يدلُّ عليه فحوى الكلام.**

*** معنى الموضوعي اصطلاحاً:**

الموضوعي في اصطلاح المفسّرين المتأخّرين هو: **وصفٌ يتعلّق بموضوعات القرآن الكريم**(١)، **وهو نسبةٌ إلى الموضوع. والموضوعُ القرآني : هو القضيّةُ الرئيسة التي تضمنتها آيةٌ أو آياتٌ أو سورةٌ أو سورٌ من القرآن الكريم.** وتحديدُ هذا الموضوع يحتاج إلى "منهجٍ يتّخذ من شمولية النّظرة إلى نصوص الوحي سبيلاً إلى فهمه في ضوء الواقع المعيش"(٢)

ثانياً : تعريف السّورة لغةً واصطلاحاً :

*** تعريف السّورة لغةً :**

السُّورةُ: بضمِّ السِّين وفتح الرَّاء، قال ابن قتيبة(٣): " تُهمز ولا تُهمز، فمن همزها جعلها من أسأرتُ، يعني أفضلت، لأنّها قطعة من القرآن ...ومن لم يهمزها جعلها

(١) يقال مثلاً : التفسير الموضوعي، والتناسق الموضوعي، والتناسب الموضوعي، والتكامل الموضوعي، والوحدة الموضوعية ..إلخ.

(٢) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، أ.د. زياد الدغامين، دار عمار – الأردن١٤٠٨هـ، ص٢٥

(٣) ابن قتيبة: هو العلامة الكبير،عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري الكاتب، صاحب التّصانيف، نزل بغداد، وصنّف وجمع،وبعُدَ صيتُه. قال أبو بكر الخطيب: كان ثقةً ديّناً فاضلاً. مات ستة ستٍّ وسبعين ومأتين.[سير أعلام النّبلاء،محمد بن أحمد عثمان الذهبي، حققه : جماعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٥هـ ، جـ١٣ ص ٢٩٦-٣٠٢]

من سورة البناء"[١]

وإن كان الوجهان صحيحين عند أئمّة اللغة، إلاّ أنّ اشتقاقها من السّور بدون همزٍ أولى، وذلك للأسباب التالية:

١- تكرّرت كلمةُ (سُورَة) وجمعها(سُوَر) في القرآن الكريم عشر مرّات[٢]، وكلُّها غيرُ مهموزةٍ، وليس في القراءات العشر المتواترة قراءةٌ بالهمز.

٢- السُّؤرُ هو فضلُ الشَّراب " ومن هَمَزَ السّورة من سور القرآن جعلها بقيةً من القرآن وقطعة... وقال ذو الرُّمة :

صدرن بما أسأرتُ من ماء مقفرٍ صرىً ليس من أعطانه غيرُ حائر[٣]

يعني قطاً وردتْ بقيّة ماءٍ أسْأرَهُ ذو الرُّمَّة في حوضٍ سقى فيه راحلته فشربت منه.

وقال الليث[٤]:يقال: أسأرَ فلانٌ من طعامه وشرابه سؤراً: وذلك إذا أبقى منه بقيةً "[٥] والسؤر من الشراب لا يقال له قطعة وإنّما بقيَّةٌ منه.

---

(١) تفسير غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية – بيروت١٣٩٨هـ. ص٣٤

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية- القاهرة ١٣٦٤هـ ص ٣٧٠

(٣) وصحة القافية غير حائل. والبيت من قصيدة مطلعها:

خليليّ عوجا من صدور الرواحل بجمهور حُزْوى فابكيا في المنازل

وهو في ديوان ذي الرُّمة، ص ٢٢١

(٤) الليث: هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام – رحمه الله – مولده سنة أربع وتسعين كان فقيه مصر ومحدثها ، قال الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . مات سنة خمس وسبعين ومائة أنظر [سير أعلام النبلاء جـ٨ ص١٣٦-١٦٣ رقم : ٣٦٣]

(٥) تهذيب اللغة جـ٣ ص٣٥ وانظر لسان العرب جـ٣ ص ٢١٤٧.٢١٤٨

و القول بأنّ السورةَ قطعةٌ من القرآن وبقيَّةٌ منه، فيه نظر؛ لأنَّ السّورة مصطلحٌ قرآني والصّحيح أنّها جزءٌ من القرآن، وليست بقيَّةً منه، إذِ القرآن يضمُّ مجموعَ سُوَرِه، ويُطلق -القرآن- على بعض أجزائه.

٣- إنّ الغالب في كلام العرب عدم الهمز، قال ابن عطيّة[١] — رحمه الله تعالى- : "وأما السورة فإن قريشاً[٢] كلها ومن جاورها من قبائل العرب :كهذيل[٣]وسعد بن بكر[٤]وكنانة[٥]يقولون:سورة بغير همز."[٦]

٤- القرآن كلامُ الله عزَّ وجلّ ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء: ٨٧ ووصفُه بالسؤر وهو ما فضل من الطّعام والشّراب لا يناسب قدره العظيم ، ولهذا فإنَّ علماء السَّلف - رحمهم الله - قد تجنَّبوا بعض الألفاظ التي لا تليقُ، في وصف القرآن أو سوره أو آياته، ومن ذلك أنّهم تجنّبوا وصف " كلمة آخر الجملة "[٧]

---

(١) ابن عطية: هو عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية، الإمام الكبير قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير،مولده سنة ثمانين وأربعمائة، ومات سنة أحدى وأربعين وخمسمائة [طبقات المفسرين ص٥٠]

(٢) قريش: أشهر القبائل وأعظمها في جزيرة العرب،وقد دعاهم النبي — صلى الله عليه وسلّم — إلى الإسلام فامتنعوا وتتابعت المعارك بينهم وبين المسلمين حتى كان فتح مكة، حيث دخل الناس بعدها في دين الله أفواجا.انظر[معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤١٤هـ]جـ ٣ص ٩٤٨

(٣) هذيل:من قبائل الحجاز المهمة، ديارهم في أطراف مكة من جهة الشرق والجنوب. [المصدر السابق جـ ٣ص ١٢١٣]

(٤) سعد بن بكر: بطن من هوازن، وهم أصحاب غنم، وهم حضنة النبي — صلى الله عليه وسلم — [المصدر السابق جـ ٢ ص ٥١٤]

(٥) كنانة: قبيلة عظيمة من العدنانية،كانت ديارهم بجهات مكة ، وهم بنو كنانة بن خزيمة.[المصدر السابق جـ ٣ ص ٩٩٦]

(٦) المحرّر الوجيز ص ٣١

[(١)] بالسّجع، وسموها بالفاصلة تشريفاً للقرآن وتنزيهاً لكلماته مما يقع في كلام البشر. قال الزركشي[(٢)] – رحمه الله – : "وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها؛ وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام. وتسمَّى فواصل؛ لأنَّه ينفصل عندها الكلام، وذلك أنَّ آخر الآية فَصَلَ بينها وبين ما بعدها، ولم يسموها أسجاعاً.

فأمّا مناسبة فواصل، فلقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ فصلت: ٣ وأما تجنّب أسجاع، فلأنّ أصله سَجَعَ الطيرُ، **فشُرِّف القرآن الكريم أن يستعار لشيءٍ فيه لفظٌ هو أصلٌ في صوت الطائر**، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السَّجعْ الواقع في كلام آحاد الناس، ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفةٍ لم يرد الإذن بها وإن صحَّ المعنى "[(٣)] والله أعلم.

وأما المعاني اللغوية في لفظ "سورة" بدون همز، فإنَّ أصل اشتقاقها من السُّور ومنها:

١- السُّور: حائط المدينة[(٤)]، وسور المدينة: حائطها المشتمل عليها، وسورة القرآن تشبيهاً بها لكونه محاطاً بها إحاطة السور بالمدينة.[(٥)] السُّور: هو كلُّ منزلةٍ من

---

(١) أي: الفاصلة ، وتعريفها بأنها كلمة آخر الجملة،نسبه الزركشي إلى الداني في كتابه البرهان ص٥٣

(٢) الزركشي: هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، بدر الدين، كان فقيهاً أصولياً أديباً، صاحب البرهان في علوم القرآن وغيره، توفي سنة أربعٍ وتسعين وسبعمائة. [شذرات الذهب جـ٦ ص٣٣٥]

(٣) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، ١٣٧٦هـ، جـ١ص٥٤

(٤) انظر لسان العرب جـ٣ ص٢١٤٦

(٥) مفردات ألفاظ القرآن ص٤٣٤

البناء "ومنه سورة القرآن لأنَّها منزلةٌ بعد منزلة، مقطوعة عن الأخرى"[(١)] واستشهد ابن فارس[(٢)] على هذا المعنى بقول القائل:

وربَّ ذي سرادقٍ محجور   سرتُ إليه في أعالي السورِ[(٣)]

٢- السُّور: العلوُّ والرفعة. قال ابن فارس: "السِّين والواو والرَّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على علوٍّ وارتفاع"[(٤)] والبيتُ السَّابقُ شاهدٌ له أيضاً، فقوله: سرتُ إليه أي ارتفعت إليه.

وقال الرَّاغب[(٥)]: "السُّورة: المنزلةُ الرفيعة"[(٦)] ويُقالُ: له سورة في المجد: رفعةٌ.[(٧)]

---

(١) الصحاح للجوهري جـ٢ ص٦٩٠ ، والقاموس المحيط ص٨١٧

(٢) ابن فارس:هو الإمام العلامة، اللغوي المحدث، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، المعروف بالرّازي، صاحب كتاب "المجمل" كان من رؤوس أهل السنّة، ومات بالريّ سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.[سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ١٠٣-١٠٦]

(٣) معجم مقاييس اللغة ص ٤٧٥ ، والبيت للعجّاج، ذكره الثعلبي والسمعاني والقرطبي في تفاسيرهم منسوباً له، وبالصيغة أعلاه. وهو في كتاب [الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب، وهو مشتمل على ديواني الأراجيز للعجاج والزّفيان، عناية : وليم بن الورد البروسيّ، طبع في مدينة ليبسيج سنة ١٩٠٣م] ص ٢٧ مشطّراً هكذا:

فرب ذي سرادق محجور   جم الغواشي حاضر المحضور

أشوس عن سفارة السفير   سرت إليه في أعالي السّور

والكتاب المذكور مصوّر PDF عن موقع (الألوكة) على الشبكة العنكبوتية.

(٤) المصدر السابق

(٥) الراغب: شهرته الراغب الأصفهاني، واختلف في اسمه فقيل: الحسين بن محمد، وقيل: المفضل بن محمد وكنيته أبو القاسم، واختلف في عقيدته ، والراجح أنه من أهل السنّة، من مصنفاته: "مفردات القرآن"و"أفانين البلاغة"و"المحاضرات"وغيرها. توفي سنة نيف وخمسمائة.انظر: [طبقات المفسرين، محمد بن علي الداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط(بدون)] جـ٢ص٣٢٩ و [كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة،دار العلوم – بيروت] جـ١ ص ٣٦

(٦) مفردات ألفاظ القرآن ص٤٣٤

(٧) أساس البلاغة ص٤٦٦

"وفي الحديث: فتساورتُ لها، أي رفعتُ لها شخصي"[١]

٣- السُّور: ما طال من البناء وحسن.[٢]

٤- السورة: الفضل، "وله سورة عليك: فضلٌ ومنزلة. قال:

فما من فتىً إلّا له فضلُ سورةٍ   عليك وإلّا أنت في اللؤم غالبه"[٣]

٥- السورة: الشرف. قال النابغة[٤]:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً   ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ[٥]

" يريد شرفاً ومنزلة"[٦]

٦- السورة: العلامة. وسورة المجد: علامته وأثره وارتفاعه.[٧]

---

(١) لسان العرب جـ٣ ص٢١٤٦، والحديث: عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قال يوم خيبر: "لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ليفتح الله على يديه"، قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال فدعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- علي بن أبي طالب، فأعطاه إياها، ...الحديث [صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، بيت الأفكار الدولية- الرياض ١٤١٩هـ ،كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رقم: ٢٤٠٥]

(٢) القاموس المحيط ص٨١٧

(٣) أساس البلاغة ص٤٦٦والبيت لم أجد قائله.

(٤) النابغة: هو زياد بن معاوية بن جناب، ويكنى أبا أمامة، وسمي النابغة لقوله: فقد نبغت لنا منهم شؤون، وكان مع النعمان بن منذر ومع أبيه وجده وكانوا له مكرمين. [طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر ، دار المدني- جدة ١٩٩٤م] جـ١ ص٥٦ و الشعر والشعراء، ص١٦٩-١٧٠

(٥) البيت من قصيدة يعتذر فيها النابغة للنعمان بن منذر ويمدحه ومطلعها:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني   وتلك التي أهتم منها وأنصب

[ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت – بيروت١٣٨٣هـ] ص١٧

(٦) مفردات ألفاظ القرآن ص٤٣٤

(٧) معجم تهذيب اللغة جـ٢ ص١٥٩٤

٧- السور أيضاً: جمع سُورَة مثل بَسْرَة وبُسْر وتَمرة وتَمْر.(١) وتجمع "سورة" على سُوَر، وهذا هو الأشهر، قال ابن منظور(٢): "والجمع: سُوَر بفتح الواو.

(١) الصحاح جـ ٢ ص٦٩٠، لسان العرب جـ ٣ ص٢١٤٦ و القاموس المحيط ص٨١٧

(٢) ابن منظور: هو محمد بن مكرم بن علي،ابن منظور الأنصاري، صاحب لسان العرب، اختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة وكتب التاريخ،مات سنة إحدى عشرة وسبعمائة [بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا] جـ١ ص ٢٤٨ رقم : ٤٥٧

قال الراعي[١]:

هنّ الحرائرُ لا ربّاتُ أخمرةٍ سودُ المحاجر لا يقرأن بالسُّوَرِ"[٢]

والسورة من القرآن عرفت منذ نزول الوحي على النبي – صلى الله عليه وسلم- بمكّة، وفي القاموس: "والسورة من القرآن معروفة"[٣]، ومعناها الرفعة، لإجلال القرآن.[٤] وعلاقتها بما سبق من المعاني اللغوية واضحة؛ فكلُّ ما سبق من معاني العلوّ والشرف والمنزلة الرفيعة والحسن يصلح لها، للتّوافق في المعنى. قال أبو عمرو الدَّاني[٥]: " فأمَّا السورة فسُمِّيت بذلك لأنها يرتفع فيها منزلة على منزلة كسورة البناء، وقيل: سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور..."[٦]. "وقيل:

(١) الراعي: هو عُبيد بن حصين،كان من رجال العرب ووجوه قومه،وكان مع ذلك بذيّاً هجّاءً لعشيرته، قالوا عنه :كان فحل مضر حتى ضغمه الليث؛ يعنون جريراً في قوله: فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا. من قصيدته التي مطلعها : أقلِّي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا . انظر طبقات فحول الشعراء، جـ ٢ ص ٤٣٧ و ص ٥٠٢-٥٠٣

(٢) لسان العرب جـ٣ ص٢١٤٦ والبيت من قصيدة مطلعها:

يا أهل ما بال هذا الليل في صفر يزداد طولاً وما يزداد من قصرِ [شعر الراعي النميري وأخباره، جمعه: نصر الحاني، راجعه: عز الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق –دمشق١٣٨٣هـ] ص٨٧ وفيه تلك الحرائر بدلاً عن هنّ الحرائر.

(٣) القاموس المحيط ص٨١٧

(٤) معجم تهذيب اللغة جـ٢ ص١٥٩٤

(٥) أبو عمرو الداني: هو عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي المعروف بابن الصيرفي ولد سنة ٣٧١هـ رحل في طلب العلم للمشرق والقيروان والأندلس ثم استوطن دانية وإليها نسبته، أحد الأئمة في علوم القرآن؛ توفي سنة ٤٤٤هـ. [انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة- بيروت١٤٠٨هـ] جـ١ ص٤٠٦ رقم: ٣٤٥

(٦) البيان في عدّ آي القرآن ، أبو عمرو الداني الأندلسي، تحقيق :غانم قدوري الحمد، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق- الكويت، ١٤١٤هـ ، ص١٢٤-١٢٥

لتركيب بعضها على بعض من التَّسور بمعنى التصاعد والتركب ومنه ﴿ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾ص: ٢١ "[١] والله أعلم.

* تعريف السُّورة اصطلاحاً:

قال الجعبريّ[٢]:**حدُّ السورة قرآنٌ يشتمل على آيٍ ذوات فاتحة وخاتمة،** وأقلُّها ثلاثُ آيات.[٣] " وقال غيره: السورة: الطائفةُ [٤] المترجمة توقيفاً، أي: المسمَّاة باسمٍ خاصٍّ بتوقيفٍ من النَّبي – صلى الله عليه وسلم –"[٥].وقيل : السورة : "طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع".[٦]

وجميع التعاريف السّابقة متقاربة وقد زاد بعضهم على بعض. والسورة من القرآن معروفة منذ عهد النبي – صلى الله عليه وسلم- كما سبق، والبسملة فاصلة بين السورة والتي تليها خلا الأنفال والتوبة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي،تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٧هـ ، جـ١ ص١٧٣

(٢) الجعبري: هو إبراهيم بن عمر، الإمام العالم المقرئ،شيخ بلد الخليل – عليه السلام- في زمانه،له شرح للشاطبية، وشرح الرائية، وقصيدة لامية في القراءات العشر،وأخرى في الرسم، وأخرى في العدد، تخرج به جماعة.[معرفة القراء الكبار جـ٢ ص٧٤٣]

(٣) البرهان للزركشي جـ١ ص٢٦٤، والإتقان جـ١ ص١٧٣

(٤) الطائفة أي العدد من الآيات

(٥) الإتقان جـ١ ص١٧٣

(٦) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ط٣، جـ١ ص٣٥٠

وقد عرّفها الطاهر بن عاشور- رحمه الله – بتعريف أشمل فقال : " السورة : قطعة من القرآن معيّنة بمبدأ ونهاية لا يتغيران،مسمّاة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تامّ ترتكز عليه معاني آيات السورة."[١] وقال :"تسمية القطعة المعيّنة من عدة آيات [في] القرآن سورةً من مصطلحات القرآن، وشاعت تلك التسمية عند العرب حتى المشركين منهم... وقد جاء في القرآن تسمية سورة النّور باسم سورة ، فقال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ النور: ١ أي هذه سورة "[٢]

* **تنبيــه** :

ومما يتصل بموضوع التناسق ما يطلقه بعض علماء عصرنا من المصطلحات مثل : المقطع، والمحور، وهذا بيانها :

تعريف المقطع :

* المقطع في اللغة:

قال ابن فارس: ومُنْقَطَعُ الرّمل ومَقْطَعُهُ: حيث ينقطع. وقال: والقِطْعُ بكسر القاف: **الطائفة من الليل كأنه قطعة.**[٣]

(١) التحرير والتنوير ، المجلد الأول ص٨٤

(٢) المصدر السابق

(٣) معجم مقاييس اللغة ص ٨٦٢

* **المقطع في الاصطلاح:**

هو مجموعة الآيات المتتالية المترابطة في السورة الواحدة والتي يجمعها موضوع واحد والذي يشكل عنصراً من عناصر الموضوع الكلي.

تعريف المحور :

* **المحور في اللغة:** قال ابن فارس: الحاء والواو والراء ثلاثة أصول، أحدها: لون. والآخر:الرجوع. والثالث: أن يدور الشيء دوراً. وبعد أن تكلم عن الأصل الأول والثاني قال: والأصل الثالث: المِحْوَر: **الخشبة التي تدور فيها المحالة.**[(١)]

* **المحور في الاصطلاح:** المحور - إن أطلق – يقصد به " **المحور الرئيس**" : **وهو المقطع الذي يدلُّ على موضوع السورة الرئيس الذي تدور عليه مقاطعها المختلفة.** وإن قيّد بالمقطع فالمعنى المقطع الذي تدور آياته حول جزء من الموضوع الرئيس. وبهذا تعلم أن لمقاطع السورة الواحدة موضوعات فرعية يجمعها موضوعٌ رئيسٌ واحدٌ في الغالب أو أكثر من موضوعٍ رئيسٍ أحياناً. ولها أيضاً محورٌ رئيسٌ، وهو الذي يسميه الفراهي – رحمه الله – بالعمود أو عمود السورة وقد عرفه بقوله: " هو جماع مطالب الخطاب، فإليه مجرى الكلام وهو المحصول والمقصود منه ".[(٢)]

(١) المصدر السابق ص ٢٦٩ ومعنى المحالة : البكرة . انظر مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرّازي، تحقيق : يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤٢٠ هـ، ص ٢٩٩

(٢) دلائل النّظام ص ٧٣

وهو عبارة عن " **الأمور الكلية التي لا تتعلّق بوقت وزمان** "[١] وإنما تتعلق بالعقائد والقيم وما فيه هداية الناس وسعادتهم.

يقول ابن عاشور[٢]: " هذا وإنَّ القرآن كتابٌ جاء لهدي أمة والتشريع لها، وهذا الهدي قد يكون وارداً قبل الحاجة، وقد يكون مخاطباً به قومٌ على وجه الزَّجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطباً به جميعُ من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكلِّيات تشريعيَّة وتهذيبيَّة، والحكمة في ذلك أن يكون وعي الأمَّة لدينها سهلاً عليها،..."[٣]

و ما يعنيه الفراهي – رحمه الله - بالعمود هو **الموضوع الذي تدور عليه السورة بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً**.[٤] أي المحور الرئيس للسورة.

وللسورة سوى ذلك محاور أخرى متناسقة تدور حول المحور الرئيس. وهي التي يسميها الفراهي "معالم السورة".[٥]

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢

(٢) ابن عاشور: هو محمد بن الطاهر بن عاشور، شيخ جامع الزيتونه بتونس، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف. الأعلام جـ٦ ص١٧٤

(٣) التحرير والتنوير ص ٥٠

(٤) انظر مفردات القرآن ص ٢٨

(٥) انظر دلائل النّظام ص ٨٠

ثالثاً : المرادُ بالتّناسق الموضوعيّ في السّورة

* **المراد بالتّناسق الموضوعيّ في السّورة** : بيان ترابط المعاني في نظم آيات محاور السورة بما يُظهرُ موضوعها الرّئيس أو موضوعاتها الرّئيسة، وَفق رؤية منهجية محدّدة.

وقد قيّدتُ ذلك بعبارة : (بما يظهر موضوعها الرّئيس أو موضوعاتها الرّئيسة) لسببين مهمّين : **الأول** : لأنّ التّوصّل إلى موضوع السُّورة الكلّي من خلال دراسة التّناسق بين الآيات هو الثمرة المرجوّة لمثل هذه الدّراسة. فبيان التّناسق وسيلةٌ، والتّوصّل إلى موضوع السّورة الرّئيس نتيجةٌ.حيث إنّ التَّناسق في آيات السُّورة الواحدة متّفقٌ عليه إذ ليس في كتاب الله المجيد تنافرٌ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء: ٨٢

الثّاني : لا يلزم أنّ لكلِّ سورةٍ موضوعاً واحداً، بل قد يكون للسّورة الواحدة أكثرُ من موضوعٍ، وهذا فرقٌ مهمٌّ بين التّناسق الموضوعي والوحدة الموضوعيّة؛ لأنّ القول بأنّ لكلِّ سورةٍ موضوعاً واحداً فيه نظر. وقد تختلف الأفهام في تحديد هذا الموضوع، وقد يصعب التّوصل إليه في كلّ سورة من سور القرآن دُون تكلّف. يقول الشّاطبي(١) –رحمه الله– :".. فسورة البقرة مثلاً كلامٌ واحدٌ باعتبار النّظم، واحتوت

(١) الشاطبي: هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أصولي، صاحب الاعتصام والموافقات، توفي سنة تسعين وسبعمائة. انظر [درة الحجال في أسماء الرّجال "ذيل وفيات الأعيان"، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النّور، دار التراث– القاهرة ، والمكتبة العتيقة – تونس.] جـ ١ص ١٨٢

على أنواع من الكلام بحسب ما بثّ فيها... **وسورة (إقرأ) نازلةٌ في قضيتين**: الأولى إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾العلق: ٥ والأخرى ما بقي من السورة... وسورة المؤمنين نازلةٌ في قضيَّةٍ واحدةٍ وإن اشتملت على معانٍ كثيرة."(١)

ويؤكّد سيّدُ قطب – رحمه الله – هذا المعنى فيقول: " يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أنّ لكلّ سورة من سوره ... **موضوعٌ رئيس، أو عدّةُ موضوعات رئيسة** مشدودة إلى **محورٍ خاص**"(٢).

ولا شكَّ أنَّ الحديث عن الوحدة الموضوعية يراعي بدرجة كبيرة تسلسل الموضوعات الفرعية التي تكوّن في مجموعها موضوعاً شاملاً واحداً، أمَّا الحديث في التناسق الموضوعي فإنَّه إلى جانب ذلك لا يستغني عن دراسة اللطائف البلاغية والنكت الجمالية التي تكوّن روابط هذه الوحدة وتشدُّها وتقويها.

وأضفتُ: (وفق رؤية منهجية محدّدة) لأبيّن أنّ هذا التّناسق لا يتمّ التّوصّل إلى معرفته بمجرد النّظرة الشّموليّة لمعاني الآيات فحسب، ولا بمجرد الوقوف على المناسبات فقط، بل يتطلّب دراسة التّفسير التّحليلي للآيات، ومعرفة أسباب نزولها - إن وجدت-، وناسخها ومنسوخها، وبيان وقت نزولها، ومكيّها ومدنيّها، والأحداث – ذات العلاقة – الحاصلة وقت النّزول أو قبله،..الخ. مع تكرار التأمّل والتّدبّر، للوصول إلى ما ترشد إليه الآيات من هداياتٍ قرآنيّة يُستفاد منها في كلِّ حين لحياةٍ سعيدةٍ في الدّنيا والآخرة . ويؤيّد هذا قول الشّاطبي – رحمه الله-: "..

---

(١) الموافقات في أصول الشّريعة، أبو إسحاق إبرهيم بن موسى الشّاطبي، دار المعرفة- بيروت، ١٣٩٥هـ جـ ٣ ص ٤١٥-٤١٦

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق – بيروت. ١٣٩٧هـ جـ١ ص ٢٧- ٢٨

فاعتبار جهة النّظم في السورة لا يتمّ به فائدة إلاّ بعد استيفاء جميعها بالنّظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود. كما أنّ الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكمٍ ما لا يفيد إلاّ بعد كمال النّظر في جميعها."[١]

(١) الموافقات جـ٣ ص٤١٥

رابعاً : ثمرةُ دراسة التّناسق الموضوعيّ في السُّورة

١- **حصولُ اليقين بأنّ نظم الآيات القرآنية غايةٌ في الدِّقةِ والإحكام والاتِّساق**؛ من حيث جودة السبك وإحكام السرد وسموُّ المعاني وروعتها.[١]

قال الزمخشري[٢] – رحمه الله -: "من حقِّ مفسِّر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاءَ النَّظم على حسنه، والبلاغةِ على كمالها، وما وقع به التَّحدِّي سليماً من القادح، وإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو مِن تعاهد النّظم والبلاغة على مراحل"[٣].

٢- **الوقوف على الحكمة في نظم الآيات واتِّساقها**؛ "فقد تنزل الآيات على الأسباب الخاصة، وتوضع مع ما يناسبها من الآي العامة، رعايةً لنظم القرآن وحسنِ السِّياق"[٤].

٣- **من مكنون التَّناسقِ تبرزُ حكمٌ ولطائفُ تربط بين خرزات المعاني وخيوط الألفاظ مكوِّنةٌ مناراتٍ يسير على معالمها المهتدون**. كما قال الرّازي في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعةٌ في الترتيبات والروابط"[٥]. **ولاشكَّ أنَّ**

---

(١) انظر الوحدة القرآنية، ص٣٠

(٢) الزمخشري : هو محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، أبو القاسم، صاحب التّصانيف، كان معتزلياً مجاهراً بالاعتزال داعياً إليه، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. انظر [الجواهر المضية في طبقات الحنفية،محي الدين عبد القادر بن محمد القرشي، تحقيق : عبد الفتاح الحلو، شركة عيسى البابي الحلبي- مصر، ١٣٩٩ هـ]جـ٣ ص ٤٤٧

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، شركه مصطفى الحلبي و أولاده- مصر ، ١٣٩٢هـ جـ١ ص١٨٩

(٤) الإتقان جـ١ ص١١٣ والأولى أن يقول رعاية للمعنى ثم رعاية لنظم القرآن...

(٥) مفاتيح الغيب جـ٤ ص١١٠

إدراك التناسق الموضوعي في السورة يقود إلى ما ترشد إليه من هدايات يستعين بها المرء على أمور دينه ودنياه. يقول الفراهي: " وبالجملة إذا نظرت في نظم الآيات ومطالبها، والسور وعمدها، هديت إلى نظم الشرائع والأحكام"(١). وهذا هو المقصود الأعظم من دراسة آيات القرآن؛ لأن "الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمة بأسرها؛ فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان ونبذ العبادة الضالة واتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طريق النجاح وتزكية نفوسهم ."(٢)

٤- **التوصّل إلى موضوع السّورة الرّئيس، أو موضوعاتها الرّئيسة**، والوقوف على المنهج القرآني المحكم في الحديث عن هذه الموضوعات، الموصل إلى إظهار الهدايات القرآنية المطلوبة، للاستهداء بنورها في واقعنا المعاصر.

٥- **التَّناسق الموضوعيّ من أبرز دلالات الإعجاز القرآني**، ووجودُ هذا التَّناسق بين آيات السّورة مع تناولها أحياناً لقضايا مختلفةٍ؛ كالعقائد والأحكام والقصص والأوامر والنواهي يدلُّ على أنَّ القرآن معجزٌ بنظمه البديع وترتيبه المتناسق ومعانيه الشريفة العظيمة، فالتَّناسقُ في آيات القرآن وسوره قاعدةٌ من قواعد الإعجاز القرآني، ومظهرٌ من مظاهره.وإعجاز القرآن بنظمه وفصاحته وبلاغته هو من أعظم أوجه الإعجاز المتّفق عليها بين العلماء في الكتاب العزيز.(٣) قال ابن عطية :"وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذّاق، وهو الصحيح في نفسه،

(١) دلائل النظام ص٣٦
(٢) التحرير والتنوير ص ٨١
(٣) انظر الإتقان جـ٢ ص ٣٠٧ و ص ٣١٤

وأنّ التّحدّي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه.."[١] وقد جاء في حديث البقاعي عن إعجاز القرآن قوله: "فعلى إعجازه دليلٌ إجماليٌّ وهو أنَّ العرب عجزت عنه وهو بلسانها فغيرهم أحرى. ودليلٌ تفصيليٌّ مقدِّمتُه التَّفكر في خواص تركيبه، ونتيجتُه العلمُ بأنّه تنزيلُ المحيط بكلِّ شيئاً علماً "[٢].

وقال الرّازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ.. ﴾ : "ومن تأمَّل في لطائف نظم هذه السّورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنّه معجزٌ بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجزٌ بسبب ترتيبه ونظم آياته"[٣]. وقد جعل السّيوطي التناسق في الآيات والسّور وجهاً من وجوه الإعجاز ، فقال-رحمه الله-: " الوجه الثالث: حسن تأليفه،والتئام كلمه وفصاحتها، ووجوه إيجازه، وبلاغته"[٤]. كما قسّم دراز –رحمه الله- الإعجاز اللغوي إلى قسمين سماهما: الجمال التوقيعي **والجمال التّنسيقي،** وقسَّم الأخير منهما إلى قسمين: **الأول**: **تناسق الألفاظ** واعتبره القشرة السطحية للجمال القرآني، التي تُعدُّ الخط الأول من خطوط الإعجاز الذي وقع به التحدي للمشاركين أن يأتوا بحديث مثله، وهم أهل الفصاحة والبيان فعجزوا عنه. وشرح السبب فقال: "ما ذاك إلا أنّ فيه منعةً طبيعية كفّت ولا تزال تكفّ أيديهم عنه، ولا ريب أنّ أوّل ما تلاقيك هذه المناعة، فيما صورناه لك من غريب تأليفه في

(١) المحرّر الوجيز ص٢٨

(٢) نظم الدرر جـ١ص١٨٤ وقد نقله البقاعي عن الإمام محمد بن عبد الرحمن المراكشي في شرح نظمه لمصباح ابن مالك في المعاني والبيان كما ذكر.

(٣) مفاتيح الغيب جـ٣ ص١٠٦

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السّيوطي ،دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨هـ، جـ ١ص ٢٣

بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله وآياته، من نظام له سمتٌ وحده، وطابع خاص به، خرج به عن كل نظام تعاطاه الناس أو يتعاطونه."[١]

والثاني: **دلالة هذه الألفاظ على المعاني**. حيث شبه المعاني باللؤلؤة المصونة تحت تلكم القشرة فقال: "فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عما تحته من الكنز الدّفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السرِّ المصون، بل فليت القشرة عن لبِّها، وكشفت الصدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلَّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع."[٢] ثم تحدث في هذا الباب عن جمع القرآن المجيد بين القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى، وقال: "إنّ القرآن الكريم يستثمر دائماً برفقٍ أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني. أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسموها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازاً كله؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها. فليس فيه كلمةٌ إلّا هي مفتاحٌ لفائدة جليلة، وليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى."[٣] ثم جعل التناسق بمثابة الحلية التي تنتظم فيها وجازةُ اللفظ مع وفرة المعنى، فقال: "هذا الذي حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه،

(١) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم – الكويت ، ١٣٩٠هـ. ص ١٠٥

(٢) المصدر السابق ص ١٠٦

(٣) المصدر السابق ص ١٢٧-١٣٠

يضاف إليه أمرٌ آخر، **هو زينة تلك الثروة وجمالها. ذلك هو تناسق أوضاعها**، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحُجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها."(١)

٦- **لاشكَّ أنَّ في إثبات التَّناسق** والتلاؤم بين آيات السورة وإبراز المعاني الرابطة بينها، وانتظامها في صورةٍ متكاملة على نسَقٍ واحدٍ يُبرز موضوعَها الرَّئيس أو موضوعاتِها الأساسيَّة **دليلٌ على أنَّ هذا الكتاب -الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- تنزيلٌ من حكيمٍ حميد**. كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾النساء:٨٢ "فنفي التّنافر والاختلاف عن القرآن المجيد – سُورٍ وآياتٍ- مما يثبت إلاهيَّةَ مصدره، وحقيّةَ تنزيله، ولمثل هذه الغاية، تُوجّه الهمم، وتشحذُ العزائم"(٢).

٧- **التناسق الموضوعي يُعين على اختيار أحسن وجوه التَّفاسير**، مع الحفاظ على روعة البيان وبلاغة الأسلوب، يقول الفراهي -رحمه الله-: " من تدبّر في القرآن ونظمه الحكيم واطّلع على حسن نظامه وإعجاز بلاغته ودقائق حكمته فُتح عليه بابٌ عظيمٌ من المعاني، **وكان على نور عند احتمال التأويلات فاختار منها الحق الواضح** ولم يتردد في نبذ الباطل"(٣) وقد بالغ الفراهي -رحمه الله- في

(١) المصدر السابق ص ١٤٢

(٢) انظر مصابيح الدرر ص٢٢

(٣) دلائل النظام ص ٢٢

هذا حين شرط الاقتصار على وجهٍ واحدٍ صحيحٍ من التأويل فقال: "شرطنا أن نقنع بوجهٍ واحدٍ صحيحٍ ظاهرٍ، ينتظم به الكلام، ولم نجده إلا أحسنها تأويلاً، وأبلغها بياناً ... إنَّ إكثار الوجوه من أكبر الحجب على فهم النِّظام... فإنَّ النَّظم هو الذي يوجهك إلى الوجه الصحيح، والسلف –رحمهم الله– لم يجمعوا وجوهاً بل كلٌّ منهم ذهب إلى أمرٍ واحد. وإنما شاع إكثار الوجوه في الخلف."(١)

٨- **تتبع التناسق في النظم قد يؤدي إلى سعةٍ في المعاني**؛ لأن "المقصود بالترتيب معانٍ جليلةُ الوصف بديعة الرصف عالية الأمر عظيمة القدر"(٢). ويوضح الدكتور محمد عبد الله دراز(٣) –رحمه الله– ذلك فيقول: " تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والأحكام والخلوّ من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دُون كدّ خاطر ولا استعادة حديث... هذا ولو رجعت إليه(٤) كرّة أخرى لَرأيتَك منه بإزاء معنىً جديد، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرّة، وكذلك.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوها عدّة، كلّها صحيح أو محتمل للصحّة، كأنما هي فصٌّ من الألماس يعطيك كلُّ ضلعٍ منه شعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملةً بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى

(١) دلائل النظام ص ٢٥

(٢) نظم الدرر جـ١ ص١٢

(٣) محمد عبد الله دراز : عالم أزهري وفقيه وأديب كان من هيئة كبار العلماء في الأزهر من أشهر مؤلفاته النبأ العظيم ودستور الأخلاق في القرآن، توفي سنة سبعٍ وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية [الترجمة من الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة].

(٤) لعل الضمير يعود إلى النصّ القرآني .

غيرك رأى منها أكثر مما رأيت."[١] وهذا فيه إيضاحٌ لما اشتُبه على الفراهي، فاختلاف التَّنوع في التفسير لا خلاف فيه، إنما المردود هو اختلاف التضادّ .

٩- **دراسة التناسق تعين على التلذذ بجمال القرآن وعلى مزيد من التدبر والتفكر في آياته،** خصوصاً حينما تبدو أجزاء الكلام بعضها آخذٌ بأعناق بعض، حيث يقوى بذلك الارتباط وتكون الآيات كالكلمة الواحدة متَّسقة المعاني منتظمة المباني.[٢]

وحينما تتأمل الآيات بهذا المنظار" فترى السورة القرآنية في تناولها لشتى المواضيع المتداخلة والمسائل المتشابكة والمشاهد المتراكبة والمناظر المتآلفة تشبه الحديقة التي تشتمل على مختلف الأزهار ومتنوع الورود في مختلف الصور والهيئات"[٣] تدرك حينئذٍ أن القرآن العظيم "عرْضُه كأسلوبه من خصائصه القرآنية الفريدة التي تختص به وحده"[٤] ويؤكد هذا المعنى الفراهي–رحمه الله– فيقول: "زيادة الشوق والمحبة واللذة إنما يحصل بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة الاستدلال".[٥]

١٠- تتطلب دراسة التناسق الموضوعي الوقوف على مقاصد السورة واسمها وأهدافها وبيان ما اختصَّت به، فتظهر بذلك موضوعات القرآن في صورة مؤطرة؛ ولهذا نبّه العلماء على ضرورة الوقوف على هذه المتطلبات كما قال الزركشي – رحمه الله–:

---

(١) النبأ العظيم ص ١١٧

(٢) انظر البرهان للزركشي جـ١ ص٣٦

(٣) دلالة أسماء القرآن الكريم من منظور حضاري ص ١٨١–١٨٢

(٤) المصدر السابق ص ١٨٢

(٥) دلائل النظام ص ٢٦–٢٧

"وينبغي النَّظر في وجه اختصاص كل سورة بما سُمِّيت به"(١). ويرى سيّد قطب – رحمه الله-: " **أنّ لكلٍّ سورة من سور القرآن جوٌّ خاص يظلِّل موضوعاتها كلّها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معيّنة، تحقّق التّناسق بينها وفق هذا الجوّ.**"(٢)

١١- **التناسق الموضوعي يحسِّن من نظرتنا لموضوعات القرآن، ويفكُّ عنها الارتباط التاريخي ليصبح الاهتداء بها في معترك الحياة المعاصرة ضرورةً من الضرورات،** خصوصاً في مثل واقعنا المرير الذي كثر فيه الاختلاف والشقاق. يقول الفراهي: " إنّا وقعنا في اختلافات شديدة في تأويل القرآن، ثم اختلفت عقائدنا وقلوبنا وإلفتنا، والنظم يرد الأمور إلى الوَحدة، وينفي [اختلاف التضادّ المؤدي إلى الفرقة في قضايا كليَّة]. والاتفاق والإئتلاف أعظم مطلوب [للوصول] إلى أعلى مدارج الإنسانية"(٣).

ولعلّ ما يعنيه الفراهي هنا هو الاتّفاق على الموضوعات الرئيسة، أما الأجزاء التفصيلية فالاختلاف فيها حاصلٌ، وغالبه اختلاف تنوّع لا تضادّ ممّا يزيد في المعنى قوّةً واتّساعاً، وإنما ينعي الفراهي –رحمه الله– على من يشتغل بالمباحث التفصيلية، ويعرض عن موضوعات القرآن الأساسيّة التي تحتاجها الأمة لنهضتها

(١) البرهان جـ١ ص٢٧٠
(٢) في ظلال القرآن، ص٢٧-٢٨
(٣) دلائل النظام ص٣٩ ومابين المعقوفتين الأولى بدلاً عن قوله:" وينفي تشاكس المعاني" والثانية: من مصابيح الدرر ص٧٩ ليستقيم المعنى وفي الأصل (للنيل)

وسموّها. وقد بيّن هذا في دلائل النظام فقال: " لا بأس من تكثير وجوه الحكمة في أمرٍ واحد؛ وذلك ممّا يدلّ على ثراء المعنى في القرآن العزيز."[١]

(١) دلائل النظام ص٧٩

الفصل الأول

اسمُ السّورة وفضلُها وعددُ آياتها وتاريخُ نزولها

ويشمل أربعة مباحث :

المبحث الأول : اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.

المبحث الثاني : ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها من أحاديث.

المبحث الثالث : عدد آيات السورة وأقوال العلماء في ذلك.

المبحث الرابع : تاريخ نزول السورة الكريمة.

المبحث الأول: اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء

سورة " الفتح " تُعرف بهذا الاسم منذ عهد النّبي - صلّى الله عليه وسلّم-، ولا يُعرف لها اسمٌ آخر، وقد سمّيت في كلام الصحابة- رضي الله عنهم- بهذا الاسم[١]؛ ففي الصحيح عن معاوية بن قرّة[٢] عن عبد الله بن مُغَفَّل[٣] قال: " قرأ النّبي- صلّى الله عليه وسلّم- يوم فتح مكّة **سورة الفتح** فرجّع فيها، قال معاوية: لو شئت أن أحكيَ لكم قراءة النَّبي- صلى الله عليه وسلم- لفعلت"[٤] وفي رواية أخرى قال: " رأيت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكّة على ناقته وهو يقرأ **سورة الفتح** يرجّع، ولولا أن يجتمع النّاس حولي لرجّعت كما رجّع".[٥]

---

(١) انظر التحرير والتنوير، جـ٢٥ ص ١٤١

(٢) معاوية بن قرة: هو معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس البصري، ثقة ، مات سنة ثلاثة عشرة ومائة، وهو ابن ست وسبعين سنة . [تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف النظامية- الهند، ١٣٢٧هـ جـ١٠ص ٢١٦رقم: ٣٩٩]

(٣) عبد الله بن مُغَفَّل: هو عبد الله بن مُغَفَّل بن غنم المزني رضي الله عنه، صحابي جليل، شهد بيعة الشجرة وهو أحد البكّائين في غزوة تبوك، سكن البصرة، ومات بها سنة تسع وخمسين [الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار صادر- مصر، ١٣٢٨هـ. جـ٢ص٣٧٢، رقم: ٤٩٧٢]

(٤) صحيح البخاري، ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ رقم: ٤٨٣٥

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بابٌ: أين ركز النبي – صلى الله عليه وسلم- الراية يوم الفتح، رقم: ٤٢٨١

وفي حديث سهل بن حُنيف[١] أنه قام يوم صِفِّين[٢] فقال: أيّها النّاس! اتّهموا أنفسكم، لقد كنّا مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية[٣] ،ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصّلح الذي كان بين رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطّاب، فأتى رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- فقال: يا رسول الله! ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قال: "بلى" ، قال: أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار: قال: "بلى"، قال: ففيم نعطي الدنيّة في ديننا، ونرجعُ ولما يحكمِ الله بيننا وبينهم؟ فقال: "يا ابن الخطّاب! إنِّي رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا"، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر! ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيّة في ديننا، ونرجع ولماّ يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب! إنّه رسول الله ولن يضيّعه الله أبداً، قال: فنزل القرآن

---

(١) سهل بن حنيف : هو سهل بن حنيف بن واهب بن العكيم الأنصاري رضي الله عنه، صحابي جليل، شهد المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم- واستخلفه عليٌ على البصرة بعد الجمل، مات سنة ثمانٍ وثلاثين للهجرة .انظر [الإصابة جـ٢ ص٨٧ رقم ٣٥٢٧]

(٢) صِفِّين: بكسرتين وتشديد الفاء، موضع بقرب الرقّه على شاطئ الفرات من الجانب الغربي [معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر- بيروت، بدون تاريخ . جـ٣ ص٤١٤]

(٣) الحديبية بضمّ الحاء وفتح الدّال وياء ساكنة وباء مكسورة ،وياء اختلفوا فيها فمنهم من شدّدها ومنهم من خفّفها، فروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: الصّواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة. وهي قرية تقع على بعد٢٢ كيلاً غرب مكة على طريق جدة القديم، وهي خارج الحرم غير بعيدة منه [معجم البلدان جـ٢ ص ٢٢٩]وانظر [معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع – مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.] ص ٩٤

على رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيّاه، فقال: يا رسول الله! أو فتحٌ هو؟ قال:"نعم" فطابت نفسه ورجع.(١) والأحاديث في هذا كثيرة.

وقد ذُكرت سورة الفتح في المصاحف وكتب التفسير والحديث والسِّيَر بهذا الاسم، ولم تُذكر بأيِّ اسمٍ آخر. لكن بعض الصحابة قد يعبر عن السورة بفاتحتها بدلاً من اسمها، كما في حديث أبي برزة(٢) -رضي الله عنه – أنّ النّبي- صلّى الله عليه وسلّم- قرأ في الصبح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (٣).

وسببُ تسميتها بهذا الاسم ظاهرٌ، فقد افتتحت السّورة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾(٤). وتضمَّنت السورة حكايةَ فتحٍ منحهُ الله للنبي- صلّى الله عليه وسلّم-(٥). وتكرّر لفظ الفتح فيها أربع مرات.(٦)

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية رقم: ١٧٨٥

(٢) أبو برزة الأسلمي: اختلف في اسمه واسم أبيه وأصح ما في ذلك قول من قال اسمه نضلة بن عبيد وهو قول أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين .. نزل البصرة وله بها دار وأتى خراسان فنزل مرو ومات بالبصرة .. سنة ٦٠ وقيل بل سنة أربع وستين [الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي، بهامش الإصابة جـ٤ ص٢٤] وانظر الإصابة جـ٤ ص١٩ رقم ١٢١ وقد ذكره بالدال (أبو بردة الأسلمي).

(٣) المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي،المكتب الإسلامي- بيروت ، ١٤٠٣هـ كتاب الصلاة ، باب القراءة في صلاة الصبح جـ٢ ص١١٨رقم:٢٧٣٢

(٤) انظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.تحقيق: محمد علي النجار، وزارة الأوقاف المصرية- القاهرة، ١٤١٦ هـ. جـ ١ ص ٤٣٢

(٥) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤١

(٦) تكرر لفظ الفتح في السّورة مرتين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ والثالثة في قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَـٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾.

وقيل : سُمِيّت هذه السّورة الكريمة بالفتح " لدلالتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق"[(١)]. وهذا على المعنى الشامل للفتح، " وقيل: فتحُ الله تعالى له بالإسلام والنبوة، والدعوة بالحجة والسيف. ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كلها، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه "[(٢)].وجعل بعضهم هذا الفتح- بمعناه المعنوي – هو سبب غفران ذنوبه – صلى الله عليه وسلّم –"وقيل: بل عنى ما فتح على النّبي من العلوم والهدايات التي هي ذريعةٌ إلى الثواب، والمقامات المحمودة التي صارت سبباً لغفران ذنوبه"[(٣)]

ومع إقرارنا بأنّ هذه المعاني الجميلة حقٌّ "إلاّ أنَّ سبب نزول الآية، الذي حفظ الثقات زمنه، بيّن المراد من الفتح بياناً لا خلاف معه"[(٤)] وأنه صلح الحديبية، فهو الفتح الحقيقي الذي ترتب عليه بعد ذلك انتشار الإسلام ودخول اناس في دين الله أفواجا.

---

(١) تفسير المهائمي المسمى " تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن"، علاء الدين علي بن أحمد المهائمي. تحقيق: أحمد فريد المزيدي، كتاب ناشرون- بيروت ١٤٣٢هـ جـ٣ ص٢٧٨

(٢) البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي عناية: عرفات القشا حسونه، المكتبة التجارية (مصطفى أحمد الباز)- مكة المكرمة، بدون تاريخ جـ٩ ص٤٨٣

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٢١

(٤) تفسير القاسمي، المسمى " محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، علق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت ١٣٩٨هـ، جـ١٥ ص٦٣ ، وسيأتي بيان معنى الفتح والمراد به في السورة الكريمة لاحقاً .

المبحث الثاني : ما ورد في فضل سورة الفتح أو بعض آياتها من أحاديث

لقد دلّت الأدلّة على خيريَّة بعض والآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ البقرة: ١٠٦ ومنها الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي وردت في فضل بعض الآيات والسّور، وهي مبثوثة في كتب السنة المطهّرة وفي كتب فضائل القرآن، وكلّها تدلّ دلالةً واضحةً على فضل بعض السور والآيات.

وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في فضل سورة الفتح، أو في فضل بعض آياتها، ومنها :

*** أولاً : ما ورد في فضل سورة الفتح :**

١- أخرج البخاريّ[1] في صحيحه، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطّاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطّاب عن شيءٍ فلم يجبه رسولُ الله- صلّى الله عليه وسلّم-، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطّاب: ثَكِلَتْ أُمُّ عمر[2]،

(١) البخاريّ: هو إمام الدنيا وحافظ الزمان محمد بن إسماعيل البخاري أمير المؤمنين في الحديث صاحب أصحّ كتاب مصنّف، علَم مشهور، توفي سنة ست وخمسين ومائتين . انظر[سير أعلام النبلاء جـ١٢ ص ٣٩١]

(٢) ثكلت أم عمر: " الثّكِل: فقدان المرأة ولدها، فكأنه دعا على نفسه بسبب ما وقع منه من الإلحاح، ويحتمل أن يكون لم يرد الدّعاء على نفسه حقيقة، وإنّما هي من الألفاظ التي تقال عند الغضب من غير قصد معناها" [فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مكتبة الرياض الحديثة- الرياض. بدون تاريخ جـ٨ ص٥٨٣]

نزرتَ(١) رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- ثلاث مرّاتٍ كلّ ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحرّكتُ بعيري ثمّ تقدّمتُ أمام النّاس، وخشيتُ أن ينزل فيّ القرآن، فما نَشِبْتُ(٢) أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- فسلّمت عليه فقال:" **لقد أنزلت عليّ الليلة سورةٌ لهي أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾(٣)**

وهذه المحبة تعود إلى البشائر والفضائل العظيمة التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة، وقد تحقّقت. فقد روى سعيد بن منصور(٤) في سننه(٥) بإسنادٍ صحيحٍ(٦) عن الشّعبي(٧)في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال:

---

(١) نزرت: بتخفيف الزاي ويجوز تشديدها أي ألححت عليه [تفسير غريب الحديث، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة- بيروت. بدون تاريخ ص٢٣٦]

(٢) فما نشبت: أي لم تمكث، وأصل النشوب التعلّق، فكأنّه قال: لم يتعلق بشيء غير ما ذكر [المصدر السابق ص ٢٣٨]

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ رقم: ٤٨٣٣ قال في الفتح: هذا السياق- أي عن زيد بن أسلم عن أبيه- صورته الإرسال، لأن أسلم لم يدرك زمان هذه القصّة، لكنّه محمولٌ على أنه سمعه من عمر، بدليل قوله في أثنائه:" قال عمر: فحركت بعيري.. الخ" [فتح الباري جـ٨ ص٥٨٣]

(٤) سعيد بن منصور: هو سعيد بن منصور بن شعبة، الخراساني، أبو عثمان المروزي، نزيل مكة، ثقة ثبت، مات سنة سبع وعشرين ومأتين. [تهذيب التهذيب جـ٤ ص ٨٩ رقم: ١٤٨]

(٥) سنن سعيد بن منصور، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف د. سعد الحميّد والكتاب قيد الطبع، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح، رقم:١٩٩٨ وانظر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق: سيد إبراهيم ، دار الحديث- القاهرة ، ١٤٢٨هـ جـ ٤ ص ١٢٦

(٦) قاله ابن حجر في الفتح جـ٧ ص٤٤٢

(٧) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمرو الكوفي ، ثقة مشهور، مات لتسع بعد المائة، وله نحو من تسعين سنة، انظر[تهذيب التهذيب جـ٥ ص٦٥ رقم: ١١٠]

صلح الحديبية، وغفر له ما تقدّم وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرّضوان، وأطعموا نخيل خيبر وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله(١).

ومن فضل هذه السّورة المباركة أنها طيّبت خاطر المسلمين، وفرّجت الحزن والكآبة التي أصابتهم بسبب الصلح الذي كان بينهم وبين المشركين.

ففي حديث سهل ابن حُنيف- الذي سبقت الإشارة إليه في المبحث الأول- قال: فنزل القرآن على رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيّاه، فقال: يا رسول الله! أوَ فتحٌ هو؟ قال: "نعم" **فطابت نفسه** ورجع.

ومما دلّ على فضل هذه السورة أنّ رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- كان يقرؤها في الفتوح ،فقد قرأها في الحديبية :

ففي روايةٍ أخرى للحديث السّابق قال: فنزلت سورة الفتح، **فقرأها رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- على عمر إلى آخرها**، قال عمر: يا رسول الله، أوَ فتحٌ هو؟ قال: "نعم"(٢). وقد قرأها يوم فتح مكّة :

ففي الصحيح أنّ عبد الله بن مغفَّل قال: رأيت رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- يوم فتح مكّة، وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح(٣).

ومما دلّ على فضلها كذلك أنها أدخلت السّرور على النّبي- صلّى الله عليه وسلّم-.

(١) فتح الباري جـ٧ ص٤٤٢ ، وقد فات الشعبي – رحمه الله - ذكر فتح مكة .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر رقم: ٣١٨٢

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن باب القراءة على الدابة، رقم :٥٠٣٤

فعن ابن مسعودٍ[١]- رضي الله عنه- قال: لما أقبل رسول الله من الحديبية جعلت ناقته تثقل، فتقدمنا فأنزل عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فأدركنا رسول الله وبه من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنها نزلت عليه ... الحديث[٢]

*** ثانياً: ما ورد في فضل بعض آياتها :**

١- ما ورد في فضل قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ...الآيات ﴾ الفتح:١-٥

أخرج مسلم[٣] عن قتادة[٤] أن أنس بن مالك[٥] حدثهم قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الفتح:١-٥ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر

---

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، الصحابي الجليل-رضي الله عنه- اسلم قديماً وهاجر الهجرتين وصلى القبلتين، وشهد بدر والمشاهد بعدها، ولازم النبي- صلى الله عليه وسلم – وحدث عنه بالكثير، قال – رضي الله عنه- : لقد رأيتني سادس ستة وما على الأرض مسلم غيرنا، توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ودفن بالبقيع. انظر [أسد الغابة جـ٣ ص٣٨١ و الإصابة جـ٢ ص٣٦٨ رقم: ٤٩٥٤]

(٢) دلائل النبوّة جـ٤ ص١٢٠ وفي المسند جـ٧ ص٤٢٦ رقم: ٤٤٢١ بنحوه وفيه : " فجئت بها النبي – صلى الله عليه وسلم- فركب مسروراً وكان النبي- صلى الله عليه وسلم- إذا نزل عليه الوحي اشتد ذلك عليه ... الحديث . قال محققو المسند : إسناده حسن.

(٣) مسلم: هو الإمام الكبير الحافظ المجوّد الحجّة الصادق، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح، علم مشهور، توفي سنة إحدى وستين ومائتين. [انظر سير أعلام النبلاء جـ١٢ ص٥٨٧]

(٤) قتادة: هو قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، ولد أكمه، مات سنة سبع عشرة ومائة، وله خمس وخمسون سنة. [تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣٥١ رقم:٦٣٥]

(٥) أنس بن مالك: هو أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري – رضي الله عنه- خدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عشر سنين، وهو من المكثرين في الرواية عن النبي- صلى الله عليه وسلم-، اختلف في وفاته وعمره، قال ابن الأثير: أكثر ما قيل في عمره عند الهجرة عشر سنين وأكثر ما قيل في وفاته سنة ٩٣ فيكون له على هذا مائة سنة وثلاث سنين. أنظر [أسد الغابة جـ١ ص٢٩٤ رقم: ٢٥٨ الإصابة جـ١ ص٧١ رقم: ٢٧٧]

الهدي بالحديبية، فقال:" لقد أنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدّنيا جميعاً "[١] ، وفي هذا الحديث أنه قد يعبّر بلفظ (آية) عن بضع آيات متتاليات.

٢- ما ورد في فضل قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾:

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال : الحديبية. قال أصحابه : هنيئاً مريئاً فما لنا ؟ فأنزل الله ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾..الحديث[٢].

(١) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : مجموعة من العلماء، بإشراف : د. عبد الله التركي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٢٩هـ ،جـ ١٩ ص ٣٦٩ رقم : ١٢٣٧٤ و صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية رقم: ١٧٨٦

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ١٩ ص ٢٥٧ رقم: ١٢٢٢٦ و صحيح البخاري ،كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية رقم:٤١٧٢

المبحث الثالث: عدد آيات السورة وأقوال العلماء في ذلك

إنّ من رحمة الله بعباده أن أنزل القرآن المجيد ليكون منهاجاً وتبياناً لكلِّ شيء، وهدىً ورحمةً للمؤمنين، من اعتصم به هُدي إلى صراطٍ مستقيم، ومن أعرض عنه ضلّ وغوى.

وقد تكفّل الله بحفظه فقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر: ٩.

ومن حكمة الله سبحانه أن سخّر بعض علماء الأمة للاهتمام والعناية بهذا الكتاب العظيم، من خلال قيامهم بإحصاءٍ دقيقٍ لسُوَره وآياته وكلماته وحروفه وفواصله، وكان هذا – بعد توفيق الله عزّ وجلّ – من حرص السّلف الشّديد على صيانة القرآن العظيم من التّحريف بزيادةٍ أو نقصان. ومن أجل ذلك فقد اهتموا بعدّ آيات كلّ سورة، وبيان الاختلاف في عدّ العادّين وسببه. وقد يختلف العدّ لآي القرآن في السّور، بسبب الاختلاف اليسير في إثبات رؤوس الآي، فوثّقوا ذلك كلّه ونسبوه لأصحاب الأمصار المختلفة، وهذا غايةٌ في التّوثيق والضّبط والعناية.

وعدُّ الآيات ليس بدعاً من العمل، أو فضلةً من العلم، بل إنّ له لأصلاً في السنّة المشرّفة، فقد ورد في السنّة ذكرُ الآية والآيتين والعدد من الآيات، وفي ذلك أحاديثُ كثيرةٌ مشهورة. ولا شكّ أنّ معرفة عدد آيات السّور مبحثٌ مهمٌّ لأنّ

"ترتيب الآيات في سورها واقعٌ بتوقيفه - صلّى الله عليه وسلّم- وأمره، من غير خلافٍ في هذا بين المسلمين" (١). ولا مجالَ للقياس فيه(٢).

وبعد أن ذكر أبو عمرو الداني بعض الأحاديث والآثار التي فيها ذكر جمل آي السور بسنده عقّب على ذلك بقوله : " ففي هذه السنن والآثار ... دليلٌ واضحٌ وشاهدٌ قاطعٌ على أنّ مابين أيدينا، مما نقله إلينا علماؤنا عن سلفنا من عدد الآي ورؤوس الفواصل ... على اختلاف ذلك واتّفاقه مسموعٌ من رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- ومأخوذٌ عنه، وأنّ الصّحابة – رضوان الله عليهم- هم الذين تلقوا ذلك منه كذلك، تلقّياً كتلقّيهم منه حروف القرآن واختلاف القراءات سواء، ثم أدّاه التابعون -رحمة الله عليهم- على نحو ذلك إلى الخالفين أداءً، فنقله عنهم أهل الأمصار وأدّوه إلى الأمّة، وسلكوا في نقله وأدائه الطريق التي سلكوها في نقل الحروف وأدائها، من التّمسّك بالتّعليم بالسّماع دُون الاستنباط والاختراع"(٣)

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق: سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي - الدمام ١٤٢٨هـ ص ٧٩

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن، وجاء فيه: قال بعضهم: الصحيح أن الآية إنما تعلم بتوقيف من الشارع كمعرفة السورة. ونقل عن الزمخشري: الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه جـ١ ص٢٠٧

(٣) البيان في عدّ آي القرآن، ص٣٩

* عدد آيات سورة الفتح :

قال الفضل بن شاذان(١):

عدّها عطاء بن يسار(٢) وعاصم الجحدري(٣) ويحيى بن ثابت الذماري(٤) عشرين وتسع آيات، وكذلك عدّها أبيّ بن كعب(٥) و أهل مكّة(٦). ونقل عن شيخه محمد بن عيسى الأصبهاني(٧) قوله : الفتح عشرون وتسع آيات ليس فيها اختلاف.(٨)

---

(١) الفضل بن شاذان:أبو العباس، المقرئ، أحد الأعلام وشيخ الإقراء بالرّي، روى عنه أبو حاتم الرّازي مع تقدمه، وابنه عبد الرحمن ابن أبي حاتم، وقال: ثقة. قال أبو عمر الداني: لم يكن في دهره مثله في علمه وفهمه وعدالته، له كتاب في التفسير وكتاب القراءات وكتاب السنن في الفقه. انظر [الفهرست، محمد بن النديم، دار المعرفة- بيروت ١٣٩٨هـ] ص٣٢٣. وانظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٢٣٤ رقم: ١٣٣

(٢) عطاء بن يسار: هو عطاء بن يسار المدني، إمام فقيه واعظ، ثبت حجة،كبير القدر كان يصوم يوم ويفطر يوم وكان ملازم لمسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مات سنة ثلاث ومائة وقيل مات قبل المائة والله أعلم انظر [سير أعلام النبلاء جـ٤ ص٤٤٩ رقم :١٧٤]

(٣) عاصم الجحدري: هو عاصم بن العجاج أبو مجشر الجحدري من بني قيس بن ثعلبة، يعدّ في البصريين، أجاز إياس شهادته وحده، فقال الرجل: تجيز عليّ شهادة رجل واحد؟ فقال: إنه عاصم، إنه عاصم، إنه عاصم [الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر – بيروت] جـ٧ ص٢٣٥ وانظر [التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، إشراف: محمد عبد المعيد خان، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن-] جـ٦ ص٤٨٦ رقم: ٣٠٦١

(٤) يحيى الذماري: يحيى بن الحارث الذماري، نسبته إلى ذمار قرية باليمن،كان عالماً بالقراءة في دهره، يُقرأ عليه القرآن مات سنة خمس وأربعين ومائة وهو ابن تسعين سنة [الطبقات الكبرى، جـ٧ ص٤٦٣] وانظر معرفة القراء الكبار، جـ١ ص ١٠٦ رقم:٤٠١

(٥) أبي بن كعب : هو أبي بن كعب بن قيس الأنصاري –رضي الله عنه- سيد القراء، وأول من كتب للنبي – صلى الله عليه وسلّم – ، شهد بدراً والمشاهد كلها، مات سنة عشرين وقيل غير ذلك. [الإصابة جـ١ ص١٦ رقم: ٣٢١]

(٦) سور القرآن وآياته وحروفه ونزوله، الفضل بن شاذان الرّازي، صححه وعلق عليه بشير بن حسن الحميري، دار ابن حزم- الرياض١٤٣٠هـ ص٢٨١

(٧) محمد بن عيسى الأصبهاني: هو محمد بن عيسى بن رزين التيمي الرّازي ثم الأصبهاني، المقرء، صنف كتاب الجامع في القراءات، وكتاب في العدد، وكتاب في الرسم، وكان رأسا في النحو، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين [معرفة القراء الكبار جـ١ ص٢٢٣ رقم:١٢٣]

(٨) سور القرآن وآياته ص٢٨١

وقال أبو عمرو الداني : "وهي عشرون وتسع آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف"(١)، وذَكرَ رؤوس الآي في السورة(٢)، وهو موافق للذي في مصحف المدينة النّبوية الصادر عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وموافق لسائر المصاحف التي بين أيدينا اليوم. وهي كالتالي : مبيناً، مستقيماً، عزيزاً، حكيماً، عظيماً، مصيراً، حكيماً، نذيراً، أصيلاً، عظيماً، خبيراً، بورا، سعيراً، رحيماً، قليلاً، أليماً، أليماً، قريباً، حكيماً، مستقيماً، قديراً، نصيراً، تبديلاً، بصيراً، أليماً، عليماً، قريباً، شهيداً، عظيماً. فهي تسع وعشرون آية باتّفاق.

وقد ذكر سورة الفتح أيضاً في باب " ذكر النّظائر من السّور الّلائي يتّفق عدد آيهنّ في قول كلّ واحدٍ من العادّين"(٣). وبيّن نظائرها في العدّ؛ ففي العدّ المدني نظيرتها كوّرت، وفي الشامي نوحٌ وكوّرت، وفي الكوفي الحديد وكوّرت، وفي البصري السجدة والحديد ونوح والتّكوير والفجر(٤).

وذكر أنّه لا نظير لها في عدّ أبي جعفر(٥). قال الناظم:

بالفتح تُمّتْ بالحديد وكوّرت طرفٌ كلَتْ وبها يواقتُ حُمّلِ

(١) البيان في عدّ آي القرآن، ص٢٢٩

(٢) انظر المصدر السابق

(٣) المصدر السابق ص٨٤

(٤) المصدر السابق ص٨٤-٨٦

(٥) المصدر السابق ص٢٢٩ وانظر شرح العلامة المخللاتي المسمّى بالقول الوجيز ص٢٥٩ و أبو جعفر هو: يزيد بن القعقاع المدني أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات، ووثقه يحيى ابن معين والنسائي،كان من العباد، مات سنة سبع وعشرين ومائة، وعاش نيفا وتسعين سنة رحمه الله.[سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٢٨٧] وانظر [معرفة القراء الكبار جـ١ ص٧٢ رقم:٢٨]

وقد جمع الناظم بين سور ثلاث في الرمز هي: الفتح والحديد والتكوير لاتفاقها في العدد، ورمزها (طرف كلت) الطاء بتسعة، والكاف بعشرين وهو عدد آيات كلٍّ من السور الثلاث والبيت شاهد على نظائر الفتح في الكوفي[(١)] .

وفواصل آيات السورة على الألف[(٢)]، وكلّها متّفقٌ عليها وليس فيها فواصل مختلف فيها[(٣)].

لكن اختلفوا في عدد ما يشبه الفواصل، فقال أبو عمرو الدّاني : أربعة مواضع: ﴿ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ ﴾ :١٦، ﴿ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾ :١٦، ﴿ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ :٢٠، ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ :٢٧[(٤)]. وفي ناظمة الزهر أن المتروك ستة مواضع، بزيادة ﴿ ءَامِنِينَ ﴾:٢٧، و﴿ وَمُقَصِّرِينَ ﴾:٢٧، و أشار إليها النّاظم بقوله:

وفتحُ كلا طِبْ يسلمون مقصريـ ـن للمؤمنين اترك تخافون واستقْرِ
شديدٍ كذا اترك آمنيـــــــن[(٥)] ....

---

(١) يتيمة الدهر في النزول وآيات السّور، محمد بن أحمد بن الحسين الحنبلي الموصلي، المعروف بشعلة، تحقيق: د. محمد بن صالح البراك، مجلة الجامعة الإسلامية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٣٤ ص٤٤

(٢) بصائر ذوي التمييز جـ١ ص ٤٣٢

(٣) المحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز، شرح وتوجيه أرجوزة العلامة محمد المتولي، عبد الرازق بن علي بن إبراهيم موسى، مكتبة المعارف- الرياض ١٤٠٨هـ ص١٥١

(٤) البيان في عدّ آي القرآن ص ٢٢٩

(٥) شرح المخللاتي ص٢٩٥

و قيل سبعة مواضع بزيادة ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾:٢٦[(١)]، وكلّها ليست معدودة من آي السورة بإجماع[(٢)].

وعدد كلماتها : خمس مائة وستون كلمة[(٣)]، وحروفها : ألفان وأربع مائة وثمانية وثلاثون حرفاً.[(٤)]

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السّور، إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد السّميع حسنين، مكتبة المعارف — الرياض ، ١٤٠٨ هـ . ص٤٩١

(٢) المصادر الثلاثة السابقة

(٣) سور القرآن وآياته ص٢٨١، وبصائر ذوي التمييز جـ١ ص٤٣٢

(٤) البيان في عدّ آي القرآن ص٢٢٩، والمحرر الوجيز ص١٥١ وبصائر ذوي التمييز جـ١ ص٤٣٢، ، وشرح المخللاتي ص٢٩٥

المبحث الرابع : تاريخ نزول السورة الكريمة

نزلت سورة الفتح على رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- في الطّريق بين مكّة والمدينة منصرَفه من الحديبية(١) بعد الهدنة التي جرت بينه وبين قومه، ويؤيّد هذا القول كثيرٌ من الأحاديث والآثار ومنها :

١- عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الفتح ١- ٥ **مرجعه من الحديبية** وهم يخالطهم الحزن والكآبة ... الحديث.

٢- وعن عبد الله بن مسعود قال : **لمّا أقبل رسول الله من الحديبية** جعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ... الحديث.

٣- عن عروة(٢) قال : **أقبل رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- من الحديبية راجعاً**، فقال رجالٌ من أصحاب رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- : والله ما هذا بفتح، لقد صُددنا عن البيت وصدّ هدينا، وعكف رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- بالحديبية، وردَّ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلّم- رجلَين من

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق : د. عبد الله التركي، دار عالم الكتب – الرياض، ١٤١٤هـ . جـ٢١ص ٢٣٨ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث – بيروت، بدون تاريخ جـ ١٥ ص ٢٥

(٢) عروة : هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، أبو عبد الله المزني ، قال ابن سعد :كان ثقةً كثير الحديث فقيهاً عالماً ثبتاً مأموناً، مات سنة أربع وتسعين على الصحيح، وكان يقال لها سنة الفقهاء . [تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨٠ رقم : ٣٥١]

المسلمين خرجا، فبلغ رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- قولُ رجال من أصحابه: إنّ هذا ليس بفتح فقال رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- " بئس الكلام، هذا أعظم فتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح عن بلادهم، ويسألونكم القضيّة، ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله- عزّ وجلّ- عليهم، وردّكم سالمين غانمين مآجورين، فهذا أعظم الفتوح(١) .."

٤- وعن المسوّر بن مخرمة(٢) ومروان(٣) بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكّة والمدينة، في شأن الحديبية، من أوّلها إلى آخرها.(٤)

٥- وعن نافع(٥) مولى عبد الله بن عمر(٦) قال : كانت الحديبية سنة ستٍّ بعد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ٤ ص١٢٤ رقم:١٥٢٠ أخرجه من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة به. ومن طريق موسى بن عقبة عن الزهري عن عرة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد. انظر [الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم الهلالي ومحمد آل نصر، دار ابن الجوزي. الدمام ، ١٤٣٠ هـ] ج ٣ ص ٢٢٨

(٢) المِسَوَّر بن مخرمة : هو المسور بن مخرمة – بضم الميم وفتح السين وتشديد الواو – بن نوفل القرشي-رضي الله عنه-، الزهري كان مولده بعد الهجرة بسنتين وخاله عبد الرحمن بن عوف مات سنة أربع وستين في حصار ابن الزبير حيث أصابه حجر من المنجنيق [الإصابة جـ٣ ص ٤١٩ رقم: ٧٩٩٣]

(٣) مروان بن الحكم : مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة .ولد بعد الهجرة بسنتين وقيل بأربع.قال البخاري : لم ير النّبي – صلّى الله عليه وسلّم- ولي الخلافة في آخر سنة أربع وستين وكانت ولايته تسعة أشهر، ومات في رمضان سنة خمس وستين. [تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٩١ رقم:١٦٦]

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال:هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.[المستدرك على الصحيحين في الحديث، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري،دار الباز، بدون تاريخ،كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح جـ٢ ص ٤٥٩]

(٥) نافع: نافع الفقيه مولى ابن عمر ، أبو عبد الله المدني، ثقة ثبت، مات سنة سبع عشرة ومائة. [تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٤١٢ رقم: ٧٤٢]

(٦) عبد الله بن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أسلم مع أبيه وهاجر وهو ابن عشر سنين – رضي الله عنه- وهو من المكثرين عن النبي – صلى الله عليه وسلم - ، مات سنة اثنتين أو ثلاث وسبعين وقد بلغ سبع وثمانين سنة [الإصابة جـ٢ ص٣٤٧ رقم: ٤٨٣٤]

مقدم النبي- صلى الله عليه وسلم- المدينة، في ذي القعدة. قال البيهقي:[١] هذا هو الصّحيح.[٢]

٦- وعن قتادة أن أنساً - رضي الله عنه- أخبره قال : اعتمر رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- أربع عمر كلُّهن في ذي القعدة إلاّ التي كانت مع حجته: عمرةً من الحديبية في ذي القعدة، وعمرةً من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرةً من الجِعْرانة[٣] حيث قسم غنائم حُنَيْن[٤] في ذي القعدة، وعمرة مع حجّته.[٥]

وغيرها من الأحاديث التي سبق ذكرها، وكلّها تدلُّ على نزولها عند الرّجوع من الحديبية؛ في شهر ذي القعدة من السنّة السّادسة للهجرة النّبوية، ومَن ذكر أنّها نزلت في الحديبية إما أنّه أراد الزّمن وأنّه في وقت صلح الحديبية، وإمّا أن يكون أراد التّغليب والمقاربة.وإما أراد الحديبية نفسها أول نفوره عنها وقبل خروجه عن حدودها.

---

(١) البيهقي: هو أحمد بن الحسين بن علي، الإمام أبو بكر البيهقي مصنف السنن الكبير، ولد في شعبان سنة أربع وثمانين وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربع مائة. [الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث- بيروت ١٤٢٠هـ].

(٢) دلائل النبوة للبيهقي، جـ٤ ص٧٢ رقم: ١٤٣٨

(٣) الجعرانة: بكسر أوله إجماعا وسكون العين وكسرها وتشديد الراء وتخفيفها، ولا تزال تعرف في رأس وادي سرففي الشمال الشرقي من مكة، يعتمر منها المكيون وبها مسجد. انظر: معجم المعالم الجغرافية ص ٨٣

(٤) وهو اليوم الذي ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم (ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم) وحنين هو وادٍ من أودية مكة،يقع شرقها، ويسمى اليوم وادي الشرائع . انظر: معجم المعالم الجغرافية ص١٠٧

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية رقم: ٤١٤٨

وقيل نزلت بالمدينة[١]، وهو خلاف ما أجمع عليه المفسرون والمحدِّثون وأصحاب السِّيَر، قال ابن عطيّة : " ويشبه أنّ منها بعضاً نزل بالمدينة، وأما صدر السّورة ومعظمها فكما قلنا "[٢] أي عند منصرَفه- صلّى الله عليه وسلّم- من الحديبية، وتابعه أبو حيّان[٣] فقال : " ولعلّ بعضاً منها نزل "[٤].وربما قصد من قال ذلك إثبات مدنيتها فقط. **والصّحيح ما دلّت عليه الأحاديث السّابقة وهي أنّها نزلت في شهر ذي القعدة من سنة ستٍّ للهجرة النّبوية بين مكّةَ والمدينة في طريق عودة النّبي- صلّى الله عليه وسلّم- إلى المدينة** .خصوصاً بعد أن شهد الصّحابةُ العدول – الذين شهدوا التّنزيل – بمكان نزولها، وأنّه- صلّى الله عليه وسلّم- قرأها كاملةً في خروجه من الحديبية قبل أن يصل المدينة.

(١) البحر المحيط وعزاه لابن عباس ج ٩ ص ٤٨٢، وقد أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس [الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د.عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية- القاهرة ١٤٢٤هـ ، ج١٣ ص٤٥٥]

(٢) المحرر الوجيز ص١٧٢٨

(٣) أبو حيان: هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، إمام النحاة، ألف في التفسير والحديث والأدب وغيرها، ولد في غرناطة سنة أربع وخمسين وستمائة، وتوفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة . كتاب الوافي بالوفيات، ج٥ ص١٧٥

(٤) البحر المحيط ج٩ ص ٤٨٢

*** تحديد مكان نزولها :**

قيل نزلت سورة الفتح بكُراع الغَميم(١) لحديث مجمِّع بن جارية الأنصاري :(٢) " شهدنا الحديبية فلمّا انصرفنا عنها إلى كراع الغميم إذا النّاس يوجفون الأباعر(٣) قال: فقال بعض الناس لبعض : مالِ النّاس مالوا إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قال : فخرجنا نوجف مع الناس حتى وجدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واقفاً عند كراع الغميم، فلما اجتمع إليه بعض ما يريد من النّاس قرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال : فقام رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أوَ فتحٌ هو؟ قال : "إي والذي نفسي بيده إنّه لفتحٌ "...الحديث. وهو ضعيف الإسناد. (٤)

---

(١) كراع الغميم: كراع: بضم الكاف وآخره عين مهملة موضع جنوب عسفان بستة عشر كيلاً على الجادة إلى مكة أي على ٦٤ كيلاً من مكة على طريق المدينة، وتعرف اليوم ببرقاء الغميم . انظر: معجم المعالم الجغرافية ص ٢٦٣

(٢) مجمع بن جارية: بضم أوله وفتح الجيم وتشديد الميم المكسورة، ابن جارية بالجيم، ابن عامر الأنصاري الأوسي، المدني صحابي، وهو أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- إلاّ اليسير منه، مات- رضي الله عنه- في خلافة معاوية [أسد الغابة، جـ٥ ص٦١ رقم:٤٦٨٠ والطبقات الكبرى جـ٤ ص٣٧٢]

(٣) يوجفون الأباعر: الإيجاف: سرعة السير، وقد أوجف دابته يوجفها إيجافاً إذا حثها على السير، انظر [النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك محمد بن الجزري بن الأثير، اعتنى به : رائد بن صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية – عمان ٢٠٠٣م] ص٩٤٨، والأباعر: جمع بعير والمعنى يحثون الإبل على السير.

(٤) انظر مسند الإمام أحمد جـ٢٤ ص٢١٢ رقم:١٥٤٧٠ ودلائل النبوة للبيهقي جـ٤ ص١٢١ رقم: ١٥١١ و وانظر [سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة- بيروت.] في كتاب الجهاد، بابٌ في من أُسهم لهُ سهما جـ٣ ص٧٦ رقم :٢٧٣٦ قال الحافظ في الفتح : في إسناده ضعف [فتح الباري، جـ٨ ص٦٨]، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف، يعقوب بن مجمِّع بن جارية، والد مجمِّع – وإن كان حسن الحديث انفرد به وقد خولف. وضعّفه الألباني [ضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت ١٤١٢هـ] ص٢٦٧ حديث رقم: ٥٨٧

وقيل بضجنان،[١] فقد أخرج ابن سعد[٢] عن مجمع بن جارية قال : "لما كنا بضجنان رأيت الناس يركضون وإذا هم يقولون: أُنزِل على رسول الله–صلى الله عليه وسلم–. فركضت مع الناس حتى توافينا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فإذا هو يقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فلمّا نزل بها جبريل عليه السلام قال : ليهْنك يا رسول الله، فلما هنّأه جبريل هنّأه المسلمون"[٣] وقيل بالجحفة.[٤] قال ابن حجر: " والأماكن الثلاثة متقاربة"[٥]

*** تحديد وقت نزولها :**

قد سبق أنّ نزولها كان بعد الرجوع من الحديبية، وقد كانت الحديبية سنة ستٍّ من الهجرة فيما اتّفق عليه أصحاب السِّيَر.[٦] وأنَّها كانت في شهر ذي القعدة كما ورد في الصَّحيح.

---

(١) ضجنان: بفتح الضاد وسكون الجيم،كسكران، وهي حرة شمال مكة على مسافة ٥٤ كيلاً على طريق المدينة، وتعرف اليوم بحرَّة المحسنية. انظر: معجم المعالم الجغرافية ص ١٨٣

(٢) ابن سعد : هو محمد بن سعد بن منيع ، الحافظ العلامة الحجة مصنف " الطبقات الكبير " . ولد بعد الستين ومائة وكان من أوعية العلم ، توفي ببغداد سنة ثلاثين ومائتين وهو ابن اثنتين وستين سنة . أنظر: سير أعلام النبلاء جـ١٠ ص٦٦٤-٦٦٧

(٣) الطبقات الكبرى، جـ٤ ص٣٧٢

(٤) الجحفة: بالضم ثم سكون ، قرية بين مكة والمدينة ،كانت محطة من محطات الحاج بين الحرمين ، وتوجد اليوم آثارها شرق مدينة رابغ بحوالي ٢٢ كيلاً . انظر معجم المعالم الجغرافية ص ٧٩

(٥) فتح الباري جـ٨ ص٥٨٣

(٦) قال ابن كثير رحمه الله عن عمرة الحديبية : وقد كانت في ذي القعدة سنة ستٍّ بلا خلاف، وممن نصَّ على ذلك الزّهري ونافع مولى ابن عمر وقتادة وموسى بن عقبة ومحمّد بن إسحاق بن يسار وغيرهم [البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف– بيروت، ١٩٦٦م جـ٤ ص ١٦٤]

وقد نزلت هذه السُّورة على رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- ليلاً لما ورد من حديث زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم -كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً ...الحديث.(١) ولقوله- صلّى الله عليه وسلّم- : " لقد أنزلت عليّ الليلة ... فهي من سُوَر النّزول الليلي.(٢)

*** ترتيبها في نزول السور :**

قيل نزلت بعد سورة الصَّف وقبل التَّوبة،(٣) وقيل نزلت بعد التَّغابن.(٤) وقيل بعد الجمعة.(٥) وترتيب السُّور حسب النُّزول لم يرد فيه حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ إلى النّبي- صلّى الله عليه وسلّم-، ولا موقوفٌ على أحد أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد اعتمد مَن ذكر ذلك من المفسرين على رواية جابر بن زيد التابعي(٦)، وقد ذكرها أبو عمرو الدّاني بسنده في البيان،(٧) وذكرها السّيوطيُّ في الإتقان.(٨) وهي وهي من المقطوع. وبهذا يعلم " أنّ ترتيب السّور حسب النّزول ليس دقيقاً في مجمله،

(١) الحديث سبق ذكره بتمامه ص ٦٤، وقال ابن حجر في الفتح : وجاء في رواية الطبراني من طريق عبد الرحمن بن أبي علقمة عن ابن مسعود أن السفر المذكور هو عمرة الحديبية [جـ٨ ص ٥٨٣]

(٢) الإتقان جـ١ ص٨٨

(٣) التبيان في عدّ آي القرآن ص ١٣٥، والإتقان في علوم القرآن جـ١ ص ٩٩

(٤) البرهان في علوم القرآن، جـ١ ص ١٩٤

(٥) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تحقيق: محمد اليونسي وإبراهيم عطوة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، جـ٤ ص٩١

(٦) جابر بن زيد: هو جابر بن زيد الأزدي، أبو الشعثاء الجَوْفي البصري، مشهور بكنيته، تابعي ثقة فقيه، مات سنة ثلاث وتسعين، [تهذيب التهذيب جـ٢ ص٣٨ رقم:٦١]

(٧) ص١٣٥

(٨) جـ ١ ص٩٩وقد علَّق السيوطي على ترتيب السور على حسب النزول وقال : " وفيه نظر "

ومن ثمّ ليس يقينياً ولا يمكن الجزم به، لعدم وجود أدلّة صحيحة موثوقة يعتمد عليها في ذلك "[١] و يكتفى في هذا الباب بالسور التي ورد في ترتيبها أحاديث صحيحة.

*** ترتيبها في المصحف :**

أمّا ترتيبها في المصحف، فهي السُّورة الثامنة والأربعون بعد سورة محمَّد وقبل سورة الحجرات.

وهذا التّرتيب هو المعتمد " ولا يصحّ الإقدام على ترتيب آخر للمصحف مخالف لما استقرّت عليه الحال، وتناقلته الأجيال ."[٢] وذلك لأنّ ترتيب السّور في المصحف توقيفي، عُرف ذلك من عرض جبريل – عليه السّلام- القرآن الكريم على رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –كل عام مرتّباً، وفي العام الذي توفي فيه النبي – صلى الله عليه وسلم- عرض عليه القرآن مرتين. وكان زيد بن ثابت- رضي الله عنه- قد شهد العرضة الأخيرة وحفظ ترتيبها. وكان النبي – صلى الله عليه وسلم- يقرأ بعض السور متوالية بترتيب معين، وحفظ الصحابة – رضي الله عنهم- السور مرتبة،كما ثبت عن ابن مسعود – رضي الله عنه- أنه كان يقول في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: " إنّهُنَّ من العِتاق الأُول، وهنَّ من تلادي"[٣]. وقد وقد استمر القرآن ينقل بين المسلمين بالتواتر جيلاً بعد جيل بالترتيب نفسه، وحفظ

---

(١) التّفسير الموضوعي بين النظرية والتّطبيق ص ٢٣٩

(٢) المكيّ والمدني في القرآن، د. محمد بن عبد الرحمن الشّايع، مركز التفسير والدراسات الإسلامية – الرياض، ١٤١٨هـ. ص٨١

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، ص ٩٨٦ رقم : ٤٧٠٨

في الصدور والسطور بالترتيب المعلوم في المصاحف التي بين أيدينا اليوم وهذا من حفظ الله لكتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وبعد أن ذكر البغوي[١] حديث نسخ المصاحف في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان– رضي الله عنه– قال– رحمه الله– : "فيه البيان الواضح أن الصحابة – رضي الله عنهم– جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله - سبحانه وتعالى– على رسوله – صلى الله عليه وسلم– من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً ... فكتبوه كما سمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من غير أن قدموا أو أخروا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يلقِّن أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل – صلوات الله عليه- إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السورة التي يذكر فيها كذا"[٢] وقال: "فثبت أنَّ سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيبه فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا... فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة".[٣]

(١) البغوي:هو الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي، وكان من العلماء الكبار العابدين كان إماماً في التفسير والحديث والفقه، توفي سنة ستة عشرة وخمسمائة [انظر سير أعلام النبلاء جـ١٩ ص٤٣٩وطبقات المفسرين للسيوطي ص ٤٩]

(٢) شرح السنة، الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت ، ١٤٠٣هـ، ص٥٢١-٥٢٢

(٣) المصدر السابق ص٥٢٢

*** المرحلة التاريخية التي نزلت فيها السورة :**

منذ فجر الإسلام والصراع بين الحق والباطل قائم، ويشتد طالما تشبث المسلمون بعقيدتهم وثبتوا على دينهم، وكلما تغطرس المشركون وانقادوا لسلطان الهوى والكبر.

ومع اشتداد الأذى على المسلمين أُذن لهم بالهجرة، فهاجر بعضهم إلى الحبشة[١] سلامةً من أذى المشركين واضطهادهم وظلمهم. ولما أسلم جماعة من الأوس[٢] والخزرج[٣] من أهل المدينة وانتشر الإسلام في بيوتاتها، أذن للنبي – صلى الله عليه وسلم- بالهجرة إليها. وعندما تآمر المشركون على قتل النبي – صلى الله عليه وسلم- وكشف الله مؤامرتهم وأحبط كيدهم، نجّى رسوله - صلى الله عليه وسلّم - من مكرهم وأذن له بالهجرة فهاجر مع صاحبه أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- إلى المدينة ولحق به أصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

وبانتقال المسلمين إلى المدينة المنورة دخلت الدعوة المباركة طوراً جديداً، حيث أصبح للمسلمين كيان مستقل، وبدأوا في تكوين مجتمع إسلامي مميّز، يقوم على عقيدة راسخة، وقيم مثالية، وأخلاق فاضلة، رغم أن أذى المشركين وتحرشاتهم لم

---

(١) الحبشة : اسم للأمة أطلق على أرضهم، وتسمى دولتهم أثيوبيا، وهي تضم أراضي إسلامية إلى جانب أرضهم. وعاصمتها أديس أبابا، ولهم صلات قديمة مع العرب، وللملكهم موقف يذكر ويشكر مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا إليه فوجدوا في كنفه ملجأً وحسن جوار. انظر : معجم المعالم الجغرافية: ص ٩١

(٢) الأوس: بطن عظيم من الأزد، من القحطانية موطنهم الأصلي اليمن، ثم هاجروا إلى يثرب، وقد نشبت حروب طويلة بينهم وبين الخزرج في الجاهلية. وآمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلّم – ونصروه. انظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة جـ١ ص٥٠

(٣) الخزرج: بطن من بني النبيت من الأوس كانوا يقطنون المدينة مع الأوس، ونشبت بينهم حروب بالجاهلية، وعندما جاء الإسلام آمنوا ونصروا الرسول - صلى الله عليه وسلّم -. انظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة جـ١ ص٣٤٢

تنقطع، إضافة إلى ظهور النفاق من عبد الله بن أبي[١] وأصحابه الذين وافقوه على نفاقه.

لكن استقبال الأنصار لإخوانهم المهاجرين-رضي الله عنهم أجمعين —ونصرتهم لهم قد أكسب المسلمين قدراً من السكينة النفسية والأمان. فعاهد النبي — صلى الله عليه وسلم- قبائل اليهود الساكنين في المدينة آنذاك اتقاءً لشرهم وزيادة في أمن البلاد.

ومع استمرار المشركين في تتبع دعوة التوحيد وإلحاق الأذى بأتباعها، نزل الوحي بالإذن بالقتال، وحدثت معارك طاحنة بين المسلمين وكفار قريش، كان أشدها وأشهرها غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد وغزوة الخندق. وقد كشف الله سبحانه وتعالى في غزوتي أحد والخندق الدور الخسيس للمنافقين، وبانت أحوالُهم وظهرت حقيقتهم. و أما اليهود فقد نقضوا كل عهد أبرموه مع النبي — صلى الله عليه وسلم- فحدثت بعد كل غزوة من الغزوات الثلاث السابقة غزوةٌ اسْتُهدف فيها اليهودُ بسبب غدرهم.

فبعد غزوة بدر حدثت غزوة بني قينقاع[٢]، وبعد غزوة أحد حدثت غزوة بني

(١) عبد الله بن أبي : هو رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول (وتكتب ابن هنا بالألف لأنها صفة لعبد الله) وسلول أم عبد الله، كان سيد الخزرج أظهر الإسلام تقية ومات على زمن الرسول - صلى الله عليه وسلّم - [تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محي الدين بن شرق النووي، دار الكتب العلمية — بيروت بدون تاريخ] جـ١ ص٣٦٠ رقم: ٢٨٥ وانظر أيضاً ص٢٧٦ رقم: ٣١٣.

(٢) بنو قينقاع : أشرّ وأشجع طوائف اليهود بالمدينة، كانوا يسكنون داخل المدينة — في حيّ باسمهم — وكانوا صاغةً وحدّادين، أول من نكث العهد من اليهود ، فحاصرهم الرسول —صلى الله عليه وسلم — حتى نزلوا على حكمه، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا منها إلى الشام. انظر : [الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد — الرياض، ١٤٢٥هـ] ص ٢٤٠

النضير[١]، وبعد غزوة الخندق حدثت غزوة بني قريظة[٢].

وكان من نتيجة الغزوات الثلاث الكبرى مع المشركين أن أدرك المشركون تماماً أنه لا سبيل إلى إرجاع المسلمين إلى الكفر، وأن المسلمين قوة لا يستهان بها، وأن النَّصر حليفهم وجند الله معهم، وأنهم يتمتعون بقيم ومثل وأخلاق لا نظير لها عند غيرهم، وأن المسلمين على استعداد بأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله حماية لعقيدتهم. وكانت نتيجة الغزوات الثلاث مع اليهود إجلاءهم من المدينة وإخراجهم منها ومن ضواحيها.

لكنّ غزوة الخندق التي حدثت في نهاية السنة الخامسة من الهجرة النبوية — **أي قبل نزول السورة بعام واحد**-كانت من المعارك الفاصلة في العهد النبوي؛ إذ كان فيها نهاية هجوم الكافرين على المسلمين، حتى قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: " الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم"[٣] وهذا يعني انتقال الجهاد من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم .

وبعد الفراغ من غزوة الأحزاب وبني قريظة، أخذ النبي — صلى الله عليه وسلم- يوجه البعوث والسرايا إلى القبائل والأعراب، واستغرق ذلك ثلثي السنة

(١) بنو النضير: من طوائف اليهود بالمدينة الذين عاهدهم النبي — صلى الله عليه وسلم — فنقضوا العهد وهمّوا بقتله، فحاصرهم وألقى الله الرعب في قلوبهم، وأنزلهم على أن يخرجوا من المدينة بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. انظر المصدر السابق ص ٢٩٤-٢٩٧

(٢) بنو قريضة: من طوائف اليهود الذين غدروا بالنبي —صلى الله عليه وسلم — والمسلمين يوم الأحزاب ونقضوا العهد، فحاصرهم المسلمون وقذف الله في قلوبهم الرعب، فبادروا إلى النزول على حكم رسول الله ، فحكّم فيهم سعد بن معاذ —رضي الله عنه - ، فحكم بقتل رجالهم وسبي الذرية وتقسيم الأموال فوافق حكم الله فيهم من فوق سبع سماوات، فنُفِّذ الحكم.انظر المصدر السابق ص ٣١٤-٣١٦

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. رقم:٤١١٠ ص٨٤٧

السادسة، وفي شهر شعبان منها حدثت غزوة بني المصطلق، وانكشف فيها حقد المنافقين ومكرهم وعداوتهم للمسلمين، وحدث فيها قصة الإفك التي تولى كبره فيها رأسُ المنافقين عبد الله بن أبي، فزاد ذلك كثيراً من الأذى النفسي في بيت النبوة وفي المجتمع الإسلامي بأسره.

ثم أرسلت بعض البعوث والسرايا إلى دومة الجندل(١) وفدك(٢) ووادي القرى(٣) وسرية إلى العرنيين الذين كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي رسول الله – صلى الله عليه وسلم– واستاقوا إبله.

إن الابتلاءات العظيمة التي حصلت قبل نزول هذه السورة للمسلمين، والمتمثلة في الصبر على الأذى بكل أنواعه وأصنافه، في الفترة المكية التي أمروا فيها بالكفِّ عن القتال، والمتمثلة في الملاحقة والمطاردة في حال الهجرة وترك الأهل والديار والأموال بين ظهراني الأعداء، والمتمثلة في حال الجهاد وما فيه من لأواء وشدة، وابتلاء وتمحيص وحرج نفسي شديد، تصوره بعض الآيات القرآنية تصويراً دقيقاً كما في آية الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ

(١) دومة الجندل: بفتح أوله وضمه، وهي قرية تقع جنوب الجوف. انظر: معجم المعالم الجغرافية ص ١٢٧

(٢) فدَك: بالتحريك، وآخره كاف، قرية شرقي خيبر ، تعرف اليوم بالحائط. معجم المعالم الجغرافية ص ٢٣٥

(٣) وادي القرى: واد يقع على بعد ٢٢ كيلاً شمال مدينة العلا وأصبح يسمى وادي العلا. انظر: معجم المعالم الجغرافية ص٩٣

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ البقرة: ٢١٤ والمتمثلة أيضاً في مواقف اليهود وغدرهم وفي مواقف المنافقين وتخذيلهم وخيانتهم.

لاشك أن في هذا كله تمحيصاً وابتلاء، ينقد الجواهر الثمينة ويصقل القلوب المؤمنة ويزيد ثقتها بدينها، وحسن ظنها بربها، واطمئنانها بقيادتها الحكيمة، المتمثلة في النبي القائد العظيم محمد- صلى الله عليه وسلم-. كما يزيد من ثباتها على دينها، وتطلعها إلى ظهوره وانتشاره.

وفي مثل هذه الظروف الحرجة يحصل أمر لم يكن في حسبان أحد، حيث يرى الرسول – صلى الله عليه وسلم- الرؤيا التي تبشره وأصحابه بدخول المسجد الحرام آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين. وفي ظل هذا الجوّ تشتاق بعض نفوس الصحابة الكرام إلى زيارة البيت العتيق، فيمنعون ويصدون عن بيت الله الحرام من قبل المشركين. فيكون ذلك سبباً لوقعة الحديبية أو أحداث الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة، والتي اعتبرت فتحاً وحدثاً تاريخياً فاصلا. دخلت بعده الدعوة المباركة في طور جديد يتسم بالفتوحات والمغانم واستعلاء الدين وظهوره وانتشاره.

وأحداث هذه الواقعة التي حدثت في سفر النبي – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه إلى مكّة للعمرة هي موضوع السورة.(١)

(١) وهذا صحيح، وسيأتي معنا في مبحث " الموضوع الكلي في السورة" بأن موضوعها الرئيس هو النصر وظهور الدين. ولا تعارض ! لأن المقصود في التفسير الموضوعي: إظهار الموضوع المطلق العام الذي لا يتقيد بزمان أو مكان، ليؤخذ منه مواضع الهداية، ودلائل الإرشاد، ومعالم التوجيه والتربية، والتي تصلح لكل جيل وفي أي مكان.

واستحقت هذه الأحداث التاريخية العظيمة أن تُسجل سورة تتلى في القرآن الكريم إلى قيام الساعة، لما احتوته من العبر والحقائق، وما تضمنته من الدلائل والمعجزات، وما أسفرت عنه من النَّصر والفتوحات.

ولا شك أن الآيات الكريمات في السورة إنما اقتصرت على مواطن الاعتبار والهدايات، وفي الأحاديث والآثار الصحيحة وقصص السيرة النبوية المشرفة كثير من التفاصيل، التي تظهر تلك الأحداث منيرةً، واضحةَ الخطوط جليَّةَ المعالم.

وقد سبق ذكر بعض الروايات الصحيحة التي تتحدث عن أحداث الحديبية، ولعله يحسن هنا — حتى يظهر لنا الجوّ الذي نزلت فيه السورة — أن نذكر رواية المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في قصة الحديبية وهي من أطول الروايات ونكتفي بها عن غيرها.

عن المسور بن مخرمة ومروان يصدِّق كلٌّ واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي – صلى الله عليه وسلّم – : " إنّ خالد بن الوليد(١) بالغميم في خيل لقريش طليعةٌ، فخ ذوا ذات اليمين" فوالله ما شعر بهم خالدٌ حتى إذا هم بقَتَرَة الجيش(٢)، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي – صلى الله عليه وسلّم – حتى

---

(١) خالد بن الوليد : الصحابي الجليل خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي ، سيف الله ، أبو سليمان – رضي الله عنه – أسلم في سنة سبع، ثم شهد غزوة مؤتة، وشهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتح مكة ، وأرسله أبو بكر – رضي الله عنه – لقتال الردة، ثم ولاه حرب فارس والروم، فأثر فيهم تأثيرا شديدا، وافتتح دمشق .مات بمدينة حمص وقيل بالمدينة النبوية سنة إحدى وعشرين [الإصابة جـ١ ص٤١٣ رقم:٢٢٠١]

(٢) قترة الجيش : القترة بفتح القاف المثناة : الغبار الأسود [المصدر السابق]

إذا كان بالثَّنِيَّة[١] التي يُهبَطُ عليهم منها بركت به راحلتُه، فقال الناس: حَلْ حَلْ[٢] فألحَّتْ [٣]، فقالوا: خَلأتِ القَصْواء [٤]، خَلأتِ القصواء، فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل"، ثم قال: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطَّةً يُعظِّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها"، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ[٥] قليل الماء، يتَبَرَّضُه[٦] الناسُ تبرُّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – العطشُ، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرِّيِّ حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُديلُ بن وَرقَاء الخُزاعيُّ[٧] في نفرٍ من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نُصحِ[٨] رسولِ الله – صلى الله عليه وسلّم – من أهل تِهامة فقال:

(١) الثّنية : هي ثنيّة المرار بكسر الميم وتخفيف الراء ، هي طريق في الجبل تشرف على الحديبية [المصدر السابق]

(٢) حلْ حلْ : بفتح المهملة وسكون اللام ، كلمة تقال للناقة إذا تركت السير [المصدر السابق]

(٣) فألحّت : أي تمادت على عدم القيام [المصدر السابق]

(٤) خلأت القصواء : خلأت مثل ألحّتْ وهي خاصة بالنّوق ، والقصواء : اسم ناقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قيل كان طرف أذنها مقطوعاً فسميت بالقصواء ، وزعم الداوودي أنها كانت لا تُسبق فقيل لها القصواء لأنها بلغت من السبق أقصاه [المصدر السابق]

(٥) ثمد : أي حفيرة فيها ماء قليل [المصدر السابق ص ٣٣٦]

(٦) يتبرّضه : هو الأخذ قليلاً قليلاً [المصدر السابق]

(٧) بديل بن ورقاء : هو بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، قال ابن السكن : له صحبة وسكن بمكة ، وكان إسلامه قبل الفتح وقيل يوم الفتح [الإصابة جـ١ ص١٤١ رقم : ٦١٤]

(٨) عيبة نصح : العيبة ماتوضع فيها الثياب لحفظها ، أي أنّه موضع النّصح له والأمانة على سرّه [فتح الباري جـ ٥ ص ٣٣٨]

إني تركت كعب بن لؤي[١] وعامر بن لؤي[٢]، نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذُ العُوذُ المطافيل[٣] ،وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلّم -: " إنّا لم نجئْ لقتال أحدٍ، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتْهُم الحربُ، وأضرَّتْ بهم، فإن شاءوا مادَدْتُهم مدَّةً، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر: فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا [٤]، وإنْ هم أبَوْا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفردَ سالفتي[٥]، ولَيُنفذنَّ الله أمرَه." فقال بُدَيل: سأُبلِّغُهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نَعرضَه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته، يقول: قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي - صلى الله عليه وسلّم -

(١) كعب بن لؤي : هو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وفيه البيت والعدد وأمه ماوية بنت القين بن جسر، وولده مرّة وفيه العدد والشرف. وكانتْ قريش تجتمع إليه في كل جمعة، وكان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية عروبة، فسماه كعب يوم الجمعة، وكان يخطب فيه على قريش ويبشر بمقدم النّبي – صلى الله عليه وسلّم- انظر [كتاب المحبّر، محمد بن حبيب البغدادي، رواية أبي سعيد الحسن السكري، عناية الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ط بدون]، ص٥٠ وانظر [الأحكام السلطانيّة والولايات الدّينية،محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتب العلمية- بيروت- ١٣٩٨هـ] ص ١٦٣ و[جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤٢٤هـ]. جـ١ ص ٦١٢-٦١٣

(٢) عامر بن لؤي: هو أخو كعب بن لؤي سابق الذكر، وذكره ابن سعد فيمن اقترعوا لبناء الكعبة من قريش بعد أن صدّعها السيل فقال : ووقع لهم وجُمَح وعديّ وعامر بن لؤي مابين الركن اليماني إلى الركن الأسود. ، انظر:الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٤٦ و جمهرة أنساب العرب جـ١ ص ١٢-١٣

(٣) العوذ المطافيل: العوذ جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات التي معها أطفالها، يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليزوّدوا بألبانها، أو كنّى بذلك على النساء ومعهنّ الأطفال، يريد أنهم خرجوا معهم بنسائهم وأطفالهم لإرادة طول المقام.[فتح الباري جـ٥ ص ٣٣٨]

(٤) جمّوا: أي قووا [المصدر السابق]

(٥) تنفرد سالفتي: السالفة صفحة العنق، وكنّى بذلك عن القتل. [المصدر السابق]

، فقام عروة بن مسعود(١) فقال: أيْ قومِ، ألستم بالولد ؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالوالد ؟ (٢) قالوا: بلى، قال: فهل تتَّهموني ؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بَلَّحوا (٣) عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرضَ لكم خُطَّةَ رُشْدٍ اقبلوها ودعوني آتيه، قالوا: ائْتِهِ، فأتاه فجعل يكلم النبي – صلى الله عليه وسلّم –، فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: نحواً من قوله لبُديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً وإني لأرى أوشاباً (٤) من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–: امصص بِبَظْر اللَّات(٥)، أنحن نفر عنه وندعه ؟ فقال: من ذا ؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلِّم النبي – صلى الله عليه وسلّم –، فكلَّما

(١) عروة بن مسعود : هو عروة بن مسعود بن معتّب الثقفي – رضي الله عنه – عمّ والد المغيرة بن شعبة، كان أحد الأكابر من قومه، وقيل إنه المراد بقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف: ٣١. أسلم لما صدر أبو بكر من الحجّ سنة تسع ورجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعصوه وقتلوه [الإصابة جـ٢ ص ٤٧٧ رقم ٥٥٢٦]

(٢) ألستم بالولد ، وألست بالوالد : أي أنتم عندي في الشفقة والنصح بمنزلة الولد ، ولعلّه كان يخاطب بذلك قوماً هو أسنّ منهم [فتح الباري جـ٥ ص ٣٣٩]

(٣) بلّحوا : أي امتنعوا [المصدر السابق]

(٤) أشواباً : أخلاطاً [المصدر السابق]

(٥) امصص بظر اللات : بظر اللات قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم ، فأراد أبو بكر المبالغة في شتم عروة بإقامة ما كان يعبد مقام أمّه ، وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحقّ به ذلك [المصدر السابق ص٣٤٠]

تكلَّم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة[١] قائمٌ على رأس النبي – صلى الله عليه وسلّم –، ومعه السيفُ وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي – صلى الله عليه وسلّم – ضرب يده بنَعْل السيف[٢]، وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا ؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أيْ غُدَرُ[٣]، ألست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء". ثم إنَّ عروة جعل يرمُقُ أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلّم – بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – نُخَامة إلّا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم فدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قومِ والله لقد وفدت على الملوك؛ ووفدت على قيصر وكسرى والنَّجاشي[٤]، والله إن رأيت مَلِكاً قَطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يعظم أصحابُ محمَّدٍ – صلى الله عليه وسلّم – محمَّداً، والله إن تنخَّم نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال

---

(١) المغيرة بن شعبة : هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب الثقفي، أسلم – رضي الله عنه – قبل عمرة الحديبية وشهدها وبيعة الرضوان ، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، وولي البصرة ثم الكوفة ، ومات سنة خمسين عند الأكثر . [الإصابة جـ٣ ص ٤٥٢ رقم ٨١٧٩]

(٢) نعل السيف : ما يكون أسفل القراب من فضة أو غيرها [المصدر السابق ص ٣٤١]

(٣) أي غُدر : بوزن عُمر معدول عن غادر، مبالغة في وصفه بالغدر . [المصدر السابق]

(٤) قيصر : ملك الروم، وكسرى : ملك الفرس، والنجاشي : ملك الحبشة .

رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي – صلى الله عليه وسلّم – وأصحابه قال رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –: " هذا فلان، وهو من قومٍ يعظمون البدن، فابعثوها له" فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأُشعِرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مِكْرَزُ بن حفص[(١)] فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم، قال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: "هذا مكرز وهو رجل فاجر" فجعل يكلم النبي – صلى الله عليه وسلّم –، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو قال معمر[(٢)]:

فأخبرني أيوب[(٣)] عن عكرمة[(٤)] أنه لما جاء سهيل بن عمرو[(٥)]،

---

(١) مكرِز بن حفص : هو مركز بن حفص بن الأخيف القرشي العامري ، ذكره ابن حبان في الصحابة وقال ابن حجر: يقال له صحبة ولم أره لغيره، وذكره المرزباني في معجم الشعراء ووصفه بأنه جاهلي، ومعناه أنّه لم يسلم [الإصابة جـ٣ ص ٤٥٦ ، رقم: ٨١٩٣]

(٢) معمر : هو الإمام الحافظ معمر بن راشد الأزدي، كان من أوعية العلم، مع الصدق والتحري والورع والجلالة وحسن التصنيف، حدث عن قتادة والزهري وغيرهما، ومات سنة أربع وخمسين ومائة. [سير أعلام النبلاء جـ٧ ص ٥-١٨]

(٣) أيوب : أيوب السَّختياني : هو الإمام الحافظ سيد العلماء أبو بكر بن أبي تميمة كيسان العنزي، عداده في صغار التابعين، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة. [سير أعلام النبلاء جـ٦ ص ٤٨ — ٧٣]

(٤) عكرمة : هو العلامة، الحافظ، المفسر، أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله المدني القرشي بربري الأصل، مولى ابن عباس – رضي الله عنه – ، من كبار التابعين، قال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعلمه، وقال النسائي ثقة. ووثّقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي، مات سنة خمس ومائة. انظر [تهذيب الأسماء واللغات جـ٢ ص ٣٤٠-٣٤١ رقم: ٤٢١] و [سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ١٢-٣٦ رقم: ٢٥٧]و [تهذيب التهذيب جـ٧ ص٢٦٣-٢٧٣ رقم: ٤٧٥]

(٥) سهيل بن عمرو : هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، خطيب قريش وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية وكان يراجع النبي صلى الله عليه وسلم أثناء كتابة الصلح سكن مكة ثم المدينة، أسلم يوم الفتح، قال الشافعي عنه كان سهيل محمود الإسلام من حين أسلم مات في طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة [الإصابة جـ٢ ص٩٣ رقم: ٣٥٧٣]

قال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " لقد سهل لكم من أمركم" قال معمر: قال الزهري(١) في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا النبي – صلى الله عليه وسلّم – الكاتب فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: اكتب " بسم الله الرحمن الرحيم "، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " اكتب باسمك اللهم " ثم قال: هذا ما قاضى عليه مُحَمَّدٌ رسولُ الله، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله" قال الزهري: وذلك لقوله: " لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها" فقال له النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به "، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضُغْطَةً ولكن ذلك من العام المقبل فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد

(١) الزهري : هو محمد بن مسلم بن عبيد الله، الإمام العلَم، حافظ زمانه، أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام، توفي سنة أربع أو ثلاث وعشرين ومائة. [سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٣٢٦ – ٣٥٠]

جاء مسلماً ؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جَنْدَل [1] بن سهيل بن عمرو يَرسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمَّدُ أوَّلُ ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " إنا لم نقض الكتاب بعد"، قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيءٍ أبداً، قال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: " فأجزْه لي" قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: " بلى فافعل"، قال: ما أنا بفاعل، قال مِكْرَز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شديداً في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبيَّ الله – صلى الله عليه وسلّم – فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقّاً ؟ قال: " بلى" قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل ؟ قال: "بلى " قلت: فلِمَ نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذاً ؟ قال: " إني رسول الله ولستُ أعصيه وهو ناصري" قلتُ: أوليس كنت تحدِّثُنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال: "بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟" قال: قلت: لا، قال: "فإنك آتيه ومطوِّفٌ به" قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكرٍ أليس هذا نبيَّ الله حقّاً ؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل ؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول الله – صلى الله عليه وسلّم –،

---

(١) أبو جندل : هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي العامري ، قيل اسمه عبد الله ، وكان من السابقين إلى الإسلام ، وممن عذّب بسبب إسلامه ، ذكره أهل المغازي فيمن شهد بدراً واستشهد باليمامة وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة .

[الإصابة جـ٤ ص٣٤ رقم: ٢٠٣] وقال ابن سيد الناس :" أبو جندل اسمه العاصي وهو أخو عبد الله بن سهيل، شهد عبد الله بدراً مع النبي – صلى الله عليه وسلّم – وكان إسلامه قبل ذلك، وأول مشاهد أبي جندل الفتح، وإنما ذكرنا ذلك ليعرف الفرق بينهما، فقد ذكر أن بعض من ألف في الصحابة سمى أباجندل عبد الله وليس كذلك !"انظر [عيون الأثر، ابن سيد الناس، دار المعرفة – بيروت.]جـ٢ ص ١٢٧

وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه[١] فوالله إنه على الحقِّ، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال الزهري: قال عمر: فعملتُ لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – لأصحابه: " قوموا فانحروا ثم احلقوا " قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقيَ من الناس فقالت أمُّ سلمة: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك ؟ اخرجْ ثم لا تُكلِّمْ أحداً منهم كلمةً، حتى تنحرَ بُدنَك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك. نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضُهم يقتل بعضاً غماً. ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ الممتحنة: ١٠ فطلق عمر يومئذ امرأتين، كانتا له في الشِّرك فتزوج إحداهما

(١) استمسك بغرزه : الغرز للإبل بمنزلة الركب للفرس ، والمراد به التمسك بأمره ، وترك المخالفة له كالذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه [فتح الباري جـ٥ ص٣٤٦]

معاوية بن أبي سفيان[١] والأخرى صفوان بن أمية[٢]. ثم رجع النبي – صلى الله عليه وسلّم – إلى المدينة فجاءه أبو بَصير[٣] رجلٌ من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستلّه الآخر فقال: أجل والله، إنه لجيّدٌ، لقد جرَّبت به ثم جرَّبت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد ،وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – حين رآه: " لقد رأى هذا ذعرا"، فلما انتهى إلى النبي – صلى الله عليه وسلّم – قال: " قُتل والله صاحبي وإني لمقتول" فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي – صلى الله عليه وسلّم –: "ويلُ أُمِّه [٤] مِسْعَر حرب[٥] لو كان له أحد" فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم،

(١) معاوية بن أبي سفيان : هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي أمير المؤمنين – رضي الله عنه – ولد قبل البعثة بخمس سنين، أسلم هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند في فتح مكة .وكان معاوية يقول : إنه أسلم يوم الحديبية وكتم إسلامه، وشهد مع رسول الله حنيناً فأعطاه من غنائم هوازن، استخلفه أبو بكر وعمر وعثمان على الشام وولي الخلافة بعد ذلك عشرين سنة. مات سنة ستين على الصحيح . انظر: تهذيب الأسماء واللغات، جـ١ ص١٠٢ رقم: ١٤٩ وانظر: الإصابة جـ٣ ص ٤٣٣ رقم: ٨٠٦٨

(٢) صفوان بن أمية : هو الصحابي الجليل صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي . أعطاه النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم حنين من الغنائم وأكثر ، فقال صفوان : أُشهد الله ما طابت بهذا إلا نفس نبيّ ، وأسلم. مات في مكة سنة اثنين وأربعين . ، انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ص ١٨٣ – ١٨٧ و الإصابة جـ٢ ص ١٨٧ رقم: ٤٠٧٣

(٣) أبو بصير: هو الصحابي الجليل عتبة بن أسيد بالفتح أبو بَصير بفتح الموحدة الثقفي مشهور بكنيته، ثبت ذكره في قصة الحديبية عند البخاري، ولما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه ورد الكتاب وأبو بصير يموت فمات وكتاب النبي– صلى الله عليه وسلم– في يده فدفنه أبو جندل مكانه. [الإصابة جـ٢ ص٤٥٣ رقم: ٥٣٩٧]

(٤) ويل أمّه : كلمة ذمّ ، تقولها العرب للمدح ، ولا يقصدون معنى ما فيها من الذمّ . [فتح الباري جـ٥ ص ٣٥٠]

(٥) مسعر حرب : قال الخطابي كأنه يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير لها . [المصدر السابق]

فخرج حتى أتى سِيفَ البحر[١]، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي – صلى الله عليه وسلّم – تناشده بالله والرَّحِم لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي – صلى الله عليه وسلّم – إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ الفتح: ٢٦ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت.[٢]

لقد اتضح للصحابة الكرام في نهاية أحداث الحديبية بعض الأمور التي حيرت عقولهم، ثمّ بانت حقيقتُها في سير الأحداث، أو ببيان النبي – صلى الله عليه وسلم- لهم. لكن الأثر النفسي للرجوع دُون تحقيق مأربهم وشفاء غلهم من الطواف، بقي أثره مرسوماً على وجوههم. ولعلّ أفضل من يصف لنا حالة القوم في تلك اللحظات هو الصحابي الجليل أنس بن مالك –رضي الله عنه –، صاحب الحس المرهف والعاطفة النابضة، والخبير بنفسيات أصحابه؛ فهو كثيراً ما يعبر عن الأثر العاطفي عند الصحابة في مواقف كثيرة منها — على سبيل المثال — قوله بعد روايته لحديث: " فإنك مع من أحببت " قال أنس : **فما فرحنا بعد الإسلام، فرحاً أشدّ** من قول

(١) سِيف البحر : أي ساحله [المصدر السابق]

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشروط. باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط رقم: ٢٧٣١، ٢٧٣٢

النبي – صلى الله عليه وسلّم – : " فإنَّك مع من أحببت ".[١] ومنها حينما حدّث بحديث : " يا أبا عمير، ما فعل النغير ؟ " قال أنس في أوله : **فرآه حزيناً** فقال : يا أبا عمير ... "[٢] ومنها حديثه في قصة الحجاج بن علاط[٣] في غزوة خيبر إذ قال في آخره : " **فسُرَّ المسلمون ، ورُدَّ ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين** "[٤] ومنها حديثه عن أثر وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم– على المسلمين إذ قال : " لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– المدينة **أضاء فيها كل شيء** فلما كان اليوم الذي مات فيه **أظلم منها كل شيء**، وما نفضنا عن رسول الله الأيدي **وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا** "[٥] فإذا حدثنا هذا الصحابي الجليل عن الجو الذي نزلت فيه هذه السورة فثم ذاك. قال – رضي الله عنه–: **لما نزلت:** ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ " **مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة** ... الحديث وبعد نزول السورة مُسح الحزنُ كلُّه. ولما تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– السورة على عمر وبقي شيء يسير في نفسه، قال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم. فطابت نفسه ورجع. ثم

(١) صحيح مسلم،كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، ص٢٦٣٩ رقم : ١٦٣

(٢) مسند الإمام أحمد،جـ ١٩ ص١٨٥ رقم :١٢١٣٧

(٣) الحجاج بن عِلاط : هو الحجاج بن علاط السلمي ثمَّ الفهري قدم على النبي – صلى الله عليه وسلّم – في خيبر فأسلم، سكن المدينة واختط بها داراً ومسجداً. مات في خلافة عمر. انظر : الإصابة جـ ١ ص ٣١٣ رقم : ١٦٢٢

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ ١٩ ص ٤٠٢ رقم: ١٢٤٠٩

(٥) رواه الترمذي في سننه ،كتاب المناقب عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، باب فضل النبي – صلى الله عليه وسلم –، وقال : هذا حديث غريب صحيح، وصحّحه الألباني. انظر: [سنن الترمذي،حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤٢٩هـ]ص ٨٢٣ رقم : ٣٦١٨

ندم على موقفه وقال عن نفسه: فعملت لذلك أعمالا – أي أعمالا صالحة كثيرة ليكفر بها عن موقفه – وفي رواية أخرى أنه قال :ما زلت أتصدّق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ حتى رجوت أن يكون خيراً.[(١)] وأدرك بعض الصحابة خطأهم في الرأي وأدركوا الحكمة من اتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم- في المنشط والمكره، خصوصاً بعد أن انكشفت لهم المآثر الحميدة والمكاسب العظيمة لهذا الفتح.

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٣١ ص٢١٧ رقم: ١٨٩١٠

الفصل الثاني

مكيُّ السّورة ومدنيُّها، ومناسبتُها لما قبلها، ووجه اختصاصها بما اختُصَّت به، ومقاصدها

المبحث الأول : المكيُّ والمدنيُّ في السورة .

المبحث الثاني : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

المبحث الثالث: وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات .

المبحث الرابع : مقاصد السورة الكريمة .

المبحث الأول : المكّي والمدني في السورة

سورة الفتح مدنيّة كلّها بالإجماع، وممن حكى الإجماع على ذلك أبو المظفّر السّمعانيّ(١)، وابن الجوزي(٢)، والقرطبي(٣)، والبقاعي(٤). وما ذكر في حديث المسوّر ابن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما قالا: نزلت سورة الفتح بين مكّة والمدينة، "لا ينافي الإجماع على كونها مدنية لأنّ المرادَ بالسور المدنية النازلةُ بعد الهجرة من مكّة".(٥)

وممّا يؤيّد ذلك أنّها نزلت في شأن الحديبية من أوّلها إلى آخرها، وأنّها نزلت جملةً واحدةً. وغزوةُ الحديبية كانت في السّنة السّادسة من الهجرة النّبوية، فالسّورة "مدنيّة على المصطلح المشهور في أنّ المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكانٍ غير المدينة "(٦)كما تقدّم.

---

(١) تفسير القرآن، أبو المظّفر السمعاني، تحقيق: غنيم بن عباس، دار الوطن- الرياض، ١٤١٨ هـ. جـ٥ ص١٨٨، وأبو المظفر السمعاني هو: منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني المروزي ولد سنة ست وعشرين وأربعمائة. صنف في التفسير والفقه والأصول والحديث، وتوفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وعاش ثلاثاً وستين سنة.[سير أعلام النبلاء . جـ١٩ ص١١٤]

(٢) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي- بيروت. ط [بدون] جـ٧ ص٤١٨. وابن الجوزي هو: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي الحنبلي، صاحب التصانيف، علامة السّير والتاريخ، وبحر التفسير، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة [سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص٣٦٥]

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ١٥ ص٢٥٩. والقرطبي هو: محمد بن أحمد الأنصاري، المفسر صاحب الجامع، له تصانيف كثيرة توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة [الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر- القاهرة جـ٢ ص٣٠٨]

(٤) مصاعد النظر جـ٢ ص٤٩١.

(٥) فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر ١٣٨٣هـ، جـ٥ ص٤٣

(٦) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤١

وموضوعات سورة الفتح تماثل موضوعات السّور المدنية؛ فهي تتحدث عن الفتح والنَّصر، وذكرِ بعض أحكام الجهاد، وبيانِ حال المتخلِّفين عنه، وذكر المنافقين، والحديث عن بيعة الرضوان والوعد بدخول المسلمين المسجد الحرام محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، وظهور الدين، ووصف أصحاب النبي – صلّى الله عليه وسلم- بأنّهم أشداء على الكفار، بينما كانوا قبل الهجرة في مكّة مستضعفين كما وصفهم القرآن الكريم. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الأنفال: ٢٦

وأما من ناحية الأسلوب فإنّ فواصل السورة ليّنةٌ مسترسلةٌ، وآياتها متوسِّطةٌ وطويلةٌ، ومقاطعها ليست بالقصيرة. وهذا الأسلوب من طبيعة السور المدنية، كما أن أسلوب الخطاب في السورة يتناسب مع حال المسلمين في مرحلة نزولها؛ فإذا تأملنا "في جوّ سورة الفتح وإيحاءاتها [يتّضح] أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة، وتجانست مستوياتها الإيمانية، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدّين، ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميّتها، وينهنه حدّتها، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء، والمهادنة بعض الوقت، وفق حكمة القيادة العليا للدّعوة"(١)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق- بيروت، القاهرة، ١٣٩٧هـ. جـ٦ ص٣٣١٥

وقد ذكر فيها لفظ المنافقين والمنافقات، وكذلك التوراة والإنجيل، وهذه الألفاظ لم تذكر في السّور المكّية إلاّ نادراً.(١)

(١) كذكر ما يدل على النفاق في سورة الماعون ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ وهي مكّية. وقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: فهم المنافقون ،كانوا يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم ، وهو الماعون [جامع البيان جـ ٢٤ ص٦٦١] وكذكر التوراة والإنجيل في سورة الأعراف وهي مكّية في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ الآية: ١٥٧

المبحث الثاني: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

المطلب الأول: مناسبة افتتاحية السورة لخاتمة ما قبلها :

لقد ختمت سورة " محمّد " - عليه الصّلاة والسّلام- بالدعوة للإنفاق في سبيل الله، وبيان أنّ من ضعاف الإيمان من يمسك عن الإنفاق بخلاً، ويغفل عن حقيقةٍ عظيمةٍ وهي أنّ الله هو الغنيُّ. ثم بيّنت أنّ من يعرضون عن مناصرة الدّعوة بأموالهم وأنفسهم لا يصلحون لقيادتها، وسوف يستبدل الله قوماً غيرهم يبذلون جهدهم في سبيل الله فيستحقّون النَّصر الموعود. ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ محمد: ٣٨

ثم جاءت سورة " الفتح " بعدها تبشّر في مطلعها بالفتح المبين، وتجعله علّةً لمنحٍ ربّانيةٍ أخرى وُعد بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهي المغفرة وإتمام النّعمة، والهداية والثّبات على الصّراط المستقيم، وكذا النَّصر العزيز الذي هو قرين الفتح وثمرته، ثمّ عُطف ذلك بذكر من يستحقون النَّصر العزيز الذي وُعد به رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-، ومن أسبابه ما أنزله الله من السّكينة في قلوب المؤمنين الباعثة على زيادة الإيمان في مقابل ضعف الإيمان ونقصانه عند من يبخلون بالإنفاق في سبيل الله ثم خُتمت الآيات بالتأكيد والتّطمين بأن لله جنودَ السماوات والأرض

وأنّ ذلك كلّه موافقٌ لعلم الله وحكمته سبحانه.[١] والمقصود أنه لمّا قال في سورة محمد: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ بشّر رسوله – صلى الله عليه وسلم- في سورة الفتح بالفتح العظيم، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال.[٢]

---

(١) انظر نظم الدرر جـ١٨ ص٢٧٢-٢٧٤، و انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، تعليق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي- بيروت ١٤٢١هـ، جـ٢٥ ص٣٣٣، وانظر في ظلال القرآن، جـ٦ ص٣٣١٥ والتفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي- القاهرة، بدون تاريخ جـ١٣ ص٣٩١،

(٢) البحر المحيط في التفسير جـ٩ ص٤٨٢

المطلب الثاني: المناسبة بين افتتاحية السورة وافتتاحية ما قبلها

لقد بيّنت فاتحة سورة " محمد " نتيجة الموقف من الدعوة الإسلامية، فالكافرون الصّادّون عن سبيل الله قد أضلّ الله أعمالهم بسبب اتباعهم للباطل، والمؤمنون الذين اتبعوا الحقّ الذي أُنزل على محمّد – صلى الله عليه وسلم- أصلحَ بالهم.

وكذلك سورة " الفتح " بيّنت فاتحتها نتيجةَ الموقف من الدعوة الإسلاميّة في الدّنيا والآخرة. فللمؤمنين -محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه- الفتحُ والنَّصر والمغفرة وإتمام النّعمة والهداية والسكينة، إضافة إلى دخول الجنة وتكفير السيئات بسبب إيمانهم وتصديقهم بالرسالة.

وأما المنافقون والمشركون فعليهم دائرة السوء، ولهم الغضب واللعنة بالإضافة إلى دخول جهنم بسبب ظنهم ظن السوء بربهم سبحانه وتعالى. فكانت افتتاحية سورة الفتح مؤكدةً ومفصلةً لافتتاحية سورة محمَّد.

المطلب الثالث : المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

قال البقاعي في نظم الدّرر: "سورة الفتح مقصودها مدلول اسمها، الذي يعمّ فتح مكّة وما تقدمه من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما، وما وقع تصديق الخبر به من غلب الروم على أهل فارس، وما تفرع من فتح مكّة المشرفة من إسلام أهل جزيرة العرب وقتال أهل الردة وفتوح جميع البلاد الذي يجمعه كله إظهار الدين على الدين كله، وهذا كله في غاية الظهور بما نطق به ابتداؤها وأثناؤها ... وانتهاؤها ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الفتح : ٢٨، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ...﴾ إلى قوله : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الفتح:٢٩ أي بالفتح الأعظم وما دونه من الفتوحات، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ...﴾ الفتح:٢٩ كما كان في أولها للرسول – صلى الله عليه وسلم- ﴿...وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ".[1] وقال بعد تفسير قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ : "وقد ظهر من هذا وما في صريح الآية من القوة المعزة للمؤمنين، المذلة للكافرين ردّ مقطعها على مطلعها بالفتح للنبي – صلى الله عليه وسلم-، والتسكين العظيم لأصحابه – رضي الله عنهم- والرحمة والمغفرة والفوز العظيم لجميع أتباعه وأنصاره وأشياعه –رضي الله تعالى عنهم أجمعين- وجعلنا بمنّه وكرمه منهم".[2]

(١) نظم الدّرر جـ٢٦ ص٢٧٣، وانظر مصاعد النظر جـ٢ ص٤٩٢

(٢) نظم الدّرر جـ٢٦ ص٣٤٧

المطلب الرابع : المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

١- تحدثت سورة محمد عن القتال وتحدثت سورة الفتح عن الفتح وهو بمعنى النَّصر وهو مرتب على القتال.(١)

٢- ذكر في سورة محمد الأمر بالاستغفار ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ وجاء في سورة الفتح قبول هذا الاستغفار وشمول الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالغفران الشامل لكل ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.(٢)

٣- حملت السورة السابقة اسم " محمّد " وناسب في هذه السورة ذكره- صلى الله عليه وسلّم- بأوصافٍ ونعمٍ تفضّل اللهُ بها عليه.(٣)

٤- ورد في سورة " محمد " ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴾ وفي سورة الفتح كانت كلمة التوحيد سمةً لكلّ أصحابه ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ففي سورة محمد ذكرت كلمة التّوحيد باللفظ وفي سورة الفتح ذكرت بالوصف.(٤)

٥- ورد في سورة محمد ما نُزّل عليه من الحقّ ، وذكر في سورة الفتح ما نزّل عليه من النَّصر والسكينة.

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ص١٣١، روح المعاني جـ٢٥ ص٣٣٣

(٢) روح المعاني جـ٢٥ ص٣٣٣ ، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم جـ٧ ص٢٨٦

(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ١٣ ص٣٩٢

(٤) انظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، جـ٧ ص٢٨٦

٦- ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – في سورة " محمد " بالاسم المجرد مرّة ﴿ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ وذكر بالوصف " الرسول " مرّتين وكانا منفصلين ، وذكر في سورة الفتح باسمه الكريم المقرون بالوصف الشريف في جملة واحدة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾.

٧- ذكر في سورة " محمد " الأمر بالخيار للأسرى ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ محمد:٤ وذكر في الفتح الامتنان بالمنّ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

٨- قال في سورة " محمد " ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ .... ﴾ محمد:٣ وفي سورة الفتح بعدها ضرب المثل العظيم لمحمّد – صلى الله عليه وسلم–وأصحابه – رضي الله عنهم–.

٩- قال في سورة " محمد " ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ثم ذكر في سورة الفتح رضاه عنهم ونصرهم ورزقهم مغانم كثيرة.(١)

١٠- قال في سورة " محمد" عن الكافرين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ وقال عنهم في سورة الفتح مبيناً نتيجة ذلك وأنه الفشل والخذلان فقال: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، جـ٣ ص٣٩٢

١١- قال في سورة " محمد " ذاماً المنافقين على إعراضهم عن الجهاد في سبيل الله: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ وبيّن في سورة الفتح بعدها أصحاب الأعذار في الجهاد فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ... ﴾.

١٢- إنّ في كلٍّ من السورتين ذكراً وبياناً لأوصاف المؤمنين والمنافقين والمشركين.[1]

١٣- ذكر في سورة محمد الأمر بقتال الكافرين ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ... ﴾ وبيّن في سورة الفتح المانع من قتالهم آنذاك فقال ﴿ ... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

١٤- ذكر في سورة محمّد ما يدلّ على أنّ الهدى يزيد وينقص ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ وذكر في سورة الفتح ما يدلّ على أنّ الإيمان يزيد وينقص ﴿ ... لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾.

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، جـ٧ ص ٢٨٦

١٥- ذكر في سورة محمّد مكّة بالوصف دُون الاسم فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ وذكرها في سورة الفتح بالاسم فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ... ﴾.

١٦- "لما قال تعالى في آخر سورة القتال : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾كان هذا إجمالاً في عظيم ما منحهم وجليل ما أعطاهم وتضمنت سورة الفتح تفسير هذا الإجمال وبسطه" [١] فكان من معيته لهم وإعلائه لشأنهم أن أكرم نبيه بمنحٍ عظيمة وبشره بالفتح وأنزل عليه وعلى أصحابه السكينة ورضي الله عن أهل بيعة الرضوان، ورفع قدرهم، وأثابهم بالفتح وأخذ المغانم، وبشّرهم بفتح مكّة وظهور الدين.

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٦٦ - ١٦٧

المطلب الخامس : المناسبة بين خاتمة السورة وخاتمة ما قبلها

اختتمت سورة محمد بقوله تعالى: ﴿ ... وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ واختتمت سورة الفتح بالأوصاف العظيمة لهؤلاء القوم ومن أخصها أنهم " مع رسول الله " كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ أي : على منهاجه وسنته، وهذا المعنى مناسب لكونهم ليسوا أمثالهم.

المطلب السادس : المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة ما بعدها

لما ختمت سورة " الفتح " بثناء الله سبحانه على الصحابة الكرام وتزكيتهم وذكر وصفهم في التوراة والإنجيل. ناسب ذلك أن يطالبوا في فاتحة الحجرات بآداب تناسب عليَّ إيمانهم.[١]

(١) انظر المصدر السابق ص ١٦٨-١٦٩

المطلب السابع : المناسبة بين افتتاحية السورة وافتتاحية ما بعدها

تضمنت افتتاحية سورة " الفتح " تشريفاً للنبي - صلىّ اللّه عليه وسلّم-. وتضمنت افتتاحية سورة الحجرات بعدها تشريفاً وتكريماً وتقديراً له ببيان منزلته وعدم التقدم عليه بقول أو فعل، وتعليم أصحابه الأدب في مخاطبته وعدم رفع الصوت عنده بحديث أو نداء.(١)

(١) المصدر السابق

المطلب الثامن : المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما بعدها

١- تضمنت سورة " الفتح " في الحديث عن المؤمنين بأنه سبحانه ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها.

وبين في سورة الحجرات أنهم لم يستحقوا ذلك إلا بعد امتحانٍ لقلوبهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ الحجرات : ٢.

٢- لما ذكر الله صحابة رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سورة الفتح ووصفهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ...﴾ ناسب في السورة بعدها أن يثبت لهم الأخوة، وأن يذكر مجموعةً من الآداب لتحقيق الرحمة والألفة والتلاحم بينهم مع ذكر شيء من شدتهم في تحقيق العدل ولمّ الشمل عند حصول التنافر والبغي بما يؤدي إلى ثبات وتماسك البناء في الأمة الإسلامية وعدم احتياجها إلى غيرها من الأمم عند الاختلاف.

٣- ولما ذكر الله عز وجل وعده للمؤمنين في سورة " الفتح " بقوله : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ بيّن في السورة بعدها بأنّ هذا الإيمان كان فضلاً منه ورحمة سبحانه ﴿.. وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ..﴾.

٤- ولما ذكر المخلّفون من الأعراب في سور الفتح وأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وذكر حرصهم على المغانم ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ

إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ .. ﴾ بيّن في سورة الحجرات الحال التي يتمكن فيها الإيمان من القلوب ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ .. ﴾ الحجرات : ١٤.

٥- ولما وعد المخلفين في سورة الفتح بالجهاد : ﴿ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ... ﴾ الفتح: ١٦ لتربيتهم وتمحيصهم وتثبيت إيمانهم.

ذكر في سورة الحجرات حقيقة الإيمان الذي يهون معه الجهاد بالمال والنفس ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

٦- ذكر في سورة "الفتح" قتال الكفار، وذكر في سورة "الحجرات" قتال البغاة ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ (١)

(١) انظر أسرار ترتيب القرآن ص ١٣٢

المطلب التاسع : المناسبة بين خاتمة السورة وخاتمة ما بعدها

لما ختمت سورة " الفتح " بذكر وعده جل وعز للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم. ختمت سورة الحجرات بما يفيد أن هذا الإيمان إنما هو منّة وهداية منه سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض..

المبحث الثالث : وجه اختصاص السّورة بما اختصت به من موضوعات

اختصّت سورة الفتح بالحديث عن "صلح الحديبية" باعتباره حدثاً تاريخياً عظيماً في مسيرة الدعوة الإسلامية، فسّماه الله فتحاً، وأثنى – سبحانه وتعالى– على المسلمين المشاركين فيه، وأعلن رضاءه عنهم، واعتبر مبايعتهم لرسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– على الموت مبايعةً له سبحانه، تكريماً لهم. وفي المقابل ندّد بالمنافقين من الأعراب الذين مّر عليهم النّبي – صّلى الله عليه وسلّم– في مسيره إلى الحديبية، ودعاهم إلى مصاحبته في رحلته التّاريخية تلك فتثاقلوا وامتنعوا، واعتذر بعضهم بانشغالهم بأموالهم وأولادهم، وظنّوا ظنّ السّوء بأنّ المسلمين سيُقتلون جميعاً على أيدي قريش، ولن يرجع منهم أحدٌ، ففضح اللّه نواياهم الخبيثة وكشفها لرسوله – صلّى الله عليه وسلّم– حتى يكون على حذرٍ منهم ومن دسائسهم.

وقد بشّرت السّورة بفتح خيبر(١)، وأنّ المسلمين سيظفرون بغنائم عظيمة في خيبر، وبيّنت أنّ المتخلفين من المنافقين والأعراب سيطلبون المشاركة في هذا الغزو من أجل الحصول على الغنيمة، ووجّهت النّبي – صلّى الله عليه وسلّم– إلى عدم السّماح لهم بالمشاركة معاقبةً لهم على تخلّفهم، لأنّ الله سبحانه قد وعد أهل الحديبية وحدهم بمغانم خيبر، مكافأةً لهم على ثباتهم وطاعتهم.

كما وُجّه النّبيُّ – صلّى الله عليه وسلّم– إلى دعوة الأعراب بأن يستعدّوا للمشاركة في معارك شديدة غير خيبر إن كانوا صادقين في طلب الجهاد.

---

(١) خيبر: ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، ولفظ خيبر بلسان اليهود:الحصن، وهي موصوفة بكثرة النخيل والتمر. [معجم البلدان جـ٢ ص ٤٠٩]

وأشارت الآيات إلى سببٍ مهمٍّ من أسباب اتّباع النّبي – صلّى الله عليه وسلّم- طريق الصّلح بدلاً عن الحرب، وهو الحفاظ على أرواح المسلمين المستضعفين في مكّة، وحمايتهم من معرّة الجيش الإسلامي الذي أكّدت الآيات انتصاره لو حصل قتال.

كما ندّدت بعَنت قريش وتصلّف مندوبها في المفاوضة بروحٍ جاهليةٍ وحمّيةٍ وثنيّةٍ عند كتابة الصّلح، وفي المقابل تكرّر الثناءُ على المسلمين لكبتهم العواطف الفوّارة، والتزامهم السّكينة وإطاعتهم أمر نبيّهم رغم كرههم للصلح.

ولم يغبْ في السّورة الحديثُ عن الغرض الأساس الذي قدم المسلمون مع نبيّهم إلى مكّة من أجله، بل أكدت الآيات على تحقّق رؤيا الرسول – صلّى الله عليه وسلّم- وتطمين المسلمين بأنهم سيدخلون مكّة معتمرين في أمن وأمان، كما وعدهم نبيهم بذلك. ولفتتْ نظرَ الذين لم يدركوا الحكمةَ من هذا الصلح فكرهوه بَادئ الأمر وعارضوه، إلى أنّ الله يعلم ما لهذا الصلح من مكاسب عظيمة وأنه فتحٌ وانتصارٌ للمسلمين(١).

فاختصّت هذه السورة الكريمة إضافة إلى الإشادة بصلح الحديبية وأنّه فتحٌ مبينٌ ونصرٌ عظيمٌ، بالبشارة بفتوحاتٍ عظيمةٍ متواليةٍ، كان في مقدمتها فتحُ خيبر ثمّ مكّة.

وخُتمت السورةُ بذكر أوصاف الجماعة التي استحقّت هذا النَّصر وتلكم الفتوح، وكان في طليعتها وصف النّبي الحبيب محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- بصفته

(١) بتصرف من كتاب: صلح الحديبية، محمد أحمد باشميل، دار الفكر- بيروت ،١٣٩٣هـ، ص ٢٨٥-٣٠٥

التي أنكرها سهيل بن عمرو ومَن وراءه من المشركين " محمد رسول الله " – صلى الله عليه وسلم-.(١)

كما اختُصَّت سورة الفتح بتكريم النّبي- صلّى الله عليه وسلّم- بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، ولم يرد هذا الإكرام في سورةٍ سواها، قال ابن كثير – رحمه الله- : "وهذا من خصائصه – صلى الله عليه وسلم – التي لا يشاركه فيها غيره وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره، غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو في جميع أموره على الطاعة والبر، والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ."(٢) ولذلك فرح النّبي – صلى الله عليه وسلم- بهذا التّكريم فرحاً شديداً.

وبشّرت النّبي – صلّى الله عليه وسلّم- بإتمام النعمة.

كما اختُصت السورة الكريمة بذكر فضل أصحاب بيعة الرِّضوان، حتى أصبح الثناء عند الصّحابة والتابعين لهؤلاء الصّحابة – رضي الله عنهم- بأنّ فلاناً من أصحاب الشّجرة، أو ممّن بايع بيعة الرضوان، لتميّزهم برتبة.

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ ٢٦ ص ٣٣٣١

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص٣٢٢٩

فقد ورد في صحيح البخاري عن العلاء بن المسيَّب(١)، عن أبيه(٢) قال: لقيت البراء بن عازب(٣) رضي الله عنهما فقلت: طوبى لك، صحبت النّبي – صلى الله عليه وسلم- وبايعته تحت الشجرة ... الحديث(٤)

وذُكرت عند سعيد بن المسيب(٥) الشجرةُ فضحك فقال: أخبرني أبي وكان شهدها.(٦)

وعن عمرو بن مُرَّة(٧) قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى(٨) وكان من أصحاب الشجرة... الحديث.(٩)

---

(١) العلاء بن المسيب: هو العلاء بن المسيب بن رافع الأسدي، قال فيه ابن معين: ثقة مأمون وذكره المحبان في الثقات، وفي الميزان: قال بعضهم كان يهم كثيراً وهو قول لا يعبأ به [تهذيب التهذيب جـ٨ ص١٩٢-١٩٣ رقم:٣٤٨]

(٢) المسيب بن رافع الأسدي ويقال الكاهلي، سمع أباه وعطاء، وروى عنه الثوري وجرير بن عبد الحميد، توفي سنة خمس ومائة. [التاريخ الكبير، جـ٦ ص٥١٢ رقم :٣١٥٣ والطبقات الكبرى جـ٦ ص٢٩٣]

(٣) البراء بن عازب: هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي –رضي الله عنه- يكنى أبا عمارة، أو مشاهده أحد وقيل الخندق. مات أيام مصعب بن الزبير وأرخه ابن حبان سنة اثنتين وتسعين [أسد الغابة جـ١ ص٣٦٢ رقم:٣٨٩ والإصابة جـ١ ص١٤٢ رقم:٦١٨]

(٤) صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية رقم:٤١٧٠

(٥) سعيد بن المسيب: هو سعيد بن المسيب بن حزم بن أبي وهب القرشي المخزومي كان أفقه التابعين. قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً من سعيد بن المسيب، وقال عنه أبو زرعة:مدني قرشي ثقة إمام. مات سنة أربع وتسعين وقيل سنة مائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وقيل تسع وسبعين [تهذيب التهذيب، جـ٤ ص٨٤ رقم: ١٤٥]

(٦) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب غزوة الحديبية رقم: ٤١٦٥

(٧) عمرو بن مرة: هو عمرو بن مرة بن عبد الله الجملي المرادي، أبو عبد الله الكوفي الأعمى، قال ابن معين: ثقة. وقال أبو حاتم: صدوق ثقة. وقال ابن عيينة: كان عمرو من معادن الصدق. مات سنة ثماني عشر ومائة وقيل سنة ست عشر ومائة [تهذيب التهذيب، جـ٨ ص١٠٣ رقم:١٦٣]

(٨) عبد الله بن أبي أوفى: هو عبدالله بن أبي أوفى الأسلمي –رضي الله عنه- واسم أبي أوفى علقمة بن خالد بن الحارث، شهد الحديبية وبايع بيعة الرضوان وشهد خيبر وما بعدها من مشاهد، توفي بالكوفة سنة ست وثمانين، وقيل سبع وثمانين وكان آخر من مات بها من الصحابة [أسد الغابة جـ٣ ص١٨١ رقم:٢٨٣٠ والإصابة جـ٢ ص٢٧٩ رقم: ٤٥٥٥]

(٩) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم: ٤١٦٦

وخلاصة القول أن هذه السورة الكريمة قد اختصت بأمور منها :

١- بشارة النبي – صلى الله عليه وسلم- بالفتح والنَّصر العزيز المتضمن للغلبة والظهور والتمكين.

٢- بيان أنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم- قد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر.

٣- ذكر أحداث صلح الحديبية وتسمية ما وقع فيها من الصلح والهدنة فتحاً.

٤- اشتمالها على ألفاظٍ تدلّ على النَّصر والفتوحات وظهور الدين، فقد تكرَّر لفظ الفتح – مادة فتح وما يشتق منها- في هذه السورة أربع مرات –كما تقدم-. وتكرر لفظ النَّصر – مادة نصر وما يشتق منها- ثلاث مرات، وتكرر ما يدل على الظهور والغلبة والتمكين مرتين؛ مرة باللفظ ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ وبالمعنى مرة ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

٥- **تكرر لفظ الجلالة في السورة تسعاً وثلاثين مرة**،مع أن آياتها تسع وعشرون آية ،لتوجيه القلوب إلى عبوديته إذ النَّصر والفتح والقوة والتمكين منه سبحانه وحده.فهو مستحق للحمد والشكر والتسبيح والدعاء وسائر أنواع العبادة.

٦- إنّ **لفظ** (**السَّكينة**) الذي ورد في القرآن الكريم ستَّ مرات. قد **تكرَّر في هذه السورة الكريمة ثلاث مرَّات**.[(١)] وذلك لأنها سبب رئيس للثبات أمام الأعداء ونيل النصر .

٧- مما اختصَّت به هذه السُّورة أنه لم يُبيَّن موضع (السكينة) ومحلُّها، وأنها في القلوب إلا في هذه السُّورة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[(٢)].

٨- الثناء على من بايعوا بيعة الرضوان والرضا عنهم ورفع درجتهم.

٩- إنفرادها بمدح النبي – صلى الله عليه وسلم- باسمه الكريم المقرون بشرف الرسالة ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ** ﴾.

١٠- اشتمالها على ذكر أوصاف صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في القرآن والتوراة والإنجيل.

١١- اشتمالها على آية ذكر فيها جميع أحرف الهجاء ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ** ... ﴾ الآية.

١٢- ومما اختصت به هذه السورة الكريمة المقابلة بين ما مُنِح رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – من الفضائل والنِّعم – وهي أزكاها وأعلاها – وبين ما مُنح به

(١) في سورة البقرة: الآية ٢٤٨ وفي سورة التوبة: في الآيتين: ٢٦ و ٤٠ وفي سورة الفتح: في الآيات ٤ و ١٨ و ٢٦

(٢) انظر أضواء البيان جـ ٧ ص ٦٠٨

المؤمنون مما يقابلها نوعاً لا فضلاً ؛ فقد قال الله تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وقال عن المؤمنين – رضي الله عنهم – ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وقال لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وقال عن المؤمنين: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ وقال لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ وقال عن المؤمنين: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ وقال لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ وقال مخاطباً المؤمنين: ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ وقال لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ وطمأن المؤمنين بالنَّصر – لوقُدِّر حصول القتال – فقال: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

١٣- ومما اختصَّت به هذه السورة أن **أكثر تفاصيل هذه السورة هو من أعلام النُّبوَّة**، مما وقع به الإخبار قبل وقوعه [١].

وقد تتبَّعتُ ذلك في السُّورة فوجدته في اثني عشر موضعاً وهي:

(١) انظر نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣١٩

الأول : قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

الثاني : قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾

الثالث : قوله تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾

الرابع : قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾

الخامس : قوله تعالى: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ على قول من قال بأنه فتح خيبر.

السادس : قوله تعالى:﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾

السابع : قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾

الثامن : قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ قال سيد قطب – رحمه الله-: " وأقرب ما يناسب السِّياق أن تكون هي فتح مكة ، بعد سبب الحديبية وبسببٍ من هذا الصلح ...فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع، لم

يحدّدها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله ، أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرّضى والتطلع والاستبشار."(١)

التّاسع : قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ . قال ابن تيمية – رحمه الله – : " وكان كذلك، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون ، وما زال الإسلام في عزٍّ وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب.(٢)

العاشر : قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال البقاعي: وهذا من أعلام النبوة، فإنَّ أهل الحديبية الذين أُلزموا هذه الكلمة ماتوا كلهم على الإسلام.(٣)

الحادي عشر : قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾

الثاني عشر : قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾

ووجه كل ما اختصت به هذه السورة الكريمة مما سبق ظاهرُ المناسبة لموضوعها الرئيس وهو الفتح والنَّصر وظهور دين الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون.

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٢٧

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ١٤ ص ٢٤٤

(٣) انظر نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣٣١

المبحث الرابع: مقاصد السورة الكريمة

١- إن أعظم مقاصد هذه السورة ما دل عليه اسمها، وهو الفتح[١] والمراد به صلح الحديبية في قول جمهور المفسرين[٢]، وقد دلّت عليه النصوص الصحيحة التي سبق ذكرها، ومن أهمها حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم الذي دلّ على أن هذه السورة نزلت في شأن الحديبية كلها. حيث " تضمنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية وأنه نصر وفتح".[٣]

٢- ومن مقاصدها :بشرى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالفتح ومغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام النعمة والهداية للصراط المستقيم وتحقّق النَّصر العزيز.[٤]

٣- ومنها: الامتنان على المؤمنين بالسكينة، ووصفهم بالإيمان، وجعل ما أنزل عليهم من السكينة والاطمئنان سبباً في زيادة إيمانهم ويقينهم بأن الله ناصر دينه، معز أولياءه، ومذل أعداءه، وتعويضهم بجنود الله التي لا يعلمها إلا هو، ووعدهم بدخول الجنة وتكفير السيئات.[٥]

٤- وبيان ما أعده الله لأعداءِ الدين من المشركين والمنافقين من غضب ولعنة وعذاب شديد في جهنم وبئس المصير.[٦]

---

(١) نظم الدرر جـ١٨ ص٢٧٣

(٢) البحر المحيط جـ٩ ص٤٨٢

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٢

(٤) انظر في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣

(٥) انظر تفسير المراغي جـ٢٦ ص١١٨و في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣

(٦) في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣

٥- و"التنويه ببيعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واعتبارها بيعة لله؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق"[١] ومدح من حضرها من المؤمنين ورفع شأنهم بأنه رضي الله عنهم ووعدهم بالنَّصر في الدنيا والآخرة.

٦- والحديث عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الحديبية، وفضح معاذيرهم، وكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله، ومن توقع السوء للرسول – صلى الله عليه وسلم– ومن معه. ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن وبالكذب على رسول الله–صلى الله عليه وسلم– [٢]

٧- ومنع المتخلفين من المشاركة في غزوة خيبر، وإنباؤهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية.[٣]

٨- وبيان المعفين من الجهاد لعجزهم عنه.[٤]

٩- ووعد النبي– صلى الله عليه وسلم – بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه.[٥]

١٠- والتسرية عن المؤمنين لما أصابهم من انكسار لرجوعهم من الحديبية دُون تحقّق مقصدهم، وأن هذا لم يكن عن ضعف، بل لو حصل قتال لانهزم فيه الكفار.[٦]

الكفار.[٦]

(١) في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣ وانظر تفسير المراغي جـ٢٦ ص١١٨

(٢) في ظلال القرآن، جـ٢٦ ص٣٣١٣ وانظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٣

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٣

(٤)في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣

(٥) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٣، وقد أراد فتح خيبر ثم فتح مكة وسيأتي بيان ذلك في الباب الثاني إن شاء الله تعالى

(٦) في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣

١١- الامتنان على المؤمنين بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى؛ والتنديد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام، وصدوا الهدي أن يبلغ محله.(١)

١٢- البشرى بتحقق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنهم يدخلون المسجد الحرام وقد تمّ لهم ذلك.(٢)

١٣- وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه بالأوصاف العلية والتنويه بذكرهم والثناء عليهم في الكتب السابقة: التوراة والإنجيل. ووعد الله الكريم لهم بالمغفرة والأجر العظيم ..(٣)

---

(١) المصدر السابق.

(٢)تفسير المراغي جـ٢٦ ص١١٨

(٣) تفسير المراغي جـ٢٦ ص١١٨، في ظلال القرآن جـ٢٦ ص٣٣١٣

البـــاب الثاني

التّناسقُ الموضوعيّ: دراسةٌ تطبيقيَّةٌ

ويشملُ :

الفصل الأول: مناسبات السورة الكريمة والموضوع الكلي فيها.

الفصل الثاني: موضوعات السورة الكريمة وتناسقها.

الفصل الأول

مناسبات السورة الكريمة والموضوع الكلِّي فيها

ويشتملُ على المباحث التالية :

المبحث الأول : مناسبة اسم السّورة لموضوعاتها.

المبحث الثَّاني : مناسبة فاتحة السّورة لموضوعاتها.

المبحث الثالث : الموضوع الكلي في السورة الكريمة.

المبحث الأول: مناسبة اسم السّورة لموضوعاتها

لقد سبق قول الزركشي -رحمه الله-: " ينبغي النّظر في وجه اختصاص كلِّ سورةٍ بما سمِّيت به". وقد ذكرَ في البرهان بعض هذه الوجوه ومنها :

١- تسميتُها بما يُذكر فيها من قصّةٍ غريبةٍ أو أحكامٍ خاصّةٍ أو أحوالٍ تفصيليّةٍ وذكرَ أمثلةً لذلك: فسورة البقرة لذكر قصة البقرة، وسورة النساء لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء، وسورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها.

٢- التكرار في الكلمات. وذكر مثالاً لذلك سورة "هود" التي تكرّر اسمه فيها ثماني مرات، مع أنّ السورة تضمنت الحديث عن كثير من الأنبياء. وسورة "ق" لما تكرَّر فيها من ذكر الكلمات بلفظ قاف، وهكذا جميع السور التي افتتحت بالحروف المقطّعة.

٣- الإنفراد؛ فسورة نوح لمّا انفردت بقصته مع قومه ولم يقع فيها ذكر غيره من الأنبياء سميت باسمه. وهذه الأسباب كلها تنطبق على سورة الفتح؛ فقدّكرت أحوالاً خاصة بالحديبية، وغزوة خيبر ، وفتح مكة، وغيرها من الفتوحات. وتكرّر فيها لفظ الفتح ، وانفردت بالحديث عنه.

ووضح الدكتور محمد خليل جيجك[١] ما أجملَه الزركشيُّ من وجوه فقال: " إن السور القرآنية المنقولة إلينا بتواتر قطعي، التي لا يجاريها ولا يدانيها في قطعيتها أيُّ نصّ أو كتابٌ آخر تأخذ أسماءها إمّا من :

١- أوّل كلمتها، كما في "ق" و "ص"

٢- أو من أول كلمة ذكرت في أول جملها كما في "الملك" و "فصلت"

٣- وإما من بطل قصة غريبة ذكر فيها كما في: "النمل" و "البقرة" و "مريم" و "لقمان" و "الروم"

٤- وإما من اسمٍ يتبوأ موقعاً هاماً باعتبار ما مرّ فيه ذكره "كالنحل" و "العنكبوت" و"الكهف" و"الأعراف" و"الفرقان" و "الإسراء" و "الشعراء" و"القصص" و "الأحقاف".

٥- وإما من ذكر مجموعة متجانسة فيها كما في: "الأنبياء".

٧ - وإما لملابسة أن ذكر فيها أحكام جنس أو أجناس "كالنساء" و "الأنعام".[٢] وفي هذا التقسيم نجد أن القسم الثاني ينطبق على سورة الفتح فإن الفعل الدال على الفتح قد ذكر في أول آيةٍ منها.

---

(١) هو : محمد خليل جيجك، أبو فاطمة، من أهالي وان في تركيا، أستاذ بكلية الإلهيات في جامعة يوزنجويل بتركيا، له كتب وأبحاث مطبوعة .من [موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية] من الشبكة العنكبوتية.

(٢) دلالة أسماء سور القرآن الكريم ص١٨٣ والترقيم من عندي للإيضاح.

واعتبر الفراهي –رحمه الله– أسماء السور على أربعة أوجه فقال: "ولما كان اسم الشيء عنواناً لمعناه، وقد اشتهر من الأسماء مالا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة أوجه:

الأول: تسميتها بلفظ من أوائلها، فمنه ما نقله السيوطي: سورة الحمد، والبراءة، وسورة سبحان، وطه ،... وغير ذلك.

الثاني: تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف والشعراء والحديد والماعون، وغير ذلك، فهذه الأسماء لا تنبئ عن مقصد السورة، ولكنها كالشامة والسمة تتميز بها مسمياتها ...

الثالث: تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كتسمية سورة النور لاشتمالها على آية النور، وتسمية سورة آل عمران وسورة النساء، وسورة إبراهيم، وسورة يونس، وكثير من الأسماء على هذا الأسلوب.

الرابع: تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة، ..."(١)

وسورة الفتح تتفق مع ما ذكره الفراهي في القسم الأول والرابع منها ؛فإن الفتح هو أعظم مقاصد هذه السورة الكريمة.

وتساءل السيوطي – رحمه الله– لماذا لم يفرد لموسى – عليه السلام– سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن؟ وكذلك آدم – عليه السلام– ذكرت قصته في عدّة سور ولم تسمَّ به سورة ؟ وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص وردت في سورة الصافات ولم تسمَّ به ؟ وقصة داود – عليه السلام– ذكرت في سورة "ص" ولم تسمّ

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المعلم عبد الحميد الفراهي، صورة PDF في موقع ملتقى أهل الحديث ن الشبكة العنكبوتية. ص٦٢

به ؟ ولم يذكر لذلك جواباً ، واكتفى بالتعليق على ذلك بقوله : فانظر في حكمة ذلك ![١]

وندرك مما سبق أن ما ذكره العلماء في هذا الباب إنما هو استقراء لبعض الوجوه في التسمية، لكنه لا يسير على قاعدة واحدة مطردة بحيث يمكن التسليم بأن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، كما يقول البقاعي –رحمه الله–[٢]

ولهذا أشير هنا إلى أن اسم السورة ليس شرطاً أن يدلَّ على محورها الأساس وعمودها الرئيس ومقصودها الأهم –وإن كان الأمر في سورة الفتح كذلك.

يقول الفراهي – رحمه الله–: "ليس العمود هو أعظم المقاصد حقيقة، بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها ولكنه أهمُّ الأمور بياناً في سورة ذُكر فيها. ألا ترى آية النور تتلألأ في وسط السورة كواسطة العقد في الوشاح، أو كتعرض الثريا في كبد السماء، مع أنها ما جاءت إلا تبعاً، وعمود السورة حسن الأدب في أمور ربّات البيوت. ولذلك أمر النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– بتعليمها النساء لكي يعلمن مالهن وما عليهن"[٣].

وبعد هذا التمهيد اليسير أشير هنا إلى أنَّ اسم هذه السورة الكريمة – سورة الفتح– مناسبته واضحة جداً لموضوعاتها.

وحتى نحدِّد موضوعات السورة، فإنَّ سورة الفتح يمكن تقسيم آياتها إلى سبعة مقاطع :

---

(١) انظر الإتقان جـ١ ص ١٨٣

(٢) انظر نظم الدرر ص١٨

(٣) تفسير نظام القرآن ص٤٣

المقطع الأول: فاتحتها ويشمل قوله تعالى:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ إلى قوله:﴿ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾.وموضوعه:"المنَّة بالفتح العظيم وأثره على الرسول الكريم "

المقطع الثاني: من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ.. ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وموضوعه:"فضل الفتح المبين وأثره على المؤمنين"

المقطع الثالث: من قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.وموضوعه:"وظيفة الرسول الكريم وبيان حقه من الطاعة والتعظيم"

المقطع الرابع: من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ .. ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.وموضوعه:" مغبة التخلف عن نصرة الدين وفضح المخلفين وبيان المعذورين".

المقطع الخامس: من قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .وموضوعه:" الوعد بالأجر العظيم لمن نصر الدين والبشارة بانتصار المؤمنين على الكافرين".

المقطع السادس: من قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ .. ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ .. وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.وموضوعه:"الوعد بدخول المسجد الحرام وظهور دين الإسلام".

المقطع السابع: خاتمة السورة وهي قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ .. ﴾ إلى آخرها.وموضوعه :" الصفات الحسان لسيد الأنام وصحبه الكرام".

وبالنظر في موضوعات هذه المقاطع تتضح لنا المناسبة بينها وبين اسم السورة، وهي كما يلي:

المطلب الأول : مناسبة اسم السورة لفاتحتها :

قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾.

فاسم السورة هنا مطابقٌ لفاتحة السورة التي تبدأ بذكر الفتح، بالفعل (فتح) وإسناده إلى الفاعل سبحانه ﴿ فَتَحْنَا ﴾ وتعقيبه بلام الأجل ﴿ لَكَ ﴾ وتأكيده بمصدر الفعل ﴿ فَتْحًا ﴾ ووصفه بالظهور والبيان ﴿ مُّبِينًا ﴾ وتعليله بالمغفرة للنبي – صلى الله عليه وسلم– ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ... ﴾ وما عطف عليها من النعم والفضائل ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾.

فالتوافق بين اسم السورة وفاتحتها بيّنٌ ظاهرٌ. ولاشك أنّ الاتّحاد في فاتحة السورة واسمها قد يهدي إلى الاتحاد في تناسقها وموضوعها.

المطلب الثاني : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الثاني :

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ .

إنَّ هذا المقطعَ واضحُ مناسبته لاسم السورة فكما ذُكر(الفتح) في فاتحة السورة مرتّباً عليه بعضُ آثاره الجليلة وثماره الحميدة على النبي – صلى الله عليه وسلم–، فقد نتبع ذلك هنا جملة من الآثار المحمودة والنتائج المباركة لهذا الفتح على المؤمنين في الدنيا والآخرة، وبيان ما تقرّ به أعينهم من جزاء لأهل الشرك والنفاق، ومؤانستهم والتنفيسُ عنهم فيما أصابهم من الضيق والحرج عندما صدّتهم قريش عن

البيت الحرام. وأكدت الآيات أن لله جنودَ السموات والأرض لتسكين النفوس[١] وطمأنتها بقدرة الله وعلمه وحكمته المقتضية إعزازه ونصره للمؤمنين وإذلاله وخذلانه للكافرين.

المطلب الثالث : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الثالث :

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

هذا الخطاب عائدٌ لمن كان له الخطاب في فاتحة السورة، وهو شديد الاتصال بما قبله من الآيات، فلما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الوعد للمؤمنين بالجنة وتكفير السيئات، والوعيد للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بالنار وبئس المصير. ناسب هنا بعد ذلك أن يبين حقيقة رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم- التي آمن بها المؤمنون الصادقون، وأساء بها الظن المنافقون والمشركون، فبين أنه أُرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً. وأن أسّ دعوته هو الإيمان بالله ورسوله. ثم بيّن للجميع ما يستحقُّه هذا النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم- من التعظيم والإكرام والتقدير، مع المداومة والاستمرار في التسبيح والعبادة لله عز وجل بكرةً وأصيلاً.

(١) المحرر الوجيز ص١٧٢٩

المطلب الرابع : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الرابع :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا
فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ
أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ
إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم
مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا

عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

(الفتح) — اسم السورة- المراد به صلح الحديبية في قول أكثر المفسرين[١]. وهذا المقطع من السورة يثني على أصحاب بيعة الرضوان التي حدثت أثناء ذلك الحدث التاريخي الفاصل، ويبيّن حال من تخلفوا من الأعراب، ولم يستجيبوا لدعوة النبي — صلى الله عليه وسلم- ويفضح حججهم وأعذارهم الواهية، ويكشف سؤ ظنهم ويبيِّن وعيدَ الله لهم. كما يبين حالهم في غزوة خيبر ورغبتهم في الخروج إليها مع النبي - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه —رضوان الله عليهم- رغبة في المغنم. ويوصي بعدم السماح لهم بالمشاركة فيها، جزاءً وتأديباً لهم على صنيعهم. مع إعطائهم فرصة أخرى لاختبارهم؛ بأنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد لمقاتلتهم فإن استجابوا فهم الموعودون بالأجر الحسن، وإن تولوا فلن ينجوا من العذاب الأليم، حاشا أصحاب الأعذار الشرعية.

فما تحدثت عنه آيات هذا المقطع كان في شأن بعض الأحداث التي حدثت في الحديبية وعقيبها، وما يتلو ذلك من الأحداث ذات الصلة بالفتوحات وانتصار المسلمين. وهذا الحدث التاريخي العظيم والذي يعدُّ مفصلاً هاماً من مفاصل الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، أعني الهدنة التي حصلت بين المسلمين ومشركي

(١) قال البغوي: اختلفوا في هذا الفتح... والأكثرون على أنه صلح الحديبية. [تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغوي،دار ابن حزم — بيروت، ١٤٢٣هـ]، ص ١٢٠١

قريش، والتي دلّت على نهاية غطرسة قريش وكبرها والتي عرفت بـ(صلح الحديبية)، هذا الحدث هو ذاته (الفتح) الذي دلّ عليه اسم السورة؛ ومن هنا تتضح المناسبة.

المطلب الخامس : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الخامس:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

وعد الله سبحانه وتعالى المشاركين في بيعة الرضوان بفتح قريب، وهو فتح خيبر جزاء على ثباتهم ونصرتهم لدينهم، كما وعدهم بمغانم كثيرة يحصلون عليها في هذا الفتح. ثم وعدهم بالنَّصر وهزيمة الأعداء إن حصل القتال، مؤكداً لهم أن نصره للمؤمنين من سننه في خلقه، ثم ذكر بعض الأحداث التي حصلت في الحديبية، ونفّس عنهم بذكر سبب العدول عن القتال والموافقة على الصلح، مبيناً بعض الأسباب التي هيأها سبحانه لاستحقاق المؤمنين لهذا الفتح المبين. فالآيات تتحدث عن موضوع السورة الذي دلّ عليه اسمها.

المطلب السادس : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع السادس:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

في الآيات السابقة ذكر الرؤيا التي رآها رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في المدينة تبشره و أصحابه بدخول المسجد الحرام معتمرين، فأكد الله تحققها بعد فتح قريب. وهذا الفتح هو صلح الحديبية[1]-سماه الله فتحاً لما ترتب عليه من النتائج العظيمة لصالح المسلمين- وقد تحققت هذه الرؤيا في السنة السابعة للهجرة حيث كانت عمرة القضاء؛ فدخلوا مكّة – بعد الصلح- آمنين لا يخافون.

وفي الآية الثانية وعدهم ربهم بالنَّصر وظهور الدين، وقد تمّ ذلك بعد الفتح الأعظم – فتح مكّة المشرفة- فكان من تمام النعمة التي أتمها الله على نبيه.

فمناسبة اسم السورة لهذه الآيات واضحة جلية؛ حيث تكرر فيها ذكر الفتح ووصف بأنه قريب، وترتب عليه دخول مكّة في العام التالي، ثم فتح مكّة في العام الذي يليه، ثم ما ترتب على هذه الفتوح بعد ذلك من النَّصر والتمكين وظهور الدين.

(١) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٣١٨

المطلب السابع : مناسبة اسم السورة لخاتمتها :

قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾.

لقد دلّ اسم السورة على الفتح والنَّصرة، واشتملت هذه الآية –خاتمة السورة– على بيان نتيجة هذا الفتح وأوصاف من استحقوا هذا النَّصر ووُهبوا هذا الفتح، وهم محمّد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– والذين آمنوا معه.

المبحث الثّاني: مناسبة فاتحة السّورة لموضوعاتها

إن سورة الفتح بجميع وحداتها تتحدث عن صلح الحديبية. وقد ورد في فاتحة السورة الثناء الجميل على هذا الصلح حيث سُمِّيَ ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾، وتكرّر ذكره في أواخر آيات السورة ووُصف بكونه فتحاً قريباً في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾، على القول السابق ذكره بأن المراد به صلح الحديبية، وهذا الفتح وإن كان قد خُفي أثره العظيم على الصحابة – رضي الله عنهم- في بداية الأمر، إلاّ أنّ هذا الأثر قد أصبح مُبيناً بعد ذلك.

لقد توالت الآيات في هذه السورة تمتنّ بهذا الفتح على المؤمنين، وتذكر أحداثه وتبيّن أثره على الرسول – صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين. وتمدح من خرج مع النّبي – صلى الله عليه وسلم- في عمرة الحديبية وتبيّن جزاءه الحسن عند الله، وتذمُّ من تخلّف عن الخروج ومرافقة النبي – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام وتبيّن جزاءه الأليم عند الله - حاشا من تخلف لعذر- فكأنّ الفتح المذكور في فاتحة السورة هو بوابة الفتوح الكثيرة التي جاء الوعد بها في آيات السورة، والتي كان أعظمها فتح مكّة الذي جاءت الإشارة إليه في نهاية السورة.

ولما دلّت فاتحة السورة على أنّ هذا الفتح كان مكافأةً للنَّبي – صلى الله عليه وسلم- وعوناً له ولأصحابه على تبليغ دين الله وإقامة شرعه، ناسب في نهايتها ذكرُ أوصافهم المستحقّة لهذا التَّكريم، والثناءُ عليهم، ووعْدُهم وكلَّ من سلك مسلكهم واقتفى أثرهم بالمغفرة والأجر العظيم.

المبحث الثالث : الموضوع الكليّ في السورة الكريمة

لقد ذكرَ البقاعي – رحمه الله – أن جماع مقصود السورة كله: **إظهار الدين على الدين كله**. وقال: " وكانت هذه سورة الفتح **بشارة للمجاهدين** من أهل هذا الدين **بالفوز والنَّصر** والظفر على كل من كفر ".[١] ومما سبق ذكره ومن دراسة التفسير التحليلي للآيات في ضوء التناسق الموضوعي الآتي ذكره، بان لي ذلك وأن الموضوع الكلي في السورة الكريمة هو:

"وعد الله بنصر المؤمنين وإظهار دين الإسلام على الدين كلِّه ولو كره الكافرون"

وباستطلاعٍ سريعٍ لآيات السورة الكريمة يتأكّد هذا المعنى؛ ففي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ إشارةٌ وتأكيدٌ على أنّ صلح الحديبية يعدُّ فتحاً عظيماً وحدثاً فاصلاً في تاريخ الدعوة النبوية. وفي قوله تعالى: ﴿ **لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ وما بعدها، بيانٌ لمآثر هذا الفتح على النبي – صلى الله عليه وسلم –. وفي قوله تعالى: ﴿ **وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ** ﴾ أي بإظهار دينك على الدين كلِّه، كما قال الشوكاني – رحمه الله –.[٢] وفي قوله تعالى: ﴿ **وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ بيان صفة الدين الحق الذي يستحقُّ الظهور والإتباع، ومنّة الله سبحانه بتثبيت رسوله – صلى الله عليه وسلم – عليه. وفي قوله تعالى: ﴿ **وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ قيل: أن هذا النَّصر الذي لا مذلّة فيه قد حصل بفتح مكّة المشرفة. " وقد وصف صلح

(٢) نظم الدرر جـ١٨ ص ٢٧٣-٢٧٤

(٢) انظر فتح القدير جـ ٥ ص٤٥

الحديبية بأنه فتح مبين على حين وصف فتح مكّة الذي سيلي هذا الفتح، بأنه نصرٌ عزيزٌ. وذلك لأن صلح الحديبية، لم يكن الفتح فيه من قوة غالبة قاهرة، إذ كان لا يزال في قريش شيءٌ من القوة، والاستعداد للقاء النبيّ والمسلمين. أما فتح مكّة فقد كان تحت قوة قاهرة، وسلطان غالب، فلم يكن في قريش من تحدّثه نفسه بلقاء النبيّ والمسلمين، والتصدي لهذا الجيش الغالب الذي دخل مكّة على أهلها، وأعطاهم الأمان على حياتهم وأموالهم، إذا هم دخلوا في دين الله، وقد دخل القوم في دين الله (...). فهو نصرٌ عزيزٌ غالب، لا يلقاه القوم إلاّ في ذِلَّة وانكسار."[1] وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ... وما بعدها، بيان لسبب النَّصر لأنَّ السكينة هي الطمأنينة والرضا والتسليم بما يأمر به الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – كما قال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – أيها الرجل، إنّهُ لرسول الله – صلّى الله عليهِ وسلّم– وليس يعصي ربّهُ وهُوَ ناصره، فاستمسك بغرزه فو الله إنّهُ على الحقّ.

وفيها بيان أنَّ الجهاد في سبيل الله الذي يترتَّبُ عليه النَّصرُ والفتح مرتبةٌ من مراتب الطاعة، وفريضةٌ من فرائض الدين التي تزيد الإيمان، وأن لله جنود السماوات والأرض يسخِّرُهم لنصرة أوليائه المؤمنين، وإعانتهم من أجل إعلاء كلمة الله وإظهار دينه في الدنيا. هذا شأن المؤمنين الصادقين في الدنيا، وفي الآخرة لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. أما أعداؤهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات

---

(١) التفسير القرآني للقرآن جـ١٣ ص ٣٩٦ ومكان النقاط التي بين القوسين في الأصل كلمة (صاغرين) فتجاوزت ذكرها لأن مسلمة الفتح صحابة، ولم يرغموا على الإسلام بل كان عن محض اختيارهم مع تكريم الإسلام لهم كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾النساء: ٩٥ ، ولم يرد في شيء من نصوص القرآن والسنة وصفهم بمثل هذا.

الذين يظنون بربهم ظن السوء وأنه لا ينصر عباده المؤمنين، فإنّ لهم العذاب والخزي واللعنة ومأواهم جنهم وبئس المصير. فسبحان من لا يهزم جنده وهو العزيز الحكيم.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ والآية التي بعدها، وصفٌ لمهمَّة الرسول في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يبشر المؤمنين الذين يوحدون الله ويطيعونه وينصرون دينه بالجنة، وينذر الكافرين الذين يحاربون الله ورسوله بالنار. وأما في الآخرة فيكون شاهداً على أمّته، وأمَّتُه شاهدةٌ على الناس. وفي الآية التالية لها بيان المراد من هذا التبشير والإنذار وهو الإيمان بالله ورسوله وعبادة الله كما أمر، وتعظيم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونصرته.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ... ﴾ الآية وما بعدها، إشادة وتكريم بأصحاب البيعة الذين نصروا نبيهم، وأوفوا بعهدهم، وثبتوا على دينهم، ووعْدُهم بأجر عظيم. وأما المنافقون الذين اعتذروا بأموالهم وأهليهم عن المشاركة في نصرة الدين، فإنّ الله مطلِّعٌ على سرائرهم، عالمٌ بأحوالهم، وأنهم قد ظنوا بالرسول ومن معه من المؤمنين شرا؛ فظنوا بأنهم سيقتلون ولن يرجعوا إلى أهليهم بالمدينة أبدا، وذلك لعدم ثقتهم بنصر الله لأوليائه وإعزازه لدينه. وهذا الظنُّ ناتجٌ عن عدم إيمانهم بالله ورسوله. ومَن كان حاله كذلك ولم يتب ومات على ذلك فإنَّ عاقبته النار وساءت مصيرا. فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بيده الملك يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو الغفور الرحيم.

والمتقاعسون المتخاذلون عن الجهاد ونصرة دين الله لا ينظرون إلى العاقبة الأخروية، وهذا من قلّة فقههم، فهم يتطلعون إلى المغانم وشهوة المال مع ضنّهم

بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. ومثل هؤلاء بعد أن ينكشف أمرهم ويعرف حالهم يجب أن لا تتاح لهم الفرص لقطف الثمرة دُون بذل وجهاد. ولهذا وعدهم الله بأنهم سيدعون إلى غزو قوم أولي بأس شديد، فإن أطاعوا وصدقوا مع الله فقد وعدوا بالأجر الحسن، وإن استمروا على نفاقهم وإعراضهم فمصيرهم العذاب الأليم. وهذه سنة الله في خلقه أنّ من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما وأعرض فله النار. ولا يعذر في الخروج في الجهاد مع المسلمين عند النفير العام إلا أصحاب الأعذار الذين سماهم الله.

وممن أطاعوا الله ورسوله واستحقوا خيري الدنيا والآخرة أصحاب بيعة الرضوان، فقد رضي الله عنهم، وحسبهم ذلك تعديلًا وتزكيةً ! وذلك بعد أن علم ما في قلوبهم من الإيمان واليقين فأنزل سبحانه على قلوبهم السكينة فاطمأنوا وبايعوا على القتال حتى النَّصر أو الشهادة، فأثابهم الله بصلح حقنت به دماؤهم، وتحقَّق به دخولهم المسجد الحرام معتمرين بعد عام، وانتشرت به دعوتهم، وظهر دينهم، ووعدَهم الله بفتوحات ومغانم يأخذونها، وبيَّن لهم أنَّ النَّصر حليفُهم إن وقع قتالٌ بينهم وبين الكافرين؛ لأنَّ نصرَ الله لأوليائه المؤمنين سنَّةٌ من سُنَنه في خلقه.

وفي قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ... ﴾ الآية بيانٌ لموقف كفار قريش العدائي من رسالة الإسلام، وأنَّ هذا الموقف الذي جعلهم يتجرأون على صدِّ المسلمين عن بيت الله الحرام، بعد أن تبيَّن لهم أنَّهم لا يريدون قتالًا وإنما يريدون أداء العمرة، إنَّما هو أثرٌ ناتجٌ عن كفرهم بالله. وحقُّ من يصدُّ الناس عن ذكر الله وتبليغ دينه الجهادُ. لكنَّ وجود بعض المسلمين بين

ظهراني المشركين في مكّة كان سببًا مانعًا من ذلك، وتلك حكمةٌ عظيمةٌ أرادها الله فصرف الأمر إلى الصلح " والصلح خير".

وعند كتابة الصلح انتفشت عند المشركين النعرة الجاهلية بقبحها ونتانتها، حينما اعترضوا على كتابة البسملة وعلى جملة : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وهي حقٌّ، فلم تُقابل الحميّةُ الجاهلية بمثلها، بل أنزل الله الثَّبات والسَّكينة في قلب رسوله وقلوب المؤمنين، مع التزامهم بكلمة التوحيد ومقتضياتها وثباتهم عليها وعدم المداهنة فيها. وكان من مآثر هذا الصلح أن تحققت رؤيا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بدخول المسجد الحرام مع أصحابه – رضي الله عنهم – معتمرين وهم آمنون مطمئنون.

وكان من أعظم الفتوحات التي وعد بها المؤمنون في هذه السورة فتح مكّة، وقد تحقَّق في السَّنة الثامنة وهي التي تلت عمرة القضاء، فظهر الرسول ومن معه على المشركين ودخل الناس بعدها في دين الله أفواجًا، وظهر دين الإسلام على الدين كله، وعرف الناس وآمنوا أن " محمدًا رسول الله " وأقرت بها قريش بعد أن أنكرتها في صلح الحديبية، وختم الله السورة بتلك الجملة ذاتها ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ مبينًا وصفه ووصف أصحابه الذين آزروه ونصروه، والذين استحقوا النَّصر والتمكين ومن ثم تحقق وعد الله لهم في الدنيا، وقد وعدهم سبحانه ومن اتبعهم على الإيمان واقتفى أثرهم بالمغفرة والأجر العظيم.

الفصل الثاني

موضوعات السورة الكريمة وتناسقها

ويشمل سبعة مباحث هي:

المبحث الأول : وموضوعه : (المِنَّة بالفتح العظيم وأثره على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–) ويشمل الآيات: (١–٣)

المبحث الثاني : وموضوعه : (آثار الفتح المبين وفضله على المؤمنين) ويشمل الآيات: (٤–٧)

المبحث الثالث : وموضوعه : (وظيفة الرسول الكريم وبيان حقِّه من الطاعة والتعظيم) ويشمل الآيات: (٨–٩)

المبحث الرابع : وموضوعه : (مغبَّة التخلف عن نصرة الدين وفضح المخلفين وبيان المعذورين) ويشمل الآيات (١٠–١٧)

المبحث الخامس : وموضوعه : (الوعد بالأجر العظيم لمن نصر الدين، والبشارة بانتصار المؤمنين على الكافرين) ويشمل الآيات(١٨–٢٦)

المبحث السادس : وموضوعه : (الوعد بدخول المسجد الحرام وظهور دين الإسلام) ويشمل الآيات (٢٧–٢٨)

المبحث السابع : وموضوعه : (الصفات الحسان لسيد الأنام وصحبه الكرام) ويشمل آية : (٢٩)

المبحث الأول

الموضوعِ الأول: المِنَّة بالفتحِ العظيم وأثره على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : سبب نزول السورة الكريمة .

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الأول

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث الأول

وهو مقدِّمة السُّورة وموضوعه :

" المنَّة بالفتح العظيم وأثره على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ الفتح: ١ - ٣

المطلب الأول :

سبب نزول السورة الكريمة :

قال السيوطي-رحمه الله- : "وسبب النزول أمرٌ يحصل للصحابة بقرائن تحتفُّ بالقضايا ... والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه"(١)

ولما كانت سورة "الفتح" قد نزلت كلها في صلح الحديبية، فقد وردت أحاديث كثيرة في سبب نزول السورة، أو في سبب نزول بعض آياتها، تعقيباً على حوادثَ مختلفة لها علاقة بهذا الصلح. وأكتفي هنا بذكر سبب نزول السورة أو سبب نزول

(١) الإتقان في علوم القرآن جـ١ ص١١٥ ولباب النقول في أسباب النزول، له أيضاً، دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٧٨م ص١٤

هذه الآيات الكريمات، وسوف أذكر أسباب نزول بعض آيات السورة عند تفسير المقطع الذي ترد فيه.

ومن الأحاديث الواردة في سبب نزول السورة ما يلي:

١- عن أبي وائل[١] قال: قام سَهْلُ بن حُنيف فقال: أيّها الناس! اتّهموا أنفسكم، لقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية...الحديث وجاء في آخره: قال: **فنزل القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالفتح،** فأرسل إلى عمر فأقرأها إياه.الحديث.[٢]

٢- وعن زيد بن أسلم عن أبيه: أنَّ رسول الله– صلى الله عليه وسلم –كان يسير في بعض أسفاره وكان عمر بن الخطاب يسير معه ليلاً.... الحديث قال عمر في آخره: وجئت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فسلمت، فقال: " لقد نزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾.[٣]

---

(١) أبو وائل: هو شقيق بن سلمة الأسدي، الكوفي، ثقة، مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز وله مائة سنه، روى له الجماعة [تقريب التهذيب جـ١ ص٣٥٤ رقم:٩٦]

(٢) وفي رواية أخرى فنزلت سورة الفتح (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: (إذ يبايعونك تحت الشجرة) رقم:٤٨٤٤

(٣) والدليل على أنّ هذه الحادثة حصلت في صلح الحديبية الروايات الأخرى الكثيرة ومنها حديث البراء –رضي الله عنه– قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً. ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنّا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أربع عشرة مائة. والحديبية بئر فنزحناها ...الخ الحديث.رواه البخاري: [كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية رقم:٤١٥٠]

٣- وعن المسوّر بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكّة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.(١)

٤- وعن عبد الله بن مسعود، قال: أقبلنا مع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- من الحديبية، فذكروا أنّهم نزلوا دهاسًا من الأرض - يعني الدّهاسَ : الرّمل - فقال: " منْ يكلؤُنَا؟ " فقال بلال : أنا، فقال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم-: " إِذَنْ تَنَمْ "، قال : فناموا حتى طلعتِ الشمس، فاستيقظ ناس، منهم فلان و فلان، فيهم عمر، قال : فقلنا : اهْضِبُوا - يعني تكلموا -، قال : فاستيقظ النبي - صلّى الله عليه وسلّم-، فقال : " افعلوا كما كنتم تفعلون "، قال : ففعلنا، قال : وقال : " كذلك فافعلوا، لمن نام أو نسي "، قال : وضلّتْ ناقة رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- فطلبتُها، فوجدت حبلها قد تعلق بشجرة، فجئت بها إلى النبي - صلّى الله عليه وسلّم-، فركب مسرورًا، وكان النبي - صلّى الله عليه وسلّم-، إذا نزل عليه الوحي اشتدّ ذلك عليه، وعرفنا ذاك فيه، قال: فتنحى مُنتبذًا خلفنا، قال: فجعل يُغطي رأسه بثوبه، ويشتدّ ذلك عليه، حتى عرفنا أنّه قد أنزل عليه، فأتانا، فأخبرنا أنّه قد أُنْزِل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(٢)

(١) وانظر أسباب النزول للواحدي ص٢٥٥ ولباب النقول ص١٩٣ وقد أورداه في كتابيهما في إشارة إلى أنّ هذا الصلح وما جرى فيه من أحداث هو سبب نزول السورة كلّها.

(٢) مسند الإمام أحمد تحقيق :شعيب الأرناؤوط وآخرون جـ٧ ص٤٢٦ رقم: ٤٤٢١ قال محققوه: إسناده حسن، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح [مسند الإمام احمد تحقيق: أحمد محمد شاكر دار المعارف – مصر ١٣٧٠هـ] جـ٥ ص٢٤٠ رقم: ٣٦٥٧

٥- وأخرج مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ الفتح:١-٢. إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ الفتح:١-٥ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال:" لقد أنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدّنيا جميعاً "[١]. وفي هذا الحديث أنه قد يعبّر بلفظ (آية) عن بضع آيات متتاليات.

(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية في الحديبية رقم: ١٧٨٦

المطلب الثاني: الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ *

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ الفتح: ١ – ٣

* معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾:

افتتحت هذه السورة الكريمة بما أشار إليه اسمها- وهو الفتح-، وهذه الآية الكريمة التي تكرَّر فيها لفظ (الفتح) مرَّتين، يعتبر الوقوف على تفسيرها وفهمها حجر الزَّاوية في هذا المحور الرَّئيس، الذي تدور عليه محاور السُّورة؛ ولهذا فإنَّ بيان معنى (الفتح) وتحديد المراد به سوف يساعد كثيراً على ظهور التَّناسق الموضوعي في هذه السورة الكريمة.

* معنى الفتح في اللغة :

الفتح في اللغة أصله :إزالة الإغلاق، كفتح القفل والباب والمتاع. ويأتي بمعانٍ منها: النَّصر والظفَر، وفتح البلدان، والقضاء والحكم بين الخصمين، والهداية والإرشاد، والفرح المزيل الهمِّ، وفتح المستغلق من العلوم وغيرها .[1]

---

* تفسير البسملة مشهورٌ ومنشور في كتب التفسير وغيرها، وقد قام بعض المفسرين ممن اهتموا بعلم المناسبات بتفسير البسملة في بداية كل سورة بما يناسب مقاصدها، وهذا اجتهاد منهم لا يدعمه دليل يحتج به، وفيه تكلف غير خافٍ.

(١) انظر ، تهذيب اللغة جـ ٤ ص٢٥٧ وما بعدها ، القاموس المحيط ص ٢٩٧،٢٩٨و لسان العرب جـ٥ ص ٣٣٣٧ -٣٣٣٩

*** معنى الفتح في القرآن الكريم:**

ورد الفتح في القرآن الكريم بأكثر من عشرين معنىً، ومن أشهرها :

١- القضاء والحكم، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ السجدة: ٢٨

٢- الإرسال، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فاطر: ٢

٣- النصرة، كقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ الصف: ١٣ وقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ المائدة: ٥٢

٤- والفتح بمعنى إزالة الإغلاق؛ كفتح أبواب الرزق، وفتح أبواب الرحمة، وفتح أبواب العذاب، وفتح أبواب الدعاء وغيرها. وأدلتها في كتاب الله كثيرة معلومة.(١)

*** أقوال المفسرين في معنى " الفتح " والمراد به في السورة الكريمة :**

المقصود هنا تفصيل الحديث عن معنى الفتح، والمراد به في فاتحة السورة؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ . مع الإشارة السريعة إلى ما ورد في ثنايا السورة

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠٠٨م. ص٨١ ومفردات الراغب ص ٦٢١-٦٢٢ وانظر الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الحسين بن محمد الدّامغاني، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية – بيروت، ص٣٥٧-٣٥٨ وبصائر ذوي التمييز جـ٤ ص ١٦١

من ذكر الفتح، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وقوله: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

*** أولا : معنى " الفتح" في السورة الكريمة :**

يدور معنى الفتح عند المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ على خمسة معانٍ هي :

١- القضاء بالنصر والظفر .[١]

٢- النصر على الأعداء .[٢]

٣- إظهار دين الإسلام .[٣]

٤- فتح دار الحرب بصلح أو قتال .أي الظفر بالبلد عنوة، أو صلحاً بحرب، أو بغير حرب.[٤]

٥- الصلح؛ كما قال الشوكاني –رحمه الله -: "والصلح قد يسمى فتحاً ".[٥]

وهذه المعاني قد تتداخل فقد يقضي الله بالنصر، فيحصل النصر على الأعداء، وتفتح ديارهم،ويتم التمكين للدعوة وظهور الدِّين، أو تفتح الديار بالصلح،

(١) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٢٣٦ وكتاب التسهيل لعلوم التنزيل جـ١ ص ٥١

(٢) انظر تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله المري المعروف بابن أبي زمنين، تحقيق: حسين بن عكاشة و محمد بن مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة- القاهرة، ١٤٢٣هـ] جـ٤ ص ٢٤٨ والتفسير القرآني للقرآن جـ١٣ ص٣٩٢

(٣) انظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، تحقيق: عدنان داوودي، دار القلم- دمشق، ١٤١٥هـ، ص ١٠٠٧

(٤) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي، اعتنى به : عبد المجيد طعمه حلبي ، دار المعرفة – بيروت ، ١٤٢٩هـ ، ص ١١٤٠

(٥) انظر معاني القرآن للفراء جـ ٣ ص٦٤ و فتح القدير جـ٥ ص٤٤

أو يحصل الصلح الذي يكون سبباً للأمان فيتمكن الباحثون عن الحقيقة للوصول إليها واتباع الحق، فيكون هذا الصلح نصراً وفتحاً، وسبباً لظهور الدين وعزَّة المسلمين.

والذي يبدو لي – بعد الوقوف على أقوال المفسرين- في هذه الآية الكريمة أن معنى الفتح هنا يشمل الأقوال المذكورة كلها، فقد قضى الله بالنصر والظَّفَر لنبيه محمدٍ – صلى الله عليه وسلم – وبشَّره بذلك، وكفَّ أيدي الأعداء عنه وعن المؤمنين، وهداه لقبول صلح الحديبية، الذي عُدَّ نصراً مبيناً، حيث كان هذا الصلح بوابة الفتح الأعظم – فتح مكة المشرَّفة – وما حصل بعده من فتوحاتٍ وتمكينٍ واستعلاءٍ وظهورٍ واتِّساعٍ لدائرة الإسلام.

*** ثانياً : المراد بالفتح في السورة الكريمة :**

اختلف المفسِّرون في المراد بالفتح في هذه السّورة الكريمة على أقوالٍ أشهرها :

١- صلح الحديبية :

وهو أصحُّها، وهو قول أكثر المفسِّرين.(١)

(١) انظر جامع البيان جـ٢١ ص ٢٣٨ و تفسير القرآن للسمعاني جـ ٥ ص ١٨٨ ومعالم التنزيل ص ١٢٠١ وزاد المسير جـ٧ ص٤١٨و التسهيل في علوم التنزيل جـ٤ ص٩١ ولباب التأويل جـ٤ ص ١٥٣ و البحر المحيط جـ ٩ ص ٤٨٢ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٢٩ والجواهر الحسان جـ٤ ص١٧١-١٧٢ و فتح القدير جـ٥ ص٤٤ و تيسير الكريم الرحمن ص١٣٣٦وغيرهم.

وقد أخرج البخاريُّ عن أنسٍ –رضي الله عنه – في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: " الحديبية "(١)

وذكر الفرَّاء(٢)– رحمه الله – عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ : صوراً متعدِّدةً للفتح، ثمَّ قال : "إنما أريد به صلح الحديبية."(٣) وبه قال الطبري(٤) – رحمه الله –.(٥)

وممّا يلحق بهذا القول و أنّ الفتح في بداية السورة هو "صلح الحديبية " ما يلي:

أ- القول بأنّ المراد بالفتح إباحة النّحر والحلق في عمرة الحديبية قبل بلوغ الهدي محلّه، فقد روى الطبري بسنده عن مجاهد(٦) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: " نحره بالحديبية وحلقه".(٧) وهو في معنى قبول الصلح .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ، رقم: ٤٨٣٤

(٢) الفراء : هو أبو زكري يحيى بن زياد بن عبد الله الأسدي صاحب الكسائي، ومن أعلم أهل الكوفة بالنحو بعده، من أشهر مصنفاته معاني القرآن توفي سنة سبعٍ ومائتين. انظر سير أعلام النبلاء جـ١٠ ص١١٨

(٣) معاني القرآن للفراء جـ٣ ص ٦٤

(٤) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ولد في آمل طبرستان وإليها نسبته، سنة أربع وعشرين ومائتين، رأس المفسرين على الإطلاق، كان إماماً في علوم التفسير والفقه والحديث والتاريخ ومتقناً لقراءة حمزة الزيات وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. توفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة. انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص٨٢ رقم: ٩٣ وطبقات المفسرين للداوودي جـ٢ ص١١٠ رقم: ٤٦٨

(٥) جامع البيان جـ٢١ ص٢٣٨

(٦) مجاهد: هو شيخ القراء و المفسرين، مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج ، روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، توفي سنة مائة، وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النّبلاء جـ ٤ص ٤٤٩

(٧) جامع البيان جـ٢١ ص٢٣٩

ب- القول بأنّ المراد بذلك هو بيعة الرّضوان، لحديث البراء بن عازب – رضي الله عنه-: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً.ونحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان يوم الحديبية.."[1]

ج- القول بأنّ المراد بالفتح نزولُ سورة الفتح،[2] وقد نزلت عقب الحديبية مباشرة.

٢- فتح مكة :

وبه قال بعض المفسرين،[3] وهو مروي عن عائشة وأنس – رضي الله عنهما -.[4] وانتصر ابن عاشور – رحمه الله- لهذا القول في تفسيره، ومال مرةً إلى أن الفتح الفتح يشمل الفتحين معاً؛ صلح الحديبية وفتح مكة فقال – رحمه الله -: " وعلى هذا فالمجاز في إطلاق مادة الفتح على سببه ومآله لا في صورة الفعل، أي التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي لأنّهُ بهذا الاعتبار المجازي قد وقع فيما مضى فيكون اسم الفتح استعمل استعمال المشترك في معنييه، وصيغة الماضي استعملت في معنييها فيظهر وجه الإعجاز في إيثار هذا التركيب."[5] ويريد بقوله: "فيكون اسم الفتح استعمل استعمال المشترك في معنييه" أي صلح الحديبية وفتح مكّة، ومعنى قوله:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم: ٤١٥٠

(٢) قاله ابن حبان، ونصه: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت عليه سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى آخر السورة، فما فتح في الإسلام فتح أعظم من نزول هذه السورة. [الثقات، محمد بن حبان البستي، دار المعارف العثمانية- الهند ، ١٣٩٣هـ] جـ١ ص٣٠٣

(٣) انظر النكت والعيون جـ٥ ص ٣٠٩، و الكشاف جـ٣ ص ٥٤٠ و مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص٦٥ واللباب في علوم الكتاب جـ١٧ ص٤٧٥ و التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٥

(٤)تفسير البغوي (معالم التنزيل) ص١٢٠١ والدر المنثور جـ١٣ ص٤٦١

(٥) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٥-١٤٦

"وصيغة الماضي استعملت في معنييها" أي بقاء الفعل على أصل معناه إذا كان المراد صلح الحديبية، أو يقال عبّر بالمضي لتحقّق وقوعه إذا كان المراد فتح مكّة.

وهذا القول قاله الضحاك[(١)] – رحمه الله– من قبل : " الفتح: حصول المقصود بغير قِتَالٍ، وكان الصلح من الفتح، وفتح مكّة بغير قتالٍ، فتناول الفتحين: الحديبية ومكّة."[(٢)]

والقول بأن المراد بالفتح هنا فتح مكة، أو أن المراد به الفتحين قولٌ مرجوح لأن الوعد بفتح مكة تجيئ الإشارة إليه في هذه السّورة الكريمة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾الفتح: ٢١.

وقد ردَّ محمد الأمين الشنقيطي[(٣)] – رحمه الله – على من قال بأن المراد بالفتح هنا فتحُ مكة حيث قال: " التحقيق الذي عليه الجمهور أنَّ المراد بهذا الفتح صلح الحديبية؛ لأنَّهُ فتحٌ عظيمٌ... وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإِنْ قال بذلك جماعة من أهل العلم.

وإنَّما قلنا ذلك لأنَّ أكثر أهل العلم على ما قلنا، ولأنَّ ظاهر القرآن يدلُّ عليه؛ لأنَّ سُورَةَ الفَتح هذه نزلتْ بعد صلح الحديبية في طريقه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – راجعاً إلى المدينةِ.

---

(١) الضحَّاك : هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم الخراساني المفسّر، صدوق كثير الإرسال، توفي سنة اثنتين ومائة. سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٥٩٨، وطبقات المفسرين للداوودي جـ ١ص ٢٢٢

(٢) البحر المحيط جـ٩ ص ٤٨٣

(٣) الشنقيطي : هو محمد الأمين بن محمدالمختار الجكني الشنقيطي، ولد في تَنْبة بموريتانيا، قدم من بلاده للحج وبقي في السعودية.واشتغل بالتدريس والفتيا، كان عضواً في هيئة كبار العلماء بالسعودية، له عدة مصنفات أشهرها أضواء البيان. توفي سنة ١٣٩٣هـ. انظر مقال :[مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، لعطية محمد سالم، مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، السنة السادسة– العدد الثالث، رجب ١٣٩٤هـ] ص ٢٨ وما بعدها.

ولفظُ الماضي في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ يَدُلُّ على أنَّ ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنَّهُ فتح مكةَ ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين - خِلَافُ الظَّاهِرِ. والآية التي في فتح مكة دلَّتْ على الاستقبال لا على المضيِّ ."[1]

٣- فتح خيبر :

أخرج ابن أبي شيبة[2] والحاكم[3] عن أنسٍ –رضي الله عنه – في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾. قال: "فتح خيبر"[4]

وقال مجاهد – رحمه الله -: " هو فتح خيبر "[5] وقد ذكره كثير من المفسرين كأحد وجوه المراد بالفتح.

وهو قول مرجوح أيضاً وقد ردَّه القرطبي والألوسي.[6]لأنَّ الوعد بفتح خيبر مذكور في السورة فيما بعد.

---

(١) أضواء البيان جـ٧ ص ٦٠٣-٦٠٤

(٢) ابن أبي شيبة: هو عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الواسطي الأصل العبسي الكوفي، الإمام الحافظ، صاحب المصنف. قال البخاري وغير واحد مات سنة خمس وثلاثين ومائتين. الرسالة المستطرفة ص٣١ وتهذيب التهذيب جـ٦ ص٢

(٣) الحاكم: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الضبي النيسابوري، صاحب التصانيف التي من أشهرها: المستدرك على الصحيحين وقد حصل فيه تساهل لأنه صنّفه في أواخر عمره وقد تغيّر، مات سنة خمس وأربعمائة. انظر الرسالة المستطرفة ص ١٧

(٤) انظر [الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ١٤٠٩هـ] جـ٧ ص٣٩٢ رقم: ٣٦٨٧٣ والمستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح، جـ٢ ص ٤٥٩

(٥) تفسير البغوي (معالم التنزيل) ص ١٢٠١

(٦) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ١٥ ص ٢٦١ و روح المعاني جـ٢٥ ص ٣٣٦ والألوسي : هو محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، مفسر محدث أديب من أهل بغداد، صاحب التصانيف، توفي سنة سبعين ومائتين وألف. انظر الأعلام جـ٧ ص١٧٦

وتحدّث الحافظ ابن حجر(١) – رحمه الله – في الجمع بين الأقوال السابقة في المراد بالفتح فقال: "وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقيق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ المراد بالفتح هنا الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب... ثمّ تبعته الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح... وأما قوله تعالى في هذه السّورة: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فالمراد بها فتح خيبر على الصحيح، لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين... وأما قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح:٢٧ فالمراد الحديبية. وأما قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ النّصر:١ وقوله – صلى الله عليه وسلّم : "لا هجرة بعد الفتح "(٢) فالمراد به فتح مكّة باتفاق... فبهذا يرتفع الإشكال وتجتمع الأقوال بعون الله تعالى"(٣)

٤- فتح الروم :

وقد ذكره غير واحدٍ من المفسِّرين كواحد من الأقوال المعتبرة في المراد بالفتح. والمراد بقولهم " فتح الروم " أي انتصار الرّوم " لأنهم غَلبوا الفرس في تلك

(١) ابن حجر: هو أحمد بن علي العسقلاني الشهير بابن حجر، حافظ الإسلام في عصره، صاحب التصانيف الشهيرة، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمان مائة [الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة- بيروت جـ٢ ص٣٦].

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار،باب هجرة النبي – صلى الله عليه وسلّم – إلى المدينة، رقم: ٣٨٩٩ ص ٧٨٩، و صحيح مسلم،كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النِّساء رقم: ١٨٦٤ ص ٧٧٨

(٣) فتح الباري جـ٧ ص ٤٤٢

السّنة "[١] ويشيرون بهذا إلى ما ورد في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – في قولِهِ: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ الروم: ١ - ٢ ، قال : غُلِبتْ وغَلَبتْ، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنّهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنّهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله – صلّى الله عليْه وسلّم، فقال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– : " أما إنّهم سيغلبون" قال : فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا، فإن ظهرنا، كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم، كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي – صلّى الله عليه وسلّم–، فقال: " ألا جعلتها إلى دُون، قال: أراه قال: العشر؟ " – قال: قال سعيد بن جبير[٢]: البِضْعُ : ما دُون العشر – ثم ظهرت الروم بعد، قال : فذلك قولهُ: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ الروم: ١ – ٢ إلى قولِهِ: ﴿ وَيَوۡمَئِذٍ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ الروم: ٤ قال: يفرحون

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨هـ، جـ٥ ص ١٢٦

(٢) سعيد بن جبير: هو سعيد بن جبير بن هشام، الإمام الحافظ المقرئ المفسّر، أبو محمد الكوفي أحد الأعلام، روى عن ابن عباس فأكثر وجوّد، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين. انظر سير أعلام النبلاء جـ٤ ص ٣٢١

﴿ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ الروم: ٥ [(١)] فاعتبر هذا فتحاً لأنه نصر للمسلمين على المشركين.

وهذا القول فيه بعد عن جوّ السورة، وقد أشار الألوسي –رحمه الله– إلى ضعفه، فقال: " وأورد عليه أن فتح الرّوم لم يكن مسبّباً على الجهاد ونحوه"[(٢)]

وفي سورة الفتح قد يدخل فتح المسلمين للروم في الوعد بالمغانم عموماً كما في قوله تعالى:﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ ﴾ الفتح: ٢٠. والله أعلم !

٥– الفتح بالإسلام :

ذكره الزّمخشري،[(٣)] وردَّه الألوسي –رحمه الله– فقال : " وقيل: المراد به فتح الله تعالى له – صلّى الله عليه وسلّم– بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف،[(٤)] وقريب منه ما نقله الراغب من أنه فتحه – عز وجل– له –عليه الصلاة والسلام– بالعلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة،[(٥)] وأمره في البعد كما سبق."[(٦)]

وهو كما قال الألوسي بعيد، فإن الفتح بالإسلام قد وجد منذ بداية البعثة .

---

(١) هذا الحديث أخرجه إمام أحمد في مسنده، والترمذي في السنن، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الدلائل، وغيرهم. انظر مسند الإمام أحمد جـ٤ ص ٢٩٦ رقم: ٢٤٩٥ قال محققوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين. وسنن الترمذي، كتاب التفسير، باب " ومن سورة الروم " جـ٥ ص٣٤٢ رقم: ٣١٩١ والمستدرك للحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة الروم جـ٢ ص٤١٠ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) روح المعاني جـ٢٦ ص٣٤٠

(٣) الكشاف جـ ٣ ص ٥٤١

(٤) المصدر السابق

(٥) مفردات الراغب ص ٦٢١–٦٢٢

(٦) روح المعاني جـ٢٦ ص٣٤٠

* **والخلاصة** : أن أصحّ الأقوال المذكورة في المراد بالفتح هو القول الأوّل، وهو (صلح الحديبية). وصحيحٌ أنّ الآية لم تذكر المراد بالفتح تصريحاً، لكنَّ تأكيد الفعل مرَّتين ووصفه بأنَّه مبين؛ لا يحتاج إلى بيانٍ آخر، يُشعِر بقرب العهد بالمراد منه وأن أمره قد بان لحاضريه، وحيث كان نزول هذه السورة بعد صلح الحديبية مباشرة، ولم يحدث بينهما أمر ذو شأن، عُلم أنه هو المراد بهذا الفتح. إضافة إلى ما ورد في السورة من الحديث عن أحداث ومواقف بينت السنة الصحيحة أنها وقعت في صلح الحديبية. وفوق هذا تصريح الرسول - صلى الله عليه وسلّم – بأنه فتح .ويدخل في هذا قول البراء بن عازب – رضي الله عنه –بأن الفتح هو : بيعة الرضوان لأنها كانت السبب المباشر لطلب قريش لهذا الصلح. وقد انتصر لهذا القول صاحب الظلال فقال : "... ويدعو الناس إلى البيعة، **فتكون بيعة الرضوان** التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا. **وكان هذا هو الفتح إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية**، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة :**كان فتحا في الدعوة**... **وكان فتحا في الأرض** فقد أمن المسلمون شر قريش، فاتجه رسول الله– صلى الله عليه وسلم– إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي– بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة– ...**وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكّة وسائر المشركين حولها**... ونحن نعود فنؤكد أنه **كان هناك– إلى جانب هذا كله– فتح آخر. فتح في النفوس والقلوب، تصوره بيعة الرضوان،** التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضا الذي وصفه القرآن. ورسم لهم على ضوئه تلك

الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ... ﴾ إلخ. فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه، وله دلالته، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ."(١)

وقد اخترت هذا القول على غيره، للأسباب التالية:

١- نصُّ بعض الصّحابة على ذلك. ومثاله :

ما أخرجه البخاري –رحمه الله – عن أنس –رضي الله عنه، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾. قال: الحديبية.(٢) وما أخرجه عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – أنه قال: " تعدونَ أنتم الفتح فتح مكّة، وقد كان فتح مكّة فتحًا، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنّا مع النبي –صلّى الله عليه وسلّم- أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي - صلّى الله عليه وسلّم- فأتاها، فجلس على شفيرها ثم دعا بإناءٍ مِنْ ماءٍ فتوضّأ، ثم مضمض ودعا ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنّها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا"(٣).

وأخرج الطبري -رحمه الله-عن جابر(٤)– رضي الله عنه – قال :

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٣١٦-٣٣١٧

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ ص١٠٣٦ رقم: ٤٨٣٤

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ص ٨٥٧ رقم: ٤١٥٠

(٤) جابر: هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، هو وأبوه صحابيان – رضي الله عنهما – وهو من المكثرين في رواية الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مات سنة ثمان وسبعين.انظر الإصابة جـ١ ص ٢١٣ رقم: ١٠٢٦

"ما كنا نعدّ الفتح إلا يوم الحديبية."(١)

٢- نصُّ جمعٍ من أئمة التفسير على أنه أصحّ الأقوال وهو قول أكثر المفسّرين كما تقدّم.

٣- يدلّ على ذلك موضوعات السورة الكريمة.

٤- و مما يدلّ على ذلك مكان وزمان نزول السورة.

٥- دلالة أسباب النّزول الواردة في السورة بعامّة وفي بعض آياتها بخاصة.

٦-ما ترتب على هذا الصلح من آثارٍ مباركةٍ محمودة حتى استحقَّ اسم الفتح؛ فقد حلَّ الأمن، واتسعت دائرة الدعوة إلى الإسلام، وتمكّن الكثيرون من الوقوف على حقيقة الإسلام، ودخل النّاس في دين الله أفواجا، وبهذا تحقَّق المقصود من الفتح وهو إعزاز دين الله وانتصار المسلمين.(٢)

٧- إن الوعد بفتح مكة يجيئ صريحاً في هذه السورة الكريمة؛ في قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ... ﴾ الآية. فلو حمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً، بخلاف ما إذا حمل على صلح الحديبية فإنه يكون تأسيساً، والتأسيس خير من التأكيد.

*** التناسق والإعجاز في نظم هذه الآية الكريمة :**

لما كان " الفتح " يشكِّل مرحلة فاصلة في مسيرة الدّعوة النّبويّة، وانفراجاً كبيراً في مسار تبليغ شرع الله للنّاس، وتمهيداً لتمكين الإسلام وظهوره، حيث انتشرت بعده

(١) جامع البيان جـ٢١ ص٢٤٢

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٦

الدعوة إلى دين الإسلام خارج الجزيرة العربية، وعُرضت رسالة الإسلام على الدول العظمى آنذاك؛ لذا كانت افتتاحيّة السورة الكريمة – في الآية الأولى منها – قويَّةَ التَّوكيد، لتسريَ من هذه القوَّة في البناء والنَّظم قوةٌ معنوية قلبية تثبِّت الأقدام على الطريق، مهما طال، وتشبع النّفوس المؤمنة بآثار العزّة الإيمانية. ومن هنا كان للتوكيد أثره ومغزاه.

*** ومن دلائل التوكيد والإعجاز في نظم هذه الآية الكريمة ما يلي :**

أولاً : الابتداء بـ (إنَّ) المتصل بنون العظمة، المشعِر للمخاطَب بمزيدٍ من الاطمئنان والثِّقة والموحي بعظمة ما بُشِّر به النَّبي – صلى الله عليه وسلم– من الفتح.

ثانياً : قد يكون التوكيدَ للفتح هنا لأنه لعظم شأنه مظنَّةٌ للإنكار.(١) وقد حصل التساؤل عن كونه فتحاً من بعض الصحابة، وظهرت عليهم مخائل الحيرة والتردّد. وقد يكون للاعتناء والتعظيم والتفخيم لا لردِّ الإنكار،(٢) لأنَّ أمر الفتح عظيم عند الله وعظيم عند الناس وهو ممَّا ينبغي أن يؤَكَّد لابتهاج النفوس الفاضلة به.(٣)

ثالثاً: ابتُدئَ ذكرُ الخبر بعد التَّوكيد، بالفعل المتَّصل بضمير الفاعل الدالِّ على العظمة، والعائدِ على الفاتح المنعم – جلَّ ذكره–؛ وهو قوله: ﴿ فَتَحْنَا ﴾. لأن الخطاب من الربِّ العظيم للرّسول العظيم في أمرٍ عظيم.

---

(١) انظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٣٥

(٢) انظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٣٥

(٣) انظر تفسير ابن عرفة جـ ٤ ص ٣٣ و نظم الدرر جـ ١٨ ص ٢٧٤

رابعاً : عبَّر بالماضي لأنَّ المقصود بالفتح – وهو الصلح – قد هيَّأ الله أسبابه، وحدث كما قدره الله – سبحانه-.(١) وهذه الآية نزلت بعد الانتهاء من الصلح، فالتعبير بالماضي على الحقيقة . "وإسناده – أي الفعل- إلى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقاً وإيجادا ... وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر – جلَّ جلالُه وعزَّ سلطانُه- ما لا يخفى"(٢)

خامساً : أُتبعت جملة ﴿ فَتَحْنَا ﴾ بما يفيد القرب وعظيم الصلة مع المخاطَب، وبما يدلُّ على الخصوصيَّة والتَّكريم، وهو الجار والمجرور: ﴿ لَكَ ﴾

سادساً : قدِّم الجار والمجرور ﴿ لَكَ ﴾ على المفعول المطلق للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر .

سابعاً : زِيد في تأكيد هذا الفتح مرةً أخرى بالمفعول المطلق؛ ﴿ فَتْحًا ﴾ لأهميته، ولأنّه في صورته الظاهرة قد يخفى كونه فتحاً.

ثامناً : ذُكر الفتح هنا منكَّراً لإفادة التفخيم والتعظيم ؛ لأنه صورة جديدة من صور الفتح غيرُ معهودةٍ للسَّامعين، ولأنَّه ليس فتحاً يُطوى ويُنسى، ولكنَّه فتحٌ تتوالى بعده الفتوحات، ويكون سبباً مهمّاً للانتقال من حالٍ إلى حال، ومن ضعفٍ إلى قوَّةٍ، ومن قلَّةٍ إلى كثرة، حيث يعز الله دينه ويعلي كلمته ويدخل النّاس في دين الله أفواجا.

تاسعاً : وُصف هذا الفتح بأنّه مبينٌ زيادةً في تعظيمه، فيكون معنى قوله :

(١) انظر نظم الدرر جـ ١٨ ص٢٧٤

(٢) انظر الكشاف جـ٣ ص٥٤١ و إرشاد العقل السليم جـ ٨ ص١٠٣- ١٠٤

﴿ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ أي لا لبسَ فيه على أحد، بل يعلم كلُّ ذي عقلٍ إنّك – يا محمد – ظاهرٌ على جميع أهل الأرض.(١)

وحقّاً إنه فتحٌ مبينٌ، فقد بان أمر هذا الفتح للنبي – صلى الله عليه وسلم- منذُ الوهلة الأولى ، وبان كذلك لصاحبه أبي بكر الصديق –رضي الله عنه- مبكراً، ثم بان لبقية الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين - بعد ذلك نفعُه وأثرُه.

عاشراً : لم تشرْ الآيةُ الكريمة إلى بيان المفتوح، حيث " حذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأنّ مناط التبشير الفتحُ نفسُه الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح."(٢)

(١) انظر نظم الدرر جـ١٨ ص٢٧٥

(٢) تفسير أبي السعود جـ٨ ص ١٠٣ وانظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٣٥، والتحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٦

*** أغراض الجملة الخبرية في الآية الكريمة :**

١- إعلام غير النبيّ – صلى الله عليه وسلم – بالفتح، لأنه – صلى الله عليه وسلم – يعلم ذلك، وقد ظهر هذا جلياً من خلال مواقفه عند كتابة الصلح وقبله وبعده .

٢- إعلام من لم يحضر هذا الفتح من الصحابة وغيرهم.

٣- الإعلام بأن هذا الصلح فتح، لأنّ الحاضرين علموا بالصلح، ولكنهم لم يعلموا كونه فتحاً كما يشعر به الخبر.

٤- التأكيد على عظم شأن الخبر .

٥- يجوز أن يكون الغرض الامتنان دون إفادة الحكم .[1]

والذي يظهر لي أن الغرض هنا يشمل جميع هذه المعاني؛ فهو لإفادة العلم به، ولتعظيم شأنه، وللامتنان به. والله أعلم !

وبما ذكرنا من التناسق البديع بين كلمات هذه الآية الكريمة، مع ما سبق ذكره من معنى الفتح والمراد به يظهر لنا جليّاً أهمية هذه الافتتاحية، وبالتأمل في الآيات بعدها يظهر لنا كونها توطئة ومقدمة للسورة كلها، تحمل اسمها وعنوانها وتنبئ عن مقصدها وموضوعها، والله أعلم !

---

(١) انظر روح المعاني جـ ٢٥ ص ٣٣٥

* معنى قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ :

* فضل هذه الآية الكريمة :

هذه الآية المباركة هي التي عناها النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله : "لقد أُنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدّنيا جميعا"، ويشهد لهذا، ما أخرجه عبد الرزّاق في تفسيره بسنده عن قتادة عن أنس – رضي الله عنه – أنه قال: نزلت على النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعَه من الحديبية، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لقد أنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ ممّا على الأرض" ثم قرأها عليهم ... الحديث.(١) وذلك لأنّها احتوت المنح العظيمة التي وعدها الله – سبحانه وتعالى- نبيّه الكريم – صلى الله عليه وسلم – وكان في مقدمتها مغفرةُ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وهي أحبُّها إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– وأظهرها في الإكرام والفضل بسبب ما انفردت به من الخصوصية.

(١) انظر : [تفسير القرآن، عبد الرزاق ابن همام الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم، مكتبة الرشد- الرياض ١٤٢٣هـ] جـ٢ ص٢٢٥. وأخرجه الترمذي في سننه في كتاب التفسير بابٌ ومن "سورة الفتح" وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح وقال الألباني- رحمه الله- : صحيح الإسناد. انظر سنن الترمذي، تحقيق : الألباني رقم : ٣٢٦٣ ص ٧٣٨

*** مناسبة الآية لما قبلها :**

ابتُدئت هذه الآية الكريمة بلام التعليل وهو الأداة الرابطة لها بسابقتها. وسرُّ هذا الربط بديعٌ، وفي غاية الدِّقة؛ إذ جُعل الفتح علَّةً للمغفرة، فاختلف المفسرون في توجيه هذه العلَّة.

*** اختلاف المفسرين في توجيه كون الفتح علَّة للمغفرة :**

أشار الطبري –رحمه الله– إلى أن المعنى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فاشكر الله على ذلك ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[1] أو: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ النصر: ٣ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . ومن المفسرين من قال: هو مردودٌ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ محمد: ١٩ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري ...[2]

وقال صاحب الكشاف– رحمه الله– " فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علةً للمغفرة، قلت: لم يجعل علَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قال : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عزِّ الدّارين وأغراض العجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً للمغفرة

(١) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٢٣٧

(٢) منسوب للحسين بن الفضيل، انظر الكشف والبيان للثعلبي جـ٩ ص٤٢

والثواب[١]. وقيل : الفتح لم يكن ليغفر له، بل لإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، ولكنه لما عدّد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم.[٢]

ولا شكَّ أن الفتح علّةٌ للمغفرة، ولما عطف عليها من المنح والنعم التي امتنَّ الله – سبحانه وتعالى- بها على رسوله – صلى الله عليه وسلم – مجتمعةً ومتفرِّقةً.

ومنهم من وجَّه ذلك بما ينتج عن الفتح من طاعات مستقبلة تؤثر في غفران الذنوب[٣]

*** التناسق الموضوعي يقود إلى التَّوجيه الصحيح :**

إن المتأمِّل في آيات السورة الكريمة إنَّما تتحدَّث عن صلح الحديبية وما لحقه من الجهاد والفتوحات؛حيث كان هذا الصلح تمهيداً لتثبيت قواعد الإسلام وانتشاره في الآفاق، وبذلك يتم البلاغ وتكتمل مهمة الرسالة ولهذا فإني أميل في توجيه كون الفتح علة للمغفرة في هذه الآية الكريمة إلى ما ذكره بعض المفسرين، ومفاده أن الفتح إنما جعل علة للمغفرة لما يفهم منه من الجهاد في سبيل الله، وسعيه – صلى الله عليه وسلم – في إزاحة الشرك وإعلاء كلمة الله تعالى، وظهور دينه وهذا

(١) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٥٤١

(٢) انظر مدارك التنزيل ص ١١٤٠

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد، دار النهضة الحديثة – بيروت. ص٣٩٣

مما يتم به البلاغ وتكتمل به مهمة الرسالة، وأيُّ عمل يتم به غفران الذنوب المتقدِّمة والمتأخِّرة أشرف من تمام الرسالة الخاتمة ؟! . والله أعلم ! [١]

*** بشرى الفتح :**

وقد قدَّر الله أن يبشر نبيه – صلى الله عليه وسلم- بهذه البشرى العظيمة في ذلك الوقت بالذات – أي بعد وقوع الصلح والهدنة بينه وبين المشركين – وفي الوقت الذي بدأت تنكسر فيه قوة المشركين، وتخفت كلمتهم جزاءً له ومكافأةً على الكفاح الطويل، والجهاد المستمر في سبيل الله، والصبر على ما لاقاه من قومه من أذىً وإعراض، وهذا كله كان نابعاً من كمال الاستسلام والامتثال لأمر الله تعالى، وتمام الرضا بحكمه وقدره، والذي ظهر جلياً في أحداث هذا الصلح التي لم يستطع أن يصبر عليها ويدرك بُعدها – في بادئ الأمر- حتى كبار الصحابة، أمثال عمر بن الخطاب –رضي الله عنهم أجمعين-. فالنبي - صلى الله عليه وسلّم –كان يظهر كمال استسلامه لربه، وكان على **ثقة تامة بالنصر، بل كان على ثقة من التمكين للمسلمين وظهور دين الإسلام،** ولهذا قال: " ولينفذن الله أمره " وطلب من عثمان –رضي الله عنه- حينما أرسله إلى قريش أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم **ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكه** حتى لا يستخفى فيها بالإيمان.[٢]

(١) انظر الكشاف ج ٣ ص ٥٤١ والتسهيل في علوم التنزيل جـ ٤ص٩٢ والنكت والعيون جـ ٥ ص٣١٠ وتفسير أبي السعود جـ ٨ ص ١٠٤ ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء- الرياض ، ١٤٠٣هـ ص ٢٧٠-٢٧١ والتحرير والتنوير جـ ٢٥ ص١٤٦

(٢) زاد المعاد جـ٣ ص٢٩٠

وبما تقدم من جميل الربط بين الآيتين، وتجلية المعنى المناسب للام العلة، يظهر لنا سرٌّ من أسرار الإيجاز في نظم القرآن، وأنه قد لا يدرك المعنى إلا بكشف الربط الصحيح بين الآيات والذي يؤدي إلى تسلسل الألفاظ والمعاني وتناسقها داخل إطار السورة.

*** من أسرار التناسق والإعجاز في قوله تعالى :﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾:**

١- الدلالة على عظمة الفتح :

ففي قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة وفيه تلطُّف بالنبيِّ – – صلى الله عليه وسلّم – . فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ ثم قال: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل: إنا فتحنا لنغفر لك، تعظيماً لأمر الفتح؛ وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة، لكنها عامة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الزمر:٥٣ (١)

٢- التشريف والتكريم للنبي – صلى الله عليه وسلم- :

فتقديم الجار والمجرور ﴿ لَكَ ﴾ على الفاعل للاهتمام بكون ذلك خاصاً بالنبي – صلى الله عليه وسلم-(٢) فإنه قد سبق في الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ ، فجعل هذا الفتح لأجله، رغم أنه ينتفع منه الرسول والمؤمنون، ولكن

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٦٧، والمغفرة في أصلها عامة لمن تتعلق به من المخلوقين للذنوب السابقة، أما المغفرة الشاملة لما تقدم وما تأخر المذكورة في هذه الآية فهي خاصة بالنبي – صلى الله عليه وسلم- كما سيأتي.

(٢) روح المعاني جـ٢٥ ص٣٣٥

خصَّه بالذكر لأنَّ ما كان فتحاً للرسول – صلى الله عليه وسلم- فإنَّ فيه فتحاً للمؤمنين، فالرسول إمامهم وقائدهم وقدوتهم وهم له تبع.

وأما في هذه الآية فقد تقدمت كلمة - ﴿ لَكَ ﴾- على الفاعل لأهمية دلالاتها، حيث حملت نوعاً من الخصوصية،[١] فهذه المغفرة لما تقدم وما تأخر لم تذكر لأحد غيره – صلى الله عليه وسلم- قط.

فذكر في الآية الأولى تشريفاً للنبي – صلى الله عليه وسلم- يشاركه في الانتفاع بثمرته غيره، ثم ذكر في هذه الآية تكريماً لا يشاركه فيه غيره. قال الحافظ ابن كثير[٢] –رحمه الله-: " وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- وهو – صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره على الطاعة والبرِّ والاستقامة التي لم ينلها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة."[٣]

٣- فضل هذه المغفرة وأهميتها : ومما دلَّ على ذلك إسناد الفعل إلى اسم الجلالة الظاهر وفيه لطائف بديعة ومنها :

أ- لما كانت هذه المكرمة الربانية للنبي – صلى الله عليه وسلم- أعني مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، نعمةً عظيمة من مسديها - جل وعزّ- تسترعي الانتباه كان الفاعل فيها مذكوراً بالاسم الظاهر، تنبيهاً

---

(١) روح المعاني جـ٢٥ ص٣٤٢

(٢) ابن كثير: هو إسماعيل بن عمر بن كثير، صاحب التصانيف، تتلمذ على المزي وصاهره، وله خصوصية بشيخ الإسلام ابن تيمية، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة. انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة – مصر ١٣٥٨هـ.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٢٢٩ وقد سبق في هذا البحث قوله: هذا من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره. ص

إلى المنعم المتفضل المستحق للشكر؛ لأن الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه؛ وذلك للاهتمام بالمسند وبمتعلقه، لأنَّ هذا الخبر أنف لم يكن للرسول – صلى الله عليه وسلم- علم به.(١)

ب- أسندت المغفرة إلى لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ لإحاطة هذا الاسم الجامع بجميع الأسماء الحسنى.(٢) ومنها الغفار والغفور والتواب والرحيم وغيرها.

ج- وثمة وجه آخر في إسناد الفعل إلى اسم الجلالة، يظهر معه ربط الآية وتناسقها مع ما بعدها، ذكره الرازي -رحمه الله- فقال: " أبرز الفاعل وهو الله ثم عطف عليه بقوله: ﴿ وَيُتِمَّ ﴾ وبقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكَ ﴾ ولم يذكر لفظ الله، على الوجه الحسن في الكلام، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول ولا يظهر فيما بعد."(٣)

*** المغفرة لمن حضر بيعة الرضوان :**

إن هذه المغفرة المذكورة في الآية - ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ - قد استحقت الصدارة على ما أكرم -الله عز وجل – به نبيه – صلى الله عليه وسلم- من المنح الأخرى؛ لأنها أعظمها وأظهرها وأخصُّها " وإذ قد كان الفتح لكرامة النبي – صلى الله عليه وسلم- على ربه تعالى، كان من علته أن يغفر الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم- مغفرة عامة إتماماً للكرامة، فهذه مغفرة خاصة بالنبي – صلى الله عليه

(١) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص ١٤٧

(٢) انظر نظم الدرر جـ١٨ ص٢٧٥

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٦٧

وسلم- هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح."[١] أما المغفرة الحاصلة بسبب الفتح فقد أشارت بعض الأحاديث إلى المغفرة الحاصلة لمن حضر بيعة الرضوان، كما في حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنه- قال: أخبرتني أمَّ مبشِّر[٢] أنها سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم- يقول عند حفصة[٣]: " لا يدخل النار – إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها "...الحديث[٤]

وعنه أن عبداً لحاطب[٥] جاء رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم- يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله ! ليدخلنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية ."[٦]

*** من أسرار التَّناسق والإعجاز في قوله تعالى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ :**

اختلفت أقوال المفسرين في ذلك، واجتهد بعضهم في متعلق التقدم والتأخر، وتحديد الزمن الفاصل بينهما، فمنهم من قال بأنه الرسالة، ومنهم من قال بأنه الفتح،

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٦

(٢) أم مبشر: هي أم بشر بنت البراء بن معرور الأنصارية امرأت زيد بن حارثة – رضي الله عنها- روت عن النبي – صلى الله عليه وسلم- وروى عنها جابر بن عبد الله – رضي الله عنه- [الإصابة جـ٤ ص٤٩٥ رقم: ١٤٩٠]

(٣) حفصة: هي أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب – رضي الله عنها وعن أبيها-، روت عن النبي – صلى الله عليه وسلم- وعن أبيها وروى عنها أخوها عبد الله وبعض الصحابة قيل ماتت سنة إحدى وأربعين وقيل سنة خمس وأربعين. انظر [الإصابة جـ٤ ص٢٧٣ رقم: ٢٩٦]

(٤) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رقم: ٢٤٩٦

(٥) حاطب: هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو –رضي الله عنه- قديم الإسلام، كان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها، شهد بدراً، مات سنة ثلاثين هجرية [الإصابة جـ١ ص٣٠٠ رقم: ١٥٣٨]

(٦) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة. رقم: ٢٤٩٥

ومنهم من قال غير ذلك.[١] كما اختلفوا في تحديد الذنب؛ فمنهم من قال: ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾: من حديث مارية، ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾: من امرأة زيد[٢] ومنهم من قال: ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾: من ذنب أبويك آدم وحواء ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾: من ذنب أمتك.[٣] ومنهم من قال: ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ من ذنب أبيك إبراهيم ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾: من ذنوب النبيين.[٤]

ونصوص القرآن صريحة في عدم مؤاخذة أحد من آحاد الناس بذنب غيره، فكيف يكون ذلك في حق النبي – صلى الله عليه وسلم- ؟ وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الأنعام: ١٦٤ وقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ النجم: ٣٩ وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ النور: ٥٤ وقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ النساء: ١٢٣ وميّز الله بين ذنبه – صلى الله عليه وسلم- وبين ذنوب المؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ محمد: ١٩ فكيف يحمل ذنب غيره أو تضاف ذنوب

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص٢٦٢-٢٦٣
(٢) الكشاف جـ٤ ص٣٣١
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص٢٦٣
(٤) انظر المصدر السابق

الفساق إليه ويجعل الزنا والسرقة والخمر ذنباً له.(١) فهذه الأقوال مخالفة لسنة الله في خلقه وحكمه.

*** أنسب الأقوال للتناسق الموضوعي في معنى قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:**

إنَّ مما يتطلبه الحديث عن التناسق الموضوعي في الآيات عند اختلاف أقوال المفسرين اختيار المعاني والأقوال الأقرب للصواب والأنسب للسياق.

وقد اهتدى بعض المفسرين إلى المعنى الذي يتناسب مع جليل الإكرام والإنعام في هذا المقام العظيم، ومع الفخامة والتعظيم التي اتضحت من ألفاظ الآيات وأسلوبها ومعانيها. فجو التكريم هنا لا يناسب حصر المغفرة في ذنب بعينه، بل لا يناسب الحديث عن الذنوب والأخطاء لنبحث ما هيتها لأن المقام مقام تشريف ورفعة للنبي – صلى الله عليه وسلم-. ومحاولة البحث عن تحديد ما تقدم وما تأخر زمنا وفعلا بدون دليل يبعد بالسياق عن جلالة المنح الإلهية التي أكرم الله بها نبيه – صلى الله عليه وسلم- في هذه الآيات.

وهؤلاء المفسرون منهم من أوجز المعنى في عبارة يسيرة جامعة فقال: " المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب ألبتة "(٢) ومنهم من قال في تفسيرها:

---

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ١٠ ص٣١٤-٣١٦ و [مختصر الفتاوى المصرية، لابن تيمية، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، دار نشر الكتب الإسلامية – باكستان ، ١٣٩٧هـ] ص١٠٤-١٠٥

(٢) المحرر الوجيز ص١٧٢٩

" أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى وتسميته ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل."(١) ويوضح هذا المعنى الجميل ابن عاشور –رحمه الله– فيقول: "ومتعلق التقدم والتأخر هنا غير مذكور، فأنزل الفعل منزلة الأفعال غير النسبية لقصد التعميم... والمراد بـ ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ تعميم المغفرة. كقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ البقرة: ٢٥٥، فلا يقتضي ذلك أنه فرط منه ذنب أو أنه سيقع منه ذنب، وإنما المقصود أنه تعالى رفع قدره رفعة عدم المؤاخذة بذنب لو قدّر صدوره منه "(٢) ولقد أدرك النبي – صلى الله عليه وسلم– فضل ما منحه الله به من التشريف والخصوصية والتكريم في هذه الآية الكريمة، فداوم على الشكر وزاد، فعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: " يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً "(٣)

*** التناسق في قوله تعالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ :**

*** المراد بإتمام النِّعمة :**

إتمام النعمة هو البلوغ بها غايتها وكمالها،(٤) أما بماذا تتم هذه النعمة ؟، فقد اختلف في ذلك المفسرون.

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٨ ص١٠٤

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٧

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ رقم:٤٨٣٧، وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة رقم: ٢٨٢٠

(٤) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ٥ ص٤٧٥

* إختلاف المفسِّرين في الأمر الذي تتمّ به النِّعمة :

قال بعض المفسِّرين : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾: بالمغفرة.(١) لكنَّ المقام مقام تشريف يحسن فيه تَعداد النعم، بينما هذا القول يجعل المغفرة وإتمام النعمة شيئاً واحدًا.

وقال بعض المفسرين: إنّ ذلك في الجنة(٢) وهذا لا يستقيم مع النسق فإن جميع المنح المذكورة في هذه الآية والتي بعدها كائنة في الدنيا. وقال الطبري و ابن كثير –رحمهما الله– إن ذلك في الدنيا والآخرة.(٣) وإتمام النعمة في الآخرة بلا شك حاصل لجميع أهل الجنة مع اختلاف مراتبهم ودرجاتهم.

وقال بعضهم: المراد فتح مكة والطائف وخيبر.(٤) وهذه الفتوحات على عظمتها داخلة في "الفتح". والمقام مقام ذكر منحٍ شاملة كليّة وليس مقامَ تفصيلٍ لجزئياتها.

وقال بعضهم: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾: بالنصر على الأعداء.(٥) وهذا مذكور في الآية التي بعدها، وهو سببٌ واحد من أسباب الظهور والتمكين، أي سبب واحد من أسباب إتمام النعمة. وكل واحدة من المنح المذكورة في هذه الآيات

---

(١) انظر تفسير السمعاني جـ٢ ص ١٨ وهو منسوب لمحمد بن كعب – رحمه الله –

(٢) وهو منسوب إلى ابن عباس – رضي الله عنهما–، انظر التفسير الوسيط للواحدي جـ٤ ص١٣٤ وزاد المسير جـ٤ ص١٢٨ والجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص٢٦٣

(٣) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص٢٤٤ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٣٠

(٤) انظر زاد المسير جـ٤ ص١٢٨و تفسير العز بن عبد السلام جـ٣ ص٢٠٣

(٥) انظر تفسير السمعاني جـ ٥ ص ١٩٠

تعد سببًا من أسباب إتمام النعمة، ولهذا لم يذكر في الآية ما تُتم به النعمة؛ لأنها – كما ذكرتُ آنفاً– منحٌ كليةٌ عظيمةٌ يندرج تحت كلٍّ منها أسبابٌ وفروع.

*** المعنى الأنسب لما تتمُّ به النِّعمة، والموافق لسياق الآيات وتناسقها الموضوعي :**

الأوفق لسياق الآيات وتناسقها – والله أعلم– ما قاله بعض المفسرين: ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ أي بإظهار دينك على سائر الأديان.(١) وقال آخرون: باجتماع النبوة وإظهار الدين، أو اجتماع النبوة والملك(٢)، وهذا يدخل فيه قول من قال: بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر.(٣)

وبهذا يظهر أن تمام النعمة فضل آخر، وهو أمر جليل وخطب جسيم يشغل بالَ النبي – صلى الله عليه وسلم– تمامُه، فأتمه الله له؛ وهذا لا يكون إلا **انتشار الرسالة وظهور الدين**، كما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ المائدة: ٣ هذا في الدنيا ، إضافة إلى ما سبق من مغفرة ما تقدّم من الذنوب وما تأخر ، وهذا إخبار عن عظيم فوزه في الآخرة . والله أعلم!

---

(١) زاد المسير جـ٤ ص١٢٨

(٢) انظر تفسير البيضاوي جـ٥ ص١٢٦و إرشاد العقل السليم جـ٨ ص١٠٤، ، وفتح القدير جـ ٥ ص ٤٥

(٣) تفسير العز بن عبد السلام جـ٣ ص٢٠٣، والجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص٢٦٣

*** فائدة العطف ومناسبته :**

لا شك أنَّ المغفرة نعمة جليلة، ولكن العطف في قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ فيه زيادة إفادة وهي إتمام النعمة ، ونعمة الله على رسوله – صلى الله عليه وسلّم – تتمُّ بالأمرين معاً ؛ثباته على الدين وتبليغه للناس ونصره على أعدائه ورفع ذكره وظهور دينه على سائر الأديان، هذا في الدنيا. وكذلك العفو والمغفرة والرضوان وما خصه الله به من الحوض والشفاعة العظمى والكوثر والفردوس الأعلى من الجنة ، وهذا في الآخرة؛ ولهذا ناسب عطف هذه الآية على ما قبلها فإن " في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تنصيص على حسن العاقبة والخاتمة ".[١]

*** التناسق واللطائف البلاغية في قوله تعالى :﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ :**

يتَّضح التناسق في هذه الجملة من الآية الكريمة وعلاقتها بموضوع المبحث الأول من خلال النِّقاط التَّالية :

*** مناسبة الجملة لما قبلها :**

هذه الجملة من الآية الكريمة تتحدَّث عن ثالثة المنح الإلهية المترتبة على الفتح والتي أكرم الله – عزَّ وجلَّ- بها نبيه – صلى الله عليه وسلم- وقد بدأت بالمغفرة وهي كالتخلية ثم أُتبعت بالتحلية التي كان غرتَّها إتمامُ النعمة .. ولما كان الملك وتمام

---

(١) دفع إيهام الاضطراب ص٢٦٢

النعمة في حال كثيرٍ من الناس- حاشا النبي صلى الله عليه وسلم- من أسباب القصور والتقاعس، ومدعاةً للتراخي والكسل ناسب أن يتبع ذلك بما يفيد التثبيت والاستقامة على الطريق المستقيم. " وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلةً قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من انفتاح سبل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلاً من قبل"(١)

*** المناسبة بين النعمة والهداية :**

وهي ظاهرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الفاتحة: ٦ - ٧ فمن هدي إلى الصراط المستقيم فقد أنعم الله عليه بأجل النعم.

*** المراد بالصراط المستقيم :**

الصراط مشتق من صرطت الشيء إذا بلعته بلعاً سهلا، فسمي الطريق صراطاً لأنه يسترط المارة فيه. وهو ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً مستقيماً، سهلاً، مسلوكاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود.(٢) ودين الإسلام قد جمع تلك الأوصاف كلها؛ لذا فالصحيح في المراد بالصراط المستقيم أنه دين الإسلام(٣)، وهو " ما جعله الله عليه [أي ما جعل اللهُ نبيَّه عليه] من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأنَّ الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ الأنعام: ١٦١ ثم

(١) إرشاد العقل السليم جـ٨ ص١٠٤

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص١٦

(٣) بدائع الفوائد جـ٢ ص١٤

فسّره بقوله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٦١ أي هداني ديناً قيماً "[١]

*** سبب تقديم الهداية على النَّصر :**

لما كانت حاجة العبد إلى الهداية ضرورية في سعادته ونجاته بخلاف حاجته إلى النصر، استحقت هذه العطية التقديم على النصر في سياق الآيات؛ لأن النصر إذا قُدِّر أنه قُهر وغلب حتى قتل، فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً وكان القتل من تمام نعمة الله عليه.[٢]

*** المراد بالهداية في الآية الكريمة :**

في هذه الآية الكريمة لم يتعدَّ الفعل ﴿ وَيَهْدِيَكَ ﴾ بحرف الجر (إلى) ولم يتعد باللام، وإنما تعدى بنفسه، وفعل الهداية متى عُدِّي بـ (إلى) تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأُتي بحرف الغاية، ومتى عدِّيَ باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأُتي باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله؛ وهو التعريف والبيان والإلهام.[٣]

وهذه الهداية المذكورة في الآية الكريمة هي زيادة هدايةٍ أعطاها الله – عزَّ وجلَّ– لنبيِّه – صلّى الله عليه وسلّم– بعد فتح الحديبية، فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيءٍ بعد شيء ويزيده الله هدىً بعد هدى، و أكمل الطرق هي الطريق التي بعث بها النبي محمد – صلّى الله عليه وسلّم– كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا

(١) المصدر السابق جـ٢ ص١٣ وما بين المعقوفتين من عندي للإيضاح.

(٢) انظر جامع الرسائل لابن تيمية جـ١ ص١٠٠

(٣) بدائع الفوائد جـ٢ ص٢٠

﴿... ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩ [١] **فجمع الله له بين المغفرة الشاملة والنعمة التامة والهداية الكاملة.**

*** سرُّ ذكر الصراط منكَّراً :**

لقد جاء الصراط منكراً لأن المقام مقام إخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وليس مقام دعاء وطلب، ولم يكن للمخاطبين عهدٌ به ولم يكن معروفاً لهم، فلم يجيء معرفاً بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب، ولا تقدمه في اللفظ معهودٌ تكون اللام معروفةً إليه وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل.[٢]

لكنَّ هذا التَّنكير قد زاده الوصف تخصيصاً، فليس ثمَّة صراط موصل للسَّعادة سوى الصِّراط المستقيم.

*** التَّناسق واللطائف البلاغية في قوله تعالى : ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ :**

*** مناسبة الجملة لما قبلها، وسرُّ الجمع بين الهداية والنَّصر :**

بعد أن أكرم الله نبيَّه بالهداية الشَّاملة المستدامة والثبات على طريق الحقِّ المستقيم حتى يأتيه اليقين، أردف ذلك بما تقرُّ به عينه، وهو النَّصر الذي به فرح القلب وعزَّة النفس، وخصوصاً أنه نصرٌ عزيزٌ لا خنوع فيه ولا إذلال. " وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع الذي يصدر عنه العمل

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية،ت : علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، دار العاصمة– الرياض، ١٤١٩هـ، جـ٣ ص١٨١

(٢) بدائع الفوائد جـ٢ ص١٣

الصالح، والنصر هو القدرة التامة على تنفيذ دينه بالحجة والبيان، والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد؛ قهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبداهم باليد. وهو سبحانه كثيراً ما يجمع بين هذين الأصلين، إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ في موضعين في سورة براءة [1] وفي سورة الصف[2] وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ الحديد: ٢٥ فهذا الهدى، ثم قال: ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾ الحديد: ٢٥ فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر ... فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك ألبتة."[3]

(١) آية رقم: ٣٣

(٢) آية رقم: ٩

(٣) بدائع الفوائد جـ٢ ص١٤-١٥

*** اللطائف البلاغية في ظهور الفاعل في هذه الجملة :**

يلاحظ في الآية السابقة لهذه أن الفاعل لم يُبرز في قوله تعالى: ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ ... ﴾ لأن إنعام الله عليه معلوم وهدايته معلومة، وإنما أخبر بازديادهما.(١) وأما في هذه الآية فقد أظهر الفاعل – وهو لفظ الجلالة – وهذا ينبئ عن إفادات جليلة منها:

أولاً: الإرشاد إلى طريق النصر، فأظهر لفظ (الله) ذكراً للتعليم بأنه بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨ وكما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وبهذا الاطمئنان وهذه السكينة يحصل الصبر ويتحقق النصر.(٢) **وليتذكَّر كلُّ طالبٍ للنصر أن النصر من عند الله.**

ثانياً: يلاحظ أن الاسم أُظهر هنا وأُظهر في الصدر ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ ، **لأن المغفرة تتعلق بالآخرة، والنصر يتعلق بالدنيا**، فكأنه أشير بإسناد المغفرة والنصرة إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله– عزَّ وجلَّ– هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة.(٣)

ثالثاً: اقتضى النظم ذكر الاسم الظاهر هنا بعد جملتين معطوفتين على الاسم الظاهر في الآية السابقة، حيث أظهر اسم الجلالة في هذه الآية **ليعود ضمير الشأن في الآية التي بعدها** وهي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ

---

(١) انظر معلم التنزيل ص١٢٠٢

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٦٧

(٣) انظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٤٣

﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ **على اسم ظاهر قريب**، وبهذا تكون كل آية آخذة بعنق الأخرى في تلاحمٍ واتِّساق.

*** المراد بالنَّصر العزيز :**

أكد الفعل ﴿ وَيَنصُرَكَ ﴾ بالمفعول المطلق لإظهار كمال العناية بشأن النصر.(١)

والنصر العزيز : هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه، والنصر غير العزيز هو الذي مضمنه الحماية ودفع العدو فقط.(٢) والمراد به هنا نصر غير نصر الفتح المذكور في الآية الأولى، لأنه جُعل علة للفتح، فهو ما كان بعد ذلك من الفتوحات وما أعقبها من دخول العرب في الإسلام بدون قتال، وبعثهم الوفود إلى النبي – صلى الله عليه وسلم- ليتلقوا منه أحكام الإسلام ويعلموها أقوامهم إذا رجعوا إليهم.(٣)

والمعنى: بسبب خضوعك يا محمد لأمر الله وتمام الاستسلام والانقياد فإن الله سيرفعك ويؤيدك وينصرك على أعدائك بالنصر المؤزر الذي لا ذلة بعده.(٤) وقد يكون وصف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر، بناء على أحد معاني العزة وهو قلة الوجود وصعوبة المنال فيكون المعنى: وينصرك الله نصراً يقل وجود مثله ويصعب مناله.(٥) والقول الأول أولى وهو قول جمهور المفسرين .

---

(١) إرشاد العقل السليم جـ٨ ص١٠٤

(٢) انظر المحرر الوجيز ص١٧٢٩

(٣) انظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٤٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٢٣٠ و منار السبيل في الأضواء على التنزيل، محمد العثمان القاضي، الرياض ط١. جـ٣ ص١١٠

(٥) انظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٤٣

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الأول :

افتُتِح هذا المقطع بالبشارة بالفتح والامتنان به وتعظيمه وتوكيده، ثمَّ ذكر الله – عزَّ وجلَّ – ما يترتب عليه للنَّبي – صلى الله عليه وسلم – من المنح والعطايا مرتَّباً؛ فبدأ بأهمِّها وأفضلها وهي المغفرة الشَّاملة العامَّة، وثنَّى بأهمِّ ماكان يحرص عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو ظهور دين الإسلام واستعلاؤه وانتشاره ودخول النَّاس فيه أفواجاً، فأتمَّ عليه النِّعمة بذلك، ثمَّ زاده هداية شاملة وتثبيتاً على الصِّراط المستقيم، وختم هذه العطايا الكريمة بالنَّصر الذي يناسب افتتاحية السّورة للعلاقة بين الفتح والنَّصر.

ويلاحظ من خلال تناسق هذه الآيات الكريمات المناسبة اللطيفة بين بداية هذا المقطع ونهايته؛ فكما ابتدأ هذا المقطع بذكر الفعل الدال على الفتح ﴿ فَتَحْنَا ﴾ وتأكيده بالمصدر ثم وصفه ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ، فقد انتهى المقطع أيضاً بذكر الفعل الدال على النصر ﴿ وَيَنصُرَكَ ﴾ وتأكيده بالمصدر ثم وصفه ﴿ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾. مما يدل على أن الفتح أثر من آثار هذا النصر العزيز.

وهذا التناسق البديع يضفي جمالاً أدبياً رائعاً على تلاحم هذه الآيات الكريمات وتكاملها، كما يعطي تركيزاً على موضوع الفتح والنصر في مقدمة السورة حتى يستشرف ويتطلع المؤمن لتفاصيل هذا النصر وأسبابه وما يترتب عليه.

وختاماً – وأنت تتدبر هذه الآيات النيرات "تأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا، وذلك خمسة أشياء؛ أحدها: الفتح المبين، والثاني:

مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالث: هدايته الصراط المستقيم، والرابع: إتمام نعمته عليه. والخامس: إعطاؤه النصر العزيز."(١)

ولقد كانت هذه المكافأة السخية العظيمة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- جزاء الطمأنينة التامة لأمر الله وقدره، والاستسلام الراضي لوحيه وشرعه، والثقة العميقة برعاية الرحمن ونصره. وقد تجلى هذا الاستسلام والرضا في صورة من أنصع صوره وأبهاها في الحديبية؛ يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها، وتبرك الناقة ويتصايح الناس: خلأت القصواء، فيقول: حبسها حابس الفيل، ويسأله عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- فلمَ نعطي الدنية في ديننا ؟ فيجيبه: " أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني "، وحين يشاع أن عثمان –رضي الله عنه- قد قتل، يقول – صلى الله عليه وسلم-: " لا نبرح حتى نناجز القوم " ويدعو الناس إلى البيعة، فتكون بيعة الرضوان التي فاض بها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا. وكان هذا هو الفتح، إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية.(٢)

وبعد الصلح تنزل هذه الآيات. فها قد جاء الفرج وحقَّت ساعة النصر، وقد أُرسلتَ فبلَّغتَ، وبُليتَ فصبرتَ، وهاجرتَ وجاهدت. والله قادرٌ على هذا الفتح في أيِّ وقتٍ شاء، لكنه أُخِّر لأجَله وَفق سنَّة الله وحكمته، فهذا الدين إنما يقوم في واقع الحياة بجهد البشر أنفسهم وبعد الابتلاء والتمحيص ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ... ﴾ يوسف: ١١٠ فكان ذلك الكفاح

---

(١) بدائع الفوائد جـ٢ ص١٤

(٢) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣١٦

الطويل والصبر الحميد على متاعب الطريق، والاستسلام التام لأمر الله القدير، وحسن الظن به تعالى والثقة بنصره سبباً لهذه المكافآت العظيمة.

والمتأمل في هذه الآيات الكريمات، وما احتوت عليه من العطايا الربانية والتي جُعل النصر العزيز خاتمتَها، وما سبقه من مقدمات ذات صلة قوية بالنصر، يدرك أن للنصر قوة مادية قد تكون سبباً مباشراً للفتوحات والغلبة، وهذه القوة يشترك فيها المسلم والكافر. وهي قوة واحدة، وإن تعددت الوسائل في العُدَّة والعَدَد.

ولكن الأولى منها القوة الإيمانية المتعددة، كالاهتمام بمغفرة الذنوب والتخلص منها والمتمثلة في الإكثار من التوبة والاستغفار ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الأنفال: ٣٣ والمقتضية للإنابة والتضرع إلى الله لدفع العذاب ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنعام: ٤٣ وكالعناية بالنعم الربانية والمداومة على شكرها قولاً وعملاً حتى تزداد وتنتشر، ويدرء بذلك عقاب الله وغضبه ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم: ٧ وكطرق أسباب الهداية ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩ والثبات والاستقامة على الدين ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ هود: ١١٢، فإن هذه القوى المعنوية من أهم أسباب النصر للمؤمنين. ومتى ضعفت هذه الأسباب عند المسلمين وقوي الأخذ بالأسباب المادية عند غيرهم فقد المسلمون النصر والاستعلاء، وأصبح حالهم بؤساً ، كما هم اليوم أتباعٌ للشرق أو الغرب، ومن أجل هذا لم يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالاعتماد التام على القوة

المادية، ولم يقل: وأعدوا لهم القوة الكاملة أو التي تفوق عدة الأعداء بل قال – عز وجل–: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ الأنفال: ٦٠ وذلك حتى تبقى الكفة الإيمانية المتعلقة بالاستسلام لرب العالمين وما أعده لعباده المؤمنين من الجزاء الحسن في الآخرة هي الكفة الراجحة، لأنها محط النظر وغاية الأمل عند المؤمنين الصادقين.

* **وعلاقة هذا المبحث بموضوع السورة الرئيس تتمثل في** تسمية صلح الحديبية فتحاً باعتباره بوابة الفتوحات للمؤمنين، وفي تأكيد هذا الفتح، وفي وصفه بأنه مبين لأنَّ ثمرته بانت بعد ذلك، وفي قوله تعالى :﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ فإن فيها إشارةٌ إلى ظهوره وظهور دينه، وكذلك في التنصيص على نصر الله لنبيه — صلى الله عليه وسلم — ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيات :

نزلت هذه الآيات الكريمات بعد رجوع النبي – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الأجلَّة-رضي الله عنهم – من الحديبية، فبشّره ربّه بأن الصلح الذي حدث في الحديبية بينه وبين المشركين هو فتح من عنده، أكرم به نبيه – صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين، ووصفه بأنه مبين أي ظاهر جلي،"وذلك لأن المقصود من فتح بلدان المشركين هو إعزاز دين الله وانتصار المسلمين، وهذا قد حصل بالفتح"(١)، الذي رتّب الله عليه أربع منحٍ عظيمة للنبي الكريم – صلى الله عليه وسلم- وهي مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، مما يعمله عن اجتهاد فيكون خلاف الأولى والأحسن، وسُمِّيَ ذنبًا في حقه لجلالة قدره وإن لم يكن ذنبًا في حق غيره(٢)، وإتمام النعمة عليه بإعزاز دينه وإظهاره على الدين كله، وهدايته وتثبيته على الإسلام حتى يلقى ربه، ونصره نصرًا قويًا تامًا عزيزًا لا مذلة فيه ولا خنوع.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٦

(٢) فتح القدير جـ ٥ ص ٤٥

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيات :

١- إنّ الفتح من عند الله عز وجل ولا يقدر عليه البشر إلا بتقديره وأمره كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فاطر: ٢

٢- إن فتح القلوب للاستسلام والرضا بقدر الله وأمره وحكمه أولى من فتح البلدان.

٣- إن الصلح قد يكون فتحًا إذا ترتب عليه فسح المجال لتبليغ الدعوة وإتاحة الفرصة للصدع بالحق وبيان ما عليه أهل الباطل من ضلالات.

٤- تبشير النبي – صلى الله عليه وسلم- بذلك الفتح المبين وهو صلح الحديبية والذي ترتب عليه عزُّ الإسلام والمسلمين.

٥- إكرام النبي – صلى الله عليه وسلم- بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر وترتيب هذا على الفتح مكافأةً له على كمال استسلامه لأمر الله وحسن ظنه به وأنه سينصره وسيتم دينه ولو كره الكافرون.

٦- في مغفرة الله لذنوب نبيه – صلى الله عليه وسلم- عبرة لكل من يطلب الفتح والنصر ليتخلص من الذنوب والمعاصي ويعلق قلبه بربه –جل وعز- الفاتح الناصر.

٧- سمي عمل النبي – صلى الله عليه وسلم- خلاف الأولى وإن كان جائزًا – ذنبًا لمقامه الشريف، ومن باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وفي هذا

إشارة للقدوات من الدعاة وقادة العمل الإسلامي أن يترفعوا عن صغائر الذنوب بله كبائرها وأن يتقوا الشبهات."فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام "(١)

٨- إكرام الله المعزّ لأوليائه نبيَّه – صلى الله عليه وسلم – بإتمام النعمة عليه وذلك لنصره على أعدائه وإظهار دينه وإعلاء كلمة المسلمين وشأنهم.

٩- هداية الله لنبيه – عليه الصلاة والسلام – هداية خاصة يثبّته بها على الطريق المستقيم حتى يلقى ربَّه.

وهذه من المنح الربانية، لكنَّها لم تأتِ فلتةً من السماء دون إيمان وعمل وجهاد ودعاء وشكر وتسبيح وتقديس لله رب العالمين.

فعلى طالب الهداية أن يشمِّر ويجتهد ويبذل ويعمل ويجاهد نفسه ويعمل لنصرة دينه حتى ينالها ويزداد منها كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩ وكما قال عزّ ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ محمد: ١٧ .

١٠- إن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، وينزله متى شاء، فهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء فينصر أولياءه ويعزهم، ويخذل أعداءه ويذلهم، فلا يُتوكل إلا عليه ولا يعتمد على غيره فيما لا يقدر عليه إلا هو.

---

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير المتفق عليه، صحيح البخاري ، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ص ١٥ رقم :٥٢ وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ص٦٥١ رقم: ١٥٩٩

وينبغي الثقة التامة بأن الله القوي القادر سوف ينصر دينه بعز عزيز أو بذل ذليل، نصرا يعز به أهل طاعته ويذل به من خالف أمره، كما ينبغي اليقين بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن البحث عن وسائل النصر وأسبابه والإعداد له واجب على الأمة قدر استطاعتها ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الأنفال: ٦٠ .

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

المبحث الثاني

المبحث الثاني : وموضوعه : (فضل الفتح المبين وأثره على المؤمنين)

ويشمل الآيات : (٤–٧)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ .. ﴾ الفتح: ٥

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الثاني

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات

المبحث الثاني

الموضوع الثاني : (فضل الفتح المبين وأثره على المؤمنين)

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ الفتح: ٤ – ٧

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى- ما منَّ به على نبيِّه – صلى الله عليه وسلم- من الفتح والنصر، مع ما تضمنته الآيات من أنّ النصر بيد الله، و خُتمت آيات المقطع الأول بقوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾ جاء في هذه الآيات بيان وجه النصر، لأن أسباب النصر كثيرةٌ، فابتدأت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ حيث بيَّنت أن سكينة القلوب وطمأنينة النفوس التي أنزلها الله على المؤمنين، هي من أهم أسباب النصر وأقواها، فقد علموا بعد أن اطمأنت نفوسهم وسكنت أنّ وعد الله على لسان رسوله حقٌّ، فازدادوا بذلك إيماناً، وكثر تصديقهم وتسليمهم بأن الله ينصر من يشاء، متى شاء، وعلى أيِّ صورة شاء، فتقوَّت نفوسهم واشتدَّت عزائمهم وثبتت أقدامهم فكان هذا من أعظم أسباب النَّصر. (١)

(١) انظر المحرر الوجيز ص ١٧٢٩ ومفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص٦٨ و لباب التأويل جـ٤ ص١٥٤ والإسرائيليات والموضوعات في كتب التَّفسير ص ١٧٠

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴾

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئاً مريئاً فمالنا ؟ فأنزل الله ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ قال شعبة(١): فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة. ثم رجعت فذكرت له فقال: أمّا ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ فعن أنس، وأما هنيئاً مريئاً فعن عكرمة.(٢)

---

(١) شعبة: هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، أمير المؤمنين في الحديث، عالم أهل البصرة وشيخها، قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث في العراق مات سنة ستين ومائة، انظر سير أعلام النبلاء جـ٧ ص٢٠٢

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية رقم: ٤١٧٢ وانظر أسباب النزول للواحدي ص٢٥٦ ولباب النقول ص١٩٣ ورواية قتادة عن عكرمة أخرجها الطبري في جامع البيان جـ٢١ ص٢٤١

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي :

*** التَّناسق في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾**

من خلال الوقوف على بعض أقوال أهل التفسير في بعض مفردات هذه الآية الكريمة وفي مناسباتها وفي خاتمتها تظهر بعض الفوائد النفيسة، وبعض اللطائف البلاغية، التي تساعد عند دراسة بقية آيات المبحث إلى الدلالة على التناسق الموضوعي في آيات المبحث، ومن ذلك ما يلي:

*** معنى السكينة :**

لم يختلف المفسرون في معنى السكينة، وإنما عبروا عنها تارةً بما يفيد معناها، وتارةً بأثر من آثارها، وتارةً بالمراد منها. وخلاصةُ أقوالهم أنَّ السَّكينة هي طمأنينة القلب وسكونُه إلى الحقِّ وثباته عليه،(١) وأنَّ المراد بها هنا تسكين القلوب للهدنة والصلح مع قريش حتى اطمأنت،(٢) وأن من آثار هذه السكينة: الصبر على أمر الله، والثقة بوعده، والرحمة بعباده، والوقار والخشوع، وظهور الحزم في الأمور، والثبات على الدين، والشجاعة عند البأس.(٣)

---

(١) انظر أضواء البيان جـ٧ ص٣٩٧ ونظم الدرر جـ ١٨ ص ٢٨٤ ، وبحر العلوم جـ٣ ص٣٠٩ ، والكشف و البيان جـ٩ ص٤٣

(٢) انظر المحرر الوجيز ص ١٧٢٩

(٣) انظر النكت والعيون جـ ٥ ص٣١١، ومفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص٦٧ ، و نظم الدرر جـ ١٨ ص٢٨٤ و أضواء البيان جـ٧ ص٣٩٧

*** ثمرات السَّكينة :**

لقد ذكر الله - سبحانه وتعالى- في هذه الآية الكريمة هذا الفضل العظيم الذي أكرم به عباده المؤمنين، وامتنَّ به عليهم وهو إنزال السكينة في قلوبهم، ومفهوم ذلك أنها لم تكن موجودة في الفترة قبل إنزالها، ولكنه – سبحانه- العزيز الناصر هو الذي أنزلها عليهم، **وثبتها في قلوبهم** حيث جعل قلوب المؤمنين ظرفاً لها، وجعلها سبباً لزيادة إيمانهم، **حيث ثبتوا على دينهم**، وبايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- على الجهاد في سبيل الله وعدم الفرار حتى النصر أو الموت، ففازوا برضا الرحمن وإحسانه.

لقد **اطمأنت نفوسهم** إلى ذلك الصلح العظيم بعد الاضطراب، **ورسخ يقينهم** بعد خواطر الشك، ولولا ذلك الاطمئنان لبقوا كاسفي البال، شديدي البلبال، وقد سمى الله إحداث هذا الاطمئنان في قلوبهم إنزالا، تشريفا لذلك الوجدان بأنه كالشيء الذي هو في مكان مرتفع فوق الناس فألقي في قلوب الناس، وتلك رفعة تخيلية مراد بها شرف ما أثبتت له، **فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم، وإذهاب خواطر الشيطان عنهم، وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم وقرارة إيمانهم تكوينٌ لأسباب النصر**.(١) فلقد كانت تلك النازلة عليهم شديدة، وكانت الحال كما وصف أنسٌ – رضي الله عنه – حالَ الصحابة عند الرجوع بعد أن حال المشركون بينهم وين ما يشتهون من الاعتمار وزيارة البيت الحرام، بقوله :" يخالطهم الحزن والكآبة " أو كما عبَّر عمر – رضي الله عنه – في سؤاله للنَّبي – صلى الله عليه

(١) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٥٠

وسلم – ولأبي بكر – رضي الله عنه، حينما قال: " ألسنا على الحقّ وعدوُّنا على الباطل ؟ ... فلمَ نعطي الدَّنيَّة في ديننا إذاً ؟ .

ولا شكَّ انَّ في هذا الموقف الشَّديد تربيةً عملية جادَّة للصحابة الكرام – رضي الله عنهم – لمزيد صقلٍ لقدراتهم ومزيد ضبطٍ لصبرهم ومزيد رفعة لإيمانهم وقدرهم، لتوجيههم الى الاستسلام لأمر النبي – صلى الله عليه وسلَّم – وحكمه .

وهكذا يربي الله – سبحانه وتعالى- عباده المؤمنين، ويقدر لهم من الأحداث والمواقف ما يثبت به خطواتهم على طريق الإيمان، فلا تنال من إيمانهم الأحداث ولا تتسرب إلى مشاعرهم الوساوس.(١)

*** سكينة القلب تضبط المشاعر والسلوك :**

في قوله تعالى: ﴿ **فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ بيان لمحل إنزال السكينة وهي الآية الوحيدة التي بيَّنت موضع السكينة.(٢) وقد دلَّ مفهوم المخالفة أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك، ولذا كان جزاؤهم مخالفاً لجزاء المؤمنين كما صرحت به الآية التي بعدها.(٣) فالقلب هو مركز التَّحكم في المشاعر والسلوك التي تقود إلى الصلاح أو الفساد "ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب "(٤) .

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ ١٣ص٤٠٠

(٢) انظر أضواء البيان جـ٧ ص٣٩٧، وانظر سورة الفتح الآيتين: ١٨-٢٦ وسورة التوبة الآيتين: ٢٦-٤٠

(٣) المصدر السابق جـ٧ ص٣٩٤

(٤) متفقٌ عليه. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم: ٥٢ ص١٥ ، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم: ١٥٩٩ ص٦٥١

والسَّكينةُ حين ينزلها الله في قلبٍ تكون طمأنينةً وراحةً ويقيناً وثقةً ووقاراً وثباتاً، واستسلاماً ورضاً.

وحين يسترجع الإنسان الأحداث التي وقعت منذ خروج الصحابة – رضي الله عنهم- مع النبي – صلى الله عليه وسلم- من المدينة بنية العمرة، وما تلاها من أحداث كأحداث المفاوضات بين المسلمين والمشركين، والإشاعة بأن عثمان-رضي الله عنه- قد قتل، ثم محاولات إيذاء النبي – صلى الله عليه وسلم- قبل كتابة الصلح وأثناءه وبعده، وما حصل عند كتابته من حمية الجاهلية، وما بدا للمؤمنين من الإجحاف والظلم في شروط الصلح؛ يتضح له بعض ما كان يجيش في قلوب الصحابة الكرام – رضي الله عنهم- من انفعالات وتأثرات، ومن ثم يدرك معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويحس برد السلامة وسكونها في تلك القلوب.(١)

*** الإيمان يزيد وينقص :**

في قوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أثبت زيادة الإيمان، فإنه لما أنزل الله على المؤمنين السكينة اطمأنت نفوسهم، وزال ما خامرها، وأيقنوا أن النصر وعد الله، وأنه واقعٌ لا محالة فرسخ إيمانهم وقوي، فجعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم.(٢) أي بالتصديق بالغيب، لأنهم بعد نزول السكينة في قلوبهم صبروا، فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين

(١) في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣١٨

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص١٥٠

إيماناً بالغيب، فازدادوا إيماناً مستفاداً من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب.[١] فكانت هذه السكينة سبباً لزيادة الإيمان في قلوبهم، فكلما ورد عليهم أمر أو نهي آمنوا به وسلموا وعملوا بمقتضاه؛[٢] ففي هذه الآية دليلٌ على أن الإيمان يزيد وينقص ويتفاضل أهله فيه، وهو مذهب جمهور الأمة، وحكى الإجماع فيه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد وغيرهما.[٣]

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لما قبلها :**

لما ذكر – سبحانه- سبباً من أسباب النصر التي هيأها للمؤمنين في داخل أنفسهم وقد تلبسوا به؛ وهو إنزال السكينة في قلوبهم ناسب أن يطمئن قلوبهم بالنسبة للأسباب الخارجية، وأن يذكرهم بأن له جنود السماوات والأرض يسخرهم لنصرة عباده متى شاء حسب علمه وحكمته.والله أعلم !

ولما قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ وكان المؤمنون في قلَّةٍ من العَدَد والعُدد، فكأن قائلاً قال: كيف ينصره ؟ فأخبر الله عز وجل أن له جنود السماوات والأرض، وهو قادر على نصر رسوله – صلى الله عليه وسلم- ببعض جنوده، بل هو قادر على أن يهلك عدوَّه بصيحةٍ أو رجفةٍ أو صاعقةٍ ونحو ذلك، فلم يفعل بل أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليكون النصر على أيديهم فيكون لهم الثواب ولأعدائهم

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢٨ص ٦٨
(٢) انظر لباب التأويل جـ٤ ص١٥٤
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم جـ ٧ ص ٣٢٣٠

العقاب.[١] فهكذا اقتضت حكمته وسنته – سبحانه – أن يظهر دينه بجهود أهله من البشر، لا قهراً وجبراً.

لأنَّ النصر لم يكن عسيراً ولم يكن بعيد المنال، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذٍ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون، لأن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء.[٢]

فلو شاء الله النصر آنذاك بواسطة جنده لكان، فإن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولو أرسل عليهم ملكا واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة.[٣] ففي الآية الكريمة إشعارٌ للمؤمنين بأن لهم في جهادهم أعواناً ينصرونهم بإذن ربهم.[٤] وهذا يزيد من اطمئنانهم وثقتهم بنصر الله.

فأفاد قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بعد قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية. أن لا عجب في أن يفتح الله لنبيه فتحًا عظيمًا وينصره نصراً عزيزاً ، فهو الذي يملك جميع أسباب النصر وله جنود السماوات والأرض. وفي مجيئ الجملة بعد قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين من جند الله كما قال

(١) لباب التأويل جـ٤ ص١٥٤

(٢) انظر في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣١٩

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٣٠

(٤) انظر النكت والعيون جـ٥ ص٣١٢

تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الأنفال: ٦٢ فإنزال السكينة في قلوبهم تشديد لعزائمهم، وتخصيصهم بالذكر قبل هذا العموم وبعده تنويه بشأنهم.(١)

*** المراد بجند الله :**

لقد أطلق على أسباب النصر الجنود تشبيهاً لأسباب النصر بالجنود التي تقاتل فتنتصر. والجنود : جمع جند، والجند اسم لجماعة المقاتلين لا واحد له من لفظه، وجمعه باعتبار تعدد الجماعات لأن الجيش يتألف من جنود : مقدمة وميمنة وميسرة وقلب وساقة.(٢) ومن جند الله هنا السكينةُ التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، والتي كانت سبباً لثباتهم و سرعة مبايعتهم للرسول - صلى الله عليه وسلّم — ونصرهم.

وجند الله لا يحصيهم إلا هو كما قال - عزَّ ذكرُه-: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ المدثر: ٣١ ومن جنود السماوات: الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر، والريح التي أرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي أنزل يوم بدر فثبت الله به أقدام المسلمين. ومن جنود الأرض : جيوش المؤمنين، وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبي — صلى الله عليه وسلم- يوم فتح مكة، ووفود القبائل الذين جاءوا مؤمنين طائعين دون قتال في سنة الوفود.(٣) والمراد أن جميع أهل السماوات والأرض

(١) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٥١
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق

ملك له سبحانه، لو أراد نصرة نبيه بغير صحبه الكرام لفعل، ولكنه اختارهم لصحبة نبيه ونصرته فسلَّموا له وأطاعوه .(١)

*** سرُّ تقديم المسند على المسند إليه في قوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾:**

التقديم هنا لإفادة الحصر، إذ لا اعتداد بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود لغلبة العدو بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه والنصر لأوليائه.(٢)

*** سرُّ ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ :**

هذه الجملة من الآية الكريمة جاءت خاتمةً لما قبلها من الفتح والنصر وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين. والمعنى: أنه – سبحانه- عليم بأسباب الفتح والنصر، وعليم بما تطمئن به قلوب المؤمنين بعد البلبلة، وأنه حكيم يضع مقتضيات علمه في مواضعها المناسبة وأوقاتها الملائمة،(٣) وأن من مقتضى حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى الوقت الذي يقدره.(٤)

*** لماذا قدَّم العلم على الحكمة ؟:**

"لما ذكر أمر القلوب بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، – والإيمان من عمل القلوب– ذكر العلم، إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى، وقوله:

---

(١) انظر زاد المسير جـ٤ ص١٢٨

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٥١

(٣) المصدر السابق

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٧

﴿ حَكِيمًا ﴾ بعد قوله: ﴿ عَلِيمًا ﴾ إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئاً متقناً ويعلمه، فإنَّ من يقع منه صنع عجيب اتفاقاً لا يقال له حكيم، ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم "[١] وأما سر ذكر العلم والحكمة هنا فقد قال ابن عطية: العلم والإحكام: صفتان مقتضيتان عزة النصر، لمن أراد الموصوف بهما نصره.[٢]

*** التّناسق في قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾:**

يظهر التناسق في هذه الآية الكريمة بعد الوقوف على أقوال المفسرين في النقاط التالية :

*** مناسبة الآية لما قبلها :**

لقد سبق ذكر سبب نزول هذه الآية. وأما مناسبتها لما قبلها فإنه لما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين فاطمأنت وسكنت وسلّمت بأمره تعالى ازدادوا إيماناً مع إيمانهم، ورسخ الإيمان في قلوبهم، فكان سبباً لتكفير السيئات ودخول الجنات، فقال تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ أي بتكسبهم القبول لما أنزل الله عليهم.[٣] فكأنه

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص٦٨
(٢) المحرر الوجيز ص ١٧٢٩
(٣) انظر المصدر السابق

تعالى أنزل السكينة ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات.(١)

وبهذا تكون جملة: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ معترضة بين جملة: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ وبين متعلَّقها ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.(٢)

وقيل: لما قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ كان من مقتضى علمه وحكمته أن سكَّن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم الفتح والنصر ليشكروه على نعمه، فيثيبهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.(٣)

*** علامَ يعود اللام في قوله :﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ ؟ :**

اختلف المفسرون في ذلك، وقد ذكر الرازي- رحمه الله- وجوهاً متعدِّدة لمتعلق اللام في قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾، وقال الشنقيطي –رحمه الله-: " أظهر الأقوال وأصحُّها في الآية أنَّ اللام في قوله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ وإيضاح المعنى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي السكون والطمأنينة إلى الحق ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ ﴾ بذلك ﴿ إِيمَٰنًا ﴾ لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق وازدياد الإيمان ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.(٤)

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص ٦٩

(٢) التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٥٠

(٣) انظر لباب التأويل جـ٤ ص١٥٤

(٤) أضواء البيان جـ٧ ص٣٩٤

*** التوجيه المناسب لمتعلَّق لام ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ حسب التناسق الموضوعي :**

الذي أميل إليه أن أولى الأقوال في بيان متعلق لام ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ وأنسبها للتناسق الموضوعي في هذه الآيات ما أشار إليه الطبري -رحمة الله عليه- بأنها متعلقة بآثار الفتح، وكأنها معطوفة على قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ﴾ قال الطبري –رحمه الله: " وقوله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ على اللام من قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ بتأويل تكرير الكلام ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾، إنا فتحنا لك ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار. ولذلك لم تدخل الواو التي تدخل على الكلام للعطف، فلم يقل: وليدخل المؤمنين.[1] وهذا لا ينافي تعلق اللام هنا بلام ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ ﴾ لأن تعلقها بلام ليزدادوا يعتبر تعلقاً مباشرا، وأما تعلقها بالفتح وآثاره التي ابتدأت بلام ﴿ لِّيَغْفِرَ ﴾ فتعلّقٌ غيرُ مباشر، وهو مناسب لموضوع الآيات لكونه السبب الأول لكل ما ذكر من المنح الربانية. فيكون ما أكرم الله – عز وجل – به نبيه – صلى الله عليه وسلم- في قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ وما أكرم به الصحابة – رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وما أكرموا به من عقاب أعدائهم من الكفار والمنافقين في قوله:

---

(١) جامع البيان جـ٢١ ص٢٤٧

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ... ﴾ كلٌّ ذلك من آثار الفتح العظيم. والله أعلم !

*** الحكمة في الجمع في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دون الاكتفاء بذكر المؤمنين فقط :**

أورد الرازي –رحمه الله– سؤالاً فقال: قد قال هاهنا وفي بعض المواضع : ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾، وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصف: ١٣ وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون: ١ فما الحكمة فيه ؟ وأجاب عليه بأنه في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص الرجال به مع كون النساء يشتركن معهم ذكرهن الله صريحاً نفياً لهذا التوهم، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين. فهاهنا لما كان قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلقاً بفعلٍ سابقٍ، وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم، كان يُتوهم فيه الاختصاص؛ لأن إدخال المؤمنين كان للقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها! لذا صرح الله تعالى بذكرهن،(١) وكان لهنَّ حظٌّ في الذكر؛ وبيَّن ابن عاشور دورهنَّ في الجهاد فقال : " وإنما كان للمؤمنات حظٌّ في ذلك لأنهن لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد،

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٧٠ ، وانظر غرائب القرآن للنيسابوري جـ٦ ص١٤٥

ممن يقمن منهن على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال، ومن صبر بعضهن على الثكل والتأيم، ومن صبرهن على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة."(١)

*** لماذا تأخر ذكر تكفير السيئات عن دخول الجنات في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ؟ :**

ترتيب الجمل هنا في السرد وليس حسب ترتيب وقوع معانيها، لأن تكفير السيئات يكون قبل إدخالهم الجنة.(٢) وقد أجيب عن ذلك بأن تكفير السيئات تابع لدخول الجنة فقدم الإدخال في الذكر، لأنَّ التبشير بدخول الجنة أهمُّ فبدأ به.(٣) وقد يقال : بعد أن بشَّرهم بالجنَّة، أكَّد البشارة بأن بيَّن لهم بأنَّ دخول الجنَّة ليس موقوفاً على من لا سيئات لهم، لكي لا يتوهَّم بعضهم أنَّ معاصيهم ستجعلهم غير مشمولين بهذه البشارة.

*** علام تعود الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ؟ :**

لعل الإشارة بالبعيد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تشمل كل ما سبق من النعم؛ الفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر والسكينة وزيادة الإيمان ودخول الجنة وتكفير السيئات، وتكون الجملة ختماً لكلِّ المنح التي امتن الله بها على رسوله وعلى المؤمنين. والله أعلم ! وقيل الإشارة تعود إلى دخول الجنة وتكفير السيئات كقوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ

(١) التحرير والتنوير جـ ٢٦ ص ١٥٢
(٢) انظر المحرر الوجيز ص١٧٣٠ ، ومفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٧٠
(٣) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص٧٠ ، والبحر المحيط جـ ٩ ص ٤٨٥

عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾ آل عمران: ١٨٥ .[١] ومعنى ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ أي كائناً في علمه تعالى وقضائه[٢] أنه فوزٌ عظيم. وتقديمه على متعلقه للاهتمام بهذه المعاملة ذات الكرامة.[٣] وجملة ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ معترضة بين جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين والمشركين في الآية بعدها.[٤]

وقوله : ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يدلُّ على جلالة الثواب وعظم الأجر .

*** التناسق في قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴾ :**

يظهر التناسق في هذه الآية الكريمة من خلال ما يلي :

*** مناسبة الآية لما قبلها :**

بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى- منَّته وفضله على المؤمنين بما كتب لهم من دخول الجنات وتكفير السيئات والمآل الحسن،ناسب مقابلة ذلك ببيان سوء حال المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات تحذيراً من الشرك والنفاق. وأنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته في ما قدَّر في هذا الفتح المبين، مما تقرُّ به أعينهم وتشفى به

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٧ ص٣٢٩

(٢) إرشاد العقل السليم جـ٨ ص١٠٥

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥١

(٤) فتح القدير جـ ٥ ص٤٥

صدورهم، وهو مجازاته لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بالعذاب في الدنيا، وبالغضب عليهم وإقصائهم من رحمته، إضافةً إلى ما أعدَّه لهم في جهنم من العذاب وبئس المصير.(١) ولاشك أنَّ المؤمن يفرح بما يحصل لأعداء الدين من الجزاء والعقوبة. كما قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ التوبة: ١٤ - ١٥

*** تكملة آثار الفتح ونتائجه :**

ابتدأت الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ﴾ عطفاً على ﴿ لِّيُدۡخِلَ ﴾(٢) وقد سبق أنّ ﴿ لِّيُدۡخِلَ ﴾ متعلق بـ ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ فتكون جميعها نتائج الفتح؛ فالآيات الأولى تشمل العطايا التي وهبها الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم–، والتي بعدها للمؤمنين، وهذه الآيات هي من نتائج الفتح أيضاً فقد ذَكرت تعذيباً للكافرين، وهو يُعدُّ بلسماً يشفي صدور قومٍ مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم.

*** المراد بالعذاب في هذه الآية الكريمة :**

هذا العذاب الذي عمَّ أعداء الدين هو عذاب في العاجل والآجل؛ فالعاجل هو عذاب نفسي وعذاب جسدي في الدنيا؛ أما العذاب النفسي فبما يرونه بأمِّ أعينهم من علوِّ كلمة المسلمين وانتصارهم، وتمكنهم وظهورهم وقهرهم للمخالفين

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣١٩

(٢) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي جـ٥ ص١٢٧ وإرشاد العقل السليم جـ٥ ص١٠٥،

لهم، فتصيبهم الهموم والغموم، وينخر في قلوبهم الأسى، وتعلو وجوههم القترة بسبب الألم والقهر والحسرة. وأما العذاب الجسدي فبما يصابون به من الضرب والقتل والأسر.(١)

فالأول مناسب للجزاء في مقابلة ما أصاب المسلمين من الحيرة والقلق لرجوعهم دون تحقيق مقصدهم. والثاني مناسب للجزاء في مقابل ظنهم السيئ بأن المؤمنين سيقتلون ويؤسرون ولن يرجعوا إلى أهليهم أبداً، والجزاء من جنس العمل.

وأما الآجل فهو عذاب الآخرة وهو أشدُّ وأنكى.

*** سرُّ تقديم المنافقين على المشركين في الآية الكريمة :**

قدَّم المنافقين على المشركين في الذكر في هذه الآية الكريمة؛ لأنَّ وقوع العذاب الدنيوي (النفسي والجسدي) على المشركين بسبب انتصار المؤمنين ظاهرٌ لا يخفونه. أما المنافقون فيخفون هذا العذاب، فأخبر الله تعالى بحقيقة حالهم، فكانوا بذلك أولى بالتقديم لخفاء حالهم، ومحاولتهم عدم إظهار عذابهم وآثاره من الحزن والكآبة. وعندما يعلم المنافق أن حاله مكشوف للمؤمنين، إما أن يكون ذلك سبباً لهدايته، أو لتصريحه بالنفاق أو لزيادة عذابه، وكل ذلك مطلب يستحقه المنافق وهو صاحب الخيار فيه.

ولا غرو أن المنافقين أشدُّ على المؤمنين من الكافرين، فالكافر يمكن أن يُحترز منه ويجاهد لأنه عدوٌّ مبين، وأما المنافق فلا يمكن أن يحترز منه ولا يجاهد، حيث يأتيه

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص٢٦٥، وفتح القدير جـ٥ ص٥٤

المؤمن على أنه صديقه ثم يفشي أسراره أو يخدعه، ولهذا كان شره أكثر من شر الكافر فكان تقديمه في الذكر أولى.(١) ولأنَّ الشِّرك وجه واحد من وجوه الشر، أما النفاق فهو وجوه كثيرة من الشر، يعيش بها المنافق، ويلبسها وجهاً وجهاً، ويتبدلها حالاً بعد حال.(٢) ففي التقديم تأكيد على خطورتهم حتى يُحترز من شرِّهم وخبثهم ودسائسهم.

وفي تقديم المنافقين على المشركين أيضاً ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحقُّ منهم بالعذاب.(٣) ولذلك كان عذابهم عند الله أشدُّ ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ النساء: ١٤٥ .

*** لمن يرجع الوصف في قوله تعالى: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؟ :**

قوله تعالى: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ﴾ وصفٌ للفريقين[أي المشركين والمنافقين] لأنَّ حقَّ الصِّفة الواردة بعد متعدِّدٍ أن تعود إلى جميعه، ما لم يكن مانعٌ لفظيٌّ أو معنوي.(٤)

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧٠، ولباب التأويل للخازن جـ٤ ص١٥٥
(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ ١٣ ص٤٠٣
(٣) تفسير أبي السعود جـ٨ ص١٠٥
(٤) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٣وما بين المعقوفتين من عندي لزيادة الإيضاح.

*** بيان المراد بظنِّ السُّوء وسببه :**

ذكر المفسرون في المراد بـ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ عدة أقوال.[١] أصحُّها وأوفقها لسياق الآيات وتناسقها ظنُّهم أن الله لن ينصر نبيه – صلى الله عليه وسلم– ومن معه، وأنهم سيغلبون وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام.[٢]

وقد بيّن الله – سبحانه وتعالى– هذا الظن في آيات أخرى في القرآن الكريم؛ أما ظن المنافقين فقد ورد في السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾[٣] حيث ظنوا أن قريشاً ستقضي عليهم أجمعين، وأصله نابع مما في قلوبهم من النفاق. وأما ظن المشركين فإنه أقدم من ظن المنافقين، وإنما ذكر معه لمناسبة ذكر ظن السوء واشتراكهم فيه، كما توافق ظن الفريقين بأن الله لن ينصر دينه.

وظنُّ المشركين أصله في شركهم بالله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ النجم: ٢٣.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧٠، وزاد المسير جـ٤ ص١٢٩

(٢) انظر فتح القدير جـ٥ ص٥٤

(٣) انظر جامع البيان جـ٢١ ص ٢٤٩

" وقد جعل الله تعالى ظن السوء به صفةً للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، أما القلب المؤمن فهو حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير في السراء والضراء لأنه قلب موصول بالله، ومتى اتصل القلب بالله لمس هذه الحقيقة الأصيلة وأحسها، وأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسؤ ظنهم بالله، وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا، على غير ثقة بقدر الله وقدرته وتدبيره الخفي اللطيف"[١]

وقد أكد الله تعالى أنَّ ظنهم هذا لا يعود عليهم إلا بالسوء، فقال- جلَّ ذكره- : ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ فجعل جزاءهم من جنس عملهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ فاطر: ٤٣ كذلك لا يحيق الظن السيئ إلّا بأهله. فجعل جزاء ما اعتقدوه في نبيهم يدور عليهم،[٢] وجعل دائرة الفساد محيطة بهم بحيث لا يخرجون منها[٣] والمعنى: أن ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائرٌ عليهم حائقٌ بهم حتماً[٤] ولا ينبئك مثل خبير.

ومعنى ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ أي الفساد، وهو يستخدم في المعاني كقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ التوبة: ٩ كاستعمال الفساد في الأجساد كقوله تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣١٩

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧١

(٣) النكت والعيون جـ٥ ص٣١٢

(٤) انظر تفسير أبي السعود جـ ٨ ص١٠٥

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ الروم: ٤١، فكلُّ ما ساء فقد فسد، وكلُّ ما فسد فقد ساء.[١] والفساد في الاعتقاد لا يصدر عنه إلا فساد في السلوك. وأما سلامة القلوب وطهارتها فإنها تمنح صاحبها التصور الصحيح ومن ثم تقوده إلى السلوك المستقيم.

*** بيان سرِّ التعبير بالدائرة في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ :**

لقد سمى المصيبة التي دعا بها عليهم: دائرة من حيث يقال في الزمان إنه يستدير ومنه قول النبي – صلى الله عليه وسلم-: " إن الزمان قد استدار كهيئتة يوم خلق الله السماوات والأرض. "[٢] أو أن المصيبة تسمى دائرةٌ من حيث كمالها بأن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة بمركزها وبما في داخلها.[٣] وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ البقرة: ٨١

*** لماذا جاء العطف بالواو والمقام للفاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ ؟ :**

قال البيضاوي – رحمه الله - :" والواو في الأخيرين والموضع موضع الفاء إذ اللعن سببٌ للإبعاد والغضب سببٌ له.لاستقلال الكلِّ في الوعيد "[٤] ووضَّحه أبو

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧١

(٢) الحديث : متَّفقٌ عليه، وقد رواه أبو بكرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ص ٩٠٧ رقم: ٤٤٠٦ و صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ص٦٩٥ رقم: ١٦٧٩

(٣) انظر المحرر الوجيز ص١٧٣٠

(٤) انظر أنوار التنزيل جـ٥ ص١٢٧

السعود – رحمه الله – فقال:" وعطف ﴿ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ ﴾ بالواو مع حقهما الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها، للإيذان باستقلال كل منهما في الوعيد، وأصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض."[1]

*** سرُّ مجيئ جملة : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ جملة إسمية وجملة : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ ﴾ وما بعدها: جملة فعلية فعلها ماض:**

قال ابن عاشور :" وجملة : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ دعاءٌ أو وعيد ولذلك جاءت بالإسمية لصلوحيتها لذلك، بخلاف جملة : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ ﴾ فإنها إخبار عما جنوه من سوء فعلهم فالتعبير بالماضي عنه أظهر.[2]

" وهذه الثلاث آثارها عظيمة، فقد قال تعالى في الغضب: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ طه: ٨١ وقال في اللعنة: ﴿ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ النساء: ٥٢ وقال في نار جهنم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ آل عمران: ١٩٢" [3] وأُضيفُ هنا الجزاء الأول قبل هذه الثلاث وهو العذاب، المذكور في

(١) إرشاد العقل السليم جـ٨ ص١٠٥
(٢) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٤
(٣) أضواء البيان جـ٧ ص٣٩٥

رأس الآية، فإن أثره عليهم عظيم كذلك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾إبراهيم:٧

*** ماذا أفاد ذكر الأفعال :﴿ وَغَضِبَ ﴾ ،﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ ،﴿ وَأَعَدَّ ﴾ في الآية الكريمة ؟ :**

في قوله تعالى: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ زيادة في الإفادة لأن من كان به بلاء فقد يكون مبتلىً به على وجه الامتحان، فيكون مصاباً لكي يصير مثاباً، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب. فقوله: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ زيادةُ إفادةٍ لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضبُ بالعتب والشتم أو الضرب، ولا يفضي غضبُه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابِه وطرده من بابه، وقد يكون يفضي إلى الطرد والإبعاد فقال: ﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ لكون الغضب شديداً.

وقوله: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ بيان لمآلهم في العقبى، بعد أن بين حالهم في الدنيا. وقوله: ﴿ وَسَآءَتْ ﴾ إشارة لمكان التأنيث في جهنم.(١)

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧١

* التناسق في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

* مناسبة الآية لما قبلها :

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما أعدَّ للكافرين من الجزاء في الدنيا والآخرة، قال مؤكِّداً لقدرته على الانتقام من أعداء الإسلام من المشركين والمنافقين: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) فعقَّب على ما تقدم بما يفيد قدرته وحكمته.(٢)

* فائدة إعادة قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ :

هذه الآية قد تقدم تفسيرها، وفائدة الإعادة هنا هو أن لله جنودَ الرحمة وجنود العذاب، أو يقال إن جنود الله قد يكون إنزالهم بالرحمة وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة للمؤمنين، وذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين.(٣)

وبهذا يظهر في هذا الخِتام لطيفةٌ جمالية حيث خُتمت الآية الأولى في هذا المقطع في مطلع الحديث عن كريم المنح الربانية للمؤمنين، والتي كان في مقدمتها إنزال السكينة، بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ لأن إنزال السكينة في

(١) انظر الكشف والبيان جـ٤ ص١١٥ وتفسير القرآن العظيم جـ٧ ص٣٢٩

(٢) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٠

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧١

قلوب المؤمنين رحمة وهي من مهام جند الله من الملائكة. ثم خُتمت الآية الأخيرة من هذا المقطع في خاتمة الحديث عن جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات والمتمثل في التعذيب والغضب واللعنة ودخول النار بالجملة نفسها ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لأن إنزال العذاب من مهام جند الله من الملائكة أيضاً والبون شاسع بين المهمتين.

*** لطيفة في ترتيب قوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في الآيتين ٤، ٧:**

لقد ذكر جنود السماوات والأرض في الآية الرابعة قبل إدخال المؤمنين الجنة، وذكرهم هاهنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جهنم، وفي هذا ترتيب حسن، لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين الجنَّة مكرَّمين معظمين، ثم تكون لهم القربى و الزلفى بقوله: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وبعد حصول القربى والعِنْدية لا تبقى واسطة الجنود، وأما الكافر فيُغضب عليه أولاً فيبعد ويطرد عن ناحية الرحمة إلى جهنم، ويُسلَّطُ عليه ملائكة العذاب وهم جنود الله، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ التحريم: ٦ ولذلك ذكر في الأولى جنود الرحمة أولاً، والقربة بقوله: ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ آخراً،

وذكر في هذه الآية الإبعاد أولاً في قوله: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ ﴾ ثم ذكر ﴿ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ آخراً.[١]

فَتَقَدُّمُ ذكرِ جنودِ السماوات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون جنود الرحمة معهم يثبتونهم على الصراط وعند الميزان، فإذا دخلوا الجنة أفضوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه، فلا حاجة لهم بعد ذلك إلى شيء، وتَأَخُّرُ ذكر جنود السماوات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقوهم أبداً.[٢]

*** الحكمة في ختم قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ الأولى بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ والثانية بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ :**

إنَّ وضع النصر في موضعه الحقيق به يحتاج علماً بمن يستحقُّه، واختيار الجند الناصر (وهو هنا السكينة) يحتاج علماً بحال المنصورين، ولذلك كانت الحكمة قرينة العلم في الآية الأولى. أما تعذيب المنافقين والمشركين وهزيمتهم فيحتاج قوَّة العزَّة، وحكمة تضع الهزيمة والعذاب في موضعها، فناسب اقترانهما ختام الآية الثانية. قال ابن عطية – رحمه الله – : " قال تعالى في هذه [أي في الآية الثانية] ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فذكر صفة العزَّة من حيث تقدَّم الانتقام من الكفار، وفي التي قبلُ قرن

---

(١) المصدر السابق

(٢) انظر الكشف و البيان جـ٤ ص١٥٥

بالحكمة العلم من حيث وعد بمغيبات وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين، فكلُّ لفظ وجهٌ من المعنى."(١)

"فذكر العزة مناسب هنا للإشارة إلى شدة العذاب كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ الزمر: ٣٧ وكما قال: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر: ٤٢"(٢)

---

(١) المحرر الوجيز ص ١٧٣٠

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧١

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الثاني :

بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى- في المقطع الأول من السورة الكريمة أربعة آثار عظيمة للفتح أكرم بها النبي – صلى الله عليه وسلم- تشوّف صحابته الكرام – رضي الله عنهم- لفضل الله وكرمه حيث قد صحبوا النبي الكريم وآمنوا به، وعزَّروه وجاهدوا معه ونصروه، وصبروا وصابروا ورابطوا، فجاءت هذه الآيات الكريمات في هذا المقطع تبشرهم بأربع مكرماتٍ عظيماتٍ؛ اثنتين منهما في الدنيا وهما: إنزال السكينة في قلوبهم وزيادة إيمانهم. واثنتين منهما في الآخرة، وهما: دخول الجنة وتكفير السيئات، ثم بشروا بما تقرُّ به أعينهم في أعدائهم من الكفار - سواء منهم من جاهر بعدائه أو من كتمه وأظهر الإسلام نفاقًا- وهو مجازاتهم بأربع عقوبات، أولها : العذاب في الدنيا بشقَّيْه الجسدي والنفسي، منوهًا – سبحانه - إلى سبب هذا العذاب، وهو سوء الظن بالله النابع من فساد القلب وخرابه، وثانيها: غضب الله عليهم غضبَ جزاءٍ وعقوبة، وثالثها: إقصاؤهم عن رحمته – عزَّ و جلَّ- المترتب على ما سبقه، ثم ختمت ببيان ما أعدَّ لهم في الآخرة لتكون مثواهم وهي جهنم وساءت مصيرًا.

*** مشهدان متغايران :**

لقد كان أسلوب المقابلة في هذا المقطع بين ما أعده الله من ثواب عظيم وجزاء كريم لأهل الإيمان من المجاهدين الصادقين الذين صدقوا الله ما وعدوه، وبين ما أعده من عقاب أليم وعذاب شديد لأهل الشرك والنفاق، بديعًا ومعجزًا ومؤثرًا.

فبينما يكون الفتح للمؤمنين- بما كتب الله لهم فيه من إنزال السكينة والثبات على الدين وزيادة الإيمان والإستسلام لله ورسوله بصدقٍ ويقين- نعمةً تقودهم إلى دخول جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، يكون في المقابل للكافرين والمنافقين نقمةً وعقوبةً فتكون نهايتهم النار وبئس المصير، وذلك بما كسبت أيديهم من سوء ظنهم بالله، حيث ظنوا أنه سيخذل رسوله وعباده المؤمنين، وأنهم لن يُنصروا ولن ترتفع لهم رايةٌ وسيعودون إلى أهليهم خائبين.

وبينما تنال المؤمنين رحمةُ الله فيستر عيوبهم ويكفر سيئاتهم، نجد الكافرين يُقصون عن هذه الرحمة فيغضب عليهم ربهم ويلعنهم.

وبينما نجد المؤمنين تنالهم السكينة والطمأنينه فتثبت أقدامهم وتطيب نفوسهم، نجد الكافرين تقتلهم الحسرة ويحيط بهم الهمُّ والحزن ويقتلهم الحسد والقهر، وهم يرون انتصار المسلمين وظهورَ دينهم.

وبينما نجد المؤمنين في زيادةٍ من إيمانهم وفضلٍ من ربهم، ويوصف هذا التكريم بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ نجد الكافرين في أبئس حالٍ، قد هئيت لهم جهنم بشدائدها وغيضها وزفيرها، ويوصف ما أعدّ لهم بالسوء ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ في مقابل سوء ظنهم وفساد معتقدهم وشرِّ أفعالهم.

وقد ذكّر في المشهدين بجنده الذين لا يعلمهم ولا يحصيهم إلا هو- سبحانه- تذكيرًا للمؤمنين بنعمته عليهم، وتقريعًا للكافرين لبيان قوته وعزته، سبحانه القوي الشديد! وهؤلاء الجند هم رسل رحمة ونصرة وتأييد وتكريم للمؤمنين، وفي المقابل فإن

جند الله الذين يسلطهم على الكفار هم جند عقوبة وعذاب وخزي للكافرين والمنافقين.

وختم بذكر حكمته في كلا المشهدين لأنه أجلُّ وأقدر وأحكم من يقدِّر الأمور في مواضعها. وقرن حكمته في المشهد الأول بعلمه؛ لأن أهله هم الذين علموا الحق علم اليقين فاتبعوه، وأما أصحاب المشهد الثاني فقد أعرضوا بجهلهم وعنادهم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩ فهؤلاء إنما يناسب معهم إظهار صفة العزَّة المتضمِّنة للقوة والغلبة.

وهذه المصائب العظام التي مُني بها الكفار هي في حقيقتها منحة جليلة من الرحمن الكريم، تُفرح المؤمنين وتَطيب بها أنفسُهم.

إنَّ هذه الآيات الكريمات توجه النظر إلى النصر الحقيقي، وإلى الفوز العظيم عند الله – عز وجل–، وتربط القلوب بالنتيجة الختامية في الآخرة حينما تتميز الصفوف؛ فالكفر بكل أسبابه ومنها الشرك والنفاق الاعتقادي له نتيجة واحدة وهي دخول النار. والإيمان ونصرة دين الله الحقّ له نتيجة واحدة وهي دخول الجنة. وحينما يستشعر المؤمن ذلك ويوقن بمعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ الحج: ٤٠ ويؤمن بأن لله جنودَ السماوات والأرض، وتستقر في نفسه الرغبةُ والشوق لجنات تجري من تحتها الأنهار، ويزداد إيماناً بأن الله سيعذب أعداء الدين من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويدخلهم جهنم وساءت مصيرا، حينئذٍ يعيش المؤمن مطمئن البال نقيَّ السريرة، عزيز النفس ينشد النصر محسناً الظن بربه، ومستشعراً علم الله وحكمته وعزته.

* **ومن دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس** تكريم المؤمنين بوعدهم بدخول الجنة وتكفير السيئات ووصف ذلك بالفوز العظيم. وكذا توعد أعدائهم من المشركين والمنافقين بالعذاب واللعنة والغضب ودخول النار، تطميناً للمؤمنين ودحراً لأعدائهم. وهذا حافز قوي للجهاد في سبيل الله والحفاظ على هوية الأمة. ومن الدلائل تقرير أن سوء الظن بالله يعود على صاحبه بالبعد من رحمة الله ورضاه، ومفهومه أن حسن الظن بالله وبوعده من أسباب التقرّب إليه سبحانه. ومنها التأكيد على أن لله جنود السماوات والأرض، إذ ذكرت في هذا المبحث مرتين، حتى يثق المؤمنون بالنصر وأنه من عند الله، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ .

ومن دلائل ذلك وصف الله بالعلم، فإنَّ فيه طمأنة للمؤمنين، وأنه عليمٌ بحالهم ، ومطلع على أعدائهم وما يضمرون من مكرٍ وسوء ظن. ومن الدلائل أيضاً وصف الله بالعزَّة والحكمة المقتضي إعزازه ونصره لأوليائه، ومدّهم بالنصر متى يشاء على مقتضى حكمته.

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات :

بعد أن بيَّنت الآيات السابقة إكرامَ الله عز وجل لرسوله – صلى الله عليه وسلم- ومكافأته له على صبره وجهاده في سبيل الله، طمع المؤمنون في فضل ربهم وكرمه وسألوا نبيهم قائلين : هذا لك فما لنا ؟ فجاءت هذه الآيات تبين أن ثباتهم هو من أهم أسباب النصر، وأن الله سبحانه وتعالى بمنِّه وكرمه قد أنزل على قلوبهم السكينة، فطابت أنفسهم بعدما أصابها اضطراب شديد وحيرة وكآبة. وإذا أراد الله نصراً وفتحاً هيأ أسبابه، وقد كانت هذه السكينة والطمأنينة التي أكرمهم الله بها سبباً لزيادة إيمانهم، فأثبت الله لهم الإيمان مع ما حصل منهم من تردد واضطراب وجعل السكينة – بعد أن ظهر لهم أن ما كرهوه من الصلح مع المشركين هو فتح مبين – سبباً لزيادة إيمانهم، فازدادوا إيماناً ويقيناً بأنّ محمداً رسول الله، وأن الله معينه وناصره، وأن لله جنود السماوات والأرض، وأنَّ كلَّ ذي شوكةٍ وقوة من المخلوقات تحت قدرته يسخره كما شاء ومتى شاء، فقد يسلط جيشاً كافراً على جيشٍ كافر نصرة لجيش مؤمن، والمراد من هذا أنه تعالى قادر على نصرة نبيه وإظهار دينه وإعلاء كلمته بغيركم أيها المؤمنون، وكان الله وما زال أزلاً وأبدا عليما بخلقه حكيماً في تدبير أمورهم.(١)

ثم ذكر من آثار الفتح المبين تفضله سبحانه على المؤمنين بالحصول على المطلوب المرغوب وهو دخول الجنات مع زوال المحذور بتكفير السيئات، وكان ذلك

---

(١) انظر أيسر التفاسير لكلام العليِّ القدير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنوَّرة، ١٤٣٠هـ. جـ٥ ص٩٥

الجزاء للمؤمنين عند الله فوزاً عظيماً يفوزون به بسبب هذا الفتح المبين.(١) وقد تحصل لهم بهذا أربع عطايا هي سكينة القلوب وزيادة الإيمان ودخول الجنة وتكفير السيئات.

وأما المنافقون والمنافقات فيعذبهم بما فتح الله لرسوله من نصر على مشركي قريش، فيُكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب ظنهم الذي ظنوه في أهل الإيمان من الضعف والوهن والتولي عن النبي – صلى الله عليه وسلم– وهذا عذاب في عاجل الدنيا، وأما في آجل الآخرة فلهم صليّ النار والخلود، وليعذب كذلك المشركين والمشركات، والذين اشتركوا مع المنافقين في ذلك الظن السيئ بأن الله لن ينصر أهل الإيمان على أعدائهم، ولن يظهر كلمته على كلمة الكافرين، فتوعدهم الله جميعاً على سوء ظنهم بأن تدور عليهم دائرة العذاب، وينالهم الله بغضب منه ولعنة فيبعدهم ويقصيهم من رحمته، وقد هيأ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة وساءت مصيراً يصير إليه هؤلاء الكفرة.(٢)

وحاصل نتيجتهم أن جازاهم الله على كفرهم ونفاقهم وصدهم عن سبيل الله وظنهم بربهم ظن السوء بأربعة أمور هي العذاب في الدنيا حسرة وكمداً وقتلاً وأسراً، والغضب، واللعنة، ودخول جهنم وبئس المصير.

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٧

(٢) انظر جامع البيان جـ٢١ ص ٢٤٩

المطلب السادس: أهمُّ ما ترشد إليه الآيات :

١- إن السكينة من أسباب النصر، وهي بيد الله – عز وجل- ، ينزلها على قلب من يشاء من عباده الموحدين الصادقين ليثبتهم بها، وهذه مشروطة بالنصرة للدين و أهله وعلمائه ودعاته ،والذوذ عن منهج الإسلام ومصادره، وعن سنة خير الأنام وهدي أصحابه كما قال تعالى: ﴿ **إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ** ﴾ محمد: ٧

٢- إن اطمئنان القلوب المؤمنة ويقينها يحصل أيضاً بتعلقها واتصالها بخالقها وتعظيم أمره وحرماته، والانشغال بذكره عن من سواه كما قال جل ذكره: ﴿ **أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ** ﴾ الرعد: ٢٨

٣- القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، وموقف واحد من الاضطراب والشك قد يتلقفه الشيطان فيزعزع به القلوب، وعلى المسلم أن يسأل ربه السكينة والثبات ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ** ﴾ آل عمران: ٨

٤- الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعة والمعصية لا تقتصر على أعمال الجوارح بل قد تكون بأعمال القلوب وهي أهم .

وفي الآيات إشارة إلى الحرص على زيادة الإيمان، بزيادة الطاعات والابتعاد عن المعاصي، لأن ذلك سبب لدخول الجنة وتكفير السيئات.

٥- ينبغي الاستعانة بالله تعالى وطلب النصر منه سبحانه، لأنه القوي القادر الذي له جنود السماوات والأرض.

٦- التسليم بالقضاء والقدر، واليقين بأن لله الحكمة البالغة وهو بكل شيء عليم.

٧- إثبات صفتي العلم والحكمة لله تعالى ..

٨- إن السكينة وزيادة الإيمان من أسباب دخول الجنة. ومن آثار الفتح المبين أنه كان سبباً لهذا كله، فأفرحهم ربهم عالم الغيب والشهادة بهذا الخبر وهو من الأمور الغيبية وقد صح في الحديث " لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة "

٩- تكفير الذنوب فضل عظيم من رب العالمين، وعلى المسلم أن يسعى إليه بكثرة الاستغفار وتكرار التوبة والإكثار من الحسنات ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هود: ١١٤

١٠- الفوز كل الفوز هو دخول الجنة ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ آل عمران: ١٨٥ فعلى العاقل أن لا يلهث وراء شهوات الدنيا وحطامها الفاني معرضاً عن هذا الحظ العظيم ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٤

١١- النفاق خطره عظيم، وعاقبته وخيمة، وجزاؤه الدرك الأسفل من النار. وتعهد القلوب ومراقبة الخالق في القول والعمل، والحرص على إخلاص النية، والتجرد من حظوظ النفس مطلب عظيم يحتاج إلى مجاهدة.

١٢- سؤ الظن بالله عز وجل دليل على فساد القلب، ونتيجته في الدنيا أن يحيق الظن السيئ بصاحبه، وتدور عليه دائرته فتحاصره، وفي الحديث القدسي " أنا عند ظن عبدي بي "(١)

١٣- إثبات صفة الغضب لله عز وجل.

١٤- على المسلم الجادّ أن يتقي غضب ربه عليه، والله يغضب على من يشرك به شيئاً أو يعرض عن حكمه، أو ينتهك محارمه، أو يحارب أولياءه، أو ينصر أعداءه، أو يصد عن سبيله ... الخ، وليحرص المسلم على رضا ربه ويقدمه على رضا البشر فإن من ابتغى رضاء الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن ابتغى رضاء الله بسخط الناس رضي الله عليه وأرضى عنه الناس.

١٥- ما أحوج الإنسان إلى رحمة الله عز وجل، فهي رحمةٌ واسعة كما قال – جلّ ذكره – : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف: ١٥٦ ولا يقصى عن رحمته إلا شقي، فلا يتعرض المسلم إلى ما يسبب اللعنة من ارتكاب الأمور التي وردت بها النصوص الصحيحة؛ لعن الله من قال كذا، أو من عمل كذا. بل يطلب رحمة ربه ويلحُّ في دعائه بأن يكون مرحوماً ،كيف لا والنبي – صلى الله عليه وسلم- يقول: " لن يدخل أحداً عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول

---

(١) متفق عليه. صحيح البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ آل عمران: ٢٨، رقم: ٧٤٠٥ ص ١٥٥١، وصحيح مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: الحث على ذكر الله تعالى، رقم: ٢٦٧٥ ص ١٠٧٥

الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ الله بفضل ورحمة."[١] نسأل الرؤوف الرحيم أن يتغمدنا جميعاً برحمته وأن يرضى عنا ويسكننا جنته.

١٦- مصير المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هو نار جهنم بما فيها من عذاب شديد. ومصير الموحدين الجنة بما فيها من نعيم مقيم، فعلى المسلم أن يحافظ على توحيده من كل ما يخدشه أو ينقص من كماله، وأن يعبد الله مخلصاً له الدين، وأن يستعيذ بالله من عذاب النار في كل صلاة كما أرشدنا المصطفى – صلى الله عليه وسلم-.

١٧- إثبات صفة العزَّة لله ربِّ العالمين .

(١) متفق عليه؛ صحيح البخاري، كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت، رقم: ٥٦٧٣ ص ١٢٢٠ وصحيح مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم: ٢٨١٦ ص ١١٣٣

المبحث الثالث

الموضوع الثالث : (وظيفة الرسول الكريم وبيان حقِّه من الطاعة والتعظيم)

ويشمل الآيات : (٨-٩)

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما.

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية لهاتين الآيتين في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آيتي المبحث الثالث.

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيتين.

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيتان.

المبحث الثالث

الموضوع الثالث: (وظيفة الرسول الكريم وبيان حقِّه من الطاعة والتعظيم)

قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ الفتح: ٨ – ٩

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما :

بعد أن بيَّنت الآيات السابقة حال المؤمنين، وما أعدّه الله لهم من الفوز العظيم لإيمانهم بالرسالة واتباعهم للرسول – صلى الله عليه وسلم–، وحال الكافرين، وما أعدَّه لهم من الجزاء لإعراضهم عن الرسالة، وعصيانهم للرسول – صلى الله عليه وسلم–، ناسب ذكر حقيقة هذه الرسالة، فكان الخطاب موجهاً للنبي – صلى الله عليه وسلم– والمراد به هو وأمته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ .وقال بعدها :﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ بصيغة الجمع.

ولما خُتمت الآية السابقة لهذه الآيات بقوله –جلَّ وعزَّ–: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ذكر– سبحانه– هنا ما يدلُّ على كمال حكمته، وهو أنه أرسل نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم– شاهداً ومبشراً ونذيرا، كما ذكر ما يدلُّ على كمال

عزَّته وهو نصرتُه لنبيه، وأمرُه للناس أن ينصروه ويعظموه فقال: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ ، ثم ختم بما يعين على ذلك وهو العبودية الدائمة لله تعالى.

و" لما أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر، وما اقتضاه ذلك مما اتصل به ذكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية، وإبلاغ كل ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحق ثناءً أو غيره، صدّر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله – صلى الله عليه وسلم- ليكون ذلك كالمقدمة للقصة، وذُكرت حكمةُ الله في إرساله، وماله مزيدُ اختصاصٍ بالواقعة المَتحدَّثِ عنها، فذُكرت أوصافٌ ثلاثة هي: شاهدٌ ومبشِّرٌ ونذيرٌ، وقُدِّم منها وصفُ الشاهد لأنه يتفرَّع عنه الوصفان بعده"[1]

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي

*** غرض الخطاب في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ :**

هذا خطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم- ذكره في معرض الامتنان عليه حيث شرفه بالرِّسالة وبعثه إلى الناس كافة.[2] وهذا الامتنان هو امتنان على الأمة أيضاً، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

(١) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٥
(٢) انظر لباب التأويل جـ٤ ص١٥٥

وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ آل عمران: ١٦٤ وقال : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ المزمل: ١٥

*** الإيجاز في بيان مصدر الرسالة :**

لقد بيَّن في هذه الجملة القصيرة المرسِل والمرسَل، وأكد ذلك، وأضاف الإرسال إليه –سبحانه– وفيه بيان لمصدر هذه الرسالة، وأنها من عند الله –جل شأنه–، وأن إضافتها إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– باعتباره مبلِّغاً لها.

*** التأكيد على حقيقة الرسالة وعظمتها :**

من بديع نظم هذا الجزء من الآية الكريمة أنه تكرر فيه نون العظمة مرتين تماماً كما تكرر في فاتحة السورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ وذلك للتأكيد على عظمة هذه الرسالة، وعظمة المرسَل – صلى الله عليه وسلم– تعظيماً يناسب ما يستحقه من التبجيل والاتباع.

ولم يذكر المرسَل إليه في هذه الآية، لأن رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم– عامة للجن والإنس، بخلاف غيره من المرسلين، حيث يذكر عند ذكر إرسالهم المرسل إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ نوح: ١ وقوله تعالى: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ الذاريات: ٣٨ وقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ الذاريات: ٣٢

أما المرسَل إليه في رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم- فقد ذكر في آيات أُخر كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبأ: ٢٨ وقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

ففي قوله: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ تأكيدٌ لحقيقة الرِّسالة من وجهين، الأول: أن من خصائص دين الإسلام أنه منهج رباني. والثاني: لازم هذه الرسالة وهو الطاعة كما قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠ .

*** الرسالة منّةٌ سابقة على الفتح وآثاره :**

إن هذه الجملة؛ ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ هي استئناف لخبر آخر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- وماله عند ربه – سبحانه وتعالى – من العطايا الجليلة والمواهب العظيمة، فما منَّ الله به عليه من العطايا المذكورة في الآيات السابقة واقعٌ من وراء إحسانٍ سَبَق وفضلٍ تَقدَّم، وهو اصطفاؤه – عز وجل- عبده محمداً للنبوة والرسالة، والتي استحق بقيامه بحقّها وحمل أعبائها أن يعطى هذا العطاء الجزيل، وأن يفتح له هذا الفتح المبين. فاصطفاء النبي الكريم للرسالة منحة خالصة من الله – عز وجل-، وإحسان مبتدأ، ليس لسعي النبي – صلى الله عليه وسلم- شأن فيه، أما ما تقدم من العطايا والمكرمات كالفتح وما ترتب عليه، فهي- وإن كانت من فضل الله ورحمته- إلا أن للنبي سبباً متصلاً بها؛ بما كان منه من جهاد وبلاء وصبر وتضحية ووفاء بأداء الأمانة، ونحن نشهد بأنه – صلى الله عليه وسلم- قد أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده.

ويلاحظُ هنا أنه قد قُدِّم المسبّب على السبب، أي قدّم الفتح ومغفرة الذنب، وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز على اصطفاء الرسول للرسالة، وعلى الجهاد الذي جاهده من أجل الوفاء بها، للإشارة إلى أن هذه الأسباب هي مجرد أمور ظاهرية، وأن ما يقضي به الله - سبحانه- في خلقه لا يتوقف على سبب، وأن ما قضى به سبحانه للنبي الكريم – صلى الله عليه وسلم- من المنح والعطايا المذكورة فيما سبق هو فضل خالص من فضل الله، وإحسان مطلق من إحسانه إلى رسوله الكريم. وأن الرسالة نعمة أخرى، وأن حمل أعبائها هو شكر لتلك النعمة العظيمة.(١)

*** المراد بالشهادة في قوله تعالى : ﴿شَٰهِدًا﴾ :**

اختلف المفسرون في المراد بالشهادة هنا ووقتها، قال الطبري –رحمه الله- :

"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم-: يا محمد ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ على أمتك بإبلاغك إياهم ما أرسلناك به من الرسالة "(٢) يعني أنها تكون في الدنيا، ومما يؤيد ذلك أن الرسالة والبشارة والنذارة كلها في الدنيا، فكذلك الشهادة، خاصة أنَّها جاءت بعد الرسالة وقبل البشارة والنذارة .

ويرى صاحب أضواء البيان أن المراد بهذه الشهادة هو أداؤها في الآخرة، حيث يقول - رحمه الله - : " بيّن – جل وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم- شاهداً ومبشراً ونذيراً. وقد بيّن تعالى أنه يبعثه – صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة شاهداً على أمته ... قال تعالى في شهادته –

(١) انظر التفسير القرآني جـ١٣ ص٤٠٣

(٢) جامع البيان جـ١٩ ص١٢٥

صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة على أمته: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ النساء: ٤١ وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ النحل: ٨٩ فآية النساء وآية النحل- المذكورتان الدالتان على **شهادته – صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة على أمته-** تبينان آية الفتح هذه"[1]

وهذا فيه خصوصيَّةٌ للنبي – صلى الله عليه وسلم- فهو شاهد على الخلق[2] أجمعين؛ على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم لهم.[3]

ويشهد لهذا الحديثُ الذي رواه أبو سعيد الخدري –رضي الله عنه–[4]، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣ فذلك قوله عز وجل :

(١) أضواء البيان جـ٧ ص٣٩٥

(٢) انظر ابن كثير جـ٧ ص٣٢٩

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٦ص ٢٦٦

(٤) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري أبو سعيد الخدري مشهور بكنيته، حدث عن النبي – صلى الله عليه وسلم- الكثير توفي سنة أربع وسبعين (الاصابة جـ٢ ص٣٥ رقم: ٣١٩٦).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾البقرة:١٤٣ [(١)]

فهذه الشهادة يحتمل أنها في الدنيا ويحتمل أنها في الآخرة.[(٢)] يوضِّح ابن عطية – رحمه الله– المراد فيقول: " مَن جعل الشاهد محصل الشهادة من يوم يحصلها، فقوله: ﴿ شَهِيدٗا ﴾ حال واقعة، ومن جعل الشاهد مؤدي الشهادة، فهي حال مستقبلة، وهي التي يسميها النحاة المقدرة، والمعنى: شاهداً على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلغت إليهم الشرع".[(٣)] أو شاهداً على أمتك يعني أنك تشهد عليهم في الآخرة أنك قد بلغتهم.[(٤)] فالنبي بعث في الدنيا شاهداً أي متحملاً للشهادة ويكون في الآخرة شاهداً أي مؤدياً لما تحمله.[(٥)]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ ص٩٢٥ رقم: ٤٤٨٧

(٢) انظر النكت والعيون جـ٥ ص٣١٣

(٣) المحرر الوجيز ص ١٧٣٠

(٤) انظر تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين جـ ٣ ص ٤٠٥

(٥) مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص٧٢

* ترتيب الأوصاف وتناسقها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ :

هذه الآية الكريمة جمعت أربعة أوصاف للنبي – صلى الله عليه وسلم-؛ الأول: كونه رسولاً، الثاني: شاهدًا، الثالث: مبشرًا، الرابع: نذيرًا.(١)

فتأمل – رحمك الله- التناسق العجيب في هذه الأوصاف، حيث ذكر الوصف الأم وهو الرسالة أولاً، ثم ثنى بالشهادة، وهي شهادة في الدنيا على الموقف من تبليغ الرسالة، وفي الآخرة شهادة على أمته مباشرة وشهادة على الأمم الأخرى بواسطة شهادة أمته – صلى الله عليه وسلم- عليهم،كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ البقرة: ١٤٣ فكانت هذه الشهادة الأخروية من الخصائص المتعلقة بهذه الرسالة الخاتمة، لأن شهادة كلّ واحد من الرسل يوم القيامة تكون على أمته فقط، وبهذا يكون هذا الوصف قد تضمن توجيهاً إلى الاهتمام بأمر الآخرة من جهة، وإلى الاهتمام بتوجيهات الشاهد – صلى الله عليه وسلم- وطاعته في الدنيا، من جهة أخرى.

ثمّ أُردِفَت الشهادة بذكر أهم وظائفه المتعلقة بالتبليغ في الدنيا، فجاءت مرتبة أبدع ترتيب؛ ﴿ وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾، فقد وصف الله تعالى النبيين عامَّةً بهذين الوصفين فقال: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ البقرة: ٢١٣ ثم

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٧٢

وصف المرسلين عامَّةً بهما فقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ النساء: ١٦٥ بل حصر رسالتهم في ذلك فقال : ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ الأنعام: ٤٨ و الكهف: ٥٦ — تكرّرت في موضعين في القرآن الكريم _ ثم وصف نبينا خاصة بهذين الوصفين، وخصه قبل ذلك بالشهادة فقال هنا : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقال في الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ الأحزاب: ٤٥ فجمع له في الخطاب بين النبوّة والرِّسالة، وحصرَ الرِّسالة في هذين الأمرين فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ الإسراء : ١٠٥ والفرقان :٥٦ – تكرّرت في موضعين في القرآن الكريم –

وهذه الأوصاف قد وصف بها النبي – صلى الله عليه وسلم- قبل خلقه فقد روى عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما-: أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ الأحزاب: ٤٥ قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتحُ بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً."(١)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح، باب : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾: ص١٠٣٦ حديث رقم: ٤٨٣٨

فالوصفان مبشر ونذير مترتبة على التبليغ الذي سيشهد به.[١] وأنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين.[٢]

وقرن بينهما لأن البشارة والإنذار معاً خبر، فالمخبر بالأمر السارِّ مبشِّرٌ، والمحذِّر من الأمر المكروه مُنذِرٌ.[٣]

*** الفرق بين التبشير والإنذار :**

والتبشير هنا هو التبليغ الذي يكون في إخبار المبلَّغ بما يسرّه من الجزاء على امتثاله لما بُلغ به، كما أن الإنذار في اللغة هو الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف بجزاءٍ يحصل للمبلَّغ على عدم امتثاله لما بُلّغ به.[٤] ومفهومه التَّبشير عند الامتثال لما بُلِّغ به؛إما بالثواب على كفه عنه ، وإما بخلاصه من الجزاء المترتب عليه؛ ولذلك فإنَّ الإنذار أعمُّ من التبشير، فإذا ذكرا معاً اختصَّ كلاًّ منهما بمعناه، وإذا انفرد الإنذار شمل التبشير– والله أعلم !–

*** لماذا قدّم التبشير على الإنذار :**

لقد قدّم التبشير لِما يحمل في معناه من الترغيب والملاطفة في جذب المدعوين إلى الخير والصلاح، ولِما يظهر فيه بجلاء من الرحمة بالخلق وحب الخير وهي صفة من خصائص هذه الشريعة السمحة، ولا شك أن النفس المطمئنة تأنس بالتبشير وتُسرُّ به، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– إنما أرسل رحمةً للعالمين، وهو بأخلاقه

(١) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٥
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٩
(٣) النكت والعيون جـ٥ ص٣١٣
(٤) لسان العرب جـ٦ ص٤٣٩٠

الكريمة وحسن تعامله ورفقه بالخلق وما آتاه الله من الرحمة، قد استجاب له كثيرٌ من ذوي الفطر السليمة واجتمعوا حوله، وقد وصفه ربُّه- سبحانه- بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤ وبقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران: ١٥٩.

ودعوة الرسل – عليهم السلام- قد احتوت على البشارة والنذارة معاً. -كما تقدم- لكن التبشير قد يكون غالباً في مرحلة ما من مراحل البلاغ، وخصوصاً في بداية الدعوة، والإنذار قد يكون غالباً في مرحلة أخرى، وبعض النفوس تتأثر بالترغيب أكثر، وبعضها تتأثر بالتخويف والزجر أكثر، وغالباً تبدأ الدعوةُ بالتبشير والترغيب؛ لأن القلوب الغافلة يناسبها في مبتدأ الحديث أسلوب الترغيب ووسائل الجذب والتقريب، ولأن في التبشير أمل لليائسين، وفتح لقلوب الجاهلين، فهو السحر الحلال الذي يأسر القلوب ويعيدها إلى الاستسلام لرب العالمين.

ويتأكد الإنذار عند شدة الإعراض والعناد حيث تشتد الحاجة إليه حينذاك حتى تقوم الحجة على الناس.

ولما كان في علم الله – عز وجل- أن أكثر الناس لا يؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ يوسف: ١٠٣ كان كلُّ رسول ينذر قومه عذاب الله ويخوفهم به. كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ فاطر: ٢٤.

* لماذا اكتفى هنا بذكر هذه الأوصاف دون قوله : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ نظيرتها في سورة الأحزاب ؟ :

أجاب على هذا السؤال ابن عاشور – رحمه الله-: فقال : " وقد وقع في سورة الأحزاب نظير هذه الآية، وهو قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ الأحزاب: ٤٥ – ٤٦ فزيد في صفات النبي – صلى الله عليه وسلم- هنالك ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ ولم يذكر في الآية هذه التي في سورة الفتح. ووجه ذلك أن هذه الآية التي في سورة الفتح وردت في سياق إبطال شكّ الذين شكوا في أمر الصلح، والذين كذبوا بوعد الفتح والنصر، والثناء على الذين اطمأنوا لذلك، فاقتُصر من أوصاف النبي – صلى الله عليه وسلم- على الوصف الأصلي وهو أنه شاهد على الفريقين، وكونه مبشراً لأحد الفريقين ونذيراً للآخر، بخلاف آية الأحزاب فإنها وردت في سياق تنزيه النبي – صلى الله عليه وسلم- عن مطاعن المنافقين والكافرين في تزوجه زينب بنت جحش[1] بعد أن طلقها زيد بن حارثة[2] بزعمهم أنها زوجة ابنه، فناسب أن يزاد في صفاته ما فيه إشارة إلى التمحيص بين ما هو من صفات الكمال، وما هو من

---

(١) زينب بنت جحش: هي زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، زوج النبي - صلى الله عليه وسلّم – وقد روت عنه أحاديث. ماتت سنة عشرين، وهي بنت خمسين. الإصابة رقم :٤٧٠ جـ ٤ ص ٣١٣

(٢) زيد بن حارثة: هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبي – رضي الله عنه – تبناه النبي - صلى الله عليه وسلّم - وزوجه زينب بنت جحش، شهد بدراً وما بعدها وقتل في غزوة مؤتة وهو أمير. الإصابة رقم : ٢٨٩٠ جـ ١ ص ٥٦٣

الأوهام الناشئة عن مزاعم كاذبة مثل التبنّي، فزيد كونه داعياً إلى الله بإذنه، أي لا يتبع مزاعم الناس ورغباتهم، وأنه سراج منير يهتدي به مَن همتُه في الاهتداء دون التقعير"[١]

وهذه الصِّفات الخمس المذكورة في آية الأحزاب متلازمة ، وترجع كلُّها إلى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ . فتكون الشَّهادة على الموقف من التبشير والإنذار، الذي هو أصل البلاغ، وتكون الدعوة في قوله: ﴿وَدَاعِيًا﴾ وسيلته، وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ غايته، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ شرطه، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾: الهداية الخاصَّة التي بمعنى البيان والدلالة والإرشاد، وهي موضوعه. فمردُّ هذه الصفات جميعاً إلى البلاغ، ومحورها التبشير والإنذار؛ ولذلك تكرَّر كثيراً في كتاب الله الاقتصار على هاتين الصفتين، وقد يكتفى بذكر الإنذار فقط، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ ص: ٧٠ وقوله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ الذاريات: ٥٠ وغيرها من الآيات، لأنَّ النذارة تتضمَّن البشارة لمن استجاب للمنذِر واجتنب ما يكون فيه شقاؤه وهلاكه، وتكون بالترهيب والترغيب وبيان ما يؤدي للعقوبة الدنيوية والأخروية من ترك مأمورٍ به أو فعل منهيٍّ عنه. وأصل النذارة للكافر والعاصي، فإن استجاب المنذَر وأطاع بُشِّر بثمرات طاعته. والله أعلم !

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٩ ص١٥٦

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ لسابقتها :**

لَمَّا بيّن – سبحانه– في الآية السابقة أنه أرسل رسوله – صلى الله عليه وسلم– إلى الناس كافة، شاهدًا على أعمالهم، ومبشرًا لمن آمن منهم بالثواب، ومنذرًا من كفر منهم بالعقاب، فبان غرض الإرسال. أتبع ذلك بما يبيّن فائدة الإرسال فقال تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.(١)

ولما كان من تمام البشارة والنذارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبيّن للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل، فقد رتّب على ذلك قوله: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور.(٢)

*** علامَ يعود الضمير في قوله :﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ ﴾ :**

والضمير في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ إما أن يشمل الرسول مع المؤمنين لكونه المعني بالخطاب في الآية السابقة. وإما أن يكون الضمير عائداً للناس المرسل إليهم. قال ابن عاشور –رحمه الله–: " اللام في ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ ﴾ لام كَيّ مفيدة للتعليل ومتعلقة بفعل أرسلناك، والخطاب يجوز أن يكون للنبي – صلى الله عليه وسلم– مع أمة الدعوة، أي لتؤمن أنت والذين أرسلت إليهم شاهدًا ومبشرًا

---

(١) لباب التأويل جـ٤ ص١٥٥

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٨

ونذيرًا، والمقصود الإيمان بالله، وأقحم ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ لأن الخطاب شامل للأمة، وهم مأمورون بالإيمان برسول الله – صلى الله عليه وسلم–، ولأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– مأمور بأن يؤمن بأنه رسول الله ... ويجوز أن يكون الخطاب للناس خاصة، ولا إشكال في عطف ورسوله."(١)

وقال في روح البيان: " الخطاب للنبي عليه السلام ولأمته، فيكون تعميماً للخطاب بعد التخصيص، لأن خطاب أرسلناك للنبي خاصة، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الطلاق: ١ خصه – عليه السلام– بالنداء ثم عمَّم الخطاب على طريق تغليب المخاطب على الغائبين – وهم المؤمنون– فدلت الآية على أنه – عليه السلام– يجب أن يؤمن برسالة نفسه كما ورد في الحديث أنه – عليه السلام– قال: " أشهد أني عبد الله ورسوله."(٢)

ويجوز أن يكون الخطاب للأمة فقط، فإن قلت: كيف يجوز تخصيص الخطاب الثاني بالأمة في مقام توجيه الخطاب الأول إليه – عليه السلام– بخصوصه ؟ قلت: إن خطاب رئيس القوم بمنزلة خطاب من معه من أتباعه فجاز أن يخاطب الأتباع في مقام تخصيص الرسل بالخطاب لأن المقصود سماعهم."(٣)

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٥

(٢) متَّفقٌ عليه من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – ولفظه: " الله أكبر، أشهد ..." صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسِّيَر، بابٌ: إن الله ليؤيِّد الدين بالرجل الفاجر، ص٦٢١ رقم: ٣٠٦٢ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ...، ص٧٠ رقم: ١١١

(٣) روح البيان، اسماعيل حقي الإستانبولي، دار الفكر – بيروت جـ٩ ص١٧

* علام يعود الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ؟ :

الراجح من أقوال المفسرين أن الفعلين الأوليين يعود الضمير فيهما إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– وأن قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعود الضمير فيه إلى الله – عز وجل –.

وإضافة التعزير والتوقير للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– تكريمٌ له، لأنه القائم على دين الله، وحامل راية الجهاد في سبيل الله، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٧ .[(١)]

* معنى قوله :﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ :

وأقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ متقاربة وإن اختلفت الألفاظ، ومعنى التعزير هنا: التنويه بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال. والتوقير: هو التعظيم والإجلال، والطاعة لازمة لذلك.[(٢)]

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ١٣ ص٤٠٥

(٢) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٢٥٢

فيكون معنى ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ " أي تنصروه وتعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة برقابكم ."[١]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] –رحمه الله-: " التعزير : اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه. والتوقير : اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التَّشريف والتَّكريم والتَّعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدِّ الوقار. "[٣] وهذا التعريف الذي وفق له شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فيه من المعاني ما يتوافق مع جوِّ السورة؛ من النصر والتأييد في التعزير، والسكينة والتكريم في التوقير، والله أعلم !

*** معنى قوله تعالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ :**

أورد المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ قولين:

أحدهما: تسبحوه : أي تصلوا لربكم بالغداة والعشي، يعني الفجر والعصر، فيكون معنى بكرةً وأصيلًا على ظاهره.[٤]

ثانيهما: أنه من التسبيح الذي هو التقديس والتنزيه من جميع النقائص، وعلى هذا يكون معنى بكرةً وأصيلًا أي دائماً، لأن التقديس لا يُقيَّد بزمن، فذكر بكرةً

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ١٣٣٨

(٢) ابن تيمية: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، ناصر السنة وقامع البدعة، افتى ودرس وصنف وهو دون العشرين، مات سجيناً في قلعة دمشق سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة. انظر البداية والنهاية جـ١٤ ص١٣٥

(٣) الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني – الرياض، ص٤٢٢

(٤) انظر جامع البيان جـ١٩ ص١٢٥

وأصيلًا وهما طرفا النهار كناية عن الجميع كما يقال: شرقاً وغرباً لجميع الدنيا.[(١)] وهذا أنسب وأولى؛ لأن زمن نزول هذه السورة لم يكن هو زمن الاقتصار على البكرة والعشي في الصلاة والتسبيح، وإنما كان ذلك في أول الدعوة قبل الإسراء. فقد قيل كانت الصلاة صلاتين، صلاة بالغداة وصلاة بالعشي، كما قال تعالى :﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ غافر: ٥٥

فذكر اللهُ في هذه الآية الحقَّ المشترك بينه وبين رسوله وهو الإيمان بهما، وذكر الحق المختص بالرسول – صلى الله عليه وسلم- وهو التعزير والتوقير، ثم الحق المختص بالله وحده وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.[(٢)]

*** سرُّ ترتيب الأفعال في الآية الكريمة :**

لقد بدأت الآيات بذكر أهمِّ الواجبات لله ورسوله وهو الإيمان الواجب لهما، ثمَّ ثنت بما يتبع هذا الواجب، فبدأت بذكر الواجب للرسول – صلى الله عليه وسلم- لتناسق مبدأ الآية مع الآية التي قبلها والتي تحدثت عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- وبعض صفاته.ولاتصاله بما قبله مباشرة وهو قوله تعالى:﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ثم ثنت بالواجب لله – عز وجل- فعاد ختام الآية على مطلعها، فكان عطف ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ متعلقاً بقوله تعالى: ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾، وكان قوله تعالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) محاسن التأويل جـ٨ ص٤٨٦

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٩

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فالبكرة: قبل الشروق للدلالة على شروق شمس اليوم وبداية نهاره، والأصيل: قبل الغروب للدلالة على غروب شمس اليوم وبداية ليله، فشمل ذلك اليوم كله ليلاً ونهاراً وهذا من جمال الإيجاز، إذ ذكر ما يدل على اليوم والليلة بتوقيتين تكون فيهما النفس في حالة انشراح وسكينة غالباً، والمراد شمول العبودية لله تعالى جميع أوقات العمر، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ الحجر: ٩٩.

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الثالث

قد تبدو هاتان الآيتان في هذا المبحث معترضة بين الآيات التي تحدّثت عن أهمية الفتح وآثاره، والآيات اللاحقة لها، والتي تحدثت عن بعض المواقف في صلح الحديبية. والذي يتّضح من السياق أنها ليست كذلك، بل إنَّ وجودها بين آيات المقطعين الأولين قبلها وبين آيات المقاطع التي تليها جعلها كواسطة العقد، فظهرت لها صفتان صفة الوصل بين هاتيك المقاطع، وصفة البروز الذي يشدُّ الانتباه والتركيز على ما تضمنتاه من معان؛ فلما كان المبحثان السابقان في سياق بيان الفتح بصلح الحديبية ردًّا على من تشكَّك من المؤمنين في كونه فتحاً، وتألَّم من شروطه، وكان في ذلك خطأٌ في حقِّ النبيِّ - صلى الله عليه وسلّم - ؛ لأنه كان متبعاً لأمر ربِّه فيه،جاء هذا المبحث في بيان مراتب الشَّرف والرفعة له - صلى الله عليه وسلّم – الداعية إلى التسليم لأمره وعدم الاعتراض عليه؛ ولذلك ناسب أنه كلما تناولت الآيات موضوعاً في هذا الحدث، عادت لتؤكِّد موجبات التسليم للنبي - صلى الله عليه وسلّم – وهي التذكير بمكانته وبواجب الناس تجاهه. فبيان حقيقة الرسالة هنا، والأمر بتسبيح الله- سبحانه – وتبجيل رسوله – صلى الله عليه وسلم – يجعل الكلام عن الحدث التاريخي محاطاً بإطار العبودية لله ومقيَّداً بالتلقي عن الوحي. فهو ليس قصصاً مقصوداً لذاته، بل لما يتضمنه من هدايات متمثلة في الإشادة بأهل الاستجابة لهذه الرسالة الخاتمة الذين آمنوا بالله ورسوله، واتَّصفوا بنصرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وطاعته والامتثال لأمره، مع كمال الحب والذل والخضوع

والطاعة لله رب العالمين، وذلك لإظهارهم محلَّ القدوة في تلك المواقف، وإظهار عناية ربهم بهم، لينتفع بذلك من يأتي بعدهم من المؤمنين. ولذلك أردف الخطاب عن الرسالة وبيان حقيقتها والموجه في الأصل إلى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – بأمره وأمر أمة الرسالة بالإيمان بالله ورسوله لأنهم المعنيون بهذا الخطاب، حتى يكون الإيمان بالله ورسوله، المستوجب للطاعة والتسليم والامتثال، و تعظيم الشرع والسنة هو الركيزة الأساسية في حياتهم وجهادهم عند تعاملهم مع غير المسلمين، وفي هذا إشارة إلى أنَّ قوَّة الإيمان أرجى للنصر والتمكين والتأييد، كما أن ضعف الإيمان مظنة لتأخر النصر. لأن المطلوب من المنصورين إقامة شرع الله، كما قال تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ** ﴾ الحج: ٤١

وهاتان الآيتان وإن كان الخطاب في أولها للنبي – صلى الله عليه وسلم– إلا أنها تحمل في طياتها توجيهاتٍ مهمة للأمة، فالنبي – صلى الله عليه وسلم– شاهدٌ على أمته، وهذه الأمة شاهدةٌ على بقية الأمم ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ** ﴾ البقرة: ١٤٣ **ومن لوازم كون هذه الأمة شاهدةً على الناس أن ترقى إلى مستوى الظهور والاستعلاء، ومقام القيادة والتوجيه حتى تكون مؤهلةً لهذه المهمة العظيمة؛** ولهذا جاءت الآية الثانية ترسم معالم الطريق الموصلة إلى هذا الشرف العظيم، والمتمثلة في الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه وتقديسه، والعبودية له – آناء الليل وآناء النهار –

بمعناها الصحيح والذي يشمل كل تصورٍ وفكرٍ ومقالٍ وسلوك، والذي يشمل الظاهر والباطن من الأعمال والأقوال، بحيث يتَّبعُ العبد ما يحبه الله ويرضاه ويجتنب ويتبرأ مما يبغضه الله ولا يرضاه، ثم تعظيم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومحبته وتوقيره وطاعته وتعظيم سنته وهديه. وهذه أهم معالم الطريق الموصل إلى الفوز في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١

بل **إنَّ تعظيم الرَّسول – صلى الله عليه وسلَّم – من أسباب النَّصر** والرِّفعة لأن تعزير الرّسل من أسباب نيل معيَّة الله الخاصة التي تقتضي عونه وتأييده ونصرته لعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ المائدة: ١٢

والمتأمِّلُ في نظم هاتين الآيتين وتناسقها مع الآيات قبلها وبعدها يدرك أن **طالب النَّصر والتمكين والظهور يحتاج إلى توفّر شرطين أساسيين :**

أحدهما : الإيمان بالله تعالى والإخلاص له وتوحيده وتقديسه والمداومة على طاعته وذكره.

وثانيهما : الإيمان بالرَّسول – صلى الله عليه وسلَّم – وتعظيمه وتوقيره وتبجيله ونصرته واتباع سنَّته وهديه. والله أعلم !

* **ومن دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس** الأمر بنصرة الرسول – صلى الله عليه وسلّم – وتعظيمه ﴿ **وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ** ﴾، ونصرتُه نصرةٌ لدينه.

ومنها المداومة والإستمرار على طاعة الله وعبادته، فهي شرط من شروط النَّصر والتمكين ﴿ **وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيتين :

بعد أن ذكرت الآيات السَّابقة المنح المترتِّبة على الفتح، أبانت هاتان الآياتان النِّعمة الجليلة التي تعدّ أصلاً في علاقة الرّسول – صلى الله عليه وسلَّم – مع النَّاس، وهي إرساله بدين الإسلام إلى النَّاس كافَّة، حيث امتنَّ الله - سبحانه وتعالى – على رسوله الكريم بتشريفه بالرِّسالة، وبكونه شاهداً على الأمَّة بما أجابوه في دعوته لهم على حسب أعمالهم؛ الطائعين منهم والعصاة، وعلى ماعملوه من خيرٍ وشرٍّ، وأنَّه مبشِّرٌ بالجنَّة والثَّواب للطَّائعين، ومنذرٌ بعذاب الله والنَّار للعصاة المعرضين.

ولـمَّا كان المراد بهذا الخطاب الأمَّة فقد بيَّنت الآية الثَّانية ما يجب على الأمَّة؛ وهو الإيمان بالله ورسوله، المستلزم طاعتهما في جميع الأمور، ومن ذلك المداومة على عبادة الله - عزَّ وجلَّ- وتسبيحه وتقديسه، وتعظيم الرَّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – وتبجيله ونصرته بما يقتضي طاعته واتباعه فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، لأنَّ ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠ .

المطلب الخامس : ما ترشد إليه الآيتان :

١- الرِّسالة من أعظم المنن التي امتنَّ الله بها على رسوله وعلى النَّاس أجمعين.

٢- الإيمان بشهادة الرَّسول – صلى الله عليه وسلَّم – على الأمّة وأنَّها حقٌّ.وقوله: ﴿ شَٰهِدًا ﴾ : تدلُّ على العلم بالواقع وأهميته في دعوة المصلحين.

٣- على ورثة الأنبياء من العلماء والدُّعاة الرَّبَّانيين أن يجتهدوا ويجمعوا في دعوتهم للنَّاس بين التَّبشير والإنذار، والتَّرغيب والتَّرهيب حتى يحصل التَّوازن في الدَّعوة، دون تفريطٍ أو إفراط.فقوله :﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ : فيها بيان لمنهج دعوة الأنبياء وأنها تجمع بين التبشير والإنذار والترغيب والترهيب، فعلى العلماء والدعاة إقتفاء آثارهم. وفي تقديم التبشير بيان أهميته وأولويته في منهج الدعوة.

٤- الإيمان بالله ورسوله – وَفق الكتاب والسنة- هو الطَّريق الوحيد للسَّعادة والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة، أمَّا العمل ببعض أحكام الشَّرع نفاقاً أو رياءً وسمعةً مع فساد الإعتقاد في القلب وعدم التَّسليم لربِّ العالمين فإنَّه طريق الدَّمار ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١٥٤ .

٥- إنَّ أولى وأحقَّ ما يقوم به تعظيمُ الرَّسول وتوقيره وتبجيله ونصرته هو طاعته واقتفاءُ أثره والاهتداء بهديه والعمل بسنَّته والدِّفاع عنها، أمَّا ادِّعاء محبَّة النَّبي – صلى الله عليه وسلّم – وتوقيرِه مع النّفور من تطبيق سنّته أو ترك العمل بها أو

التخلي عن الدِّفاع عنها، أو التَّهاون في إحياء ما غفل عنه النَّاس منها، فإنّه ينافي أو ينقص من قدر هذا التَّعظيم.

٦- العبادة الصحيحة لله تعالى تشمل كل نية وقولٍ وعمل وليس لها زمن دون زمن، بل هي واجبة في الدنيا على المكلف حتى يأتيه الأجل.

٧- تقديس الله الخالق العظيم وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله من الولد والصاحبة والشريك والند، والأقوال والأعمال؛ لأن هذا التنزيه واجب على الخلق شرعاً وعقلا، وكل من يخوض في ذات الله أو أفعاله أو أسمائه أو صفاته عن جهل وهوى فهو على خطر عظيم.

المبحث الرابع

الموضوع الرابع: وموضوعه :(مغبَّة التخلف عن نصرة الدين وفضح المخلفين وبيان المعذورين) ويشمل الآيات (١٠–١٧)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها.

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى :﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ .

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الرابع .

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث الرابع

الموضوع الرابع: (مغبَّة التخلف عن نصرة الدين وفضح المخلفين وبيان المعذورين)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن
نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا
﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ
بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ
ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا
﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا
كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ
أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ

يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ الفتح: ١٠ – ١٧

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن ذكرت الآيات السابقة الفتح وآثاره العظيمة، شرعت هذه الآيات في بيان الغرض الأصلي من السورة.[١] وهو نصرة الدين، حيث ذكرت الأحداث المهمة المتعلقة بهذا الفتح. ولما انتهت الآيات السابقة بتسبيح الله وحمده على الدوام، وكان الغرض من ذلك اتصال القلب بالله في كل آن، وهي ثمرة الإيمان المرجوة من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيرا، بينت هذه الآيات أنه – صلى الله عليه وسلم- جاء ليصلهم بالله، ويكون واسطة في بيعة ماضية بينهم وبين ربهم –لا تنقطع بغيبته عنهم – على نصرة دين الله والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.[٢] ولما بين أنه مرسل من عنده، ذكر أن من بايعه فقد بايع الله.[٣] ومن تخلف أو أعرض عن نصرته فقد باء بالخسران.

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٧

(٢) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٠

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧٣

وقد ابتدأت الآيات بإشارة سريعة وفي آية واحدة إلى موقف من أجلِّ مواقف المسلمين في صلح الحديبية؛ وهو البيعة التي عدها بعض الصحابة فتحاً، حيث أشادت الآية الأولى بأهلها ورفعت من شأنهم على - وجه الإجمال-، ثم بينت الآيات بعد ذلك على - وجه التفصيل- المواقف الخاسرة للمنافقين والمتخلفين من الأعراب الذين أرادوا خذلان النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين. وأفصحت عن ما ترتب على تقاعسهم وعدم مشاركتهم في الخروج مع النبي – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه إلى مكة من الوعيد والخسارة في الدنيا والآخرة. ثم ختمت الآيات الكريمات برفع الحرج عن ذوي الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض والتأكيد على أن عاقبة الطائعين الجنة، وأن عاقبة العصاة المعرضين العذاب الأليم.

وبهذا فقد انتهى هذا المقطع ببيان نتيجة الأمر بالإيمان بالله ورسوله وطاعتهما الوارد في نهاية المقطع السابق؛ فالذين آمنوا وأطاعوا شهدوا البيعة وبايعوا على الموت ونالوا الفضل العظيم، والذين آثروا الحياة الدنيا وكذبوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –كانت خسارتهم فادحةً وعقابهم شديداً. والله أعلم !

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

قال السّيوطي في الدّر المنثور: أخرج الطبراني[1] بسند حسن، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الآية. قال: هذا في الجهاد، ليس عليهم من جهادٍ إذا لم يطيقوا.[2]

(١) الطبراني: هو الإمام الحافظ الثقة سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة، مولده بمدينة عكا سنة ستين ومائتين، استوطن أصبهان وأقام بها نحواً من ستين سنة ينشر العلم ويؤلفه، عاش مائة عام وعشرة أشهر وتوفي سنة ستين وثلاثمائة [سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص١١٩]

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور جـ١٣ ص٤٧٩. قال الهيثمي: وفيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف يكتب حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح. [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي – بيروت١٤٠٢هـ، كتاب التفسير، سورة الفتح، جـ٧ ص ١٠٧]

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي :

و الحديث في ذلك من خلال العناصر التالية :

* مناسبة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ لما قبلها :

بعد أن بيَّن الله – سبحانه- فضائل الفتح على النبي – صلى الله عليه وسلم- وعلى أصحابه –رضي الله عنهم- أعقبه ببيان خصائصهما، فذكر وظائف الرسول – صلى الله عليه وسلم- الثلاث ومدحه، وأبان فائدة بعثته ليرتِّب عليه ذكر البيعة ، ثمَّ ذكر المؤمنين، كمثال لأهل الإيمان والاتباع والنصرة الذين قال فيهم : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ ... الآية . الأعراف: ١٥٧. وما جازاهم به من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة ،حيث أشاد بذكرهم ورفع قدرهم لوفائهم بالعهد في نصرة دين الله، وفي المقابل أوضح جزاء ناقضي العهد وخسارتهم.(١)

(١) انظر التفسير المنير جـ٢٦ ص١٦١

*** معنى البيعة والمراد بها في الآية السابقة :**

البيعة هي : العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه.(١) وأصلها من البيع، لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ... وعلى هذا سَمَّت الخوارج أنفسهم الشراة، أي اشتروا بزعمهم الجنة بأنفسهم.(٢) وسميت المعاهدة مبايعة لاشتمال كل واحدة منهما على معنى المبادلة وعلى وجوب الصدق والوفاء.(٣) وهي استعارة تصريحية، شبه المعاهدة على الجهاد بالأنفس بدفع السلع مقابل الأموال واستعير اسم المشبه به للمشبه. واشتق من البيع ﴿ يُبَايِعُونَ ﴾ بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، فوجه الشبه اشتمال كلٍّ على المبادلة.(٤)

وقد اتفقت كلمة المفسرين على أن المراد بهذه البيعة بيعةُ الرضوان، وهي قلبُ الحدث في صلح الحديبية، ولأهميتها فقد ابتدئت هذه الآيات الكريمة بحرف التأكيد للاهتمام بموضوعها، وذكر الفعل بصيغة المضارع في قوله: ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بدلاً عن الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة كأنها حاصلة في وقت نزول هذه الآية، مع أنها قد انقضت، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ هود: ٣٨.(٥)

---

(١) لباب التأويل للخازن جـ٤ ص١٥٥

(٢) المحرر الوجيز ص ١٧٣١

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٩٨م جـ١٣ ص٢٦٦

(٤) التفسير المنير للزحيلي جـ٢٦ ص١٦٠

(٥) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٦ ص ١٦١

*** بيان أركان هذه البيعة :**

وهذه البيعة تتكوّن من خمسة أركان هي :

أ- المبايِع (بكسر الياء) :

إنَّ الواو في قوله: ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ عائد على أهل الحديبية باتفاق، وهم – المبايِعون- الذين شهد لهم النبي – صلى الله عليه وسلم- بالخيرية، فعن عمرو بن دينار[١] أنه سمع جابراً يقول: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة. فقال لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " أنتم اليوم خير أهل الأرض "[٢]

ب- المبايَع (بفتح الياء) :

دلَّ الكاف في قوله تعالى: ﴿يُبَايِعُونَكَ ﴾ على المخاطب بهذه الآية الكريمة وهو النَّبي – صلى الله عليه وسلم- فهو المبايَع حسِّياً، ودلَّ منطوق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ على أن هذه البيعة بيعةٌ مع الله – سبحانه – فجعل مبايعتهم لرسوله مبايعة له؛ لأن الله هو الذي سيعطيهم الجزاء عند الوفاء،[٣] ولأن الرسول – صلى الله عليه وسلم- إنما بايعهم بأمر الله تعالى.[٤] ولأن صفقتهم إنما يمضيها ويمنح ثمنها الله تعالى.[٥] وهذا تشريف للنبي – صلى الله

(١) عمرو بن دينار: هو عمرو بن دينار البصري، ضعفه أحمد وأبو حاتم وغيرهما، توفي في حدود الثلاثين ومائة. سير أعلام النبلاء جـ٥ ص ٣٠٧

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ص٨٥٨ رقم الحديث: ٤١٥٤، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام ص٧٧٥ رقم: ١٨٥٦

(٣) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٢٥٤

(٤) بحر العلوم جـ٣ ص٣١٣

(٥) المحرر الوجيز ص ١٧٣١

عليه وسلم – حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله.[١] وشرفٌ لهذه البيعة ولمن حضرها. قال الشافعي[٢] –رحمه الله–: " فأعلمهم أن بيعتهم رسوله بيعته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم طاعته"[٣]

ج– غرض البيعة :

لا شكَّ أنَّ الحصر المفاد من ﴿ إِنَّمَا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ قد حصرَ الفعلَ في مفعوله، أي لا يبايعون إلا الله، لأن **غاية البيعة وغرضها هو النصرة لدين الله ورسوله،** فنزَّل الغرض منزلة الوسيلة وذكر أنهم بايعوا الله لا الرسول، فكان الحصر تأكيداً على تأكيد.[٤] ففي قوله: ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ تأكيد وجوب الوفاء بما عاهدوا الرسول – صلى الله عليه وسلم– عليه من الثبات وعدم الفرار، والطاعة له في كل ما يأمرهم به."[٥] **فالمبايع وإن كان يقصد ببيعته رضا الرسول ظاهراً، إنما يقصد بها حقيقةً رضا الرحمن،** فإن المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه.[٦]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل جـ٢ ص٢٨٧

(٢) الشافعي: هو محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي، أحد الأئمة الأربعة المتبوعين، أفتى وهو ابن عشرين سنة، وهو أول من صنف في أصول الفقه في كتابه " الرسالة ". توفي سنة أربعٍ ومائتين. انظر سير أعلام النبلاء جـ١٠ ص٥

(٣) تفسير الإمام الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد مصطفى الفران، دار التدمرية – الرياض ١٤٢٧هـ جـ٣ ص١٢٣٦

(٤) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٧

(٥) التفسير الوسيط لطنطاوي جـ١٣ ص٢٦٦

(٦) انظر مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي ، تحقيق: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٧هـ جـ٢ ص٤٢٥

د- **موضوع البيعة (ما وقعت عليه البيعة)** :وموضوع البيعة هو : الثبات وعدم الفرار حتى النصر أو الموت، فقد قال بعض المفسرين: المبايعة كانت على الموت واستشهدوا بحديث يزيد بن أبي عبيد(١) قال: قلت لسلمة بن الأكوع: **على أي شيء بايعتم رسول الله** – صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية **قال: على الموت.**(٢) وقال بعضهم: كانت على عدم الفرار واستشهدوا بحديث جابر عن عبد الله –رضي الله عنه-: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَة وقال: **بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت.**(٣)

وقد وجه الترمذي – رحمه الله- هذا الاختلاف في الروايات فقال: " معنى الحديثين صحيح، بايعه جماعة على الموت، أي لا نزالُ نقاتل بين يديك ما لم نُقتل، وبايعه آخرون وقالوا: لا نفر."(٤)

وقال ابن عطية –رحمه الله-: " وبايعهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد."(٥) فعبر بعضهم بلفظٍ وعبر الآخرون بلفظٍ آخر. ووضَّح ابن الجوزي هذا فقال : " ومعناهما متقارب، لأن المراد : على أن لا تفروا ولو متم."(٦)

---

(١) يزيد بن أبي عبيد: الحجازي ، مولى سلمة بن الأكوع، تابعي ثقة كثير الحديث،مات سنة ست أوسبع وأربعين ومائة. تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٣٤٩، رقم: ٦٦٩

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ص٨٦٠ رقم: ٤١٦٩

(٣) المصدر السابق ص٧٧٥ رقم: ١٨٥٦

(٤) سنن الترمذي جـ٥ ص٢١٨

(٥) المحرر الوجيز ص ١٧٣١

(٦) زاد المسير جـ٤ ص١٢٩

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان- كما أسلفت - والتي كانت دليلاً على صدق الاتباع والامتثال لأمر الله - عز وجل- فاستحقت الإشادة في بداية هذا المقطع، واستحقت الرضا من الله – عزَّ وجلَّ- عن أصحابها، والذي يُستَهل به المقطع التالي.وهذا من أسلوب القرآن المجيد في سرد القصص والحوادث، فقد يسردها في موضع واحدٍ بتفصيلاتها المهمَّة، وقد يبدأ بمقدِّمةٍ موجزةٍ ثمَّ يأتي التَّفصيل بعد ذلك ،كما هو الحال هنا في الحديث عن البيعة.

هـ- نتيجة البيعة (فضلها وأثرها) :

إنَّ من أوضح الأدلة على قدر هذه البيعة وشرفها قوله تعالى عن المبايعين :﴿ **يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ** ﴾ لأنَّ هذه الجملة من الآية الكريمة مقررة لمضمون جملة ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ** ﴾ المفيدة أن بيعتهم النبي – صلى الله عليه وسلم- في الظاهر، هي بيعة منهم لله في الواقع فقررت هذه الجملة ذلك وأكدته، ولذلك جُرِّدت عن حرف العطف.(١) وفيها تعظيم رهيب لشأن البيعة بين المؤمنين المبايعين وبين قائدهم وقدوتهم محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم-. وإن الواحد منهم وهو يضع يده في يد النبي – صلى الله عليه وسلم- ليشعر ويوقن بأن يد الله فوق أيديهم،... وهو عليها رقيب، ويده فوق أيدي المتبايعين. ولهذا فإنَّ تدبرَ هذا الجزء من الآية يستأصل من النفس خاطر النكث

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٨

بهذه البيعة، مهما غاب شخص رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فالله حاضر لا يغيب.(١)

*** إثبات صفة اليد لله تعالى :**

في قوله تعالى :﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ إثبات صفة اليد لله تعالى، كما هو معلوم في مذهب أهل السنة والجماعة. وقد أخطأ بعض المفسرين في تأويل اليد على غير ظاهرها، ففسر اليد بعضهم بالنعمة، وبعضهم بالقوة وبعضهم بغير ذلك من التأويلات الباطلة.(٢) والصحيح الإيمان بأنَّ لله يداً تليق بجلاله دون تشبيه ولا تكييف. كما قال السدي(٣) –رحمه الله-: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ : كانوا يأخذون بيد رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم عند المبايعة.(٤)

وقال الخازن(٥) –رحمه الله-: "ومذهب السلف السكوت عن التأويل وإمرار آيات الصفات كما جاءت، وتفسرها قراءتها، والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل."(٦)

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٠

(٢) انظر – على سبيل المثال- البحر المحيط جـ٩ ص٤٨٧

(٣) السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن كريمة، أبو محمد صاحب التفسير، حدّث عن أنس وابن عباس وغيرهما، توفي سنة سبع وعشرين ومائة. انظر سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٤٦ و طبقات المفسرين للداوودي جـ ١ ص ١١٠

(٤) انظر الكشف والبيان جـ٤ ص٤٥ ومعالم التنزيل ص ١٢٠٣

(٥) الخازن: هو علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، خازن الكتب واشتهر بالخازن بسبب ذلك، له مؤلفات منها التفسير سمّاه: "التأويل لمعالم التنزيل" وشرح العمدة وغيرهما.توفي سنة واحد وأربعين وستمائة. طبقات المفسرين للداوودي جـ ١ ص ٤٢٦

(٦) لباب التأويل جـ٤ ص١٥٥

وقال البغوي[١] – رحمه الله-: بعد أن أورد بعض صفات الله – عز وجل-: "فهذه ونظائرها صفات لله – تعالى- ورد بها السمع ويجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، معرضاً فيها عن التأويل، مجتنباً عن التشبيه، معتقداً أن الباري – سبحانه وتعالى- لا يشبه شيءٌ من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله – سبحانه وتعالى-: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ الشورى:١١. وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله – عز وجل- كما أخبر الله – سبحانه وتعالى- عن الراسخين في العلم، فقال – عز وجل-: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ آل عمران:٧."[٢]

وقال في موضع آخر: " كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب والسنة، كاليد والإصبع والعين والمجيء والإتيان، فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر معطل، والمكيِّف مشبِّه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً."[٣] وأقوال السلف في هذا كثيرة معلومة.

ولا شكَّ أنَّ إبقاء الصِّفة على ظاهرها – مع علمنا بأن هذا هو القول الصحيح – أكثرُ مناسبةً لمقام البيعة، ولحال التَّشريف والتَّكريم لأهلها، ولإبراز علوّ شأنها وأهميَّة الوفاء بها. وهو يتوافق والتناسق الموضوعي لهذه الآيات .

---

(١) البغوي: سبقت ترجمته

(٢) شرح السنة جـ١ ص ١٦٨-١٦٩

(٣) المصدر نفسه جـ١٥ ص٢٥٧

مناسبة قوله تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ لما قبلها :

هذه الجملة تفريع على جملة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ فإنه لما كشف كُنْه هذه البيعة بأنها مبايعة لله صار أمرها عظيما في الوفاء بما وقع عليه التبايع.(١) وعليه يكون النكث غدراً وخيانة تعود دائرته على صاحبه.

*** معنى النكث وذمُّ النَّاكثين وبيان خسارتهم :**

قال ابن عاشور – رحمه الله – : " والنكث : كالنقض للحبل كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ النحل: ٩٢ وغلب النكث في معنى النقض المعنوي كإبطال العهد. والكلام تحذير من نكث هذه البيعة وتفظيع له لأن الشرط يتعلق بالمستقبل."(٢) فالنكث هو نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه، مأخوذ من النكث – بكسر النون– وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها.(٣) والمقصود أنه نقض هذه البيعة ولم يف فيها بعهده مع الله. وإنما للقصر، وهو لقصر النكث على مدلول نفسه، والمعنى: لا يضر بنكثه إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا، فإنَّ نكث العهد لا يخلو من قصدِ إضرارٍ بالمنكوث، فجيء بقصر القلب لقلب قصد الناكث على نفسه دون على النبي – صلى الله عليه وسلم–."(٤) وهذا لبيان خسارة الناكث للعهد مع ربه بياناً يحمل في طياته التأنيب والتحذير، لأن الناكث هو الخاسر في كل جانب؛ هو الخاسر في الرجوع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى وما

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٥٩

(٢) المصدر السابق جـ٢٦ ص١٦٠

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي جـ١٣ ص٢٦٧

(٤) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٦٠

يترتب عليها من فضل وتكريم لمن ثبت وأوفى، وهو الخاسر لأنه سوف يتعرض لغضب الله وعقابه على النكث الذي يكرهه ربنا ويمقته.[١] وهو الخاسر لأن من فوت على نفسه الإحسان الجزيل في مقابلة العمل القليل فقد خسر.[٢]

وفي القرآن الكريم ثلاثة أشياء ترجع على أهلها وهي : النكث والبغي والمكر .

أما النكث فذلك دليله، وأما البغي فدليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾يونس: ٢٣ وأما المكر فدليله قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ فاطر: ٤٣[٣]

*** مدح الموفين بالعهد وبيان أجرهم :**

وفي المقابل ما من بيعة بين الله وعبد من عباده يثبت على الوفاء بها إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين، وهو يحب الوفاء ويحب الأوفياء.[٤] ولذلك حينما ذكر الأوفياء رفع من شأنهم ووعدهم بالأجر العظيم، فقال - سبحانه وتعالى-: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ ﴾ أي أوفى بالعهد ويقال أوفى وهي لغة تهامة، ووفّى بدون همز، وهي لغة عامة العرب ولم تجيء في القرآن إلا الأولى.[٥]

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٠

(٢) مراح لبيد جـ٢ ص٤٢٥

(٣) انظر : معاني القرآن و إعرابه، أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب- بيروت، ١٤٠٨هـ جـ ٥ ص ٣٢

(٤) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٠

(٥) التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٦٠

ومعنى أوفى أي ثبت على العهد وأتى به كاملاً موفرا.(١)

وقوله: ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي أن من ثبت على الوفاء بهذه البيعة وبالعهد الذي عاهد الله عليه من الإيمان به والجهاد في سبيله فإن له عند الله الأجر العظيم وهو الجنة.(٢)

وقد فسر الأجر العظيم بالجنة قتادة وغيره من السلف.(٣) ووصف هذا الأجر بقوله: ﴿ عَظِيمًا ﴾ لكونه أعظم الأجور. والعظم في الأجرام لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ، فيقال في الجبل الذي هو مرتفع ولا اتساع لعرضه جبل عالٍ أو مرتفع أو شاهق، فإذا انظم إليه الاتساع في الجوانب يقال عظيم، والأجر كذلك؛ لأن في الجنة من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم.(٤)

*** مناسبة قول الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ لما قبلها :**

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٨

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم جـ٧ ص٣٢٩

(٣) انظر تفسير ابن رجب الحنبلي، الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، جمع: طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة – الرياض ١٤٢٢هـ ، جـ ٢ ص ٤١٢

(٤) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧٣

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بالتي قبلها، حيث ابتدئت بجملة مستأنفة استئنافا ابتدائياً لمناسبة ذكر الإيفاء الذي كمل، بذكر من تخلفوا عن الداعي للعهد.[١] فهي تتحدَّث عن الحالة النَّفسيَّة للناكثين للعهد الذين اضطروا أن يختلقوا الأعذار للدِّفاع عن أنفسهم، فجاءت تحاصرهم بكشف حقيقتهم، وردِّ أعذارهم، وبيان نفاقهم، بعد أن فوجئوا في الآية السَّابقة بما يفيد سوء عاقبة فعلهم عليهم.

فقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ إخبار من الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم- بما سيقوله المخلفون الذين نكثوا العهد، ويدل بمفهومه على أنه عند عتاب النبي – صلى الله عليه وسلم- لهم عن سبب تخلفهم فسيجيبون بالعذر الذي كشفه الله له، وقد يقولونه ابتداءً دون انتظار السؤال عن ذلك –كما هو حال المنافقين في الغالب- حفاظاً على عدم انكشاف حالهم أمام الناس. وهذا القول كائن عند مروره – صلى الله عليه وسلم- على ديارهم مع عودته من الحديبية إلى المدينة.

*** معنى (المخلَّفون) والمراد بهم :**

المخلفون: " جمع مخلّف وهو المتروك في المكان خلف الخارجين منه "[٢] وهم الذين خلفهم الله في ديارهم، ولم يكتب لهم مرافقة نبيه – صلى الله عليه وسلم- لعلمه –سبحانه- بما انطوت عليه أنفسهم من الشك والتردد، وما تكنه قلوبهم من ضعف الإيمان واليقين. وفرق كبير بين هؤلاء والصحابة الكرام الذين جاء ذكرهم

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٦١

(٢) تفسير المراغي جـ٢٦ ص٩٢

وتشريفهم في الآية السابقة؛ فهؤلاء لم يصلوا إلى ذلك القدر الرفيع من التسليم والعبودية لله والطاعة لرسوله – صلى الله عليه وسلم- حتى يكونوا أهلاً للشرف والرفعة والمكانة التي بلغها أصحاب البيعة.

قال الشوكاني –رحمه الله-: " فقد خلفهم الله عن صحبة نبيه – صلى الله عليه وسلم- لما علم في قلوبهم من النفاق، فقد كانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم."(١) وليس كونهم مخلَّفين بمقتضٍ أنهم مؤذن لهم في ذلك، بل المخلف هو المتروك مطلقاً وقد يكون معذوراً، أما هؤلاء فقد تخلفوا بعد أن استُنفروا ولم يعتذروا حينئذٍ.(٢)

وهؤلاء المخلفون هم من الأعراب كما وصفهم ربهم – عز وجل-. والأعراب هم سكان البوادي، قال الرماني(٣): لا يقال: أعرابي إلا لأهل البوادي خاصة.(٤) والمراد بهم القبائل التي تخلفت عن مشاركة النبي – صلى الله عليه وسلم- في الخروج إلى العمرة خوفاً من القتال، والذين كانت منازلهم بين مكة والمدينة، وهم قبائل مزينة(٥) وجهينة(٦) وأسلم(٧) وغفار(٨) وأشجع(٩).

---

(١) فتح القدير جـ٥ ص٥٧

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٦١

(٣) الرماني: هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي الرماني، النحوي المتكلم، له تفسير القرآن الكريم، توفي سنة أربع وثمانين ومائتين. وفيات الأعيان، أحمد بن محمد ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر – بيروت،جـ ١ ص ٤٧٣

(٤) المحرر الوجيز ص ١٧٣٢

(٥) مزينة: بطن من طابخة من العدنانية، ومزينة أمهم عرفوا بها.انظر نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن علي القلقشندي، ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبنانيين – بيروت، ١٤٠٠هـ، ص ٣٥٠

(٦) جهينة: حي من قضاعة من القحطانية. المصدر السابق ص٢٢٢

(٧) أسلم: بطن من خزاعة من القحطانية. المصدر السابق ص٣٩

(٨) غفار: بطن من جاسم من العماليق، كانت مساكنهم بنجد. المصدر السابق ص ٣٨٩

(٩) أشجع: حي من غلفان من العدنانية، وهم عرب المدينة. المصدر السابق ص ٦٥

والحديث في الآية عن المنافقين من هذه القبائل لا عن جميعهم، فإنه قد كان فيهم مسلمون محققون إسلامهم.[١]

*** فضح المخلَّفين وكشف حقيقتهم :**

لقد فضح الله – سبحانه وتعالى – أمر المنافقين، وأبان لنبيِّه – صلى الله عليه وسلم – ما بيَّتوه من الأعذار الكاذبة حتى لا يُفاجأ بما يزورونه من القول، فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ ﴾

هذا هو القول الذي أظهره الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم- والذي صدر منهم بعد ذلك، عذراً يعتذرون به عن تخلفهم حيث اعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم كذباً وخداعاً، وحقيقة أمرهم إنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إذا صدوهم.[٢] وليس هذا بعذر. فللناس دائماً أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها[٣]. وقد عطفوا على هذا العذر الساذج طلب الاستغفار ليبرهنوا على صدقهم وإيمانهم. والحقيقة أن قولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ : كذب وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون.[٤]

(١) انظر تفسير السمعاني جـ٥ ص١٩٥

(٢) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي جـ٥ ص١٢٨

(٣) في ظلال القرآن جـ ٦ ص٣٣٢١

(٤) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١١٦

وقد كشف الله – سبحانه وتعالى – لنبيه – صلى الله عليه وسلم – في هذه الآية حقيقة المخلفين من الأعراب وأنهم سيطلبون منه الاستغفار لهم، وبين أن قولهم: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ لم يكن نابعاً من قلوبهم، بل هو قول لا يتعدَّى اللسان، ثم بعد ذلك لا يبالون استغفر لهم، أم لم يستغفر لهم.(١)وقد أُقحم اللسان للتأكيد على مصدر هذا القول وأنه لا يوافق مافي القلب. وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به مالم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق.(٢) وبهذا علم أنهم يطلبون الاستغفار تقية.(٣)

وفي مفهوم الجملة إعلام من الله – عز وجل – بأن هؤلاء منافقون.(٤) وبهذا تكون هذه الجملة قد كشفت صفة خسيسة من صفات المنافقين وهي الكذب في الأعذار، وصياغتهاصياغة خبيثة بطريقة قد تخفى على غير الحاذق الفطن، وأنهم يملكون هذه المهارة في تنميق الكلام، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ المنافقون: ٤

*** اللطائف البلاغية في قوله تعالى – حكاية عن المنافقين –: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ :**

من اللطائف في هذا الجزء من الآية قولهم: شغلتنا أموالنا، ولم يقولوا شغلتنا الأموال، لأن جمع المال لا يصلح عذراً لأنه لا نهاية له، وأما حفظ ما جمع من

(١) انظر تفسير مقاتل بن سليمان جـ٤ ص٧١
(٢) انظر محاسن التأويل جـ٨ ص٤٩٣
(٣) انظر تفسير القرآن للسمعاني جـ٥ ص١٩٥
(٤) انظر معاني القرآن للزجاج جـ٥ ص٣٣

الشتات، ومنع الحاصل من الفوائت فهو يصلح عذراً، ولذلك قالوا: ﴿ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا ﴾ أي ماصار مالاً لنا لا مطلق الأموال.(١) " وبدأوا بذكر الأموال لأن بها قوام العيش."(٢) ولأن الافتتان بها عظيم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ العاديات: ٨، وعلته أن المال وسيلة إلى الرغائب وموصل إلى الشهوات واللذائذ، ورغائب الإنسان غير محدودة، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ الأنفال: ٢٨ فقدم الفتنة بالأموال على الفتنة بالأهلين، لأن الكلام هنا في الاشتغال به حتى صار مقصداً يقدم على طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم– ولا يجعله مقصداً إلا من أعمته الفتنة عن الحقيقة.(٣) وإنما انكشفت حقيقتهم لأن المؤمن على النقيض من هذا فهو مطالب أن يبذل المال في سبيل الله لا أن ينشغل به عن فريضة الجهاد.

والأهلون: جمع أهل، وأهل الرجل عشيرته وذووا قرباه(٤).. وهو جمع على غير قياس وهو من الملحق بجمع المذكر السا لم.(٥)

والمعنى: إنَّ اشتغالَنا بمعالجة أموالنا وحفظها، وإصلاح معايشنا وأهلينا هو السبب في تخلفنا عن صحبتك والمسير معك، فاستغفر لنا يارسول الله اعترافاً منا

(١) انظر البحر المحيط جـ٩ ص٤٨٨

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧٤

(٣) البحر المحيط جـ٩ ص٤٨٨

(٤) انظر تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٠م جـ٣ ص٢٠٠

(٥) روح البيان جـ٩ ص٢٦

بذنبنا ليغفر لنا الله.[(١)] والاشتغال بالأهل ليس عذراً مقبولاً لترك الجهاد في سبيل الله، بحيث يعتذر به الجميع وإنما يسوغ في حالات خاصة جداً كحال من له أبوين كبيرين أو أحدهما ممن يحتاج إلى رعايته ،فالبرُّ هنا مقدَّم على الجهاد.

أما طلب الاستغفار فبهرجة يغطون بها ضعف حجتهم، إذ يريدون من خلاله إظهار حرصهم على الطاعة وخوفهم من مغبة تخلفهم عن الخروج مع الرسول - صلى الله عليه وسلّم – ولو علم الرسول الرحيم – صلوات الله وسلامه عليه – صدقهم في ذلك لاستغفر لهم.

*** ما موقع الجملة في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مما قبلها ؟ :**

هذه الجملة من الآية الكريمة يجوز أن تكون حالاً متعلقة بطلب الاستغفار، وهو قولهم ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ فيشمل القولين معاً؛ الاعتذار وطلب الاستغفار. وهذا ما اختاره أبو حيان – رحمه الله –.[(٢)] واختار الطبري - رحمه الله - القول الأول وهو طلب الاستغفار، وأنهم حال السؤال كانوا يسألونه الاستغفار من غير توبة منهم ولا ندم على ما سلف منهم من معصية الله في تخلفهم عن صحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسير معه.[(٣)]

(١) انظر جامع البيان جـ٢٢ ص٢١١

(٢) انظر البحر المحيط جـ٩ ص٤٨٨ والتحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٦٢

(٣) انظر جامع البيان جـ٢٢ ص٢١١

ومع أنَّ قول أبي حيَّان أوسع إذ لا مانع من شمولها للمعنيين، وخصوصاً أنَّه في كلا القولين – الاعتذار وطلب الاستغفار – لم يبدُ من أفعالهم ما يصدِّقه. يضاف إلى ذلك أنَّ الاستغفار مناسبٌ للجملة بسبب ذكرها بعده مباشرة، والاعتذار مناسب للجملة كذلك بسبب تكرار فعل القول في الجملتين، إلا أنَّ اختيار الطبري أرجح لأنَّ بيان كذبهم في طلب الاستغفار هو الأدلُّ على نفاقهم من كذبهم في الاعتذار بالمال والأهلين، خاصة أنَّ الانشغال بالمال والأهل هو دليل تقديم الدنيا على الآخرة.

*** الفرق بين قوله تعالى هنا : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وبين نظيرتها في سورة آل عمران ، قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾** آل عمران: ١٦٧ :

قيل : ورد في آل عمران: ﴿ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ لأنَّ قولهم هنالك أكثر وأعظم وأشنع لأنهم قالوا: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ آل عمران: ١٦٧ وبدليل قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٧ فدلَّ على كثرة قولهم، فنسب الكثير للأفواه، إذ هي أوسع من الألسنة.(١) لكنّ قولهم مذكورٌ في الآية، وهو قليلٌ جداً، ولعلَّ السبب هو أنَّ آية الفتح تتعلَّق بتكذيبهم في طلب الاستغفار وهذا أقوى في بيان شناعة كذبهم، وأنه لا يعدو طرف اللسان، وهو موطن يحتاج بيانَ بُعده عن الصدق؛

(١) انظر تفسير ابن عرفة جـ ٤ ص ٣٤

لأنَّ النفس الرحيمة قد تصدقهم في طلب الاستغفار، أما الاعتذار عن القتال بعدم العلم فلا يحتاج كلَّ هذا التأكيد.

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ لما قبلها :**

بعد أن بيَّن – سبحانه- قولهم المتمثل في الاعتذار وطلب الاستغفار، وبيَّن طبيعة هذا القول وأنه لم يكن موافقا للحقيقة، ولم يكن الطلب صادراً عن عزيمة وصدق، لم يوجه النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى قبول عذرهم أو رفضه، أو إجابة طلبهم أو منعه، كما هو المتبادر للذهن، حيث قد علم التوجيه من التعقيب على كلامهم بقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾، بل أمرَه بأن يوجه لهم سؤالاً يقرر لهم به حقيقةً هامة، حيث يردهم إلى الله، ويبين لهم أنه لا يقدر أحدٌ على دفع الضر ومنع النفع غير الله –سبحانه-.[(١)] وهذا فيه " إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم."[(٢)] والمعنى: " إن أنا استغفرت لكم أيها القوم، ثم أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم أو بهم نفعاً أو إصلاحاً، فمن ذا الذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خير أو شر؟"[(٣)].

وقد يكون فيه بيان سوء تدبيرهم حتى لو كانوا صادقين في اعتذارهم بالأهل والمال، فالذي يملك حفظ وتنمية المال والأهل هو الله تعالى، وهو الذي يملك إهلاك ذلك كله، وهو مناسب في تقديم الضرِّ على النفع، بل هو أنسب أيضاً في سياق الردِّ على

(١) انظر بحر العلوم جـ٣ ص٣١٤

(٢) محاسن التأويل جـ٨ ص٤٩٣

(٣) جامع البيان جـ٢٢ ص٢١١

حجّتهم، وتذكيرهم بفشل تخطيطهم لو كانوا صادقين. وقد تقرَّر في هذه الآية الكريمة أسلوباً من أساليب الرَّدِّ على المنافقين فلا ينفع معهم في كلِّ مرَّة الدخول في التَّفاصيل والجزئيات ومناقشتها، بل إنَّ ردَّهم إلى الحقائق والمحكمات سبيل لإسكاتهم من جهةٍ، وتذكيرهم وتعليمهم من جهةٍ أخرى.

ومن ناحية أخرى ليس من المصلحة أن يبقى الحوار مع المنافقين محصوراً في دائرة الردِّ على شبهاتهم وأكاذيبهم، بل لابد من مواجهتم بالأسئلة التقريرية المسكتة لهم.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ ﴾ المِلْك هنا: القدرة والاستطاعة، والمعنى لا يقدر ولا يستطيع أحد أن يغير ما أراده الله. والمقصود بالإرادة في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادَ ﴾ الإرادة الكونية. وفي هذا الكلام توجيهٌ بأن تخلفهم سبب في حرمانهم من فضيلة شهود بيعة الرضوان، وفي حرمانهم من شهود غزوة خيبر بنهيه عن حضورهم فيها كما سيأتي بيانه.(١)

*** الخصائص التَّربوية في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ :**

أ- هذا الرد الجامع الشامل فيه رحمة بهم إذ أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم- بأن يقول لهم ما فيه رد أمرهم إلى الله.

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص ١٦٢

ب- الغرض من هذا الجواب تخويفهم من عقاب ذنبهم إذ تخلفوا عن النفير مع النبي – صلى الله عليه وسلم- وكذبوا في الاعتذار، وذلك ليكثروا من التوبة، وليتداركوا الممكن في المستقبل، كالذي وعدهم الله به في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ... ﴾[١]

ج- من الخصائص التربوية لهذا الجواب: أنه لا عدة فيه من الله بأن يغفر لهم، إذ المقصود تركهم في حالة وجل ليستكثروا من فعل الحسنات. وقُصدت مفاتحتهم بهذا الإبهام لإلقاء الوجل في قلوبهم ليدركوا أهمية الحاجة إلى الاستغفار.[٢]

د- القرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخالفين والردِّ عليها، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس وهواجس القلوب.[٣]

هـ- إنَّ الآيات القرآنية التي تتحدث عن أحداث أو قصص ومواقف معينة يكون للتعقيب عليها عادة معانٍ خاصة تناسب موضوع الحدث، كما يكون لها معانٍ عامة أوسع وأشمل تتعدى محيط الحدث وزمانه؛ ليأخذ منها الناس العبر والهدايات على مرّ العصور. وندرك هذه الحقيقة ونحن نقف على أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾.:

فبعض المفسرين قصر معنى الضر والنفع بما يتعلق بالحدث نفسه فقال: **﴿ ضَرًّا ﴾: قتلاً أو هزيمةً، و﴿ نَفْعًا ﴾: نصراً أو سلامةً أو غنيمة**[٤] **وهذا**

(١) المصدر السابق جـ٢٦ ص١٦٢

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ٢٦ ص١٦٣

(٣) انظر في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٢١

(٤) انظر على سبيل المثال: بحر العلوم جـ ٣ ص ٣١٤ ، وتفسير السمعاني جـ٥ ص١٩٥

متوافق ومتناسق مع موضوع هذه السورة الكريمة وخصوصاً أنَّ السياق قبل هذه الجملة وبعدها مباشرة كله في معنىً واحد ،وهو سرد الأحداث التي حصلت في صلح الحديبية، لكن كما قلت آنفاً : إن هذه التعقيبات القرآنية لا يقف أثرها في محيط السبب الذي نزلت تعقيباً عليه، ولا يتنافى فيها المعنى الخاص مع المعنى العام الذي تستقى منه الهداية القرآنية في كلِّ حين، فمن المفسرين من قال: ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ فيهلككم بنفاقكم ويدخلكم النار. ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أن يرحمكم بإيمان يمنّ به عليكم.[1] وهذا المعنى أعمُّ من الأول ولكنه يدور في معنى الحدث، وبعضهم جعل المعنى عاماً وذلك بالنظر إلى المعنى العام للآية، الذي يُخاطب به كلُّ من ضعف إيمانه ويقينه بربه فقصّر في طاعته وآثر شهواته على مرضاة الله في كلِّ حين، فقال: ﴿ ضَرًّا ﴾: سوءاً وشراً و قال: ﴿ نَفْعًا ﴾: خيراً وصلاحاً.[2] فكلُّ من عصى الله ورسوله مقدِّماً حظوظ الدنيا على أمر الشرع له نصيب من هذه الآية . والله أعلم !

* **لطائف بلاغية في قوله تعالى :﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ :**

مما أورده المفسرون في هذا الجزء من الآية الكريمة مما تكتمل به الفائدة بعض اللطائف التي مدارها على ثلاثة أسئلة:

---

(١) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين جـ٤ ص٢٥٢

(٢) انظر البحر المديد جـ٥ ص ٣٩١

الأول: ما سرُّ تقديم الضر في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ؟

وجوابه أن يقال: قدم ذكر الضر لأنه الأنسب لحال المخاطبين، ولا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف. والأصل في المعنى أن يقال: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً، وهذا النظم يستعمل في الضرّ، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مضطرداً، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ المائدة: ١٧ وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ المائدة: ٤١ وقوله: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الأحقاف: ٨ وأمثلته كثيرة.(١)

والثاني: ما سرُّ دخول الباء على ضمير المخاطبين في قوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾ ؟ وقد أجاب الرازي – رحمه الله – على هذا بأنه : إذا كان الكلام على المؤمنين أُدخل الباء على الضر كقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ يس: ٢٣ وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الزمر: ٣٨ وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الأنعام: ١٧، وإذا كان الكلام مع الكافر أُدخل الباء على الكافر. فقال ها هنا: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾، وقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ الأحزاب: ١٧، ففي قوله:

(١) انظر محاسن التأويل جـ٨ ص٤٩٤

﴿ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا ﴾، وإلحاق الباء بالكافر لأن المقصود الزجر.[١] إذ وقع في الكفر مختاراً.

والثالث: ما سرّ المقابلة في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا ﴾ ؟

قال الرازي – رحمه الله – وأما ذكر النفع فقد وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقصير، ويدل على أن المقصود التوبيخ والزجر قوله تعالى بعدها: ﴿ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴾ فإنه للتخويف.[٢]

وأوضح هذا القاسمي[٣] – رحمه الله – فقال :" دفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة فإنه ضرر عائد عليه، وإنما انتظمت الآية على هذا الوجه لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفي لدفع المقدر من خير وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة. وخصّ عبارة دفع الضر لأنه هو المتوقع لهؤلاء، إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد."[٤]

كما أنّ من فوائد ذكر النفع في مقابل الضر أن تبقى دلالة الآية عامة وشاملة لهؤلاء وغيرهم. ولم يذكر الجواب على السؤال، لأن غرضه التقرير مع النفي فأصبح الجواب ظاهراً من السياق، وأنه لا أحد يملك ذلك إلا الله - جلت قدرته –كما دلّ

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٧٤ وجـ٢٦ ص٢٦٥

(٢) المصدر السابق

(٣) القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي الدمشقي، إمام الشام في عصره، سلفي العقيدة، توفي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف. انظر الأعلام جـ٢ ص١٣٥

(٤) محاسن التأويل جـ٨ ص٤٩٤

على الجواب أيضاً الإضراب على كلامهم المنافي للحقيقة والتهديد بأن الله خبير بما يسرّون وما يعلنون.

*** مناسبة ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ :**

بعد أن بين لهم – سبحانه – مسألة مهمة من مسائل العقيدة؛ وهي أن الذي يملك الضر والنفع هو الله وحده، وأنه لا أحد يستطيع أن يدفع ضراً أو يجلب منفعة إلا بإرادته وأمره. أضرب على كلامهم واعتذراهم بحقيقة أخرى يردهم إليها وهي أنه – سبحانه- خبير بما يعملون من الأعمال وما يبطنون من النوايا الفاسدة، " أي ليس الأمر كما يظن هؤلاء المنافقون بأن الله لا يعلم ما ينطوون عليه من النفاق، بل لم يزل الله بما يعلمون من خير وشر خبيراً لا تخفى عليه خافية من أعمال خلقه وهو محصيها عليهم ومجازيهم بها."[١]

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ لما قبلها :**

بعد أن بين الله تعالى بطلان اعتذارهم وختم ذلك بقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فصّل في هذه الآية وبيّن علمه بظنهم السيء، وكشف أمرهم

(١) جامع البيان جـ٢٢ ص٢١١

واعتقادهم الباطل بأن محمداً وأصحابه سوف يقتلون ويستأصلون فلا يرجع أحد منهم، وقد زين الشيطان هذا الظن السيئ في قلوبهم وحسّنه لهم حتى قبلوه وتخلّفوا عن المسير مع النبي – صلى الله عليه وسلم – مختارين ذلك عن قناعة تامة حفاظاً على سلامتهم، ولم يدركوا أن الطريق الذي سلكوه هو طريق الهلاك وليس طريق السلامة.

*** هل الظن الثاني هو الظن الأول في الآية ؟ :**

ذكر المفسرون أن هذا الظن قد يكون هو الظن الأول الذي ذكر في أول الآية، وهو ظنهم بأن الله لن ينصر رسوله وأصحابه، وسيقتلون من قبل الكفار ولن يعود منهم أحد إلى بيته، وأن التكرار للتأكيد والتوبيخ، أو يكون الواو للمغايرة ويكون هذا الظن أعمّ من الأول فيدخل الظن الأول تحته دخولاً أولياً، وهذا الظن فيما يرون يراد به الظن السيئ لعلو الكفر وظهور الفساد وعدم صحة الرسالة.(١)

والحقيقة أنهما ظن واحد؛ لأن ظنهم بعدم نصرة الله –سبحانه وتعالى– للنبي – صلى الله عليه وسلم – هو نابع من ضعف الإيمان بالله وعدم تصديقهم بالرسالة، فلم يحققوا ما أمر الله – سبحانه وتعالى – به عباده في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فكأن الظن

(١) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٥٨، ومفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٧٥ وإرشاد العقل السليم جـ ٨ ص ١٠٧، و البحر المديد جـ ٥ ص ٣٩١

الأول فرع عن الأصل الذي هو الظن السيء الناتج عن النفاق. كما قال ابن كثير – رحمه الله– : " لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق ."[(١)]

وهكذا هو حال المنافقين يحرصون على سلامة الأبدان، ويغفلون عن سلامة القلوب وصحتها، بل يعتقدون سلامتها وأنهم مصلحون، وبسبب هذه الغشاوة في نظرتهم للأمور، فإنهم يتمنون ظهور الكفر وانتشار الفساد. وتتكرر هذه الصورة في كل مرة تلتقي فيها صفوف المجاهدين المسلمين مع أعداء الدين من الكفرة والملحدين، فهم يظنون دائماً بأن المسلمين هم المنهزمون، بسبب ما في قلوبهم من الشك والشُّبه الاعتقادية التي يزينها لهم الشيطان، ولأنهم لا خير فيهم يصعب عليهم العيش بأمان في وسط المجتمع المسلم الفاضل، ولهذا فإنهم يتمنون الفساد ويرحبون بالشر حتى يرتعوا فيه، فيكون هذا الجو السائد المنتن مظلةً لهم، يزاولون تحتها شهواتهم بحرية تامة ودون قيود، ولهذا كانت هذه الخصلة الذميمة – أعني محبة انتصار الكافرين على المسلمين – من نواقض الإسلام.

*** معنى قوله: ﴿ بُورًا ﴾ :**

البور هو الهلاك.[(٢)] كما قال مجاهد – رحمه الله– وقال قتادة: بوراً أي فاسدين[(٣)] وقال ابن زيد[(٤)]: البور: الذي ليس فيه من الخير شيء.[(٥)]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٣٧

(٢) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٦٠

(٣) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٥٩

(٤) المصدر السابق. وابن زيد: هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني، من أتباع التابعين، قال أبو حاتم: كان في نفسه صالحاً، وفي حديثه واهياً. توفي سنت اثنتين وثمانين ومائة. سير أعلام النبلاء جـ ٨ ص ٣٤٩

(٥) المصدر السابق

وكلّ هذه الأقوال حقٌّ. وبسبب هذا الوصف الذي وصفوا به وأنهم لاخير فيهم، بل هم قوم فاسدون في أنفسهم مفسدين لغيرهم ظنوا هذا الظن السيء، قال السعدي – رحمه الله -: "لم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم ويطمئنون إليه، حتى استحكم. وسبب ذلك أمران :

أحدهما: أنهم كانوا ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي: هلكى، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني : ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي فإنه كافر مستحق للعقاب ﴿ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾.[(١)] فأعاد الأمر كله إلى فساد قلوبهم وسوء معتقدهم.

واختيار لفظ ﴿ بُورًا ﴾ لا يمكن أن يقوم مقامه لفظ آخر، لا في سعة معانيه، ولا في تصور ما يوحي به من الخواء، إذ يطلق على الأرض الميتة الجرداء، فيقال: أرض بور " وكذلك قلوبهم التي صدر منها ذلك الظن السئ، بل وكذلك هم بكل كيانهم بور، لا حياة ولا خصب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله ؟! "[(٢)]

ثم إن هذه اللفظة هي المفتاح الذي يفتح الطريق لمعنى الآية الكريمة، وإذا كان السعدي – رحمه الله – قد بين أن البور هو السبب لظنهم السيئ، فإن من المفسرين من رأى أن هذا الهلاك المعنوي، والذي يعني عدم الخير والنفع في الدين قد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٣٩

(٢) في ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٣٢٢

صار من مقومات قوميتهم لشدة تلبسه بغالب أفرادهم وهذا مايفيده إقحام كلمة ﴿ قَوۡمَۢا ﴾ بين ﴿ وَكُنتُمۡ ﴾ و ﴿ بُورًا ﴾.(١)

وقد يكون هذا البور نتيجةً للظنون الفاسدة التي استقرت في قلوبهم وصارت معتقداً لهم، يتحركون بتأثيرها، فأصبحوا بذلك هلكى لا يرجى منهم خير، ولا ينتظر منهم صلاح. **أي أن البور إما يكون مقدّمة وسبباً، وإما أن يكون أصلاً من أصولهم، وإما أن يكون نتيجةً وأثرا.**

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ لما قبلها، ودلالتها المفهومة من السياق ؟ :**

لقد سبق الكلام عن الكافرين من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ووصْفهم بـ ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ ﴾ وبيان عاقبتهم المترتبة على سوء ظنهم وسوء أعمالهم والتي ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾، وهنا جاء تقرير هذا الوصف في حقِّ المخلَّفين من الأعراب فقال تعالى: ﴿ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورًا ﴾ وأعقبه ببيان سبب هذا البوار وأنه عدم الإيمان، فحذّرهم وتوعّد كلَّ من لم يؤمن بالله ورسوله بالمصير الذي ينتظره في الآخرة وهو نار جهنّم، والتي عبَّر عنها بالسَّعير ليظلَّ المشهد بحركته المستعرة ولهيبه

(١) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٦ ص ١٦٥

وفورانه ماثلاً أمام الكافر فيزداد الوعيد قوَّةً وأثراً ، يقود من كتب الله له الهداية إلى التوبة النَّصوح والإيمان الصَّادق.

وقد دلَّت هذه الآية بمفهومها على أنَّ هؤلاء المخلَّفين من الأعراب قد كفروا بالنِّفاق.(١) فإنَّ عدم الامتثال لطلب النَّبي – صلى الله عليه وسلَّم –، وعدم الوفاء له بالعهد، وعدم مناصرته وتصديقه، وسوء الظنِّ بالله، والاعتقاد بأنَّه مخلف وعده لرسوله، وكذا الاعتذار كذباً وخداعاً، وطلب الاستغفار مجاملةً، لا عن صدقٍ وصحيحِ اعتقاد، كلُّ ذلك من النِّفاق الاعتقادي المخرج من الملَّة.

*** ما الغرض من ذكر الإيمان بالله ورسوله في معرض الحديث عن المنافقين ؟**

الغرض من ذلك التنبيه إلى بيان حقيقة الإيمان الذي يتوافق فيه الظاهر مع الباطن، وبيان أنه شرط للسلامة والفوز في الدار الآخرة، وهذا معلم مهم من معالم الجهاد والخروج في سبيل الله، لذا فقد **تكرَّر ذكر الإيمان في السورة الكريمة أربع عشرة مرَّة،** فأمر بالإيمان ﴿ **لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾، وذكر – سبحانه – رضاه عن المؤمنين أصحاب الشجرة ﴿ **لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ** ﴾، وبين نتيجة إيمانهم في أكثر من موضع في السورة، وختم السورة ببيان ما وعدهم به فقال – عزَّ ذكرُه –: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا** ﴾، ولأن المخلفين لم يمتثلوا الأمر بالإيمان فقد

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٦ ص ٢٧٠

بيَّن هنا لهم ولغيرهم نتيجة عدم الإيمان بالله ورسوله في الآخرة. فذكر الإيمان هنا مقصود بحدّ ذاته – وليس مجرد الإسلام باللسان – لأنه سبب لرحمة الله وتأييده ونصره بخلاف النِّفاق الذي يعتبر من معوِّقات النَّصر. والله أعلم !

*** ما سرُّ وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ ؟**

فائدة الإتيان بالإسم الظاهر هنا الإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره، فهو لتسجيل الوصف وبيان علة الحكم.

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لما بعدها :**

بعد أن توعّد الله من لم يؤمن به وبرسوله بالنَّار، بيَّن في هذه الآية الكريمة أنَّ الجزاء بالعفو أو بالتَّعذيب بيده وحده – سبحانه – فله السلطان الكامل في ملكوت السماوات والأرض، وقد تضمَّنت الآية حثَّ المتخلفين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلَّم – على التوبة والمبادرة إليها؛ لأن الله يغفر للتائبين ولم يزل ذا عفو عنهم وذا رحمة بهم.(١)

(١) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٦٠

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ للجملة التي بعدها ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ :**

قال الرّازي – رحمه الله – : " قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعاً؛ لأنَّ من عظم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم، وعذابه وعقوبته في غاية النَّكال والألم."(١) والجملة بعدها فيها رجاء. لما توعَّدهم الله بالنَّار المؤجَّجة أرجأهم لأنَّ القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر، وقد علم الله أن منهم من يؤمنون.(٢)

*** سرُّ تقديم المغفرة على العذاب في الآية ومناسبة الختم بعدها :**

قدّم المغفرة على العذاب في قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ " ليتقرَّر معنى الاطماع في نفوسهم فيبتذروا إلى استدراك ما فاتهم ... وزاد رجاء المغفرة تأكيداً بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ "(٣)

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٠ ص ٧٥

(٢) المحرَّر الوجيز ص ١٧٣٢

(٣) التحرير والتَّنوير جـ ٢٥ ص ١٦٦

* مناسبة قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ لما قبلها :

لما ذكر الله تعالى المخلفين وذمَّهم وتوعَّدهم بالنار إن لم يؤمنوا، ناسب أن يذكر ما عاقبهم به في الدنيا من عدم إجابة طلبهم في صحبة النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من المؤمنين في المسير إلى خيبر، والحصول على المغانم التي وُعد بها المؤمنون ليأخذوها من غير قتال، حيث اختص المؤمنون من أهل الحديبية بهذه المغانم قدراً وشرعاً، وحرم منها المخلفون بسبب عصيانهم، فللمعاصي عقوبات دينية ودنيوية.(١)

* ما يفيده التناسق في تعيين المراد بـ ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ :

اختلف المفسّرون في المراد بـ ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ على أربعة أقوال :

أولها : أنَّه قوله تعالى: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ التوبة : ٨٣ وهذا بعيد عن زمن الحدث وموضوعه؛ لأنَّ آية التوبة هذه نزلت بعد غزوة تبوك وهي تتحدَّث عن من تخلَّف عن النبي – صلى الله عليه وسلّم – حين توجّه إلى

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن ص ٩٣٥

تبوك لغزو الروم، أما آية الحديبية فقد نزلت على النّبي – صلى الله عليه وسلم – منصرفه من الحديبية وهي تتحدّث عن من تخلف عنه حين توجّه إلى مكة قاصداً العمرة .[١]

ثانيها : أنَّ المراد بذلك ما وعد الله نبيه من النصرة والفتح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ حين ظنوا ظنَّ السوء أنَّه يُهلك أو لايظفر.[٢] وردُّ الآية إلى ما جاورها من الآيات أولى من ردِّها إلى فاتحة السورة على بُعدٍ بينهما.

ثالثها : أن المراد قوله تعالى: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا في حكم أهل بيعة الرِّضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضي الله عنهم، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم، فيلزم ذلك تبديل كلام الله .[٣] وهذا كالذي قبله فيه بعدٌ وفيه تكلّفٌ.

رابعها : أنَّ المراد بكلام الله ما وعد الله به المؤمنين من الغنائم في خيبر وجعلها خالصة لأهل الحديبية، لأنَّ المنافقين حينما علموا بذلك قالوا : ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ فعقَّب الله بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا هو الصحيح

(١) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٦١
(٢) انظر النكت والعيون جـ ٥ ص ٣١٤
(٣) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص ٧٥

الأنسب للسياق والأوفق للسرد التاريخي لأحداث الحديبية وما بعدها كما جاءت في نظم الآيات .[١]

* مناسبة قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لما قبلها :

قال السَّعدي[٢] – رحمه الله تعالى – " لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة قال تعلى ممتحناً لهم: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ... ﴾ الآية."[٣]

* **الاستدلال بالآية الكريمة على خلافة أبي بكر الصدِّيق – رضي الله عنه – :**

استدل بهذه الآية الكريمة على خلافة أبي بكر الصديق طائفة من العلماء وانتصر لهذا الزمخشري في الكشاف والبقاعي في نظم الدرر وغيرهما، وقد ردَّ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : " احتجوا بأن الله تعالى قال: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ التوبة: ٨٣ قالوا

(١) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٦١

(٢) السعدي: هو العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أهل عنيزة. له مؤلفات في التفسير وأصوله. توفي سنة ست وسبعين وثلاث مائة وألف. انظر الأعلام ج٣ ص٣٤٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٤٠

فقد أمر الله رسوله أن يقول لهؤلاء : لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدوّاً، فعلم أن الدَّاعي لهم للقتال ليس رسول الله - صلى الله عليه وسلَّم – فوجب أن يكون من بعده، وليس إلا أبا بكر أو عمر أو عثمان : الذين دعوا الناس إلى قتال فارس والروم أو غيرهم، أو يسلمون، حيث قال : ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾. وهؤلاء جعلوا المذكورين في سورة " الفتح " هم المخاطبين في سورة " براءة " ومن هنا صار في الحجة نظر."[١] إلى أن قال عن آية " الفتح ": " أما تخصيصها بمن دعاهم بعد النبي – صلى الله عليه وسلم – كما قاله طائفة من المحتجين بها على خلافة أبي بكر، فخطأ. بل إذا قيل تتناول هذا وهذا، كان هذا مما يسوغ، ويمكن أن يراد بالآية ويستدل عليه بها. "[٢]

*** المراد بالقوم في قوله تعالى: ﴿ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾ :**

اختلف المفسرون في المراد بالقوم على عشرة أقوال يمكن إجمالها في ما يلي :

- فارس والروم، الروم، فارس[٣] وهذه ثلاثة أقوال .
- هوازن، هوازن وثقيف، هوازن وغطفان[٤] وهذه ثلاثة أقوال .
- الترك، الأكراد[٥] وهذا قول عند من جمعهما.

(١) منهاج السنة النبوية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،- الرياض ١٤١١هـ جـ ٨ ص ٥٠٥

(٢) المصدر السابق جـ ٨ ص ٥١٠

(٣) جامع البيان جـ٢١ ص٢٦٦-٢٦٧ ، النكت والعيون جـ ٥ ص ٣١٦ ومعالم التنزيل ص ١٢٠٤

(٤) جامع البيان جـ٢١ ص٢٦٧ ، زاد المسير جـ٤ ص١٣٢ ، تفسير القرآن العظيم جـ٧ ص٣٢٣٩

(٥) تفسير القرآن العظيم جـ٧ ص٣٢٣٩

- هوازن وبنو حنيفة.[١] وهذا قول.
- أهل الأوثان[٢] وهذا قول وهو عام.
- بنو حنيفة، و أهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق.[٣] وهما قولان عند من اختار أحدهما وقول عند من جمعهما.

وقد اختار بعضهم قولاً أو أكثر من هذه الأقوال دون دليل أو تفسير واضح. ولهذا تجنّب الطبري تحديداً معيناً للمراد بالقوم في هذه الآية الكريمة فقال:

" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله – تعالى ذكره- أخبر عن هؤلاء المخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال، ونجدة في الحروب. ولم يُوضع لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنيَّ بذلك هوازن ولا بنو حنيفة، ولا فارس، ولا الروم، ولا أعيان بأعينهم، وجائز أن يكون عُني بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عُني بهم غيرُهم، ولا قولَ فيه أصحُّ من أن يقال كما قال الله — جلّ ثناؤه- : إنهم سيدعون إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ."[٤]

وربط الماوردي —رحمه الله- هذه الآية بالآيات التي تحدثت عن المخلفين في غزوة تبوك في محاولة لبيان المراد من هؤلاء القوم، فلم يستطع تحديدهم بالتعيين وإنما اكتفى بالوصف، حيث قال:

"هؤلاء المخلفون أحد أصناف المنافقين، لأن الله تعالى صنّف المنافقين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ثلاثة أصناف، منهم من علم أنه لا يؤمن

---

(١) المصدر السابق
(٢) جامع البيان جـ٢١ ص٢٦٧
(٣) الكشاف جـ٤ ص٣٣٨
(٤) جامع البيان جـ٢١ ص ٢٦٨

وأوعدهم العذاب في الدنيا مرتين ثم العذاب العظيم في الآخرة وذلك قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ ...الآية. التوبة:١٠١ ومنهم من اعترف بذنبه وتاب وهم من قال الله فيهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ ...الآية. التوبة: ١٠٢ ومنهم من وقفوا بين الرجاء لهم والخوف عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ...الآية. التوبة: ١٠٦ فهؤلاء هم المخاطبون بقوله: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ...الآية.دون الصنفين المتقدمين لترددهم بين أمرين"(١)

وهذا كلام جيد في معرفة أحوال المنافقين، ولكن الخلط بين المذكورين في سورة الفتح والمذكورين في سورة التوبة قد ردَّه كثير من العلماء وعلى رأسهم إمام المفسرين الطبري – رحمه الله–.(٢)

وأما البقاعي – رحمه الله – فقد اجتهد في تحديد هؤلاء القوم فهو يرى أن في قوله تعالى: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ خيارين لا ثالث لهما، وحيث لم يذكر خياراً آخر فقد خرج بذلك الفرس والروم، حيث يُكفّ عنهم بدفع الجزية، وردَّ على من قال إن الإسلام في حقهم المراد به الاسلام اللغوي، وقال: إنه تكلفٌ لا داعٍ له مع

(١) النكت والعيون جـ٥ ص٣١٥

(٢) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٢٦٣

إمكان الحقيقة. وإنما كانت الدعوة هنا إلى أحد الأمرين المظهرين لأن تكون كلمة الله هي العليا ، وهما المقاتلة أو الإسلام، لأن الإمام لا غرض له إلا إعلاء كلمة الله.

وهذا هو موضوع السورة الرئيس. وقد ردّ على من قال بأنهم هوازن ومن معها ويرى أن هذا لا يستقيم لأن النبي – صلى الله عليه وسلم- ترك فلال هوازن فلم يتبعهم، ولم يؤمر باتباعهم. وظاهر الآية أنه إن حصل قتال فإنه لا يترك إلا إذا حصل الاسلام. ورد على من قال إنهم ثقيف وضعّف هذا القول بحجة أن الدعاء لم يكن إليهم إنما كان المقصود بالذات فتح مكة.

ورد على من قال أنهم من غير العرب كالفرس والروم والترك والأكراد وغيرهم بحجة أن هذا لا يستقيم مع سياق الآيات لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وقال إن هذا التقسيم لم يحصل في قتال غير العرب فقد أطاع الكل. وبهذا فإنه لم يبق إلا أن يقال إن المراد بالقوم بنو حنيفة، والمرتدون الذين قاتلهم أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – .[1] وهو بهذا يوافق الزمخشري في اختياره.

والبقاعي مع حسن اهتمامه – رحمه الله – بالمناسبات وربط الآية بموضوع السورة، وطريقة تفكيره في الوصول للمقصود من خلال نظم الآيات إلا أنه لم يوفق للصواب في استدلاله بالآيتين السابقتين كما سيأتي معنا.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في كتابه منهاج السنة النبوية، وبيَّن المراد بالقوم في الآية الكريمة، مفتتحاً بأنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد وصفهم في

(١) انظر نظم الدرر جـ١٨ ص٣١١-٣١٢

الآية بصفتين؛ الأولى: أنهم أولي بأسٍ شديدٍ، أي أنهم مختلفون عن من قاتلهم المسلمون قبل الحديبية، فيخرج بهذا هوازن وغطفان وثقيف ونحوها، لأنَّ هؤلاء وأمثالهم هم الذين دعوا إليهم عام الحديبية، ومن لم يكن منهم فهو من جنسهم، ليس هو أشدُّ بأساً منهم، كلُّهم عربٌ من أهل الحجاز، وقتالهم من جنسٍ واحدٍ. فالمقصود : تُدعون إلى قومٍ أشدُّ من جنس العرب. والصفة الثانية : قوله تعالى: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ فهم موصوفون بأحد الأمرين؛ إما مقاتلتهم وإما إسلامهم. وهو سبحانه لم يقل: تقاتلونهم أو يسلموا، أي : إلى أن يسلموا : ولا قال: قاتلوهم حتى يسلموا، بل وصفهم بأنهم يُقاتلون أو يسلمون، ثمَّ إذا قوتلوا فإنَّهم يُقاتلون كما أمر الله حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. فليس في قوله: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ ﴾ ما يمنع أن يكون القتال إلى الإسلام وأداء الجزية، بل المقصود : تقاتلونهم أو يسلمون وليس لكم أن تصالحوهم أو تعاهدوهم دون أن يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.ولم يكن الأمر في أول الإسلام منحصراً بين أن يقاتلهم المسلمون وبين إسلامهم، بل كان هناك قسم ثالث وهو معاهدتهم. وبعدما نزلت آية الجزية لم يكن بدّ من القتال أو الإسلام، والقتال إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية.

ويرى – رحمه الله – أنَّ هؤلاء هم : الرّوم والفرس ونحوهم. وأوّل الدَّعوة إلى قتال هؤلاء عام مؤتة وتبوك . والنَّبي – صلى الله عليه وسلم – لم يقاتلهم في غزوة تبوك. وفي غزوة مؤتة استظهروا على المسلمين. وفي خلافة أبي بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم – قوتل هؤلاء وضربت الجزية على أهل الشَّام والعراق والمغرب، فأعظم قتال هؤلاء القوم وأشدُّه كان في خلافة هؤلاء. والله أخبرنا أننا

نقاتلهم أو يسلمون، فهذه صفة الخلفاء الراشدين الثلاثة، **فيمتنع أن تكون الآية مختصةً بغزوة مؤتة ولا يدخل فيها قتال المسلمين في فتوح الشَّام والعراق والمغرب ومصر وخراسان**[١]**، وهي الغزوات التي أظهر الله فيها الإسلام، وظهر الهدى ودين الحق في مشارق الأرض ومغاربها.**[٢]

وهذا الذي قاله شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - هو أجود ما وقفت عليه في المراد بالقوم في الآية الكريمة، وهو متوافق تماماً مع التَّناسق الموضوعي في آيات المبحث وفي السورة. وخصوصاً أنَّ **في قتال الممالك الكبرى التي تقف في وجه الدعوة إلى الإسلام، وفي دفع الجزية عند رفض الدخول في الإسلام إظهارٌ لعزَّة الإسلام، وعلوِّه وقوَّةِ سلطانه.**

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ...الآية. لما قبلها :**

لما توعد الله المخلفين بتخلفهم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثمَّ توعَّد من يتقاعد منهم عن الجهاد في سبيل الله مع الإمام الذي يدعوهم إليه، وكان أهل الأعذار لا يتيسَّر لهم المشاركة في الجهاد، وحيث إنَّ الدِّين مبنيٌّ على السماحة والرحمة واليسر ورفع الحرج، استأنف هذه الآية مسكِّناً لما استثاره الوعيد من روعهم.[٣]

---

(١) خراسان : بلاد واسعة تشتمل على أمهات من البلدان، منها نيسابور وهرات ومرو، فتحت سنة ٣١ هـ أيام عثمان بن عفان – رضي الله عنه – . انظر معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٥٠

(٢) انظر منهاج السنة النبوية ص ٥٠٤- ٥١٩

(٣) انظر نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣١٣

ولما ذكر أصحاب الأعذار رغَّب أهل الاستطاعة في الجهاد في سبيل الله، وحذَّر من ينكل عن الجهاد في سبيل الله رغبةً في متاع الحياة الدنيا، ثمَّ بيَّن جزاء هؤلاء وأولئك.

*** تصنيف أصحاب الأعذار :**

المعذورون في الآية صنفان؛ الأول: أصحاب عاهات مستدامة تعيق أصحابها عن الجهاد في سبيل الله. والثاني: المرضى؛ فإن كان المرض لا يرجى برؤه أُلحق صاحبه بالصنف الأول من باب أولى، وإن كان ممَّا يرجى برؤه، سقط عن المريض الجهاد في حال مرضه، فإذا برئ من مرضه زالت الرخصة.

*** غرض النفي في الآية الكريمة :**

الغرض من النفي في الآية الكريمة هو الاعتناء بأمر المعذورين، والرخصة لهم، وليس الغرض نهيهم عن الجهاد، فإن حضروا نالوا الأجر والمثوبة، وقد غزا ابن أم مكتوم – رضي الله عنه – وكان أعمى، وحضر بعض حروب القادسية وكان يمسك الرَّاية.(١) وإذا كانت المنظمات الحقوقية اليوم تنادي بالتخفيف عن أصحاب الإعاقات فإنَّ شريعة الإسلام قد سبقت إلى هذا بزمن طويل، وهذا من لطف الله بعباده ورحمته بهم .

(١) انظر روح المعاني جـ ٢٦ ص ٣٦٢

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الرَّابع

تتحدث آيات هذا المبحث عن نصرة الدين، والجهاد في سبيل الله، فتشيد بالمجاهدين أهل الطاعة والاتباع والبذل، وتتوعد أهل النكث المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله، وتُعرِّي صفاتهم، وتكشف كذبهم في الأعذار، وتبيِّن أن السبب الحقيقي لتخلفهم وتخاذلهم هو سوء الظن الذي عشعش في قلوبهم الخاوية، فتفضحهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، ليُعرف أمرُهم وأمرُ أمثالهم، وتنكشف حقيقتُهم وحقيقةُ أمثالهم، حتى لا ينخدع بهم غيرُهم. وبمناسبة الحديث عن موقف المسلمين من الجهاد، تبيِّن الآيات الفئاتِ التي تُعذر في الخروج للجهاد في سبيل الله.

ومع أن هذه الآيات تتحدث عن المخلَّفين عن الجهاد الذين تخلفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في مسيره إلى مكة عام الحديبية، والذي انتهى بصلح الحديبية، إلا أنها استُهلَّت بما يشير إلى أعظم حدثٍ في هذه الرحلة المباركة، وهو مبايعة المؤمنين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- على الجهاد حتى الموت.فحينما أشاع الأعداء أن عثمان – رضي الله عنه- قد قتل، ظهرت حكمة النبي – صلى الله عليه وسلم- جليَّةً في التعامل مع الإشاعات، التي يقصد العدوُّ من ورائها الإرجاف وحصول الفرقة والخلاف، حيث تعامل الرسول – صلى الله عليه وسلم- معها بعكس ما يحقق هدف العدوّ، فدعا إلى بيعة الرضوان وتسابق الصحابة – رضي الله عنهم- إلى البيعة وظهروا بمظهر المجتمع المتماسك المتكاتف، المستعد للتضحية

ومواجهة الأعداء بكل إصرار وإقدام، وهكذا تحولت الإشاعة لتصبح مصدر قوة للأمة المسلمة.(١)

ويا للعجب كيف تغيَّر الموقف، وكيف تغيرت الخطة؟! فبينما كانت الخطة المقررة محفوفةً بالسلم والشفقة، وقابلةً للمفاوضات، إذا بها تتجه إلى القرار الحاسم المحفوف بالجدية والقوة والحزم؛ " لا نبرح حتى نناجز القوم". فتغير المسار من الموادعة إلى نية القتال والحسم. ولا عجب فإنه رسول الله. ولا معارضة! فلم يضع الندى في موضع السيف، ولم يضع السيف في موضع الندى، بل إن رحمته وشفقته لا ضعف فيها ولا ذل، وحزمه وقوته لا عنف فيها ولا ظلم. "ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قوة، ولكنها كذلك لم تخل من دلائل رحمة وكرم وغفران، وكان محمد – صلى الله عليه وسلّم – لا يعتذر من الأولى، ولا يفتخر بالثانية."(٢)

إنَّ الحديث عن هذه المبايعة وفضلها يأتي في المبحث القادم مفصّلاً ، إلا أن مناسبته في مقدمة الحديث عن هؤلاء المخلفين يلقي في قلوبهم الحسرة على فوات هذا الشرف العظيم، الذي فاز به الحاضرون، والمذكور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ حتى يدركوا قدر الجرم الذي ارتكبوه بمخالفتهم لأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتقاعسهم عن الجهاد في سبيل

---

(١) انظر فقه السيرة، أ. د. زيد بن عبد الكريم الزيد، دار التدمرية–الرياض ١٤٣٢هـ، ص٥٣٨

(٢) مقولة وشهادة من الفيلسوف الإنجليزي "توماس كارليل" في كتابه "الأبطال". نقلاً عن: [محمد رسول الله، لمحمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة– الرياض ١٤٢٧هـ] ص٣٤

الله، مذكِّراً لهم بأن عدم وفائهم بالعهد سوف تعود نتيجته عليهم بالخسران. ثم يَسِمُهم بالمخلَّفين من الأعراب زيادةً في ذمهم، وإيحاءً إلى ما في طبعهم من الجفاء والغلظة. وتسميتهم بالمخلَّفين بوزن المفعول، لأن الله هو الذي خلفهم عن هذه المسيرة المباركة، لما علم من نفاقهم وسؤ نياتهم، تمييزاً لصفِّ المؤمنين من مثل هؤلاء المخذِّلين.

وهذا أمر في غاية الأهمية، ليتخلص الصف المؤمن المجاهد من العناصر المترددة التي تؤثر سلامة الأبدان على نصرة دين الرحمن؛ فوجود مثل هؤلاء في صفِّ المجاهدين الموحِّدين المؤمنين بربهم الواثقين بنصره لأوليائه يحدث خللاً وزعزعةً في الصفِّ المطلوبِ منه أن يكون كالبنيان المرصوص، ولذلك كان من رحمة الله بأوليائه إخراجُ أولئك من الصف المؤمن وإبعادُهم عن مواطن الجهاد، وفضحهم وفضح مخطاطاتهم، حتى يكون المؤمنون بمنأى منهم، وعلى حذرٍ من الاغترار بهم. ولهؤلاء وأمثالهم سوابقُ في تاريخ الجهاد الإسلامي؛ ففي غزوة أحد رجع عبد الله ابن أبيّ ومن معه منذ بداية الطريق. وفي غزوة الأحزاب كانوا يستأذنون الرسول للعودة إلى المدينة ويقولون: إن بيوتنا عورة، فكذبهم الله وكشف حقيقة أمرهم فقال: ﴿ **وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾ الأحزاب: ١٣ وفي غزوة تبوك فضحهم الله – سبحانه وتعالى – في سورة التوبة وبين صفاتهم، وحقيقة أقوالهم وأفعالهم التي تدعو إلى التخذيل والقعود عن الجهاد في سبيل الله حتى سُمِّيت هذه السورة بالفاضحة. فحريٌّ بمن يسير إلى طريق النصر ألا يصطحب أمثال هؤلاء فإنهم ليسوا لهذا الطريق بأهل.

وبالتفصيل في سرد الآيات عن خبر المخلفين تظهر في هذا المبحث صورتان متباينتان لفريقين كلا منهما يظهر الإسلام، أعني صورة المؤمنين الطائعين المسارعين إلى الخيرات الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل نصرة الدين. وصورة المنافقين المترددين الشاكين الذين يبخلون بأموالهم وأنفسهم ويهابون الموت وما دونه، ويتقاعسون عن المشاركة في الجهاد في سبيل الله، وذلك بسبب ظن السؤ الذي انطوت عليه نفوسهم، وثبَّته الشيطان وزيَّنه في قلوبهم.

وتفصِّل الآيات بعض صفات المتخلفين من الأعراب، ليستفاد منها في تمييزهم وتمييز أمثالهم، وفي معرفة الأسلوب الصحيح للتعامل معهم في ميادين الجهاد، فأعذارهم واهيةٌ كاذبةٌ، ومجاملاتُهم للمؤمنين الصادقين ينبغي أن يفطن لها، فهي تنبعث من طرف اللسان، أما القلوب فهي فارغة خاوية ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾.

والمنافقون ليس لديهم الثقة في استحقاق المؤمنين للنصر، بل في كل معركة مع العدو يظنون بالمؤمنين شرا وأنهم سيهلكون، لأن في طبيعة هؤلاء اختلالٌ في التوازن بين الظاهر والباطن، فلا يستطيعون العيش بأمان في ظل الاستقرار الذي يعيشه المجتمع المؤمن، ولهذا فإنهم يتمنون دائماً هزيمة المؤمنين وهلاكهم، ومع ذلك يحرصون على الظَّفَر بالمزايا المادية العاجلة، ولا ينظرون إلى الجزاء الأخروي. وهم يقلبون الحقائق فتراهم إن منعوا من الجهاد يرجعون ذلك إلى الحسد، ويقولون : بل تحسدوننا، وليتهم عرفوا أيَّ القلوب تحمل الحقد والحسد ! لكنَّ الحقيقة هي أنهم لا

يفقهون أمر الله وشرعه، ولا يفقهون الأحداث والمسائل على حقيقتها، وإنما يدركون فقط القشور الظاهرة والمصالح العاجلة.

ومثل هؤلاء لا بد من اختبارهم وتمحيصهم، حتى تتميز الصفوف ويميز الله الخبيث من الطيب، فيوضعون في المواقع الصعبة، ويُختارون للمواقف الشديدة، فإن كانوا صادقين ثبتوا، وإن تولَّوْا فقد ظهرت نواياهم وانكشفت حقيقتهم. وهذا بخلاف من كان صادقاً وراغباً في الجهاد ولكنه لا يستطيعه، بسبب ما قدر الله عليه من عمىً أو عرجٍ أو مرضٍ فإنَّ هؤلاء معذورون.

وفي معرض الحديث عن المخلفين وذكر قصَّتِهم في تخلفهم عن الخروج مع النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى مكة وردت آياتان محكمتان وهما قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾ قال الشوكاني –رحمه الله-: " هذا الكلام مستأنفٌ من جهة الله – سبحانه- غيرُ داخلٍ تحت ما أمر الله – سبحانه- رسولَه أن يقوله."(١)

إنَّ هذه هي طبيعة القرآن في ذكره الأحداث والقصص، لا يذكرها سرداً بتفاصيلها جملةً واحدةً، فليست الأحداث هي المقصودة لذاتها، بل المقصود الأهمُّ هو العبرة والهداية، ولهذا تأتي هذه الآيات في معرض آيات الحدث، ويظن القارئ أو السامع لأوَّل وهلةٍ بأنها معترضةٌ ليست ذاتَ صلةٍ بالسِّياق، حتى إذا تدبَّر ما قبلها ومابعدها أدرك أنها مقصودةٌ في هذا الموضع بالذات لغرضين: غرضٍ خاصٍّ بالحدث

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ٤٨

وهو تخويفهم لعلهم يرجعون إلى الحق، وغرض عام وهو تقرير حقيقة مهمة من حقائق الجزاء في هذا الدين، يأخذ منها الناس العبرة والموعظة ويستفيد منها المؤمنون الثبات على الهدى والإيمان في كلِّ حين وآن. ففيها تحذير من الكفر والنفاق، ومفهومه حثٌّ على الإيمان بالله والثبات عليه، للفوز بالجنة والنجاة من النار، وفيها شرط الاعتراف بالرّبوبية لله – سبحانه وتعالى– الذي له ملك السموات والأرض، فيشعر ذلك بقدرته العظيمة على المغفرة والعذاب وكلاًّ منهما عائد على مشيئته.

فورود هاتين الآيتين في معرض الحديث عن المنافقين المتخلفين، يعدُّ محطة توقُّفٍ للتدبُّر والتأمل والمراجعة، فقد اشتملت على بيان حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر، وأن ماتردد بينهما من النفاق الاعتقادي كفرٌ مآلُ صاحبه النارُ، لكنَّ هذا النوع من الكفر يُجَاهد بالقرآن كما قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ الفرقان: ٥٢ ولذلك نجد في ظلال الآيات أنه مع التهديد والوعيد الشديد الذي يقرع النفوس الغافلة ويزجرها، تبرق بارقة الأمل بالمغفرة للتائبين ترغيباً لهم في التوبة والعودة إلى الحق، فيتسلل الرجاء إلى القلوب المريضة ترياقاً شافيا، ليحييها بوابل المغفرة إن صدقت مع ربها، فلا تيأس من رحمة الله وعفوه، وبهذا تستبين الحكمة من إنزال القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ البقرة: ١٨٥ .

وما ذكرته في هاتين الآيتين، يكثر مثله في القرآن الكريم مما يقول عنه بعض المفسرين بأنه آية معترضة، فليس المعنى استغناء السياق عنها لو حذفت، كما هو المعلوم في الجملة الاعتراضية في كلام البشر، والتي تعتبر إيضاحاً لبيان المراد من اللفظ أو الألفاظ التي قبلها، لأن مثل هذه الآيات إنما تربط المعاني في السياق بالذكرى،

وتخاطب القلوب، وهي وإن لم يكن أسلوبها في الظاهر أسلوب الخطاب إلا أنها موجهة للقارىء والمستمع لهذه الآيات سواءً كان ذلك حين النزول في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– أو بعده. وبهذا يتضح أن لمثل هذه الآيات فائدتين بليغتين كما تقدم، وعلى القارئ أو السامع بعد أن يتأمل جزءاً من الآيات يختص بحدث أو قصة، أن يقف قليلاً ليتدبر دلالات الهداية، ثم يعود إلى سياق الآيات، لا لقراءة حدث قد ولى، ولكن للاستفادة من منارات الرحمة والهدى، وعلامات الموعظة والشفاء.

* **ومن دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس** الرضا عن المبايعين على الجهاد، لأن سرعة استجابتهم لتلك البيعة وعدم ترددهم[١] ينبئ عن استعدادهم وتضحيتهم لنصرة الدين وحبهم لظهوره، ولذلك وعدهم ربهم بالأجر العظيم وكرّمهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾.

ومنها فضح المنافقين والحزم في التعامل معهم حتى لا ينخدع بهم المؤمنون الصادقون في ميادين الجهاد. ومنها تربية ضعيفي الإيمان وامتحانهم، حتى يزدادوا يقينا بنصر الله إن كانوا صادقين.

(١) وقد بايعوا جميعاً عدا الجد بن قيس فقد روى الإمام مسلم في صحيح أن جابر – رضي الله عنه– سئل كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال: كنا أربع عشرة مائة، فبايعناه، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، فبيعناه، غير جد بن قيس الأنصاري، اختبأ تحت بطن بعيره [صحيح مسلم، كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، ص٧٧٥ رقم: ١٨٥٦]

ومنها بيان المعذورين في الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، حتى ينكشف أمر مختلقي الأعذار.

ومنها بيان أن الجهاد في سبيل الله يجب أن يكون صادرًا عن طاعة الله ورسوله. كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وكما قال في الآية التي بعدها :﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات :

في أيام الحديبية بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عثمان –رضي الله عنه- إلى أهل مكة ليخبرهم أن النبي – صلى الله عليه وسلّم- لم يجيء للقتال وإنما جاء لأداء العمرة، فتأخر عثمان – رضي الله عنه- وأشيع أنه قد قتل، فدعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- الصحابة لمبايعته على القتال، فبايعوه تحت الشجرة، تلك البيعة المباركة التي عرفت ببيعة الرضوان. فبدأت الآيات في هذا المقطع بإشارة سريعة إلى فضل هؤلاء المبايعين الذين بايعوا الرسول – صلى الله عليه وسلم- على القتال وعدم الفرار حتى النصر أو الموت في سبيل الله، فأثنى عليهم ربهم بأنهم بهذه البيعة إنما يبايعون الله لأن ذلك كان بأمره ووحيه ونصرةً لدينه، ولأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، وأثنى عليهم ثانية بقوله: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهذا على الحقيقة، فهو معهم في هذه المبايعة بعلمه ورعايته وتأييده، ووعَدهم ووعَد كلَّ من وفَّى بعهده مع الله في الجهاد نصرةً لدينه بأن يؤتيه أجراً عظيماً. وأبلغُ هذا الأجر

رضوانهُ – عز وجل- عنهم، ودخولهم الجنة منعَّمين، ورؤية وجهه الكريم -سبحانه وتعالى-. وفي المقابل فإن من نقض عهده مع الله، ولم يجاهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين، فإنَّما يعود وبالُ ذلك عليه، فيخسر الثواب العظيم ولا يسلم من العذاب الأليم. وهذه كالمقدمة التي تشوّق المؤمنين لسماع تفاصيل البيعة التي ترد فيما بعد، وهذا يتكرر في القرآن الحكيم إذ يُذكر الحدثُ موجزاً بأهمِّ مافيه، ثم يَرِدُ بقدرٍ معلومٍ من التفصيل بعد ذلك. وإنَّما أقول هذا خلافاً لمن ظنَّ أن البيعة هنا عامَّة، وليست هي بيعة الرّضوان.(١) بل هي بيعة الرّضوان وهو الذي يقوله عامّة المفسِّرين ويتوافق تماماً مع التَّناسق الموضوعي في السُّورة، والفعل ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ إنما يدل على الحاضر وليس الماضي. وقد أشارت الآية الكريمة إلى نقض العهد الذي حصل من المخلفين من الأعراب، ثم تلتها بقية الآيات تفصل في الأسباب المدّعاة والأسباب الحقيقية لهذا التخلف، وما ترتب عليه من كشف حقيقتهم وفضح مكنون قلوبهم. فقد أطلع الله - سبحانه وتعالى- نبيَّه – صلى الله عليه وسلم- على الأعذار التي سيقولونها له، إذا لقيهم أو سألهم عن ذلك، قبل أن يقولوها، فسبحان من ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ غافر: ١٩ !

إنهم سيعتذرون بعذرٍ باردٍ؛ بالأموال والأهلين على وجه المصانعة، ولا ينتظرون سماع الرَّدِّ على هذه الأعذار الكاذبة، بل يحاولون كذباً وزوراً أن يؤيِّدوا كذبهم بكذب آخر، وهو طلب الاستغفار ليوحوا للسامعين بأنهم مقرون بذنبهم، وكأنهم يغصون من ألم الندامة والحسرة على ما فعلوا، فيأتي الجواب الصادق القوي ممن ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ ٣ ص ٢٢١

وَأَخۡفَى ﴾ طه: ٧ بأنهم كاذبون. ﴿ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾، ثم إذا انكشفت الحقيقة للنبي – صلى الله عليه وسلم – فإن الجواب ليس في أن يقول لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : إنكم كاذبون، ولكن في ردّهم إلى حقيقة إيمانية كبرى تتكون من فرعين الأول : أن من توحيد الربوبية لله – إن كنتم صادقين – أن تعلموا بأن النفع أو الضر لا يقع على العبد إلا بإرادة الله ومشيئته، والثاني : أنه سبحانه خبير بكل أحوال الخلق لا تخفى عليه خافية. وهاتان الحقيقتان لا تعالج مسلكاً خاصاً بهذه الحادثة في نفوسهم، بل تبقى للجادِّ منهم حقيقةً ناصعةً ماثلةً أمام عينيه في حال كل صغيرة وكبيرة يريد أن يخدع بها المؤمنين، فانظر كيف تسري آيات الله في مسارب النفس ومنعطفاتها لتعالجها العلاج الشافي وتمنحها البلسم الراقي، ولكن أكثر الناس عن آيات الله غافلون.

ومن علاج المخادعين الذين يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا، كشفُ أمرهم بصرامةٍ وقوة، ورميُ حقيقة خداعهم في وجوههم، حتى يعرفوا قدرهم، ويفتضح حالُهم، ويتبدَّدَ مايدَّعونه من الذكاء والمكر، ويقال لهم: ﴿ بَلۡ ﴾ للإضراب على كلامهم وادِّعائهم الباطل، ثم يقال لهم مايعلمون: إنكم ظننتم أن لن يعود الرسول والمؤمنون إلى أهليهم بالمدينة، وأنهم سيقتلون جميعاً، وأن الله لن ينصر دينه ورسوله، وقد زرع الشيطان هذا الظن وزينه في قلوبكم فاتبعتموه، لأنكم والحال هذه لا يرجى منكم خير.

ثم عقب بعد ذلك ببيان مآل كل من لا يؤمن بالله ورسوله من الكافرين والمنافقين وأنه النار التي هيئت لتعذيبهم ومجازاتهم على كفرهم، وببيان أن ملك

السماوات والأرض لله وحده لا شريك له يتصرف في ملكه كما يشاء، فيغفر لمن يشاء من عباده فضلاً منه ومنَّةً ورحمةً وإحساناً، ويعذب من يشاء من عباده بعدله ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ الكهف: ٤٩ فهو كان ولم يزل كثير المغفرة والرحمة لمن استغفره وأناب إليه. وذلك لأنَّ "القرآن لا يكتفي بحكاية المخلفين والردِّ عليها؛ ولكنَّه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهواجس القلوب، والتَّسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها. ثمَّ لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك."(١)

وقد أكرم الله أهل الحديبية - بعد أن بذلوا أنفسهم نصرةً لله ورسوله، وعادوا إلى المدينة دون أن تقرَّ أعينُهم بالطواف بالبيت العتيق وأداء العمرة - بغزو خيبر، ووعدهم بالغنائم وجعلها خالصةً لهم، لا يشاركهم فيها غيرهم. فلما علم المخلفون من الأعراب بذلك، وأن الخروج إلى خيبر لا قتال فيه، وسيحصل فيه أهل الحديبية على المغانم أضمر المخلفون في قلوبهم أن يطلبوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخروج معه لنيل الغنائم. فأخبره ربُّه بذلك ﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ ﴾ ثم عقب على قولهم هذا بأنهم يريدون أن يبدِّلوا كلام الله؛ بأن غنائم خيبر خاصَّةٌ لأهل الحديبية، لا يخرج إليها معهم أحدٌ ليس منهم، وأرشده إلى الجواب حينما يطلبون ذلك فقال له: ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ بهذا الإيجاز الذي يغلق باب الحوار معهم في هذه المسألة، وأضاف

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٢١

﴿ كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ ﴾ بأنكم لا تستحقّون هذه الغنائم وقد تخلفتم عن الخروج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أخبره بما سيجيبون حينئذٍ : ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ ﴾ وكأنهم يردون كلام الله وحكمه بأن هذه الغنائم مكافأةٌ لأهل الحديبية فقط دون غيرهم، وما ذاك إلا لأنهم لا يفهمون حقيقة الدين التي تستلزم كمال الطاعة والخضوع لأمر الله ورسوله.

ثم منحهم ربُّهم بلطفه ورحمته فرصةً أخرى إن كانوا صادقين، وهي أنهم سيدعون إلى قتال قومٍ هم أهل قوة وحنكة في الحروب، وسيطلب منهم أن يقاتلوهم أو يسلمون، فلا يصالحوهم ولا يكفوا عن قتالهم إلا إذا أسلموا أو أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. فإن أطاعوا وقبلوا هذه الفرصة المتاحة لهم وشاركوا في القتال طاعة لله - عز وجل — ونصرةً لدينه، فقد وعدهم الله بأن يكافئَهم بالثواب الحسن في الدنيا والآخرة، وإن أعرضوا كما أعرضوا من قبل في تركهم الخروج مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة فإن الله سوف يعذبهم عذاباً مؤلماً وشديداً.

ثم ذكر المعذورين في التخلف عن الجهاد وهم الأعمى والأعرج والمريض، وبين أنه لا يلحقهم إثم في ذلك، ثم ختم هذه الآية بما يصلح أن يكون ختماً لآيات المبحث كله، التي تحدثت عن الطائعين المستجيبين لنداء الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الخروج إلى مكة، والمستجيبين لمبايعته على الجهاد في سبيل الله حتى النصر أو الشهادة، وفصَّلت الحديث عن الفريق الآخر الذي لم يفِ بعهده مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولم يخرج معه، بل اختلق المعاذير الكاذبة النابعة من الظنون الفاسدة، وذكرت الحوار معهم الذي يعيدهم إلى الحق ويرغبهم فيه،

وبينت الفرصة التي أُعطيت لهم، ليفيقوا من غفلتهم ويصدقوا مع ربهم ويجددوا العزم على التوبة والمغفرة، وبينت ثوابهم إن أطاعوا و أحسنوا وعقابهم إن تولوا وأفسدوا. وبعد ذكر المستثنَين وهم أهل الأعذار، جاء ختام المقطع بالتأكيد مرة أخرى على الجزاء الحسن للمطيعين المجاهدين والعذاب الأليم للعصاة المعرضين فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾.

المطلب السادس : أهمُّ ما ترشد إليه الآيات :

١- بيان فضل المبايعين لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- في الحديبية على الجهاد.

٢- إثبات صفة اليدين لله – عز وجل– على ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل، كما في قوله تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ المائدة: ٦٤.

٣- وجوب الوفاء بالعهد.

٤- بيان أن نقض العهد تؤول نتائجه الوخيمة على صاحبه.

٥- الوعد بالأجر العظيم للموفين بالعهد.

٦- ليس في الاشتغال بالمال والأهل عذر عن القيام بالواجبات الشرعية، بل هو محل الذم.

٧- الاستغفار والدعاء الذي يرجى قبوله ما كان بحضور القلب، وليس من طرف اللسان مع قلب ساهٍ.

٨- إثبات اسم الله " الخبير "، وهو المطلع على الأمور الخفية من مكنون الضمائر ولطائف الأمور ودقائق الأشياء. والعلم اليقيني بذلك يزيد في مراقبة العبد لربه، وتقواه.

٩- تحريم ظن السوء وأنه من صفات المنافقين.

١٠- إن ظن السوء بالله، أو برسوله أو بسنته وهديه، أو بدين الإسلام عموماً طريق لفساد صاحبه وهلاكه.

١١- إن حب انتصار الكافرين على المسلمين من نواقض الإسلام.

١٢- كل من لا يؤمن بالله - عز وجل - ومات على ذلك فإن مصيره جهنم وبئس المصير.

١٣- إن الله - سبحانه وتعالى - يغفر لمن يشاء من عباده بفضله، ويُعذب من يشاء بعدله.

١٤- إثبات اسم الله " الغفور " المتضمن صفة المغفرة، وإذا علمنا ذلك علم اليقين حسن بنا أن نكثر من الاستغفار، وأن نعرض أنفسنا لأسباب المغفرة.

١٥- إثبات اسم الله " الرحيم " المتضمن صفة الرحمة، وإذا علمنا ذلك علم اليقين حسن بنا أن نتراحم فيما بيننا، وأن نعرض أنفسنا لأسباب الرحمة.

١٦- من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، بخلاف من جاهد بغرض الحصول على الغنائم.

١٧- ذمُّ الجهل وقلَّةِ الفهم في الدِّين.

١٨- بيان أنَّ المنافقين قد يفقهون بعض أمور الدنيا، لكنَّ فقههم لشرع الله القويم ضعيفٌ جدّاً.

١٩- "مشروعية الاختبار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات."(١)

٢٠- إذا استنفر الإمام الناس للجهاد، أو هجم العدو على بلادهم وجب عليهم الخروج ولو لم يكن العدو ذا بأسٍ شديدٍ. قال ابن تيمية - رحمه الله -: "إذا

(١) أيسر التَّفاسير جـ٥ ص ١٠٥

فرض عليهم الإجابة والطاعة إذا دعوا إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ، فلأن يجب عليهم الطاعة إذا دعوا إلى من ليس بذي بأسٍ شديدٍ بطريق الأولى والأحرى."[١]

٢١- وجوب طاعة الله ورسوله والحذر من الإعراض والعصيان.

٢٢- من سنن الله في خلقه نصرة الحقّ وأهله وخذلان الباطل وأهله.

٢٣- يستدلُّ بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على وجوب الجهاد مع كل أميرٍ دعا النَّاس إليه، برّاً كان أو فاجراً -فيما أمر الله به ورسوله- لأنه ليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ الدَّاعي إمامٌ عادلٌ.[٢]

٢٤- يستدلُّ بقوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ على عدل الخلفاء؛ لأنه وعد بالأجر الحسن على مجرَّد الطاعة إذا دعوا إلى القتال، وجعل المتولي عن ذلك كما تولى من قبل معذباً عذاباً أليماً.[٣]

٢٥- رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في الخروج للجهاد في سبيل الله.

---

(١) منهاج السنة جـ٨ ص ٥٠٩

(٢) المصدر السابق جـ ٨ ص ٥١٨

(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٥٠٩

المبحث الخامس

الموضوع الخامس : (الوعد بالأجر العظيم لمن نصر الدين، والبشارة بانتصار المؤمنين على الكافرين) ويشمل الآيات (١٨-٢٦)

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها.

المطلب الثاني : أسباب النزول :

١- ما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

٢- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

٣- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الخامس

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات.

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات.

المبحث الخامس

الموضوع الخامس : (**الوعد بالأجر العظيم لمن نصر الدين، والبشارة بانتصار المؤمنين على الكافرين**).

قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا
﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ
لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الفتح: ١٨ – ٢٦

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها :

لما بين الله - سبحانه وتعالى – في الآيات السابقات ما وعد به المطيعين، وما توعَّد به العصاة، وكانت النّفوس إلى الوعد أشدُّ التفاتاً، دلَّ عليه بثواب عظيم. فقد افتُتِح هذا المقطع بتأكيد ما افتُتح به المقطع السَّابق من ذكر الثواب العظيم للمؤمنين المبايعين تحت الشجرة، والشهادة لهم بالإخلاص والصِّدق، **وإيثار ما يريد من إعلاء دينه وإظهاره بذلك الفتح المبين.**

ولما ذكر الفتح ثنَّى بذكر بعض ثمراته، مثل مغانم خيبر ومغانم كثيرة يحصلون عليها في المستقبل، ومنها كفُّ الناس عنهم رحمةً منه وجزاءً لتقواهم، ومنها تقوية عزائمهم حيث طمأنهم بالنصر في حالة القتال لوكان، فقال – سبحانه -: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ مبيِّناً لهم أنَّ نصره لأوليائه سنةٌ لا تتغيَّر.

ثمَّ ذكرت الآيات بعض أحداث الحديبية، حيث صدَّ الكفارُ المؤمنين القادمين للاعتمار ومعهم الهدي عن بيت الله الحرام ظلماً وعدواناً، ولكنَّ الله صرف القتال عنهم بسبب وجود بعض المؤمنين والمقيمين مع الكفار بمكة ممن يصعب

تمييزهم والاحتراز من قتالهم وأذاهم، ولعلمه سبحانه بأنه سيؤمن أناس من المشركين. وذكرت الآيات ما انطوت عليه قلوب المشركين من حميَّة الجاهلية، حيث أنفوا عند كتابة الصلح، من الإقرار بالبسلمة وبالرسالة وتكبروا عن كلمة التقوى، التي أكرم الله بها عباده المؤمنيين ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾. وكلُّ ذلك قد تمَّ بعلم الله وحكمته سبحانه.[١]

(١) انظر نظم الدرر جـ ١٨ص ٣١٥

المطلب الثاني : أسباب النزول :

*** ما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾**

أخرج الطبري عن إياس بن سلمة[١]، قال: قال سلمة[٢]: بينما نحن قائلون زمن الحديبية؛ نادى منادي رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أيها الناس: البيعةَ البيعةَ، نزل روح القدس– صلوات الله عليه– قال: فثُرْنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهو تحت شجرة سمرة. قال: فبايعناه، وذلك قول الله: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾. وقد ذكره السيوطي في أسباب النقول وهو ضعيف. [٣]

*** سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾**

وقد وردت في ذلك أربع روايات وهي كالتالي :

---

(١) إياس بن سلمة: هو إياس بن سلمة الأكوع الأسلمي، ثقة وله أحاديث كثيرة توفي سنة تسع عشرة ومائة، وهو ابن سبع وسبعين سنة [تهذيب التهذيب، جـ١ ص٣٨٨].

(٢) سلمة بن الأكوع: هو الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع –رضي الله عنه– واسم الأكوع سنان بن عبد الله . أول مشاهده الحديبية وكان من الشجعان وكان يسبق الفرس عدوا؛ بايع النبي –صلى الله عليه وسلم– عند الشجرة على الموت مات بالمدينة سنة أربع وسبعين على الصحيح. [الإصابة جـ٢ ص٦٦ رقم ٣٣٨٩].

(٣) جامع البيان جـ٢١ ص٢٧٤ وانظر لباب النقول للسيوطي: ١٩٣ والحديث فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف، انظر :

أ- عن المسور بن مخرمة ومروان يصّدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق ... وفيه : " فجعل لا يخرج منْ قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشّام إلّا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي – صلّى الله عليه وسلّم- تناشده الله والرّحم لما أرسل: فمن أتاه فهُوَ آمن، فأرسل النبي – صلّى الله عليه وسلّم- إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وكانت حميّتهم أنّهم لم يُقرّوا أنّهُ نبي الله ولم يُقرّوا بسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت.

ب- عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلّم – من جبل التنعيم[١] متسلحين يريدون غرة النبي – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فأخذهم سلماً، فاستحياهم، فأنزل الله – عز وجل- :

(١) التنعيم: هو موضع بمكة في الحلّ،شمال غربي مكة على قرابة ٢٠ كيلاً، به مسجد عائشة — رضي الله عنها — ومنه يحرم المكيّون بالعمرة. انظر: معجم البلدان جـ ٢ ص٤٩ ومعجم المعالم الجغرافية ص٦٥

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾.[١]

ج- وفي رواية أخرى عن إياس بن سلمة، حدثني أبي قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، قال: فقعد رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - على جبا الرّكيّة،[٢] فإمّا دعا وإمّا بصق فيها، قال: فجاشت فسقينا واستقينا، قال: ثم إنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- دعانا للبيعة في أصل الشجرة، قال: فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط من الناس قال: " بايِع يا سلمة "، قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس، قال: " وأيضا " قال: ورآني رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- عزلا (يعني ليس معه سلاح) قال: فأعطاني رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- حَجفَةً أو دَرقةً،[٣] ثم بايع، حتى إذا كان في آخر النّاس قال: " ألا تبايعني يا سلمة ؟!" قال: قلت: قد بايعتك، يا رسول الله في أول النّاس، وفي أوسط النّاس، قال: " وأيضا " قال: فبايعته الثالثة، ثم قال لي: " يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ " قال: قلت: يا رسول الله،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ رقم: ١٨٠٧، وانظر مسند الإمام أحمد جـ ١٩ ص٢٥٨ رقم: ١٢٢٢٧ و أسباب النزول للواحدي ص٢٥٦

(٢) جَبَا الرَّكِيَّة: هي ماحول البئر، والمشهور في اللغة ركى بغير هاء، ووقع هنا الركية بالهاء وهي لغة حكاها الأصمعي وغيره. انظر: [صحيح مسلم بشرح النووي، يحي بن شرف النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها- القاهرة، بدون تاريخ.] جـ١٢ ص ١٧٥

(٣) حَجَفة أو دَرَقة: هما شبيهتان بالترس [المصدر السابق]

لقيني عمّي عامرٌ[١] عَزِلاً فأعطيته إيّاهَا، قال: فضحك رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وقال: " إنّك كالّذي قال الأول: اللهم أبْغِنِي حبيبًا هُو أحبُّ إليّ من نفسي". ثم إنّ المشركين راسلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا، قال: وكنت تبيعًا لطلحة بن عبيد الله،[٢] أسقي فرسه، وأحُسّه،[٣] وأخدِمُه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي، مهاجرًا إلى الله ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم-، قال: فلمّا اصطلحنا نحن وأهل مكّة، واختلط بعضنا ببعضٍ، أتيتُ شجرةً فكسحت شوكها، فاضطجعتُ في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكّة، فجعلوا يقعون في رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، فأبغضتُهُم فتحولتُ إلى شجرةٍ أخرى، وعلّقوا سلاحهم، واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مُنادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين قُتِل ابن زُنَيْم،[٤] قال: فاخترطتُ سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذتُ سلاحهم، فجعلتُهُ ضِغْثًا في يدي، قال ثم قلت: والذي كرم وجه مُحمدٍ لا يرفع أحدٌ منكم

---

(١) عامر: هو عامر بن سنان بن عبد الله بن بشير الأسلمي، المعروف بابن الأكوع عمّ سلمة بن الأكوع واسم الأكوع سنان، ويقال أخوه، توفي في غزوة خيبر [الإصابة جـ٢ ص ٢٥٠ رقم: ٤٣٩٣]

(٢) طلحة بن عبيد الله: هو الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي -رضي الله عنه-، أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر وأحد الستة أصحاب الشورى، رمي يوم الجمل في ركبته فما زال الدم يسيح حتى مات سنة ست وثلاثين من الهجرة. [الإصابة جـ٢ ص ٢٢٩ رقم: ٤٢٦٦]

(٣) أحسُّه: أنظّفه. قال النووي: أي أحك ظهره بالمحسّة لأزيل عنه الغبار ونحوه. [صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٢ ص ١٧٦]

(٤) ابن زُنيم: في الإصابة (زنيم) غير منسوب. قال الطبري له صحبة ونقل عن عبد بن حميد في تفسيره أنه صاحب القصة في الحديبية. ثم علّق الحافظ ابن حجر بقوله: لكن في مسلم من حديث سلمة بن الأكوع أن المقتول ابن زنيم [جـ١ ص ٥٥٢ رقم: ٢٨١٩]

رأسه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقُهُم إلى رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم–، قال: وجاء عمّي عامرٌ برَجُلٍ من العبلات[١] يُقال له مِكْرَزٌ يقوده إلى رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– على فرسٍ مُجفّفٍ[٢] في سبعين منْ المشركين، فنظر إليهم رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– فقال: "دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه" فعفا عنهم رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– وأنزل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية كلها[٣]

د- عن عبد الله بن مُغَفَّل المزني، قال: كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وعليٌّ ابن أبي طالب، وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعليّ – رضي الله عنه – : (اكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم" فأخذ سهيل بن عمرو بيده، فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: "اكتب: باسمك اللهم". فكتب: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أهل مكّة" فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: "اكتب هذا ما صالح عليه محمد

---

(١) العَبَلات: قسم من قريش وهم أمية الصغرى والنسبة إليهم عبلى تردّه إلى الواحد، لأن اسم أمهم عبلة بنت عبيد. [صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٢ ص ١٧٧]

(٢) مجفّف: أي عملية تجفاف – بكسر التاء – وهو ثوب كالجل يلبسه الفرس ليقيه من السلاح وجمعه تجافيف. [صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٢ ص ١٧٧]

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها. رقم: ١٨٠٧

بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله" فكتب. فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فأخذ الله – عز وجل– بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "هل جئتم في عهد أحدٍ؟ أو هل جعل لكم أحد أمان؟ " فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فأنزل الله — عز وجل–: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾.[١]

والأحاديث السابقة كلها صحيحة وصريحة، وقد وردت في حادثتين متغايرتين؛ فرواية البخاري في شأن أبي بصير –رضي الله عنه–، وروايتا مسلم في شأن القوم الذين أرادوا قتل النبي – صلى الله عليه وسلم– غرّة، وكذلك رواية الإمام أحمد[٢].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح بعد قوله في الحديث فأنزل الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾: كذا هنا، وظاهره أنها نزلت في شأن أبي بصير، وفيه نظر، والمشهور في سبب نزولها ما أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع، ومن حديث أنس بن مالك أيضاً، وأخرجه أحمد والنسائي[٣] من حديث عبد الله بن

(١) مسند الإمام أحمد جـ٢٧ ص٣٥٤ رقم: ١٦٨٠٠ وقال عنه محققو المسند: حديث صحيح.

(٢) الإمام أحمد: هو إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة المتبوعين صاحب المسند نصر الله به السنة، ونصره بها في محنة القول بخلق القرآن، توفي سنة واحد وأربعين ومائتين [انظر سير أعلام النبلاء جـ١١ ص ١٧٧]

(٣) النسائي: هو الإمام الحافظ الثبت، شيخ الإسلام، ناقد الحديث أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، صاحب السُّنن، كان من بحور العلم، توفي بفلسطين سنة ثلاث وثلاثمائة [انظر سير أعلام النبلاء جـ١٤ ص١٢٥]

مغفل بإسنادٍ صحيحٍ أنها نزلت بسبب القوم الذين أرادوا من قريش أن يأخذوا من المسلمين غرةً فظفروا بهم، فعفا عنهم النبي- صلى الله عليه وسلم- فنزلت الآية، وقيل في نزولها غير ذلك". [١]

وعقّب مقبل الوادعي[٢] - رحمه الله - على كلام الحافظ ابن حجر بقوله: "ويؤيد ما قاله الحافظ رحمه الله أنه في الآية ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾، وأبو بصير وجماعته لم يكونوا ببطن مكّة، والله أعلم"[٣] وقد ورد عن أنس وقتادة: بأنَّ بطن مكّة: الحديبية.[٤] وقد يكون ذلك من تعدّد أسباب النزول للآية لأن الحادثتين متقاربتان زمناً ومكاناً ويصحّ السبب فيهما جميعاً، والجمع بين الأحاديث الصحيحة أولى من الأخذ ببعضها دُون بعض، خصوصاً وأنّ ما يراه الحافظ مرجوحاَ هو الأعلى رتبةً، وقد تكون الرواية الأولى على وجه العموم، أي أنَّ صلح الحديبية الذي تضمَّنت شروطه عدم القتال بين الفريقين كان هو سبب الكفّ، فتكون بهذا أقرب إلى التفسير منها إلى أسباب النزول، بينما الروايات الباقية فيها تخصيص بحوادث معينة وقعت في الحديبية، موضوعها أن نفراً من كفار قريش أرادوا أن يأخذوا من المسلمين غرة فظفروا بهم وعفا عنهم النبي – صلى الله عليه وسلم - واختلاف العدد فيها يدلّ

---

(١) فتح الباري جـ٥ ص٣٥١

(٢) مقبل الوادعي: هو مقبل بن هادي بن مقبل الهمداني الوادعي من علماء اليمن المعاصرين، حصل على الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، له الصحيح المسند من أسباب النزول، وتحقيق تفسير ابن كثير ولم يتمّه وغيرها من الكتب، توفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وألف. انظر [كتاب تذكير النابهين بسير أسلافهم حفاظ الحديث السابقين واللاحقين، د. ربيع بن هادي المدخلي وهو ضمن مجموع كتب ورسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي، دار الإمام أحمد، ١٤٣١هـ] جـ٣ ص٤٠٨

(٣) الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة المعارف- الرياض ١٤٠٠هـ ص ١٤٧

(٤) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٢٩٠ و زاد المسير جـ٧ ص٤٣٨

على أنها محاولاتٍ مختلفةً لغرضٍ واحد. فأنس وسلمة وعبد الله بن مغفل – رضي الله عنهم – كلٌّ منهم حدَّث بالقصة التي شهدها. والله أعلم !

*** سبب نزول قوله تعالى :﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ :**

عن أبي جمعة جنيد بن سبع[1] قال: قاتلت النبي - صلى الله عليه وسلم- أوّل النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وكنّا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا نزلت: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ .... الآية ﴾.[2] وهذه الصيغةُ محتمَلةٌ، وليست صريحةً في سبب النزول.

---

(١) جنيد بن سبع: مشهور بكنيته أبو جمعة الأنصاري صحابي جليل أسلم أيام الحديبية وكان في الصحابة الذين شهدوا فتح مصر، ذكره البخاري في فضل من مات بين السبعين إلى الثمانين. [الإصابة جـ٤ ص٣٣ رقم: ١١٩]

(٢) قال السيوطي: أخرجه الحسن بن سفيان، و أبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن قانع والباروديّ، والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم بسند جيد [الدر المنثور جـ ص] وقال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات [مجمع الزوائد جـ٧ ص١٠٧] والحديث في [مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن هلال الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق ١٤٠٤هـ جـ٣ ص ١٢٩رقم:١٥٦٠] قال محققه: رجاله ثقات وانظر [المعجم الكبير، سليمان بن أحمد اللخمي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ١٤١٥هـ] جـ٤ ص ٢٤ رقم: ٣٥٤٣ وفيه: وكنا ثلاث رجال وتسع نسوة. وقد أورده السيوطي في لباب النقول ص١٩٤

المطلب الثَّالث : الدراسة التحليلية للآيات في ضوء التناسق الموضوعي :

من خلال الدِّراسة التَّحليلية للآيات سأكتفي بذكر المسائل التَّالية :

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ للآية قبلها :**

سبق أن ذكرت سبب نزول هذه الآية في المطلب الثاني من هذا المبحث. أما مناسبتها لما قبلها فإنه لما قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وجعل طاعة الله والرسول سبباً لدخول الجنة، بيَّن في هذه الآية أنَّ أهل بيعة الرضوان قد أطاعوا الله والرَّسول فأثابهم بدخول الجنة؛ أما طاعة الله فقد أشار إليها بقوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأما طاعة الرسول فقد بيَّنها بقوله: ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وأما دخول الجنة فدليله رأس الآية ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنَّ رضا الله يقترن بدخول الجنة في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ المجادلة: ٢٢ [(١)]

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٧٩

فرضوان الله سابقٌ لدخول الجنَّة ولاحقٌ له؛ فمن رضي الله عنه ولم يغيِّر، وبقي على العهد والوفاء حتى مات أدخله الله الجنَّة، ومن يدخله الجنة يحلُّ عليه رضاه فلا يسخط عليه أبداً، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – قال: " إنَّ الله – تبارك وتعالى- يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنَّة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك ؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً." رواه البخاري ومسلم.[١] وقد استدلَّ شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بقوله في الحديث: "فلا أسخط عليكم بعده أبداً." بأن الرضوان في الدنيا موقَّتٌ بوقتٍ، فقال – معلِّقاً على هذا الحديث-: "وهذا يدلُّ على أنَّه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذي لا يتعقَّبه سخطٌ أبداً، ودلَّ على أنَّ غيره من الرضوان قد يتعقَّبه سخطٌ."[٢] وقد مرَّ معنا شهادة الرسول – صلى الله عليهم وسلم – لهم بالجنة. فلله الحمد والمنَّة، ورضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم: ٦٥٤٩ وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً، رقم: ٢٨٢٩

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ٧ ص ٤٤٤

*** المراد بقوله تعالى : ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ :**

يرى أبو السعود[١] – رحمه الله – أنَّ العطف هنا على ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بمعنى بايعوك، لا على ﴿ رَضِيَ ﴾، فإنَّ رضاه تعالى عنهم مترتِّبٌ على علمه تعالى بما في قلوبهم من الصِّدق والإخلاص.[٢] والمعنى حينما بايعوك على الموت كان ذلك تصديقاً وتحقيقاً لما علمه الله في قلوبهم من الإيمان والإخلاص الذي أُكرموا من أجله بالرضوان، فعلم الله سابقٌ لهذا وذاك.

وقد اختلفت أقوال المفسِّرين في تحديد المبهم في الآية على أقوال، بعضها يقرب من بعض في المعنى وبعضها يغرب. وقد لخَّص ابن عطية – رحمه الله – أقوالهم فقال: "قال قومٌ معناه: من كراهية البيعة على الموت ونحوه، وهذا ضعيفٌ، فيه مذمَّة للصحابة – رضي الله عنهم – وقال الطبري ومنذر بن سعيد[٣] معناه: من الإيمان وصحته، والحبِّ في الدِّين والحرص عليه، وهذا قولٌ حسن، لكنَّه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، ... وقال آخرون معناه: من الهمِّ بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر – رضي الله عنه– وغيره.

(١) أبو السعود: هو محمد بن محمد العمادي الحنفي، صاحب التفسير توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعماءة. انظر شذرات الذهب جـ٨ ص٣٩٨

(٢) انظر تفسير أبي السعود جـ ٨ ص ١١٠

(٣) منذر بن سعيد: هو منذر بن سعيد بن عبدالله النَّفْزي البلوطي، كان متفنِّناً في ضروب العلم، حافظاً للقرآن، كثير التلاوة، عالماً بتفسيره وأحكامه،وله كتاب في أحكام القرآن.وكتاب في تفسير القرآن. فهرسة ابن خير الإشبيلى ص ٤٥ و طبقات المفسرين للداوودي جـ ٢ ص ٣٣٦

وهذا تأويلٌ حسن يترتَّب معه نزول السَّكينة ... والسكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصَّبر له."(١)

وقد اعتمد ابن عطية – رحمه الله – في تفسيره لهذه الجملة في الآية الكريمة على الجملة المعطوفة بعدها؛ ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وهذا حسن، أما قوله: "من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه"، ففيه نظر، فإن الله تعالى أنزل السكينة عليهم أجمعين ومعهم رسول الله – صلى الله عليه وسلَّم –كما صرَّح بذلك في قوله سبحانه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ والرَّسول – صلى الله عليه وسلَّم – قد تبوأ أعلى المقامات من الإيمان وصحته، والحبِّ في الدِّين والحرص عليه، فلم يمنع ذلك نزول السّكينة عليه.

علماً بأنَّ نزول السَّكينة على الأنبياء عامَّة، أما على غيرهم من أتباع الرُّسل فخاصَّة؛ أي في وقتٍ دون وقتٍ وحالٍ دون حالٍ.(٢) وما يحدث للنفس من الاضطراب أحياناً حالة نفسية بشرية لا ملامة فيها، وهي تحتاج إلى السكون حتى تعود إلى حالتها الطبيعية، لأنَّ "أصل السكينة هي: الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبدٍ عند اضطرابه من شدَّة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب زيادة الإيمان وقوة اليقين."(٣) وتظهر ثمرتها في الخبر والأمر، فهي

---

(١) المحرَّر الوجيز ص ١٧٣٤

(٢) انظر أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، ابن قيم الجوزية، راجعه : طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة، ١٣٨٨هـ جـ٤ ص٢٠١

(٣) بصائر ذوي التمييز جـ٣ ص ٢٣٨

"الطمأنينة للخبر تصديقاً وإيماناً، وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهةً تعارض الخبر، ولا إرادةً تعارض الأمر."(١)

والذي تطمئنُّ إليه النفس هنا أنَّ ما عَلِمَه الله في قلوبهم أمران، أحدهما: يتعلّق بوصف الحال التي كانوا عليها تجاه المواقف الصعبة التي تعرضوا لها في أحداث الحديبية من الاضطراب والحيرة، والتي أوضحتها الأحاديث النبوية المذكورة في الباب الأول من هذا البحث. وثانيهما: الحال التي أكرموا من أجلها بهذه النعمة العظيمة — أعني إنزال السكينة — وهي ما كانوا عليه من الإيمان والصدق والإخلاص والمحبة لله ورسوله وموافقة الظاهر للباطن. ويوضح هذا ابن القيم — رحمه الله — فيقول: "لما علم الله — سبحانه وتعالى— ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبّتها بالسّكينة رحمةً منه ورأفةً ولطفاً، وهو اللطيف الخبير. وتحتمل الآية وجهاً آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها. **والظاهر أنَّ الآية تعمُّ الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها**."(٢) وهذا الذي قاله ابن القيم(٣) هو أحسن ما قيل في بيان المبهم.والله أعلم!

---

(١) أعلام الموقعين جـ ٤ ص ٢٠٢

(٢) المصدر السابق

(٣) ابن القيّم: محمد بن أبي بكر الزّرعي الدمشقي، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، وحمل علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، صاحب التصانيف الباهرة، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. انظر : شذرات الذهب جـ٦ ص ١٦٨

*** ما الذي أفاده لفظ ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ؟**

أفاد لفظ ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أن السكينة هي الظاهرة الغالبة، فتَغلبُ الخوفَ والاضطراب والكآبة، وقد ظهر أثر ذلك عليهم حيث آثروا القتال ولم يخافوا شرَّ القتال، رغم أنهم لم يستعدوا له وكانوا قلةً أمام أعدائهم، بل سارعوا إلى البيعة طائعين مختارين، محبَّةً لله ورسوله، **وإيثاراً لإظهار الدين وإعلانه.**

وما آثروا الصلح بما يتراءى فيه من الضعف وغيره من مخايل النقص في قلوبهم في ذلك الموقف الضنك إلا عندما رأوا صدق عزيمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومضيَّ أمره في ذلك بما يفعل ويقول.(١)

*** المراد بالفتح في قوله تعالى : ﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ :**

قال ابن كثير – رحمه الله– في تفسير هذه الآية: "هو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ."(٢) يعني بذلك صلح الحديبية، ولكن هذا لا يتوافق مع التناسق الموضوعي في الآيات، فقد ذكر الله موقف الصحابة – رضي الله عنهم– من البيعة و أكرمهم بالرضوان وامتن بإنزال السكينة عليهم، ثم وعدهم بفتح قريب مكافأةً وتعويضاً فقال: ﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ فلابد أن يكون هذا الفتح غير الفتح المذكور في مقدمة السورة، والذي قد تبين لنا فيما سبق أن المراد به صلح الحديبية، الذي وردت بعض أحداثه في ثنايا السورة، خصوصاً وأنَّ السورة نزلت بعد انتهاء الصلح المذكور في طريق عودتهم إلى المدينة كما تقدم.

(١) انظر نظم الدرر جـ ١٧ ص ٣١٦

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٤٠

واختار الطبري –رحمه الله– أن المراد بهذا الفتح: " فتح خيبر ".[١] وهو الذي عليه أكثر المفسرين. وهذا هو الظاهر من سياق الآيات، لكونه مكافأةً لهم وتطييباً لأنفسهم، فقد انصرفوا من الحديبية دون أن يحققوا مقصدهم من الاعتمار وزيارة البيت، فعادوا وهم تعلوهم الكآبة، كما وصفهم أنس –رضي الله– ولم تطب نفوسهم إلا بعد نزول السورة الكريمة. وهذا الفتح خاصٌّ بهم كما تقدَّم في آيات المبحث السابق، "فاختصُّوا بخيبر وغنائمها جزاءً لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله والقيام بمرضاته."[٢] ووصف هذا الفتح بالقرب يعضد هذا الاختيار، فقد كان فتح خيبر أقرب الفتوح إلى الحديبية. والله أعلم !

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ لما قبلها :**

لما ذكر الله تعالى آثار البيعة المباركة على المؤمنين، وختمها في الآية السابقة بمكافأتهم بفتح قريب، عطف على ذلك ثمرة ما يجنون من هذا الفتح، وهي مغانم كثيرة كانوا قد وعدوا بها من قبل.

---

(١) انظر جامع البيان للطبري جـ ٢١ ص ٢٧٨

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٤١

*** المراد بالمغانم في هذه الآية :**

يكاد يتَّفق المفسِّرون على أنَّ المغانم هنا هي: غنائم خيبر، وقد قال: ﴿ يَأْخُذُونَهَا ﴾ أي أهل بيعة الرِّضوان لأنها خاصَّةٌ بهم.

ووصفت هذه المغانم بـ ﴿ كَثِيرَةً ﴾ لتعدُّد أنواعها من أموال وأنعام ومتاع وحوائط وغيرها.(١)

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾:**

بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى– ما وعد به أصحاب الشجرة من المغانم الكثيرة، ثنَّى بوعد المؤمنين عموماً، من حضر منهم البيعة ومن لم يحضر، من واسع فضله وجوده العميم، بمغانم كثيرة في الفتوحات المستقبلية، مذكراً لهم أن مغانم خيبر ليست نهاية المغانم، ولكنَّها مغانم معجَّلة.

*** المراد بالمغانم المذكورة في الآية الكريمة :**

اختلف المفسِّرون في المراد بهذه المغانم على أربعة أقوال :

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص ١٧٦

أحدها : مغانم خيبر، ذكرها مرَّةً بأسلوب الغيبة ثمَّ أكَّدها بأسلوب الخطاب.[١]

ثانيها : غنائم هوازن وغطفان.[٢]

ثالثها : فتوحات فارس والروم وغنائمها.[٣]

رابعها : هي كلُّ مغنم غنَّمه الله المؤمنين من أموال أهل الشِّرك من لدن نزول هذه الآية إلى قيام الساعة. وهذا القول هو الذي اختاره أكثر المفسِّرين.[٤]

وبالنظر في هذه الأقوال نجد أن القول الأخير هو أصحُّها ، وهو الذي يتوافق مع التناسق الموضوعي للآيات؛ فقوله تعالى في الآية قبلها ﴿ يَأْخُذُونَهَا ﴾ صفة للمغانم الأولى أعني مغانم خيبر – حيث بيَّنت الآية أن تلك المغانم خاصة بأصحاب بيعة الرِّضوان، وهم الذين يأخذونها دون غيرهم ممن لم يكن معهم، إلا الذين جعلهم النَّبي – صلى الله عليه وسلَّم– في حكمهم ممن حبسه العذر، وبهذا تكمل الفائدة وينقطع الحديث عنها، والضمير في قوله: ﴿ يَأْخُذُونَهَا ﴾ يعود على المعنيِّين بالحديث منذ بداية الآيات؛ المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾، ثمَّ إنَّ تغير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب يسترعي الانتباه إلى وعدٍ أعظم، ومغانم أوسع، ومستفيدين كثُر، أما التَّكرار فلا يفيد هنا معنى

(١) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٨٠

(٢) المصدر السابق جـ ٢١ ص ٢٨١

(٣) المصدر السابق

(٤) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٧٩ ومفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٨٠ وتفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٤٠ والتحرير والتنوير جـ ٢٦ ص ١٧٧

أعظم، بل يؤكِّد المعنى نفسه، فيكون الخطاب في هذه الآية للنَّبيِّ – صلى الله عليه وسلَّم– والمراد به: هو والمؤمنين من أمَّته، ممن هم معه وقت الخطاب وممن يأتي بعدهم، وليس خاصّاً بأهل الحديبية. والمعنى وعدكم الله مغانم كثيرة لا يحرم منها من لم يشهد الحديبية.(١) وبهذا يكون القول الأخير شاملاً للقولين اللذينِ قبله، ولغير ذلك من المغانم المستقبلة دونما تفصيل، وهو موافق أيضاً للتناسق الموضوعي في السورة، فكثرة الفتوحات والمغانم يدل على النصر والتمكين وانتشار دين الإسلام وظهوره، والله أعلم !

*** المراد بالمغانم المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ :**

تكاد تتَّفق كلمة المفسرين على أن الغنائم المعجَّلة والمشار إليها بـ ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ هي مغانم خيبر، عدا رواية واحدة عن ابن عباس –رضي الله عنهما– بأنَّها صلح الحديبية.(٢)

ولعلَّ هذا التفسير باعتبار الفعل الماضي على حقيقته، وباعتبار أن الإشارة تعود إلى الحال الذي هم فيه وقتئذٍ، فالحديبية هي الأقرب وقوعاً. ولكن قد ورد في بداية الآية الفعل ﴿ وَعَدَكُمُ ﴾ وهو يفيد أن الموعود به لم ينته بعد، بل سيكون في المستقبل، والمعطوف عليه – ﴿ فَعَجَّلَ ﴾ – كذلك. "وإنما عبَّر بالماضي هنا لتحقُّق وقوعه."(٣) فكلاهما في المستقبل، فإذا علمنا مما سبق أن الموعود به في

(١) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٧٧
(٢) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٨١
(٣) التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٧٧

المستقبل من الغنائم هي ما كانت بعد الحديبية، فإنَّ منها ما هو إلى الحديبية أقرب، وهو المشار إليه بـ ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ التي تفيد الإشارة إلى القريب، وهذا هو فتح خيبر. وقد ذكر أهل السِّيَر أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قدم من المدينة عائداً من الحديبية في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرَّم.[١] وبهذا يتضح أن القول الأول هو الأصح، وهو مروي عن كبار الأئمة كمجاهد وقتادة وعكرمة والشعبي وغيرهم.[٢]

*** المراد بالناس في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ :**

لقد وردت في بيان المراد بالناس في الآية الكريمة عدّة أقوال:

أحدها : أنَّهم اليهود، كفَّ الله أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى مكة. وهو اختيار الطبري – رحمه الله–.[٣]

ثانيها : أنَّهم أهل مكَّة، كفَّ أيديهم بالصلح. وهو اختيار كثير من المفسرين.

ثالثها : أنَّهم أسد وغطفان همَّت باغتيال أهل المدينة فكفَّهم الله، ذكره ابن الجوزي.[٤]

رابعها : أنَّهم النَّفر الذين أرادوا أن يأخذوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأصحابه غِرَّةً، كما سبق ذكره في أسباب النُّزول، وهذا سيأتي ذكره في آيةٍ مستقلةٍ.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٨٢ و دلائل النبوة للبيهقي جـ ٤ ص ١٤٨

(٢) انظر الدر المنثور جـ ١٣ ص ٤٨٦

(٣) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٨٢

(٤) انظر معالم التنزيل ص ١٢٠٦ و زاد المسير جـ ٧ ص ٤٣٥

خامسها : أنهم أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، حيث جاؤا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا.(١) وهذا لم يكن قد وقع وقت نزول السورة.

والناظر في هذه الأقوال يجد أن كلمة ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ في الآية الكريمة تستوعب الأقوال كلها، وخصوصاً الأقوال الثلاثة الأولى التي سلمت من الاعتراض، والقول بالعموم أولى من الاقتصار على واحدٍ من تلك الأقوال؛ حيث يكون المعنى أعظمَ وأوسعَ فيناسب مقام الامتنان.

لكنَّ القول بأن المراد بالناس في الآية: مشركو مكة له حظٌّ كبيرٌ من النظر، فهو يوافق التناسق الموضوعي في السورة الكريمة؛ حيث إن السورة تتحدَّث عن اعتبار صلح الحديبية فتحاً عظيماً بسبب آثاره المباركة، ولا شك أن ما ترتَّب على الصلح من كفِّ أذى المشركين كان من أعظم آثار الصلح وفوائده؛ إذ أعطى الفرصة للالتقاء بالمشركين من جميع القبائل والقرى والحوار معهم، فانتشر الإسلام، واتسعت الدعوة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

*** المراد بالضمير في قوله تعالى : ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ :**

اختلف المفسرون في ما يعود عليه الضمير في قوله تعالى: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على أقوال أجملها في ما يلي:

(١) تفسير أبي السعود جـ ٨ ص ١١٠

أحدها : السكينة :

قال ابن عاشور – رحمه الله – : "يحتمل أن الضمير يعود على السكينة، أي عبرةً لهم واستدلالاً على لطف الله بهم، وعلى أن وعده لا تأويل فيه"[١] وهذا بعيدٌ في البناء، أي بعيدٌ على العطف إذ بينهما آيةٌ كاملة، وبعيد في المعنى لأن السكينة أمرٌ غير ظاهر، والآية علامة ظاهرة بيِّنةٌ، يستفيد منها المؤمنون حتى من لم يحضر معهم في ذلك المشهد الذي تنزلت فيه عليهم السكينة.

ثانيها : مغانم خيبر :

قال السعدي – رحمه الله – : الفاعل يعود على هذه، أي غنيمة خيبر، آيةٌ يُستدَلُّ بها على خبر الله الصادق ووعده الحق وثوابه للمؤمنين.[٢]

وقال ابن عاشور –رحمه الله– : "ويحتمل أن يكون التقدير فعجَّل لكم هذه، لغاياتٍ وحكمٍ لتكون آية، أي تكون هذه المغانم آيةً للمؤمنين منكم ومن يعرفون بها أنهم من الله بمكانِ عنايته، وأنه موفٍ لهم ماوعدهم، وضامنٌ لهم نصره الموعود، كما ضمن لهم المغانم القريبة والنصر القريب"[٣] وهذا قول جيد، ففتح خيبر وحيازة غنائمها الكثيرة من غير قتال يعدُّ آيةً بلا مراء. كما يعتبر هذا الفتح علامةً للمؤمنين في تصديق رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – فيما وعدهم به.[٤] وللرازي – رحمه الله– توجيهٌ آخر فهو يرى أنَّ العطف على المفهوم، فإنَّ اللام في قوله: ﴿ فَعَجَّلَ

(١) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٧٩

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٣٤١

(٣) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص١٧٩

(٤) انظر زاد المسير جـ٧ ص٤٣٦

﴿ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ ينبيء عن النفع ومنه قول القائل: لا عليَّ و لا ليا، أي لا ما أتضرَّرُ به ولا ما أنتفع به، فكذلك قوله: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ لتنفعكم ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله سيصل إليهم كما وصل إليكم.(١)

وهذا توجيه أراه مناسباً وخصوصاً أنَّ التعليل لم يكن مباشراً ، بل مسبوقاً بالواو، وأنَّ الفعل هنا مغايرٌ للأفعال قبله. والعطف على مقدَّر هو رأي البصريين، أي ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ لتشكروه ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾. أمَّا الكوفيون فيرون أن الواو هنا مقحمة، والمعنى على ظاهره دون حاجةٍ إلى التَّقدير.(٢)

ثالثها : الكفُّ :

وقد اختاره الطبري –رحمه الله – وقال: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليكون كفُّه – تعالى ذكره – أيديَهم عن عيالهم آيةً وعبرةً للمؤمنين به، فيعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم"(٣) وهذا جيد، لأن الضمير عادة يعود إلى أقرب مذكور، والكف يصدق عليه هذا. وهو أيضاً آيةٌ عجيبة فالأعداء الذين يتربصون بالمسلمين ثم يجدون مثل هذه الفرص الثمينة عادةً لا يتركونها. ومع ذلك يُصرفون عنها بقدرة الله.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ ٢٨ ص ٨٠

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥ص٢٧٩

(٣) جامع البيان جـ٢١ ص٢٨٢ ، وانظر البحر المحيط جـ٩ ص٤٩٤

رابعها : التعجيل والكفُّ :

وذلك أن الله تعالى جمع بينهما فقال: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾وقال بعدها ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال الشوكاني – رحمه الله -: ﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ أي التعجيل والكف ليكون آيةً يُعلمُ بها صدقُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في جميع ما يعدكم به.(١)

خامسها : صلح الحديبية :

وقد أومأ إليه الحافظ ابن كثير – رحمه الله – فقال: "﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء حتى مع قلة عددهم، وبأن الله هو العليم بعواقب الأمور وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال تعالى:﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦."(٢)

وإن المتأمل في هذه الأقوال ليجد أن القول الرابع الذي يجمع بين تعجيل غنائم خيبر للمؤمنين مع كف أيدي الناس عنهم موافقٌ لنظم الآية، وموافق تماماً للتناسق الموضوعي في الآيات، وموافق للتناسق الموضوعي في السورة. وذلك أن موضوع هذا المبحث نصرةُ مَن نصر الدين، وهو فرع من موضوع السورة الرئيس، والقول السابق يجمع بين أمرين يكون بهما تمامُ النصرة؛ الأول ملك أرض خيبر وأموال أهلها مع سلامة المجاهدين من شرِّ القتال، والثاني: سلامتُهم من الضرِّ في بيوتهم

(١) فتح القدير جـ٥ ص٥١

(٢) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٢٤١

وعيالهم وأعراضهم. فحصل بهذا التمكينُ، والسلامةُ من الهوان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٩، وكما قال:﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ آل عمران: ١١١

وبهذا تكون الآيةُ على نصر الله للمؤمنين على الكافرين، وعلى حفظه لأوليائه المجاهدين، الذين يجاهدون لنصرة دينه وإعلاء كلمته، ظاهرةً جليةً. والله أعلم !

*** معنى﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ في قوله تعالى : ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ :**

ورد في معنى ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ في هذه الآية قولان:

الأول: يزيدكم هدى بالتصديق بمحمد – صلى الله عليه وسلم- فيما جاء به من وعد الله تعالى بالفتح والغنيمة.(١)

فليست الهداية ذاتها هي محل الامتنان والوعد، لأنها موجودة عند المخاطبين بدليل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ولكن التفضّل هنا بزيادة هذه الهداية، لأن الله تعالى يزيد المهتدين هدايةً بطاعتهم وثباتهم على الدين ونصرتهم له كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ محمد:١٧.

---

(١) انظر زاد المسير جـ ٧ ص ٤٣٦ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥ ص ٢٧٩

ولاشك أن تحقق ما وعدهم الله به من الفتح والغنائم مما يزيد اليقين والتصديق، وأن شكر هذه النعم ضمان لاستمرارها كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ إبراهيم: ٠٧.

الثاني: يثبتكم على الهداية على الصراط المستقيم.(١)

وهذا الثبات والاستقامة مطلب عزيز وفضل عظيم وقد أُمر به النبي- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كذلك ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾هود: ١١٢.

ويخرج بهذين الأمرين أمران الأول: النقص والضعف في الدين وهو من خوارم الأهلية للنصر. والثاني: الانتكاسة عن طريق الحق وكذا الروغان والتذبذب فهذه ليست من صفات مَن يستحقون الاستعلاء والريادة، وإنما الذين يستحقون ذلك هم أهل الاستقامة والثبات على الحق في حال النصر أو الهزيمة، وفي حال الغنى أو الفقر وفي حال القوة أو الضعف، فهم ثابتون وصامدون على طريق الحق، لا ينأون عنه ولا ينهون عنه بل يدعون إليه، وحالهم كحال من قال الله فيهم: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ الحج: ٤١.

---

(١) انظر المصدرين السابقين

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ لما قبلها :**

بعد أن بشَّر الله – سبحانه وتعالى– المؤمنين بمغانم خيبر وبمغانم كثيرة في الفتوحات القادمة، خصَّ منها غنيمة أخرى لم يقدروا عليها من قبل، ولكن الله بقدرته على كل شيءٍ قد أحاط بها وأعدَّها لهم خاصَّةً وسوف ينالونها ولا يخلف الله الميعاد.

*** المراد بقوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ في الآية الكريمة :**

اختلف المفسِّرون في المراد بقوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ على خمسة أقوال هي:

الأول : خيبر.

وهي رواية عن ابن عباس – رضي الله عنهما– قال: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾: صلح الحديبية. ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾: خيبر.[(١)] وقد تقدَّم أن المراد بـ ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ مغانم خيبر. فلا يصح أن تعطف عليها ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ وهي بالمعنى المراد نفسه، بل الظاهر من السياق أن قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ غير ما أشارت إليه الآيات من قبل كصلح الحديبية أو فتح خيبر؛ لأن لفظ " أخرى " يقتضي مغايرة ما سبقه. والله أعلم !

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٤١ و الدر المنثور جـ ١٣ ص ٤٨٧

الثاني: فتوحات المسلمين منذ نزول السورة.

وهي رواية أخرى عن ابن عباس – رضي الله عنهما– قال: هي هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.[١] وأقول هنا مثل ما سبق في القول الأول، وهو أن عموم الفتوحات المستقبلة قد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ أما هذه فهي أخرى، أي غير ما قد سبق ذكره.

الثالث : غنائم هوازن في حنين .

اختاره أبو السعود في تفسيره وقال: "وصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها"[٢] وهذا التعليل مع صحته لا يقوّي اختياره بأنها غنائم هوازن في حنين، لأن الله تعالى وصفها بقوله: ﴿ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ أي في الماضي، والجولة التي يشير إليها أبو السعود – رحمه الله– هي أن هوازن كانوا قوماً رماة، فرموا المسلمين بالسهام فانهزموا، ثم ناداهم النبي – صلى الله عليه وسلم – فتراجعوا ونصرهم الله.[٣] وهذه المحاولة ليست سابقة وإنما كانت بعد نزول السورة بزمن.

---

(١) الدر المنثور جـ ١٣ ص ٤٨٧

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم جـ ٨ ص ١١٠

(٣) تفسير القرآن العظيم للسخاوي جـ ٢ ص ٣٥٦

الرابع : فارس والروم .

وقد ورد عن علي وابن عباس – رضي الله عنهم – قالا: " ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾: على علم وقتها أفيئها عليكم؛ فارس والروم."(١)

وهذا القول اختاره ابن عاشور – رحمه الله – ونصره، فقال في ختام تفسير الآية: "فعلم أن الآية(٢) أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم: نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول وهي مغانم خيبر. ونوع هو مغانم مرجوة كثيرة غير معين وقت حصولها، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات. ونوع هو مغانم عظيمة، لايخطر ببالهم نوالها قد أعدها الله للمسلمين، ولعلها مغانم بلاد فارس والروم وبلاد البربر."(٣) وهذا تحرير جيد منه – رحمه الله تعالى – فقد حاول أن يصل إلى خلاصة أقوال المفسرين في تلك المغانم، واختياره في تفسير ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أنها فارس والروم قد يكون مقبولاً، لأن قهر المسلمين لمملكتي كسرى وقيصر مع تواضع عدتهم البشرية والمادية يعدُّ آيةً من آيات الله، وسنَّةً من سننه في نصر المؤمنين على أعدائهم، دون لزوم التكافؤ في العدد والعدة، وإنما يكفي إلى جانب الإيمان والطاعة أن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة. لكنْ من المعلوم أن المسلمين في ذلك الوقت لم تكن لهم سابقة في قتال فارس والروم، وإنما حدث ذلك بعد الحديبية.

---

(١) الدر المنثور جـ ١٣ ص ٤٨٨

(٢) لعله قصد الآيات

(٣) التحرير والتنوير جـ ٢٦ ص ١٨١

وقد ردَّ ابن عاشور على مثل هذا الاعتراض فقال: "ومعنى ﴿ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾ أنها موصوفةٌ بعدم قدرتكم عليها، فلما كانت جملة ﴿ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾ صفةً لأخرى لم يقتض مدلول الجملة أنهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا، وإنما المعنى أن صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلق أطماعكم بأخذها."[(١)]

الخامس : فتح مكة، وهو مسك الختام لهذه الأقوال.

وهو رواية عن قتادة – رحمه الله – قال: كنا نُحَدَّثُ أنها مكة، أوردها ابن جرير في تفسيره، وعلَّق عليها فقال: "وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دلَّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت الشجرة أنه محيطٌ بقرية لم يقدروا عليها، ومعقول أنه لا يقال لقوم: لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم، فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم، فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها."[(٢)]

وقال ابن عطية – رحمه الله –: "وهذا هو القول الذي يتَّسقُ معه المعنى ويتأكَّد."[(٣)] واختار هذا القول صاحب الظلال فقال – رحمه الله – بعد أن ذكر جميع الأقوال السابقة: "وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة بعد صلح الحديبية وبسببٍ من هذا الصلح."[(٤)] حيث فتح الله مكَّة للمسلمين وهي التي

---

(١) المصدر السابق

(٢) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٨٦

(٣) تفسير المحرر الوجيز ص ١٧٣٤

(٤) في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٢٧

استعصت عليهم من قبل، وهاجمتهم في عقر دارهم، وردَّهم عام الحديبية، ثمَّ أحاط الله بها وسلَّمها لهم بلا قتال.

وهذا الذي قالوه هو أصحُّ الأقوال، فهي أعظم الغنائم، وذلك الفتح هو أعظم الفتوحات، لما ترتَّب عليه من دخول الناس في دين الله أفواجاً، وهم لم يقدروا عليها من قبل. ويرى أبو حيَّان – رحمه الله – أنَّ في قوله تعالى: ﴿ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾ دلالةً على تقدّم محاولة لها، كما كان في مكة.[١] حيث بقي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ثلاث عشرة سنة في مكة وهم يواجهون عنت مشركي مكة وإعراضهم وصلفهم وأذاهم، حتى اضطروا للهجرة منها تاركين ديارهم وأموالهم في سبيل تبليغ الرسالة ونصرة دينهم، كل ذلك لعدم قدرتهم آنذاك على صدِّ عدوان المشركين الذين وقفوا سدّاً ذريعاً أمام تبليغ الدعوة للناس.

وقد أحاط الله بهذه البلدة أي أعدَّها للمسلمين، فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فالمسلمون وإن لم يقدروا عليها في الحال فهي محبوسة لهم لا تفوتهم، وقد أحاط الله بها علماً أنها ستكون لهم، وحفظها ليكون فتحها على أيديهم.[٢] حيث أحاط الله بها إحاطةً كاملةً لتكون للمسلمين وتبقى لهم، بخلاف بلاد فارس والروم وغيرها من البلدان فهي تكون تحت حكم المسلمين في زمن دون زمن، فإن ما يحيط الله به لن يفلت من قبضته إلا بإذنه. وبهذا يكون في هذه السورة الكريمة وعدٌ بدخول مكة للاعتمار ، كما قال تعالى: ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ

(١) البحر المحيط جـ٩ ص٤٩٤

(٢) انظر جامع أحكام القرآن جـ ١٥ ص ٢٧٩

ﱡﭐ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﱠ، ووعدٌ آخر بدخول مكة فاتحين منصورين أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ وقد ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ فلا تيأسوا إن طال انتظار النصر والفتح فإن ربَّكم القويُّ العزيز لا يعجزه شيء ولا يغلبه غالب، وهو قادرٌ على نصركم على كل جبار ظالم مهما طغى، وعلى كل قوة للباطل مهما عظمت أو اشتدَّت.

*** مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ لما قبلها :**

بعد أن وعدهم ربهم بالفتوحات والغنائم طمأنهم بولايته ونصره لهم، فلو حصل قتال يوم الحديبية لانتصر المسلمون ولكان أمر المشركين فيه إلى هزيمة وإدبار؛ لأن سنة الله ماضيةٌ بأنه ينصر عباده المؤمنين على أعداء الملة والدين. كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الروم: ٤٧.

قال ابن كثير – رحمه الله –: "هذه سنة الله وعادته في خلقه، ماتقابل الكفر والإيمان في موطنٍ فيصلٍ، إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل."(١)

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٤١

وهذه السنة منذ زمن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهي مستمرة إلى قيام الساعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– : "وكان كذلك، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون، ومازال الإسلام في عزٍّ وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب "(١).

* مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ لما قبلها :

قد سبق ذكر سبب نزول هذه الآية، أما مناسبتها لما قبلها: فإنه لما تقرَّر أنَّ الكفار مغلوبون وإن قاتلوا، عطف على ذلك أمراً آخر وهو قضاؤه بكفِّ القتال من الجانبين لحكمة قدَّرها سبحانه.(٢) قال الطبري – رحمه الله – "يعني أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالحديبية يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى بهم أسرى، فخلى عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين: وهو الذي كف أيدي هؤلاء المشركين عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة، من بعد أن أظفركم عليهم." (٣)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ١٤ ص٢٤٤

(٢) انظر نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣٢٢

(٣) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٨٨

* **الفرق بين الظَّفَر والنصر :**

الظفر : هو الفوز بالمطلوب، فلا يقتضي وجود قتال، وهو أعم من النصر، وقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بدلاً من نصركم عليهم، أي بعد أن أنالكم ما فيه نفعكم، وهو هدنة الصلح التي تحققت بها مطالب عدَّة. وعُدِّيَ ﴿أَظۡفَرَكُمۡ ﴾ بـ (على) بدلاً من الباء لتضمين معنى أيَّدكم.(١)

* **لماذا ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ؟**

هذا الختم مناسب لفعل المؤمنين قبله وهو إطلاق سراح المباغتين من الكفار بعد أن مكَّنهم الله منهم، ففي جملة الختم "تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يبصر عمله أصلحه." ".(٢)

* **مناسبة قوله تعالى : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لما قبلها :**

---

(١) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٨٦

(٢) المحرّر الوجيز ص ١٧٣٥

قال البقاعي – رحمه الله – : "لما كان ما مضى من وصفهم على وجه يشمل غيرهم من جميع الكفار، عينهم مبيناً لسبب كفهم عنهم مع استحقاقهم في ذلك الوقت للبوار والنكال والدمار."[(١)]

قال ابن العربي[(٢)] – رحمه الله – في قوله تعالى : "﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني قريشاً بغير خلاف، لأن الآية نزلت فيهم، والقصة مخصوصة بهم، فلا يدخل غيرهم معهم."[(٣)]

*** فائدة ذكر قوله تعالى : ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ :**

كانت قريش تعظِّم الهدي، ولا تمنع أحداً قد قلَّد هديه من دخول المسجد الحرام، وكانوا يتفاوتون في هذا التعظيم، ولما أرسلت قريش رجلاً من بني كنانة للتفاوض مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– عرفه – بأبي هو وأمي – فقال: "هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له" فبعثت له، واستقبله الناس يلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. فاستحقَّ صدّ الهدي الذكر هنا لبيان فعلهم المستقبح في الجاهلية وفي الإسلام، وهم إذ صدُّوهم فقد صدُّوا هديهم، فهي جريمتان وليست جريمةً واحدة. ومعنى

(١) نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣٢٦

(٢) ابن العربي: هو الحافظ القاضي أبو بكر، محمد بن عبد الله العربي الأندلسي المالكي، صاحب التصانيف. توفي بفاس سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة. انظر سير أعلام النبلاء جـ٢٠ ص١٩٧

(٣) أحكام القرآن لابن العربي جـ ٤ ص١٧٠٦

﴿ مَعۡكُوفًا ﴾ أي : "محبوسا عن أن يبلغ محله فموضع «أن» نصب لتعلقه إن شئت بمعكوف، وإن شئت بصدوا وكان بعض نحويي البصرة يقول في ذلك: وصدوا الهدي معكوفا كراهية أن يبلغ محله وعنى بقوله تعالى ذكره : ﴿ أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أن يبلغ محلَّ نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حل نحره." [(١)] ويوضح هذا ابن عطية – رحمه الله – بأن هذا العكف كان من الفريقين، فقد كان من المشركين بصدِّهم، ومن قبل المسلمين لرويَّتهم وتصرفهم في أمرهم فحبسوا هديهم. قال : " وأن في قوله :﴿ أَن يَبۡلُغَ ﴾ يحتمل أن يعمل فيها الصدّ، كأنه قال : وصدوا الهدي كراهة أن أو عن أن، ويحتمل أن يعمل العكف فتكون مفعولاً من أجله، أي الهدي المحبوس لأجل أن يبلغ محله، ومحله مكة".[(٢)]

وتصوير البدن وهي محبوسة عن مكان نحرها لاشكَّ أنه مشهدٌ مؤثرٌ للفريقين. فذُكِر الهديُ هنا بغرض التشنيع على الكفار بفعلهم ، فقد عطلوا بذلك شعيرة من شعائر الله.[(٣)]

*** المقصودون في قوله تعالى :﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾ :**

هؤلاء المذكورون في الآية هم رجال ونساء من أهل الإيمان يسكنون في مكة بين ظهراني المشركين، ولا يعلمهم المسلمون.

---

(١) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٩٢

(٢) انظر المحرّر الوجيز ص ١٧٣٦

(٣) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٨٨

* سرُّ ذكر النساء في قوله تعالى :﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ :

قال ابن عاشور –رحمه الله –: "ونظم هذه الآية بديع في أسلوبي الاطناب والإيجاز، والتفنن في الانتقال ورشاقة كلماته... وسرُّ ذكر النساء هنا وقد كان يكفي ذكر المؤمنين، فإنَّ جمع المذكَّر في اصطلاح القرآن يتناول النساء غالباً، هو أنَّ تخصيص النِّساء بالذكر أنسب بمعنى انتفاع المعرَّة بقتلهنَّ، وبمعنى تعلّق رحمة الله بهنَّ."(١)

* معنى المعرَّة في قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ :

اختلف المفسرون في المراد بالمعرَّة على عدَّة أقوال، وقد أجملها ابن عطية – رحمه الله – فقال: "المعرَّة : السوء والمكروه اللاصق. مأخوذة من العِرِّ والعُرَّة وهو الجرب الصعب اللازم. قال ابن زيد: هي المأثم. وقال ابن إسحاق(٢): هي الدية. وهذان ضعيفان لأنَّه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان في أهل الحرب. وقال الطبري: هي الكفارة. وقال منذر(٣): أن يعيبهم الكفار، ويقولوا قتلوا أهل دينهم. وقال بعض المفسرين: المعرَّة : الملام وتألم النفس منه باقي الزمان.

---

(١) التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٨٩

(٢) ابن اسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ الأخباري، صاحب السيرة النبوية، قال الإمام الذهبي: أما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن، مات سنة خمسين ومائة. سير أعلام النبلاء جـ ٧ ص ٣٣-٥٥

(٣) سبقت ترجمته

وهذه أقوال حسان... وجواب لولا محذوف تقديره: لمكنّاكم من دخول مكة وأيدناكم عليهم."[١]

*** دلالة التعبير بـ ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ :**

هذا اللفظ "يعم كل من أراد الله مِن هذه الحالة رحمته في الدنيا والآخرة... وعبر بـ ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ لما فيه من شمول أصناف كثيرة، ولما فيه من الإيجاز، ولما فيه من الإشارة إلى الحكمة التي اقتضت مشيئة الله رحمة أولئك."[٢]

*** معنى قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ :**

﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾: قيل: لو تميزوا. وقيل: لو تفرَّقوا. وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهرهم. والمعاني متقاربة.[٣] وأسند التعذيب لله لأنه يأمر به، ويقدر النصر للمسلمين، كما قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٤ وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم على طريقة الالتفات."[٤]

---

(١) المحرر الوجيز ص ١٧٣٦

(٢) التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٩١

(٣) فتح القدير جـ ٥ ص ٥٤

(٤) التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٩٢

* مناسبة قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ لما قبلها :

قال البقاعي – رحمه الله-: "لما بيَّن شرط استحقاقهم للعذاب بيَّن وقته وعلَّته."[١] وفي المقابل بيَّن سبب التَّكريم والنصر للمؤمنين.

* بيان العامل في الظرف ﴿ إِذْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ :

قال القرطبي – رحمه الله –: "العامل في ﴿ إِذْ ﴾ مضمر مقدَّر تقديره : واذكروا إذ."[٢] أي (حين)، والمعنى : واذكروا حين جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية فرفض مبعوثهم الإقرار بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم و الإقرار بأن محمداً رسول الله ، ومنعوكم من دخول المسجد الحرام، ف (إذ) من صلة قوله : ﴿ .. لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، حين جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية .[٣]

(١) نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣٢٩
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥ ص ٢٨٨
(٣) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٣٠٩

و قيل إن هذا الفعل متعلق بفعل مقدر آخر تقديره صدوكم، أي اذكروا ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ فصدوكم صدّاً لا عذر لهم فيه إلا حمية الجاهلية.(١)

*** المراد بـ ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ :**

الحميَّة: الأنفة،من قول القائل : حمى فلان أنفه حميَّة، وسببها هنا الكبر والحقد، وأضيفت إلى الجاهليَّة بقصد تحقيرها وتشنيعها فإنها من خلق أهل الجاهلية.(٢) و المراد بها ما سبق ذكره في رواية المسوّر بن مخرمة ومروان بن الحكم وهي أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت (٣).

(١) انظر: جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٩٣ ، وانظر: التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٩٣
(٢) المصدر السابق ص ١٩٤
(٣) انظر ص ٩٨

*** المراد بـ ﴿ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ :**

ورد في تفسير ﴿ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ حديث عن أبي بن كعب – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾: قال: لا إله إلا الله. رواه الترمذي وصححه الألباني.(١)

قال الطبري – رحمه الله –: " ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾: يقال: ألزمهم قول لا إله إلا الله التي يتقون بها النار وأليم العذاب ."(٢)

وقال ابن القيِّم – رحمه الله –: "كلمة التقوى هي الكلمة التي يُتَّقى اللهُ بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هو قول: لا إله إلا الله، ثم كلُّ كلمةٍ يتَّقى الله بها بعدها فهي من كلمة التَّقوى ... وأخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمةً لهم لا ينفكون عنها."(٣) وبهذا يظهر أنَّ الإضافة في ﴿ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ إضافةٌ حقيقية؛ لأن كلمة الشهادة أصل التقوى.(٤)

---

(١) سنن الترمذي، كتاب: القراءات عن رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –، باب: " ومن سورة الفتح" رقم: ٣٢٦٥ ص ٧٣٨ . والألباني: هو محمد بن ناصر الدين الألباني ولد في ألبانيا وعاش في دمشق. تعلم على يد والده علم الحديث وبرع فيه. لزم المكتبة الظاهرية واستفاد منها. وهو من أشهر محدثي العصر. توفي سنة عشرين وأربع مائة وألف للهجرة. باختصار من كتاب حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، محمد إبراهيم الشيباني، مكتبة السوادي – جدة ، ١٤٠٧ هـ

(٢) جامع البيان جـ ٢١ ص ٢٨٩

(٣) شفاء العليل ص ٦٠

(٤) انظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٩٦

*** معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ ﴾ :**

أي وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – والمؤمنون أحق بكلمة التقوى من المشركين الذين أنكروها. (١) وهم أهلٌ لها ؛ إذ هم أهل التوحيد وهم أولياء الله وحزبه ، وذلك لما وقع في قلوبهم من الإخلاص في توحيد الله تعالى والاستسلام لأمره ونهيه، وهذا ثناء ربانيٌّ جميل يشعر بأنهم القدوة ينبغي أن تتبع في سلوك طريق العبودية لله والثبات عليه.كما يشعر بأن هؤلاء الصفوة الذين أصبحت كلمة التقوى شعاراً لهم، وقد أصبحوا أهلها الذين يُعرف معنى هذه الكلمة ومعالمها من طريقتهم التي ساروا عليها ومن أخلاقهم التي تحلّوا بها،هم أحقُّ بالنصر والتمكين في الأرض ممن أنكروها وعادوا أهلها.

*** سرُّ الختم بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ :**

الختم هنا بهذه الجملة لبيان أنه سبحانه "يعلم حقَّ كلِّ شيءٍ فيسوقه إلى مستحِقِّه."(٢) حيث ساق السكينة وما ترتَّب عليها من النصر لأهل الإيمان، ولم تغن أهلَ الحميَّة حميَّتُهم، وساق الجميعَ إلى الصلح الذي كان فيه منفعتُهم.

وفيه "إشارةٌ إلى علمه تعالى بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم. وإلى علمه بوجوه المصلحة في صلح الحديبية، فيروى أنَّه لما انعقدَ أَمِنَ النَّاسُ في تلك المدَّة

---

(١) انظر جامع البيان جـ ٢١ ص ٣١٤

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم جـ ٨ ص ١١٣

الحربَ والفتنة، وامتزجوا، وعلت دعوة الإسلام، وانقاد إليه كلٌّ من كان له فهمٌ من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدَّة أضعاف ما كان قبل ذلك."[١]

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الخامس

لقد ابتدأ المبحث الرابع بآيةٍ واحدة عن المبايعيين – رضي الله عنهم- فكان ذلك تشويقاً لمعرفة خبرهم وفضلهم، وكان الحديث قبل تلك الآية عن المخلفين، فعاد السياق إلى إتمام الحديث عنهم، فلما انتهى بيان حال المخلفين بالتفصيل، ناسب في هذا المبحث العود مرةً أخرى لتفصيل الحديث عن المؤمنين الذين أوفو بعهدهم وبايعوا الرسول – صلى الله عليه وسلم- تحت الشجرة، وذكَر فضلهم، وما منَّ الله به عليهم من الرضا والسكينة والفتح والمغانم والوعد بالنصر، وكذلك ما امتن الله به عليهم من صرف القتال عنهم في الحديبية، وماهيأه لهم من أسباب الصلح الذي كان له عظيم الأثر عليهم وعلى ظهور دينهم.

إن هذا المبحث ذو ارتباط وثيق بفاتحة السورة التي تمثل المحور الرئيس لها، وكذلك بمباحث السورة قبله وبعده المتصلة به، فهو تفصيل للموضوع الرئيس الذي ذكر في مقدمة السورة وهو الفتح، أي أنه يشرح لبَّ الحدث التي تتحدث عنه سورة الفتح، أعني صلح الحديبية وما نتج عنه من نتائج حميدة، فيبدأ بالحديث عن بيعة الرضوان وهي أهم حدث في أحداث الحديبية، وقد تقدم في هذا البحث أن بعض المفسرين فسروا الفتح بالجزء الأهم في صلح الحديبية، والذي كان سبباً في هذا

(١) المحرّر الوجيز ص ١٧٣٧

الصلح، وسبباً في التثبت من عزيمة المجاهدين وصدقهم وإخلاصهم، بل وسبباً في رفعتهم والشهادة لهم ومكافأتهم من العلي القدير وهذا الجزء هو بيعة الرضوان. ثم ثنى بذكر مكافأة المبايعين بمغانم مستقبلةٍ كثيرة وكذلك وعد أتباعهم من المؤمنين بفتوحات ومغانم كثيرة.

ولقد بان لنا من خلال الدراسة التحليلية لآيات هذا المبحث تناسق معانيها مع الروايات الحديثية سواءً التي سبق ذكرها في الباب الأول من هذا البحث أو تلك التي ذكرت في أسباب النزول في بداية هذا المبحث ..

لقد ابتدأ المبحث الخامس بذكر الرضا عن المبايعين ورضا الله لا يتوقف على الأمور الظاهرة من المبايعة وغيرها فحسب، ولكن بعلمه سبحانه بما في القلوب من الصدق والوفاء. لقد علم ما في قلوبهم من حميةٍ لدينهم لا لأنفسهم، وعلم مافي قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم وضبطٍ لمشاعرهم تجاه الاستفزاز، ليقفوا خلف كلمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- طائعين مسلمين صابرين.[1] فلما اتفق ظاهرهم في الاتباع والتسليم مع باطنهم في الصدق واليقين أنزل الله عليهم الطمائنينة والسكون والثبات على الحق، فميزوا بين ظاهر المحن ومستور المنح، ولأجل أن يروا ذلك عين اليقين بعد أن علموه علم اليقين، جعل الله لهم فتحاً قريباً ذا مغانم كثيرة وهو فتح خيبر، لتطمئن قلوبهم بتحققه فيزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

ثم امتن الله عليهم بما ترتب على صلح الحديبية من السلامة والسلام الذي كان فرصة ثمينة للمؤمنين، حيث اختلطوا مع غيرهم وحاوروهم فاقتنع العقلاء منهم،

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٦

ودخل الناس في دين الله أفواجا، فقويت شوكة المسلمين وعلت راية الدين، وكانت الفتوحات المباركة.

وأخبرهم أن فتح خيبر إنما هو الفتح المعجل وسوف تتلوه فتوحات ذات مغانم كثيرة ينالونها فتكون أمارةً للمؤمنين على نصر الله لأوليائه المجاهدين في سبيله في كل زمان ومكان.

ومن أعظم هذه الفتوحات الفتح الأعظم – فتح مكة – الذي كتبه الله لهم رغم أنه كان من قبل صعب المنال، فأحاط الله به قدرةً وعلماً وجعلهُ في متناول أيديهم دون مشقة أو قتال. ونصر المؤمنين وهزيمة الكافرين سنة الله التي كتبها لرسلهِ وأتباعهم، وعادته في خلقه وليس لسنته تبديلٌ ولا تحويل.

*** مشاهد من الحديبية :**

ثم عرضت الآيات مشاهد من الحديبية وإرهاصات الصلح وما حدث أثناؤه من أحداث، ومن ذلك أن جماعةً من المشركين أرادوا أن يقتحموا معسكر المسلمين غرةً، فكف الله أيديهم عن المؤمنين ووقعوا في أيديهم فأسروهم، فأطلق رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – سراحهم.

إنَّ العفو عند المقدرة له أثر عظيم عند المعفوِّ عنه وذويه، فقد بهتت قريش حينما علمت بذلك، وسقطت كلُّ حجة لهم في أنَّ النبيَّ يريد حرباً، وأيقنت أنَّ أيَّ

اعتداء من جانبهم على المسلمين لا تنظر إليه العرب إلاَ على أنَّه غدرٌ لئيمٌ، وللمسلمين الحقّ أن يدفعوه.(١)

لقد استحقت هذه الحادثة الامتنان، حيث كان هذا الكف من مقدمات الصلح، وحين يسري السّلام وتنتشر الرحمة وتتجلى صورة العفو عند المقدرة فتلاقي مكارم الأخلاق العالية هذه قلوباً غلفاً، عليها أقفالها، تكون حينذاك الغطرسةُ والجفاء ظاهرة القبح منتنة الرائحة، تنفر منها الطباع السوية وتمجها العقول السليمة؛ ولهذا أعقبها بعرض صورة الصد الذي كان سببه الكفر والجحود – وليس بعد الكفر ذنب – وكأن المسجد الحرام ملكاً لهم دون سائر الناس، وهذه أيضاً صورةٌ أخرى تكشفُ حمية الجاهلية المنتنة، وهي جريمةٌ كبرى في عرفِ بعض المشركين الذين يعظمون البيت، حينما يُعترض لقاصديه ومعهم الهدي بأدنى أذى، ناهيك عن منعهم للوصول إليه.

لقد كانت الآيات تبرز هذا المشهد بوضوح وكأنه صورةً ماثلة أمام العيون فترى الهدي محبوساً لا يصل إلى محلِّ نحره المعتاد قربةً لرب العباد، لأنه بدلالاته على تعنت المشركين وضعف حجتهم يكفي عن كثيرٍ من المقالات والجدل، فهي صورة مكشوفة لا تحتاج إلى تعليق.

* حكمة ورحمة :

لقد كان بالإمكان بعد أن بايع الصحابةُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الموت وعلى ألا يفروا، أن يواصلوا مسيرهم للجهاد في سبيل الله، ولو قاتلوا لنصرهم الله القوي الذي وعد بهزيمة الكفار لوحصل القتال. لكن حكمة الله العليم

(١) انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنَّة، د.محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم – دمشق ، ١٤٠٩ هـ. جـ ٢ ص ٣٣٢

بما كان وما سيكون اقتضت ألا يكون ذلك، وكفى الله المؤمنين القتال رحمةً بإخوانهم الذين يخفون إيمانهم في مكة، ورحمةً بالنساء والأطفال، وحتى لا تلحق المجاهدين في ذلك مسبةٌ وعارٌ يستثمرها إعلام قريش لصدِّ الناس عن دعوة الإسلام، فيدَّعي بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم- يقتل أصحابه، وحتى لا يجد الصحابة في أنفسهم ندامةً على هذا الفعل لو حصل. قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

لقد ذكرت هذه الآية الأمور المهيجة لقتال الكفار وهي: كفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين عن زيارة البيت للعمرة، وصدهم الهدي أن يبلغ محل نحره، وكل هذه الأمور موجبة وداعية لقتالهم، ومع ذلك فقد أمروا بالبيعة والاستعداد، ولم يؤمروا بعد ذلك بالقتال، والمانع من ذلك هو وجود رجالٍ ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلةٍ أو مكانٍ يمكن أن لا ينالهم أذى. فلولا وجود هؤلاء الذين لا يعلمهم المسلمون، أو لا يعلمون بإيمانهم، فيترتب على إصابتهم أمور من الأذى والمكروه لكان القتال. والأمر الثاني من الموانع: ليَمُنَّ اللهُ على من يشاء من المشركين بالإيمان بعد الكفر وبالهدى بعد الضلال، وهذه غايةٌ

عزيزةٌ للدعوة؛ أعني إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد.[1]

*** مقابلةٌ للتأمُّل :**

لقد ذُكر في المبحث الثاني مقابلةٌ بين جزاء المؤمنين والمؤمنات من جهة، وجزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من جهة أخرى.

وفي المبحث الرابع مقابلةٌ بين من أوفى بعهده وبين من نكث على نفسه، وكذلك بين جزاء من أطاع الله ورسوله وبين من يتولى ويعرض عن ذلك.

ومن التناسق في ختام هذا المبحث مقابلةٌ تُبيِّن الفرق الكبير بين الكافرين والمؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ ويتضح هذا التناسق في المقابلة في هذه الآية، من خلال أربعة أوجه:

أحدها: قوله عن الكافرين: ﴿ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ فهذا الشر منسوبٌ إليهم، وهم الذين اختاروه لما تولَّوا وصدُّوا عن دين الله. بينما قال عن المؤمنين: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ فأسند الفعل إلى ذاته العلية، فهي منَّةٌ ومثوبةٌ من العليِّ الكبير. ولم يقل: ﴿ جَعَلَ ﴾ بل قال: ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ وفي هذا إشارةٌ إلى علوِّ السكينة ورفعتها.

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن ص١٣٤٢

ثانيها: جعل للكافرين الحميّة، وذمَّها لأنها حميّة الجاهليّة؛ لأنها أَنَفَةٌ وعصبيةٌ على غير وجهِ حقٍّ، بينما كان للمؤمنين السكينة، التي هي أبعد ما تكون عن حمية الجاهلية؛ لأنها تنبئ عن ثباتٍ يقود صاحبه للعقل والحكمة، وللترفع عن شهوات النفس الأمَّارة، والانتصار للدين بدلاً من الانتصار للنفس.

ثالثها: أضاف الحميَّة إلى الجاهلية؛ ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وأضاف السَّكينة إلى نفسه؛ ﴿ سَكِينَتَهُۥ ﴾ وبين الإضافتين فرقٌ عظيم، حيث تزداد الحمية بهذه الإضافة قُبحاً على قبحها، بينما تزداد السكينةُ بالإضافة حسناً وشرفاً.(١)

رابعها : "لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور."(٢)

*** ومن دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ما يلي :**

١- الطاعة والاتباع للقيادة وسرعة المبادرة في مبايعة النبي – صلى الله عليه وسلم – بروح الرضا والتسليم والرغبة في الجهاد في سبيل الله ..

٢- بيان أن النَّصر يحتاج إلى إيمان وصدق وإخلاص ومجاهدة وصبر، فإذا تحققت مراتب العبودية هذه في القلوب نزل العون والفرج من عند الله ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٨١

(٢) أعلام الموقعين جـ٤ ص ٢٠٢

٣- بيان أن الفتح والنَّصر وما يتبعهما من الغنائم والمكاسب في الدنيا هو ثواب ومنحة من الله للمؤمنين الصادقين المنافحين عن دينهم.

٤- التأكيد على نصر الله لأوليائه حتى لو لم يحصل الصلح وحصل القتال ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ... ﴾ الآية.

٥- بيان أن نصر الله لأوليائه سنة من سنن الله الجارية، فهو مؤكد، وإن تأخر لابتلاء أو لحكمة يريدها الله.

٦- تعرية المشركين ببيان بعض أعمالهم المستقبحة للناس آنذاك ،كصدهم المسلمين عن المسجد الحرام، ومنعهم الهدي أن يبلغ محله دُون مسوغ مقبول سوى الكفر والعداء للدين.

٧- التنديد بالنعرة الجاهلية، والإشارة من خلال ذلك بأن الجهاد الخالص لله هو مالا تشوبه حميه الجاهلية، ويؤيده حديث أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال: جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا،** فهو في سبيل الله."[(١)]

٨- امتنان الله على أوليائه بإنزال السكينة في قلوبهم، وأن جعلهم ملزمين بكلمة التوحيد، ثابتين عليها في حال النَّصر وفي كل حال، فقيمهم ثابتةٌ لأن مرجعهم الشرع لا الهوى.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: " ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ " ص١٥٦٥ رقم: ٧٤٥٨ وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ص٩٧١ رقم:١٩٠٤

٩- ذكر الظَّفَر بالنفر الذين أرادوا مباغتة النبي – صلى الله عليه وسلم –، والامتنان بذلك ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ والظفر من نظائر النَّصر.

١٠- تكرر وصف الله بالعزة والحكمة في السورة ثلاث مرات. وهاتان الصفتان مقتضيةٌ إعزازَه ونصره لأوليائه، ومدَّهم بالنَّصر متى يشاء على مقتضى حكمته.

١١- تكرر وصف الله بالعلم في السورة الكريمة فيه طمأنةٌ للمؤمنين، وأنه عليمٌ بحالهم، ومطَّلعٌ على أعدائهم.

١٢- وعد الله تعالى عباده المؤمنين بفتوحات عظيمة ومغانم كثيرة، ونصرةٍ وكفٍّ لشرِّ الأعداء.

١٣- بيان أن صلح الحديبية الذي هدي إليه المؤمنون يعدُّ فتحاً عظيماً، يرجى من ورائه منافع كثيرة للمسلمين، وقد تحقَّق ذلك.

١٤- الوعد بفتح مكة في قوله تعالى: ﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ والذي كان علامة على ظهور الدين، وانكماش سطوة المشركين والمنافقين، وبوابة دخول الناس في دين الإسلام جماعاتٍ ووحدانا، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾ النصر: ١ - ٣

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات :

لقد أنعم الله الكريم على أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلّم – بالرِّضا عنهم حينما بايعوه تحت الشجرة على الموت وعدم الفرار يوم الحديبية، لما علم الله في قلوبهم من الصدق والإخلاص والوفاء والطاعة لله ولرسوله، فأكرمهم المولى الكريم بأن أنزل السكينة على قلوبهم فطمأنهم وثبّتهم على الهدى والإيمان، فاستقرّت نفوسهم بعدما أصابها قدرٌ من الحزن والكآبة بسبب منعهم وصدِّهم عن دخول المسجد الحرام، حيث جاءوا بشوق ولهفة من المدينة النبوية مقلِّدي الهدي من أجل الاعتمار وزيارة البيت الحرام فلم يتحقَّق مطلبهم. فكافأهم البرُّ الرَّحيم بفتحٍ قريبٍ، وهو فتح خيبر، عوضاً لهم عمّا لحقهم من هذا الصّدِّ الجائر، وبمغانم يهود خيبر الكثيرة من الأموال والبساتين والثِّمار، وكان الله ولا يزال غالباً على أمره لا يعجزه شيء، وحكيماً في قوله وفعله ووعده، وفي قدره وحكمه.

كما وعدهم بمغانم في فتوحاتٍ مستقبلةٍ قد كتبها الله لهم، فعجَّل لهم مغانم خيبر إذ كانت بعد الحديبية بزمنٍ يسيرٍ، وحماهم القوي العزيز من أذى المشركين في الحديبية، وحفظ أهلهم وبيوتهم من أذى اليهود بالمدينة، ليكون نصر الله وحفظه ورعايته لهم، وهزيمة أعدائهم، عبرةً يعتبر بها المؤمنون في ذلك الزمان، وكل زمان آتٍ.

وكما حفظهم ربهم من الأعداء، فإنه يحفظهم أيضاً من الزيغ والشطط، ويهديهم بتوفيقه للصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فيثبتهم عليه جزاء طاعتهم لله ورسوله ومسارعتهم في عمل الخيرات، واستجابتهم لنداء الجهاد في سبيل الله ، وصدقهم ووفائهم في ذلك كله.

ثم وعدهم الفتاح العليم بغنيمة أخرى هي رأس الغنائم، وهي فتح مكة المشرَّفة، وهذا الفتح هو الأمر الحاسم لصراعهم مع مشركي قريش. وإذِ استحقَّت خيبر السَّبق في الذكر لسبقها التاريخي ولقربها وتعجيلها وكثرة غنائمها وتنوِّعها، فقد استحقَّت (الأخرى) الإفراد في آيةٍ مستقلَّة، لكونها الفتح الأعظم الذي تعلو به كلمة الإسلام فوق كل كلمة، ويهيمن به سلطانه على سلطان الجاهلية. فقد هيأ الله هذا الفتح – فتح مكة – للمسلمين بفضله وإرادته وقدرته، فكل شيءٍ خاضع لملكه وتدبيره، وكان الله ولا يزال على كلِّ شيءٍ قديراً، وقد يقدِّم فتحاً ويؤخِّر آخر بحكمته وتقديره.

ولو أن المشركين قاتلوا المسلمين آنذاك – في الحديبية – لحقَّت عليهم الهزيمة، وانقلبوا خائبين خاسرين، ومن يخذله الله فلا ناصر له ولا ينفعه ولي ولا حميم. وهذه سنة ماضية من سنن الله في خلقه، بأنه ينصر عباده المؤمنين ويخذل الكافرين، وهو أمرٌ بيِّنٌ في منهاج الأنبياء في الدعوة إلى الله، وهو في سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين أكثر وضوحاً، لكون هذه الأمة موعودة بأنها لاتهلك بسنة بعامَّة. لكن النصر قد يتأخر لوقته المكتوب لحكمة يريدها العزيز الحكيم.

وتحدّثت الآيات عن صلح الحديبية الذي سبقته بعض محاولات الغدر من المشركين، والتي باءت بالفشل، حيث أظهر الله أمرهم للمسلمين فأسَروهم وعفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فامتنَّ الله سبحانه على المسلمين بسلامتهم من سوء طوية المشركين، إذ بيَّتوا قتل المسلمين وأذاهم فكفَّ الله شرَّهم، كما امتنَّ عليهم بما منَّ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم – على المشركين من

العفو والسماحة فلم يقتلوهم بعد أن قدروا عليهم، لأن هذا الفعل يشيع في الناس الظن الحسن بالمسلمين، ورحمتهم بالخلْق، ولله في أمره وقدره حكمة بالغة.

ثم أوجزت أهم أحداث الصلح إيجازاً بليغاً في آيتين فقط هما ختام هذا المبحث. فوصف الله الأعداء بالكفر ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وعطف عليه فعلهم القبيح شرعاً وعرفاً، والمتمثل في صد الرسول – صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام – رضي الله عنهم- عن الاعتمار، وردهم عن دخول المسجد الحرام، في إيماءةٍ إلى أن هذا القرار لم يكن ناتجاً عن تعقلٍ وحكمة، وإنما أعماهم الكفر وطمس بصيرتهم الشرك فبكفرهم يحكمون وبحمية الجاهلية وعصبيتها يفكرون، ومع هذا فإن الله لم يأذن لرسوله والمؤمنين في قتالهم لأنه سبحانه يعلم أن مؤمنين ومؤمنات يقيمون بين ظهراني المشركين مخفين إسلامهم، وهم قلة مستضعفون؛ فخوفاً على هؤلاء ورحمةً بهم من أن يصيبهم إخوانُهم المجاهدون بأذى وهم لا يعلمون؛ ثم يصابون بغرم أو مسبة بسبب ذلك، أو يكون بهذا الفعل فرجة للمتربصين من المشركين فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، و لأن الله يعلم أن عدم القتال في هذه الفترة يؤكِّد خبر قدوم الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى مكة على حقيقته، وأنه سيهيء من يشاء الله هدايته من المشركين للدخول في الإسلام، فيسلمون ويدخلون في –رحمة الله– وينجون من العذاب الأليم ..

ولو أن هؤلاء الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات كان لهم ما يميزهم عن المشركين كانفصالهم عنهم في مكان خاص لأذن الله لهم بقتال المشركين وعذبهم عذاباً أليماً.

وختم المبحث بالمقارنة بين حمية الجاهلية وسكينة الله التي أنزلها على رسوله وعلى المؤمنين والتي سبق ذكرها في أول الحديث عن التناسق الموضوعي للآيات.

المطلب السادس : أهمُّ ما ترشد إليه الآيات :

١- إذا رضي الله عن أصحاب بيعة الرضوان، فعلى كل مسلم حبهم وتعظيمهم والرضا عنهم.(١)

٢- إثبات صفة الرضا لله – سبحانه وتعالى-، وعلى المسلم أن يتبع ما يرضي ربه من الأقوال والأعمال وأن يجتنب ما يسخطه.

٣- ذكر الشجرة في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ إنما هو وصف لحادثة عين ذكرها القرآن، ولا يلزم منه أن هذه شجرة مباركة فتزار وتعظم، ولذلك وردت الآثار عن الصحابة في التحذير من ذلك وعدم الاهتمام بمعرفة مكان الشجرة سداً لذرائع الشرك.

٤- السكينة نعمة من نعم الله وهي خاصة بالمؤمنين وكثيراً ما تذكر في سياق الجهاد والقتال مع المشركين، وينزلها الله على قلب من يشاء، لكن القلب الأنقى هو المحل الأحرى بنزولها فيه، فعلى عموم المسلمين والمجاهدين منهم بخاصة تنقية قلوبهم من شوائب الشرك والنفاق وتصفيتها من الاعتقادات التي لا توافق عقيدة أهل السنة والجماعة.

٥- ما تحقق للمسلمين من فتوحات وانتصارات باهرة بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم- يعد من أعلام النبوة، ومن الوعود التي وعد الله بها المؤمنين.

---

(١) روح المعاني جـ٢٥ ص٣٦٥

٦- الجهاد في سبيل الله فريضة من فرائض الإسلام فإذا حق الجهاد أو استنفر الناس من قبل الإمام المسلم فلا يتخاذلوا ولا يتقاعسوا، وليعلموا أنه متى صدقوا مع الله وأخلصوا النية وأطاعوا الله والرسول فإنهم منصورون وموعودون بغنائم كثيرة، وهو وعد من لا يخلف الميعاد.

٧- السلامة في الدين والسلامة في الأبدان نعمة من نعم الله - عز وجل- ولذلك فقد رضي الله عن صحابة رسول الله الأخيار، وقد علم سلامة دينهم وصحة قلوبهم، وامتن عليهم بكف الأذى عنهم وسلامة أبدانهم.

٨- قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا ﴾ "فيها حجة على المجبرة القائلين بأن العبد لا قدرة له ولا كسب لأجل نفي القدرة عنهم في هذه، فمفهومه ثبوت القدرة لهم على غيرها وإلا فلا فائدة لتخصيص هذه بنفي القدرة ."(١)

٩- إثبات اسم الله البصير، ومعنى البصير: "الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضاءها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء."(٢) بل وماهو أدنى من ذلك، سبحانه لا تخفى عليه خافيه. فمن التقوى لله أن نحرص كل الحرص أن لا يفتقدنا في ميادين الطاعات ولا يرانا في ميادين المعاصي.

١٠- جعل الله الكفر سبباً لصدِّ المشركين المسلمين من دخول المسجد الحرام بغير وجه حق. والمسلمون اليوم يلاقون كثيراً من الأذى والظلم من أعدائهم والذي لا

(١) تفسير ابن عرفة جـ٤ ص٣٥

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية،عنى بمراجعته : محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية – مصر ،١٤٠٠هـ. ص ١١٩

يجد له العقلاء مبرراً إلا الكفر، ومن المؤسف أن بعض المسلمين اليوم يغترون ببعض مواقف الكفار ويصفهم بالعدل ولا يدري بأنهم المطففون ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ المطففين: ٢ – ٣ والذين يعاملون بهذه المعاملة من قبل الكفار هم المسلمون وأحياناً أهل السنة والجماعة منهم على وجه التحديد.

١١- في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ دليلٌ على أن محل ذبح الهدي الحرم.(١) وقال الجصاص(٢) –رحمه الله- : ليس فيها دليل على أن محل هدي المحصر الحل، لأنه قد كان ممنوعاً في البداية عن بلوغ المحل، ثم لما وقع الصلح زال المنع فبلغ محله وذبح في الحرم."(٣)

١٢- في قوله تعالى: ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ " تفضيلٌ للصحابة وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد."(٤)

١٣- في قوله تعالى: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ دليل على مراعاة الكافر في سبيل الحفاظ على ذمة المسلم.(٥)

---

(١) محاسن التأويل جـ ١٥ ص٩٠

(٢) الجصاص: هو أحمد بن علي الرازي الحنفي أبو بكر صاحب كتاب أحكام القرآن وله شرح مختصر الطحاوي في الفقه وغيرهما، توفي سنة ستٍ وسبعين وثلاثمائة. طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص٥٦

(٣) أحكام القرآن جـ٣ ص٣٩٤

(٤) جامع أحكام القرآن جـ١٥ ص٢٨٦

(٥) جامع أحكام القرآن جـ١٥ ص٢٨٦

١٤- التحذير من نعرة الجاهلية وعاداتها والتي لا توافق شرع الله المطهر.

١٥- الحث على الالتزام بكلمة التقوى " لا إله إلا الله " قولاً وعملاً واعتقاداً والحرص على تحقيق شروطها لنكون من أهلها، فقد أثنى الله سبحانه على أهلها.

المبحث السادس

الموضوع السادس : (الوعد بدخول المسجد الحرام وظهور دين الإسلام)

ويشمل الآيتين ٢٧- ٢٨

ويشتمل على ستة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما.

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لآيتي المبحث في ضوء التناسق الموضوعي .

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيتي المبحث السادس

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيتين .

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيتان.

المبحث السادس

الموضوع السادس : (الوعد بدخول المسجد الحرام وظهور دين الإسلام)

قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما :

ذكرت الآيات السابقة خبر صدّ المشركين للمؤمنين عن دخول المسجد الحرام، وكان المؤمنون قد خرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلّم — مستبشرين بالرؤيا التي رآها رسول الله – صلى الله عليه وسلّم — في المدينة. وقد هالهم ألاّ تتحقّق الرؤيا في ذلك العام، وأن يردُّوا عن المسجد الحرام، ووقع في نفوسهم الحيرة من أمرهم، فأكَّد الله سبحانه صدق الرؤيا وأنها وحيٌ منه، وأنها واقعة ولا بدّ، ليطمئنهم وليدخل بذلك عليهم الثقة بقوتهم، وليربِّيَ فيهم الجرأة على المشركين. ثمّ بشَّرهم بأنَّ وراء ذلك ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام، وهو ظهور الدين الحقِّ على الأديان كلّها ولو كره المشركون.[١]

(١) انظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السّور للبقاعي جـ ٢ ص ٤٩٤، و في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٢٩، وانظر التحرير والتنوير جـ ٢ ص ١٩٨

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾:

عن مجاهد، قال: أُرِيَ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وهُو بالحديبية، أنّهُ يدخل مكّة هُوَ وأصحابه آمِنِين محلقين رؤوسهم ومقصّرين، فقال له أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤياك يا رسول الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ إلى قوله فجعل من دُون ذلك فتحاً قريباً يعني النّحر بالحديبية ثم رجعوا ففتحوا خيبر ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة.(١) وهنا أنَّ الرؤيا كانت بالحديبية ، وهذا خلاف المشهور فقد كانت في المدينة، وهي من أسباب خروج النبي – صلى الله عليه وسلّم – إلى مكة. وقد تقدم هذا في حديث المسور ومروان في الصحيح، حيث جاء فيه :" فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله أو ليس كنت تحدِّثنا أن نأتي البيت فنطوف به ؟..." وعند أحمد " وقد كان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – خرجوا لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله..." (٢)

(١) دلائل النبوة للبيهقي جـ٤ ص ١٢٧ رقم: ١٥٢٤ وانظر[تفسير مجاهد ، مجاهد بن جبر التابعي المخزومي، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي ، مجمع البحوث الإسلامية – إسلام أباد] جـ٢ ص ٤٨ والحديث مرسل لا يصح.

(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٣١ ص ٢١٩ رقم :١٨٩١٠

وقال الواحدي[١] – رحمه الله – : " قال المفسرون: إن الله تعالى أرى نبيه – صلّى الله عليْه وسلّم– في المنام، بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية، كأنه وأصحابه حلقوا، وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلون مكّة عامهم ذلك، وقالوا: إن رؤيا النبي – صلّى الله عليه وسلّم– حق.

فلما انصرفوا، ولم يدخلوا مكّة، قال المنافقون: والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام. فأنزل الله تعالى هذه الآية ."[٢]

---

(١) الواحدي: هو علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري إمام في العربية والتفسير صاحب البسيط والوسيط والوجيز في التفسير. توفي سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة. انظر سير أعلام النبلاء جـ١٨ ص٣٣٩

(٢) الوسيط في تفسير القرآن جـ ٤ ص ١٤٥ ولم يذكر الواحدي هذه الرواية في كتابه أسباب النزول.

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهاتين الآيتين في ضوء التناسق الموضوعي

* مناسبة قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ للآية قبلها :

بعد أن ختم الله الآيات السابقة بإحاطة علمه المستلزم لشمول قدرته، وقد علم ما خامر نفوس بعض الصحابة الذين ظنوا أن رؤيا رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – تتحقَّق عام الحديبية، ولم يكن ذلك، أخبر في هذه الآية عن الرؤيا التي أقلقهم أمرها، على سبيل التأكيد والتحقيق بما يقطع أدنى شكٍّ، فقال : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ... ﴾[1]

* المراد بالدخول في قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ :

في قوله تعالى: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ إشارة إلى أن هذا الدخول للنسك. وقد فُسر هذا بعمرة القضاء التي تمت بعد عامٍ من الحديبية.

(١) انظر نظم الدرر جـ ١٨ ص ٣٣٢ ، وانظر التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ١٩٨

قال ابن عاشور: " ويصدق عليه أيضاً الدخول في حجة الوداع، وعدم الخوف فيه أظهر. وأما يوم الفتح فلم يكونوا محرمين."[١] لكن القول الأول أولى.

*** وجه قوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ :**

ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في قوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، فقد أورد القرطبي في تفسيره خمسة أقوال:

الأول: أن ذلك حكاية ما قيل للنبي - صلى الله عليه وسلّم — في منامه، خوطب في منامه بما جرت به العادة فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، ولذلك استثنى تأدباً بأدب الله تعالى حيث قال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ الكهف: ٢٣

الثاني: خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه، كما قال ثعلب: استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون.

الثالث: كان الله علم أنه سيميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى.

الرابع: قيل معنى ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إن أمركم الله بالدخول. وقيل: أي إن سهل الله. وقيل: أي كما شاء الله.

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٠

الخامس: قيل (إن) بمعنى (إذ) أي إذ شاء الله كقوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٧٨، أي إذ كنتم. قال: وفيه بُعد.(١)

وزاد الرازي – رحمه الله- على ماسبق ثلاثة أقوال:

منها وهو السادس : أن المعنى ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ﴾ لا بجلادتكم ولا بإرادتكم ولكن بمشيئة الله.

ومنها وهو السابع : لأن ذلك من الله وعدٌ ليس عليه دين ولا حقٌ واجب ومن وعد بشيءٍ لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى، وإلا فلا يلزمه به أحد.

ومنها وهو الثامن : تحقيقاً للدخول، لأن أهل مكة منعوهم من الدخول تلك السنة واختاروا دخولهم في السنة القابلة، فحتى لا يفهم أن الدخول بإرادة أهل مكة ومشيئتهم قال: ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ﴾ ولا تشترط إرادتهم ومشيئتهم.(٢)

والمختار من هذه الأقوال وأصحها هو القول الأخير، وهو أن هذه الجملة وردت تحقيقاً وتوكيداً، وليست استثناءً وتعليقاً؛ فهذه الآيةُ قد أُكدت بمؤكداتٍ لفظيةٍ ومعنويةٍ كثيرة منها: لام التوكيد الداخلة على (قد)، ومنها: (قد) وهي هنا حرف توكيدٍ وتحقيق، ومنها: قوله: ﴿ صَدَقَ ﴾ ، ومنها: قوله: ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾، ومنها: لام

(١) انظر جامع أحكام القرآن جـ ١٥ ص٢٩٠

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٨٦-٨٧

التوكيد الداخلة على الفعل المضارع، ومنها: نون التوكيد الثقيلة الملحقة بالفعل نفسه ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾، فجاءت هذه الجملة في ختام هذه المؤكدات تتمة لها والله أعلم.

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء."(١)

وردَّ شيخ الاسلام ابن تيمية –رحمه الله- القولين الثالث والرابع وأقوال طائفةٍ من الناس جعلوا الاستثناء لأمر مشكوكٍ فيه وقال: " كلُّ هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منه، مع خروجهم عن مدلول القرآن، فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به"(٢) ثم فنَّد بطلان تلك الأقوال كلها.

وقد أورد شيخ الاسلام ابن تيمية سؤالاً فقال: " فإن قيل: لمَ لمْ يعلّق غير هذا من مواعيد القرآن؟ قيل: لأنَّ هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي- صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من الحديبية، وكانوا قد اعتمروا ذلك العام واجتهدوا في الدخول، فصدهم المشركون فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه إلا الله، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام ،إذ كان النبي - صلى الله عليه وسلم- وعدهم وعداً مطلقاً. وقد روي أنه رأى في المنام قائلاً يقول: لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله، فأصبح فحدَّث الناس برؤياه، وأمرهم بالخروج إلى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام، فنزلت هذه الآية واعدةً لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذي كانوا يظنون حصوله ذلك العام. وكان قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا تحقيقاً لدخوله وأن الله يحقق

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٥٤

(٢) مجموع الفتاوى جـ٧ ص٤٥٥

ذلك لكم؛ كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة: والله لأفعلنَّ كذا إن شاء الله ،لا يقولها لشكٍّ في إرادته وعزمه، بل تحقيقاً لعزمه وإرادته، فإنه يخاف إذا لم يقل: إن شاء الله أن ينقض الله عزمه، ولا يحصل ما طلبه كما في الصحيحين : " أن سليمان عليه السلام قال: والله لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة كل منهنَّ تأتي بفارسٍ يقاتل في سبيل الله فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل. فلم تحمل منهن إلا امرأةٌ جاءت بشِقِّ رجُل. قال النبي- صلى الله عليه وسلم- والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون."[١] فهو إذا قال: إن شاء الله لم يكن لشك في طلبه وإرادته، بل لتحقيق الله ذلك له، إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله، فإذا تألَّى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده، فإنه من يتألَّى على الله يكذبه ... فقوله سبحانه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تحقيق أنّ ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وإرادتي، فإنَّ ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن؛ فكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق ،لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وُعدوا به ذلك العام، وأما سائر ما وُعدوا به فلم يكن كذلك."[٢]

إضافة إلى هذا فإنه ومن خلال قراءتي في كتب التفسير لم أجد اعتراضًا على قول من قال: إن ذكر المشيئة هنا هو حكاية ما قيل للنبي – صلى الله عليه وسلّم – في الرؤيا ليعلّم الله العباد التأدب عند الحديث عن أمور المستقبل بردِّ مشيئة ذلك

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد بالجهاد، رقم: ٢٨١٩ ص ٥٧٣ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الاستثناء، رقم: ١٦٥٤ ص ٦٨٠

(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ٧ ص٤٥٥-٤٥٧

إليه، بما ورد صريحًا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ الكهف: ٢٣ والله أعلم!

*** الفرق بين قوله تعالى: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ وقوله: ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ :**

كلاهما حال وكلاهما بمعنىً متقارب ، والثانية مؤكِّدةٌ للأولى، أي أمْنَ مَنْ لا يخاف، فقد يكون الشخص آمناً ليس عليه خوف من شيء، ومع ذلك يخاف زيادةً في الحذر، فأخبرهم الله تعالى أنهم يتحقَّق لهم الأمن وأن لا يخافوا وتطمئنُّ نفوسهم،فيكون فيها إضافة معنى. وقيل ﴿ ءَامِنِينَ ﴾: في حال الدخول، و ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾: في حال استقراركم في البلد بعد الانتهاء من النسك. وهذا قول أكثر أهل التفسير .(١)

وقال ابن عاشور: " في قوله: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ ...﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يكونون أشدَّ قوة من عدوهم الذي أمنهم، وهذا يوميء إلى حكمة تأخير دخولهم مكَّة إلى عامٍ قابلٍ، حيث يزدادون قوةً واستعداداً."(٢)

*** المراد بقوله تعالى :﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ :**

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى– في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ : فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها

---

(١) انظر على سبيل المثال : مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٢ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٥٤ ، وروح المعاني جـ ٢٥ ص ٣٨١، والتحرير والتنوير جـ ٢٥ ص٢٠٠

(٢) التحرير والتنوير جـ ٢٥ ص ٢٠٠

عامكم ذلك ما لم تعلموه.[١] وذكر الطبري جزءاً من هذه المصلحة قد أشارت إليه الآيات من قبل فقال رحمه الله تعالى: "علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لا يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها في ذلك العام لوطؤوهم بالخيل والرجل فأصابتهم منهم معرةٌ بغير علم"[٢]. ومن المفسرين من ربط هذه الجملة بالجملة بعدها المعطوفة عليها فقال: "﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ من الحكمة الداعية لتقديم ما يشهد للصدق علماً فعلياً ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لأجل هذا العلم ﴿ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل تحقق الرؤيا ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو خيبر."[٣] ولعل المضمر هنا يتسع لهذه المعاني وأكثر منها والله أعلم.

*** المراد بالفتح في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾:**

قد تقدم معنا أن هذا الفتح هو صلح الحديبية، وقد وقع خلافٌ بين المفسرين هل هو صلح الحديبية أو هو فتح خيبر، فاختار بعضهم أحد القولين واختار بعضهم القولين معاً، وقد لخص هذا الخلاف ابن جرير الطبري – رحمه الله- فقال : "اختلف أهل التأويل في الفتح القريب الذي جعله الله للمؤمنين، دون دخولهم المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين فقال بعضهم: هو الصلح الذي جرى بين رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – وبين مشركي قريش ...

(١) انظر معالم التنزيل ص١٢١٤ ، و تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٥٤

(٢) جامع البيان جـ٢١ ص٣١٧

(٣) روح المعاني جـ٥ ص٣٨٤

وروى بسنده عن الزهري قوله: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ يعني: صلح الحديبية، وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا، فالتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر .

وقال آخرون: عني بالفتح القريب في هذا الموضع فتح خيبر. وروى بسنده عن ابن زيد في قوله: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ قال: خيبر. ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه جعل للرسول والذين كانوا معه من أهل بيعة الرضوان فتحاً قريباً من دون دخولهم المسجد الحرام، ودون تصديقه رؤيا رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – وكان صلح الحديبية وفتح خيبر دون ذلك، ولم يخْصص الله تعالى ذكره خبره ذلك عن فتح من ذلك دون فتح، بل عم ذلك، وذلك كله فتح جعله الله من دون ذلك.

والصواب أن يعمه كما عمه، فيقال: جعل الله من دون تصديقه رؤيا رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – بدخوله وأصحابه المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون المشركين، صلحَ الحديبية وفتحَ خيبر."(١)

وما قاله الطبري – رحمه الله – ذكره كثيرٌ من المفسّرين، إمّا جمعاً بينهما وإما بقولهم (أو) بينهما، وبالنظر في القولين السابقين نجد أنّ لكلٍّ واحدٍ منهما وجهاً:

---

(١) جامع البيان جـ٢١ ص٣١٨- ٣١٩

فالقول بصلح الحديبية، هو قول أكثر المفسّرين.(١) ويؤيده مجيئه في سياق الرؤيا وهو أقرب فتحٍ بالنسبة للرؤيا، وكذلك كونه سبباً تهيأ بعده الدخول حسب شروط الصلح، ولأن فتح خيبر قد وردت الإشارة إليه مرتين؛ مرةً في قوله تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ ومرةً ثانية في قوله تعالى: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ على أحد القولين.

وأما القول بأنه فتح خيبر فيؤيدهُ أنهُ أقرب فتحٍ بعد نزول هذه الآيات، ولأنه اسمٌ موصوفٌ قد تكرر ذكره بالوصف نفسه وقد تقدم معنا في قوله تعالى: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أن الصحيح من أقوال المفسرين في المراد بالفتح هنا أنه فتح خيبر، وكون الاسم الموصوف عند تكراره يراد به معنى واحدٌ أولى من أن يراد به معنيان مختلفان. وقد أيد ابن عاشور –رحمه الله– أنه فتح خيبر فقال: " في إيثار فعل جعل في هذا التركيب دون أن يقول: فتح لكم إفادةٌ إلى أن هذا الفتح أمرهُ عجيب، ما كان ليحصل مثله لولا أن الله كونه. وصيغة الماضي في جعل لتنزيل المستقبل المحقق منزلة الماضي، و ﴿ دُونِ ﴾ هنا بمعنى غير. والمعنى: فجعل فتحاً قريباً لكم زيادةً على ما وعدكم من دخول مكة آمنين، وهذا الفتح هو فتح خيبر."(٢) وأرى أنّ هذا لا ينحصر على فتح خيبر بل إن قولهُ: "إن هذا الفتح أمرهُ عجيب، ما كان ليحصل مثله لولا أن الله كونه". هو أظهر في صلح الحديبية منه في فتح خيبر، حتى أن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين– لم يدركوا أنه فتح حتى سئل الرسول – صلى

(١) الجامع في أحكام القرآن جـ١٥ ص٢٩١

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٠ – ٢٠١

الله عليه وسلّم – عن ذلك فقال: "إي والذي نفسي بيده إنّه لفتحٌ" وكل ما ذكر ابن عاشور هنا يصلح للفتحين، ولعلَّ القول بأنَّه صلح الحديبية هنا أوْلى ، بخلاف الأولى التي كان فعلها :﴿ وَأَثَـٰبَهُمْ ﴾ والله أعلم.

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ :**

قال ابن عاشور – رحمه الله- : " هذه الآية زيادة تحقيق لصدق الرؤيا بأن الذي أرسل رسوله - صلى الله عليه وسلّم – بهذا الدين ما كان ليريه رؤيا غير صادقة، وبهذا يظهر لك حسن موقع الضمير والموصول في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ لأن الموصول يفيد العلم بمضمون الصلة غالباً، والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا ﴾ وهم يعلمون أن رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – وحي من الله، فهو يذكرهم بهاتين الحقيقتين المعلومتين عندهم حين لم يجروا على موجب العلم بهما فخامرتهم ظنون لا تليق بمن يعلم أن رؤيا الرسول وحي، وأن الموحي له هو الذي أرسله فكيف يريه رؤيا غير صادقة، وفي هذا تذكير ولوم للمؤمنين الذين غفلوا عن هذا وتعريض بالمنافقين الذين أدخلوا التردد في قلوب المؤمنين."(١)

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠١

* **المراد بقوله تعالى: ﴿ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ :**

ذكر العلماء عدة معانٍ لـ (الهدى) و (دين الحق) ومنها: أن الهدى: العلم النافع. ودين الحق: العمل الصالح.[١] ومنها أن الهدى: البيان الواضح الذي يبلغه للناس. ودين الحق: هو الإسلام.[٢]

ومنها أن الهدى: ما به الهدى وهو القرآن. ودين الحق: هو السنة.[٣] ومنها أن الهدى: هو الاعتقاد وأصول الدين. ودين الحق: أحكام الدين وشرائعه.[٤] ومثله قول شيخ الإسلام ابن تيمية: الهدى هو الإيمان ودين الحق هو الإسلام.[٥]

وجميع هذه الأقوال متقاربة المعنى، فالله سبحانه وتعالى أرسل رسوله بالهدى أي بأسباب الهداية للناس ومنها الإيمان والاعتقاد الصحيح والانتفاع بالقرآن والاستفادة من العلم النافع، والبلاغ المبين وأمثالها.

وأرسله بدين الحق وهو الإسلام بما يحويه من الأقوال الحسنة والأعمال الصالحة والأحكام العادلة والآداب الفاضلة والأخلاق الكريمة وأمثالها. والله أعلم !

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٥٧ و تيسير الكريم الرحمن ص١٣٤٤

(٢) انظر جامع البيان جـ٢١ ص٣٢٠

(٣) انظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠١

(٤) انظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠١

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام جـ٧ ص١٦٦

* معنى قوله تعالى: ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ ﴾ :

معنى ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ ﴾ أي ليظهر ما جاء به من الهدى والإيمان والشريعة والأحكام بالأدلة السمعية والبصرية وبالحجج العقلية وبالبراهين الناصعة التي تبين أنه الحق، ويدعو الناس إلى الإسلام مبشراً ونذيراً ،كما يدعو الصادين عن سبيل الله باليد واللسان وبالسيف والسنان حتى يعلو دين الله الحق على سائر الملل والأديان، " ولقد كان الأمر كذلك فإن الله تعالى فتح بعد جميع بلاد العرب، وبلاد فارس بكمالها وقتل ملكها يزدجرد، ومزق ملكها، فلم يقم بعده لهم ملك إلى اليوم، وفتح أكثر بلاد الروم والغرب، وتواترت الفتوح، وارتفعت رايات الإسلام براً وبحراً إلى أن ظهر الدين."[١]

وباستمرار انتشار دعوة الإسلام لتبليغ دينه في بقاع الأرض، واستمرار رفع راية الجهاد في سبيل الله مع ماوعد الله به المؤمنين من النصر والتأييد والفتوحات والغنائم يزداد الدين ظهوراً واستعلاءً ويزداد المسلمون عزةً وكرامة. وهكذا لاتذهب الدنيا حتى يغلب الإسلام على أهل كل دين، أو يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.[٢]

(١) مقاصد السور للبقاعي جـ٢ ص٤٩٤

(٢) انظر معاني القرآن للفراء جـ٣ ص٦٨

المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيتي المبحث السادس

لقد حوى هذا المبحث بشارتين عظيمتين: البشارة الأولى: تصديق رؤيا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ودخوله مع أصحابه المسجد الحرام آمنين وكان الرسول - - صلى الله عليه وسلّم – قد فرح بتلك الرؤيا التي رآها في المدينة وأخبر بها أصحابه ففرحوا بها، لأنَّ في ذهاب النبي – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام إلى مكّة - مسقط رأسهم وبلدهم الذي أُخرجوا منه- معتمرين، معظمين لبيت الله الحرام إشعاراً ببداية علاقة جديدة، وظهور طور جديد من الدعوة المباركة، طور تسكن فيه النفوس، وتأمن فيه الأرواح، بعيداً عن وطأة الحروب وضراوة المعارك، خصوصاً وقد اشتاق المسلمون لزيارة البيت الحرام والطواف به، بعد أن حرموا لذة هذه العبادة بضع سنين إضافة إلى أن" إحرام النبي – صلى الله عليه وسلم- وصحبه بالعمرة فحسب –وهم يريدون دخول مكّة- آيةٌ على الرغبة العميقة في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علائق أهدأ وأرق".[١] فخرجوا يحدوهم الأمل في تحقيق هدفهم دُون مقاومة وصدّ، لأنهم يعلمون –وجميع قبائل العرب تعلم- أنه ليس من حق قريش أن تصدّ عن البيت الحرام من جاء إليه زائراً معتمراً، فكان في هذا الحدث إحراجٌ شديدٌ لقريش، فإن تركوهم وما يريدون كان ذلك دليلاً على قدرة المسلمين على العودة إلى بلادهم التي أخرجوا منها متى شاءوا، وهذا يحرجهم أمام القبائل العربية التي كانت ترى في قريش الزعامة والسيادة، وقد علمت هذه القبائل أنَّ مشركي قريش في عداء دائم وحروب مستمرة مع المسلمين. ولذلك قال رسولهم الذي بعثوه

(١) المصدر السابق

إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- سهيل بن عمرو: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة – أي قهراً- ، وإن منعوهم فإن هذا الأمر لا تعرفه العرب من قبل. فجميعهم يعظمون البيت، ولذلك قال لهم رسولهم من بني كنانة: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت.

وقد أراد المسلمون من خلال هذه الزيارة أن يثبتوا حقّهم الديني في زيارة هذا البيت العظيم متى شاءوا للحج أو الاعتمار.

نعم إن الرؤيا التي رآها رسول الله – صلى الله عليه وسلم- والتي صدقه الله إياها، لم يكن دخول مكّة فيها سوى للاعتمار، ولم تكن لقتال وحرب.

لكنَّ هذه الواقعة وقد ابتدأت بخروج جيش خالد في خيل قريش من قبل المشركين لم تكن آمنة، لذلك سار النبي – صلى الله عليه وسلم- حتى إذا كان بالثَّنية التي يُهبط عليهم منها بركت راحلته وحبسها حابس الفيل.

" إن الله الذي عقر الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتائب أن توالي زحفها وتشرع رماحها، وقد تحرز نصراً أقل على الإسلام في جدواه من سلم مباركة النتائج "(١)

لقد صدقت الرؤيا حقا، وتحقق ما وُعد به رسول الله والمؤمنون من دخول المسجد الحرام بعد عام واحد في عمرة القضاء. ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية، في فتح مكة وغلبة دين الله عليها. وظهر دين الله في

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة – القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣٤٤

مكة، ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد. ثم تحقق وعد الله بأن ظهر دين الحق في المعمور من الأرض قبل مضي نصف قرن من الزمان، حيث ظهر في امبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من امبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) .. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.وهذه هي البشارة الثانية، وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله- حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها، وبخاصة في أوربا وجزر البحر الأبيض. وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، من حيث هو دين. فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة، ومع سنن الله الكونية والاجتماعية، ولما فيه من تلبية عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب! وما من صاحب دين غير الإسلام، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة..

وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل، والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب ![1]

* حكمة الختم بقوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾:

لقد تكرر أول هذه الآية في سورتي التوبة والصف وختمتا بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣٣ و الصف: ٩

وهنا في هذه الآية – في سورة الفتح – لما كانت كراهة المشركين ظاهرةٌ بينة؛ قد بانت في صدِّ المسلمين عن المسجد الحرام، وبانت مع الحمية الكريهة عند كتابة الصلح والتي تمثلت في إنكار البسملة، وإنكار عبارة (محمدٌ رسول الله) حسن الختم بقوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾. فليست رسالة محمد - صلى الله عليه وسلّم – بحاجة إلى شهادة أحد منكم، بل كفى بالله شهيداً على أنه رسول الله،كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ المنافقون: ١ وليست رؤيا رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – بحاجةٍ إلى شهادة المنافقين أو غيرهم بل ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ... ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾. والرسول - صلى

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٩ - ٣٣٣١

الله عليه وسلّم – ليس بحاجة شهادة أحد على نصر الله له وإظهار دينه، فالله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . والله أعلم !

* **ومن دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ما يلي :**

١- إن تحقق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – في دخوله وأصحابه المسجد الحرام معتمرين آمنين على مرأى ومسمع من قريش كلها يعد انتصاراً فهو من إرهاصات فتح مكة العظيم.

٢- في قوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ ﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه.(١)

٣- في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ إشارة إلى موضوع السورة، فالفتوحات من علامات النصر وأسباب الظهور والتمكين.

٤- في قوله تعالى: ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ دلالة على ضرورة التزود بالعلم النافع والعمل الصالح لأنه مطلب للجهاد والدعوة.

٥- النص الصريح في قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ ﴾.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ فيها إشارة إلى تأييد الرسول – صلى الله عليه وسلّم – ونصرته.

---

(١) تفسير الجواهر الحسان جـ٤ ص١٨١

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيتين :

لقد صدق الله رسوله – صلى الله عليه وسلّم – رؤياه التي رآها في المدينة وقصها على أصحابه فاستبشروا لعلمهم بأن رؤيا الأنبياء حق، وهذه الرؤيا تدل على دخولهم مكة محلقين ومقصرين، فظنّوا لشدة شوقهم لزيارة البيت بأنها تتحقق في خروجهم للعمرة عام الحديبية، فلما صدتهم قريش عن دخول البيت الحرام آلمهم ذلك وخامر نفوسهم الحيرة من عدم تحققه، فأكد الله – سبحانه وتعالى– صدق الرؤيا وأنها واقعة لا محالة وسيدخلون مكة مؤدين للنسك في أمن واطمئنان ودون خوف من صدٍ أو أذى من قبل المشركين. وزيادة على تأكيد دخولهم المسجد الحرام بإرادته ومشيئته ذكر حالهم وقت الدخول وكونهم آمنين وذكر حالهم عند الحل من النسك وأن بعضهم يحلق شعر رأسه وبعضهم يقصّره – وكل ذلك جائز شرعًا مع ماجاءت به السنة من فضل الحلق–، وذكر حالهم عند بقائهم في مكة بعد تمام النسك وأنهم مستمرون في التنعّم بالأمن فلا يخافون بطش قريش ولا أذاها. وهذا التفصيل في وصف حالهم فيه تأكيد وتحقيق لهذا الدخول إضافةً إلى المؤكدات اللفظية التي ذكرت في الآية. وإنّما تأخر دخولهم هذه المرة لِما علم الله – سبحانه وتعالى– من أمور لم يعلموها توافق حكمته وإرادته بما يحقق لهم المصلحة الدينية والدنيوية، فلا يلحقون الضرر بأخوانهم المؤمنين الموجودين في مكة، ويكون في مجيئهم هذه المرة معرفة لحال أعدائهم وقوتهم، ويستثمرون الوقت لمزيد من الإستعداد وتعبئة القوة المعنوية والمادية، ولأجل هذا فقد جعل الله لهم قبل الدخول الذي وعدهم به فتحًا قريبا، وهو إما أن يكون صلح الحديبية بما نتج عنه من مكاسب معنوية، فهو الفتح الذي هيأت شروطه

دخول مكة من خلال وقف القتال وإشاعة الأمن وإتاحة الجو الهادئ المستقر الذي يمكن أن تنشط فيه الدعوة وتتم فيه المقابلات فيزداد فيه عدد المسلمين، كما قال الزهري – رحمه الله –، ويعرف الناس خلال هذه الفترة حقيقة دين الإسلام بعيدًا عن الإعلام المضاد المضلل الذي يقوم به مشركو مكة.

وإما أن يكون ذلك هو فتح خيبر الذي كافأهم الله وخصهم به دون غيرهم، بما نتج عنه من مكاسب مادية من الأموال والبساتين والثمار، والذي وعدهم به من قبل فازدادوا بذلك إيمانًا ويقيناً وطابت نفوسهم به.

والله الذي صدق رسوله رؤياه هو الذي أرسله من قبل بالهدى والبيان ونشر العلم النافع والنور المبين، وبدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده وأكمله وهو الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

وغاية هذا الدين هداية الناس وأن يكون ظاهرًا مستعليًا منهاجًا لحياة الناس ومهيمنًا على ما سواه من الأديان والملل والأعراف والنظم التي يتبعها الناس مما لا يوافق دين الإسلام.

وكفى بالله وحده سبحانه شهيدًا على رسالة نبيه – صلى الله عليه وسلّم – وصلاحها للناس في كل زمان ومكان، وشهيدًا على نصر المؤمنين وظهور دينه وتمكينه.

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيتان:

١- إن ما يعدُ الله به هو حق وواقع لا محالة.

٢- التأدب في الحديث عن الأمور المستقبلية بما علمنا الله فنقول: (إن شاء الله).

٣- أفاد قوله تعالى: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ و قوله: ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ البشارة بمستقبل يسود فيه الأمن والاستقرار ، وقد استثمر المسلمون هذه الفترة وهي فترة ما بعد الصلح استثماراً حقَّق نتائج باهرة، ولهذا ينبغ اغتنام أوقات الأمن والاستقرار في العبادة وتعليم الناس أمور دينهم ونشر دعوة الإسلام لأن أوقات الشدائد والفتن تضعف فيها فرصة ذلك.

٤- قوله: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ دلّ على أن الحلق غير متعين في النسك بل يجزئ عنه التقصير. واستدل بالآية على أن الحلق والتقصير لشعر الرأس دون اللحية.(١)

٥- في قوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ ﴾ إشارة إلى الحذر من الاستعجال بل ينبغي مراعاة الحكمة في الأمور كلها، والسمع والطاعة لله ورسوله، والوقوف عند حدود الله ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾
النساء: ١٩

٦- إن سنّة النبي – صلى الله عليه وسلّم – حق.

٧- إن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

---

(١) انظر روح المعاني جـ ٢٥ ص٣٨٣

٨- ينبغي تعلّم الأدلة والبراهين العلمية اليقينية ونشرها؛ لما في ذلك من التأثير القوي على محبي العدل والإنصاف ومن يملكون قدرًا ولو يسيرًا من الفطرة السليمة.

٩- ينبغي أن يتخصص فرقٌ من المسلمين لدراسة أساليب الحوار وإظهار الحجّة والمجادلة بالتي هي أحسن وأن يستثمروا الوسائل الحديثة المتاحة من أجل تبليغ دين الله، وأن يستعدّ المسلمون بالقوة المادية المطلوبة حسب قدرتهم، وأن لا يبخلوا في سبيل ذلك بشيء؛ لأن في إظهار دين الإسلام وعلوه شرفٌ وعزٌ لهم، وخلاصٌ وإنقاذٌ من الضلالة والشر لغيرهم.

١٠- في قوله تعالى :﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ فضل تأكيد لما وعد الله تعالى به من الفتح وأنه سبحانه سيفتح للمؤمنين من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم الشيء الكثير.(١) وفيها إشارة إلى فتح مكة لأن من يقوى بالظهور على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة.(٢)

١١- في قوله تعالى:﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ تسليةٌ للنبي – صلى الله عليه وسلّم – والمؤمنين لأنهم تأذوا بإنكار المشركين للرسالة عند كتابة الصلح.(٣)

---

(١) انظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٨٥

(٢) انظر مفاتيح الغيب جـ.٢٨ ص٨٨

(٣) المصدر نفسه

المبحث السابع

الموضوع السابع : (**الصفات الحسان لسيد الأنام وصحبه الكرام**) ويشمل الآية : ٢٩

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة الآية لما قبلها.

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية للآية في ضوء التناسق الموضوعي.

المطلب الثالث : التناسق الموضوعي في آية المبحث السابع

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآية .

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآية .

المبحث السابع

وموضوعه : الصفات الحسان لسيد الأنام وصحبه الكرام

قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾

المطلب الأول : مناسبة قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ لما قبلها :

تحدثت السورة الكريمة عن أصناف من المخلوقين كجند الله من الملائكة وغيرهم، وعن البشر بأصنافهم، وعن سيد البشر محمد - صلى الله عليه وسلّم – وعن المؤمنين الذين كانوا معه رجالاً ونساء، وعن عامة المؤمنين، وعن المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات، وجاء فيها الحديث عن أحوال العصاة والمطيعين، وشملت الوعد والوعيد، ولما كان الأمر كذلك ناسب ختم السورة الكريمة بذكر صفوة هؤلاء البشر وهم محمد رسول الله، والذين معه على دينه وسنته، فذكرت صفاتهم لتكون نبراساً لمن يريد أن يقتديَ ويهتدي. " ولما بين [في الآية التي قبلها] صدق الرسول - صلى الله عليه وسلّم – في رؤياه واطمأنت نفوس المؤمنين أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول - صلى الله عليه وسلّم – والثناء على المؤمنين الذين معه "[١] وذكر سيماهم ووعدهم بجنات تجري من تحتها الأنهار.

(١) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٢ ومابين المعقوفتين من عندي

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية للآية في ضوء التناسق الموضوعي :

من خلال الدِّراسة التَّحليلية للآية سأكتفي بذكر المسائل التَّالية :

*** ماذا أفاد قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ؟**

أفادت جملة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ في الآية الكريمة أربعة أمور هي :

١- الجواب على إنكار مفوض قريش في الصلح لهذه الجملة، وهو مناسب لخاتمة الآية السابقة، فالله يشهد أن محمداً رسول الله ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

٢- لما كان المقام مقام وصف للرسول وللمؤمنين الذين يستحقون النصر والتأييد، ابتدأ بوصف قائدهم وإمامهم فأوجز الوصف فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ " وهو مشتمل على كل وصف جميل "[١] فأغنى ذلك عن التفصيل في صفاته، " وهذا من العناية والاهتمام بذكر مناقبه - صلى الله عليه وسلّم – "[٢] فكأن المعنى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وكفى ! " لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه "[٣] فهو محاط برعاية ربه وتسديده ونصرته، يبلغ رسالته وينشر الهدى والرحمة بين الناس، وهو على خلق عظيم، ولهذا فإن قوله: ﴿ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ " خبر سيق للمدح لا للتمييز "[٤]

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص ٣٢٥٨

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٥ ص ٢٠٣

(٣) جامع أحكام القرآن جـ١٥ ص٢٩٢

(٤) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٨٨

٣- " ليس المقصود بذلك إفادة أن محمداً رسول الله ، وإنما المقصود بيان رسول الله من هو، بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ فيعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان؛ مَن هذا المتحدَّث عنه بهذه الأخبار ؟ فيقال له: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ " [١]

٤- الجملة تأكيد لما تقدم، لأنه لما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ ، ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته، فقد شهد له بها ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ من غير نكير.[٢] قال الألوسي: " وهذا هو الوجه الأرجح والأنسب للمساق."[٣]

فجملة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ حقيقة كبرى راسخة في قلوب المؤمنين وفي أعماق التاريخ بل وفي الدار الآخرة، فهو محمدٌ يحمده الأولون والآخرون وهو المحمود يوم القيامة، وهو رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين وأفضلهم، وسيد البشر أجمعين، فمهما أوذيَ أو عوديَ ،ومهما حوربت سنته ،وهجر منهاجه وهديه،

---

(١) انظر نظم الدرر جـ١٨ ص ٣٣٧ ، والتحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٣ والنصُّ له، ولو قال في نهاية الجملة الأولى : (فحسب) لكان أولى .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢٨ ص٨٨

(٣) روح المعاني جـ٢٥ ص٣٨٥

فإن ذلك لا يغير من الحقيقة والنتيجة شيئاً لأنّ من لم يقرّ بأنَّ محمداً رسول الله، ويتبعه –كما أمر الله– فهو كافر، وإن مات على ذلك فهو مخلد في النار.(١)

*** معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ :**

قيل في المراد بالذين معه أنهم من شهد الحديبية، والذي عليه غالب المفسرين أنهم جميع أصحابه – صلى الله عليه وسلّم – رضي الله تعالى عنهم.(٢) وقد ذكر الفراهي عند حديثه عن قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾التوبة: ٤٠ أن هذه المعية لم تستعمل إلا في موضع المدح والرضا فإن أريد بها خلاف ذلك وضده لابد أن تأتي معها قرينة واضحة كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾النساء: ١٠٨ فإذا لم يكن معها قرينة صارفة، كان نصاً في الرِّضا؛ ولذلك ترى في قوله تعالى :﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أنه اكتفى بهذا اللفظ في ذكر أعوانه وأنصاره ومحبيه. .(٣)

---

(١) راجع محاضرة: (تفسير قوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾) للدكتور: عبد الرحمن بن صالح المحمود. موقع دروس الإسلام على الشبكة الإلكترونية.

(٢) انظر روح المعاني جـ٢٥ ص٣٨٦

(٣) انظر مفردات القرآن ص ٢٥٨

فكلهم معه على دينه وشريعته، ومعه في دعوته وفي هجرته، ومعه في جهاده وفي غزواته ومعه في العقيدة والشريعة، ومعه في حال المهادنة والصلح وفي حال الحرب والنزال ، فلا يوجد منزلة أرفع للبشر كالمعيَّة مع رسول الله – صلى الله عليه وسلّم.(١)

* معنى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾:

هذا وصف لصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –، وأنهم لا يستكينون للكفار ولا يداهنونهم، بل إنَّ مِن أظهرِ صفاتهم أنهم يظهرون عداوتهم لأعدائهم ويقاتلونهم بشدة وغلظة استجابة لأمر الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة :١٢٣.

وفي المقابل هم رحماء بالمؤمنين، فهي صفتان جمع بينهما لتلازمهما، قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله-: " وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن.(٢)

* المراد بقوله تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ :

بعد أن ذكر معاملاتهم مع الخلق، زكى معاملاتهم مع الخالق فقال: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ والمراد بذلك الثناء على أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلّم –

(١) محاضرة المحمود السابق الإشارة إليها

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٥٨

بأهم ملازمين للعبادة، وكنى بالركوع والسجود عن الصلاة، وذكر الصلاة دون غيرها لأنها رأس العبادات وأشرفها بعد التوحيد.

*** معنى قوله تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ :**

أي أن هؤلاء الصحابة يلتمسون بكثرة عبادتهم وصلاتهم فضل الله ورضوانه، ويؤدون عباداتهم مخلصين لله عز وجل وحده وابتغاء الجنة ورضوان الله.

ويرى الحافظ ابن كثير –رحمه الله– أن المراد العمل وطلب الرزق، فوصفهم بكثرة الصلاة وكثرة العمل(١)، فهم قوم جادون في حياتهم ومعاشهم يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة. ومع ذلك لا ينسون حظهم من الدنيا بل يمشون في مناكبها ويأكلون من رزق ربهم، وحياتهم جد وعمل وليست بطالة واتكالاً على الغير.

ومن تواضعهم لربهم، فإنهم لا يرون أعمالهم شيئاً، فلم يسألوه أجر أعمالهم، بل سألوه فضله ورضوانه. فوعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

*** معنى السيما الواردة في قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾:**

بعد أن ذكر كثرة صلاتهم أردف بأثر ذلك عليهم؛ لأن للصلاة أثراً كبيراً على سلوك العبد، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ العنكبوت: ٤٥ .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٥٨ وانظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٤

وأما السيما فمعناها العلامة، وللمؤمنين سيماهم التي يعرفون بها، وللمنافقين سيماهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ محمد: ٣٠ وللكفار عموماً سيما تظهر على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ﴾ الحج: ٧٢ [(١)]..

وإذا كان الفرح والسرور، والحزن والغضب، والسكون والهيجان، قد يدرك ويعرف من أثر ذلك على وجه الانسان، فكيف لا يكون للإيمان والكفر أثر على الوجه.

أما أثر السجود فقد ذكروا فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الأثر الذي يحدث في جبهة السجاد من أثر السجود مما يشبه أثر الكي وهذا أثر محسوس وظاهر للعيان، وإنما يكون محموداً إذا حصل من دون قصد وتعمّد، ومع وجود الاخلاص والبعد عن الرياء.[(٢)] قال مجاهد: ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة.[(٣)]

وقد يكون أثراً محسوساً على الوجه بسبب السهر في قيام الليل. وقد ذكر علي – رضي الله عنه – الصحابة يوماً فقال: "لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعز، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا

(١) انظر : الاستقامة ،أحمد ابن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، ط جامعة الإمام – الرياض ١٤١١هـ جـ١ ص٣٥٣
(٢) انظر روح المعاني جـ٢٦ ص٣٨٨ والتحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٥
(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ١٥ ص ٢٩٤

أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين."(١)

الثاني: الأثر النفسي للصلاة، وهو أثر يشعر به الرائي دون أن يراه من السكينة أو الوضاءة، أو السمت الحسن أو الهيبة أو النور. وكل ذلك بسبب الخشوع والتواضع لربهم. وهذه الآثار التي تبدو على ظواهرهم تعكس ما في بواطنهم من الإخلاص و الصدق في العبادة وتعظيم الرب المعبود.(٢)

قال السعدي –رحمه الله-: " لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم"(٣)

وهذا الأثر في الدنيا لا يُنكر، فقد يظهر على صفحات الوجه و فلتات اللسان ما قد يخفيه المرء:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٤)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: " وهذا أمر محسوس لمن له قلب، فإن مافي القلب من النور والظلمة، والخير والشر، يسري كثيراً إلى الوجه والعينين وهما أعظم الأشياء ارتباطاً بالقلب ... والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه، فقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ محمد:٣٠ فهذا تحت المشيئة، ثم قال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ محمد: ٣٠ فهذا مقسم عليه محقق لا شرط فيه.

(١) صفة الصفوة، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتب العلمية – بيروت. ١٤٠٩هـ، جـ ١ ص١٧٣

(٢)جامع البيان جـ٢١ ص٣٢٣ ، وجامع أحكام القرآن جـ١٥ ص٢٩٣، و روح المعاني جـ٢٦ ص٣٨٨ ،

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص١٣٤٤

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨هـ، ص ١١١

وذلك أن ظهور ما في القلب على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه خفياً يعلمه الله، فإذا صار خلقاً ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السواد والقتمة حتى يظهر لجمهور الناس "(١)

الثالث: أن السيما أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة، وهو بياض يغشى وجوههم أو هو النور يوم القيامة،(٢) وهذا محل اتفاق.

ولا مانع من أن يكون المراد الأثر الدنيوي والأثر الأخروي وهو اختيار ابن جرير الطبري – رحمه الله – الذي قال بعد أن ساق كثيراً من أقوال السلف في معنى السيما بسنده : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال:

إن الله – تعالى ذكرُه– أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخص ذلك على وقت دون وقت. وإذ كان كذلك، فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا آثار الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وسمته، وآثار عناء فرائضه وتطوعه، وفي الآخره ماأخبر أنهم يُعرفون به، وذلك الغُرة في الوجه والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود.(٣)

---

(١) الاستقامة جـ١ ص٣٥٥

(٢) انظر التحرير والتنوير جـ٢٥ ص٢٠٥

(٣) جامع البيان جـ٢١ ص٣٢٦

* علام تعود الإشارة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ :

قوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من أوصاف الصحابة الجليلة. وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته في الفضل.(١)

واختلف المفسرون هنا، هل جميع ما ذكر من أوصافهم مذكور في التوراة والإنجيل كليهما، أم أن الوصف الأول قبل قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مذكور في التوراة، ثم يكون الوقف على كلمة التوراة، ويكون ما بعدها مستأنفاً ؟ وهذا الأخير هو الصواب. لأن المثل الأول كان وصفاً محضاً، بينما المثل الثاني مغايرٌ له، " بوصفهم العجيب الشأن الجاري في الغرابة مجرى الأمثال "(٢) وكان فيه التشبيه التمثيلي لهم بالزرع في نموه واشتداده. ولو كانت الأوصاف كلها مشتركة في الكتابين لقال: وكزرعٍ ليعطف المثل الثاني على الأول.(٣) وتكرار ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ بدل أن يقول: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل يوحي بالفصل بينهما. والله أعلم !

* معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ :

هذا مثل ضربه الله – سبحانه وتعالى- للصحابة الكرام –رضي الله عنهم- في الإنجيل. فوصفهم بأنهم كالزرع، حيث يبدأ في أول ظهوره صغيراً وضعيفاً وقليلاً ومتفرقا، ثم يخرج شطأه: أي فراخ الزرع الصغار التي تنمو حوله، فتنمو هذه

(١) انظر روح المعاني جـ٢٦ ص٣٨٩
(٢) المصدر السابق
(٣) انظر جامع البيان جـ٢١ ص ٣٢٩

الشجيرات الصغيرة حول ساق النبته فتشده وتقويه حتى ينمو باعتدال، ويستغلظ: أي يتحول من الدقة إلى الغلظة تدريجياً حتى يتكامل ويقوى ويشتد، فيعجب به ناظروه من الزراع وغيرهم. وكذلك النبي – صلى الله عليه وسلّم – وأصحابه كانوا في بداية الرسالة قلة معدودين مستضعفين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ ﴾ الأنفال: ٢٦ ثم بازدياد الداخلين في الإسلام مع التعهد بالرعاية والتربية لم يزالوا يتكاثرون ويشد بعضهم من إزر بعض فيزدادون قوة وثباتا، حتى بلغوا الشأن الذي كان ومازال منارة للهدى، وقدوة لكل طالب للحق ومنشد للسعادة ومحب للحياة الطيبة الكريمة.[١]

*** المراد بقوله تعالى: ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾، والحكمة من تشبيههم بالزرع :**

لا شك أن الرعيل الأول من المؤمنين الذين تربوا على عين النبي – صلى الله عليه وسلّم – في صورتهم العلية المتكاملة النمو والنضج العزيزة القدرات والأخلاق، محل إعجاب لكل ناظر إليهم، وسامع عنهم. وإنما ذكر إعجاب الزراع عند تشبيههم بالزرع في نموه واشتداده وحسنه وتكامله حتى يثمر، لأنه إذا أعجب الزراع وهم الذين يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم من الناس.[٢] وإنما شبههم بالزرع لأن الجيل المؤمن يحتاج إلى تربية بناءة جادة ورعاية مستمرة لينتقل من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور حتى يؤتيَ ثماره كالزرع تماماً. ولأنَّ في الزرع منفعة خاصة

---

(١) انظر روح المعاني جـ٢٦ ص٣٩٠ ، وتيسير الكريم الرحمن ص١٣٤٥ ، وأضواء البيان جـ٧ ص٦٠٨

(٢) انظر روح المعاني جـ٢٦ ص٣٩٠

لأصحابه، ومنفعة عامة متعدية للبيئة وللناس وللبهائم وللطيور وللحشرات وللزرع نفسه إذ تؤخذ منه البذور والفسائل. ومثل هذا الزرع المؤمنون الأخيار أهل الطاعة فإنهم ينتفعون بطاعتهم واستقامتهم في الدنيا والآخرة، ويحتاج الناس إليهم وتصلح بهم الأرض ويشرق بوجودهم وجه التاريخ.

*** معنى قوله تعالى : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ :**

قال ابن جرير الطبري –رحمه الله– : " دلَّ ذلك على متروك من الكلام وهو أن الله تعالى فعل ذلك بمحمد - صلى الله عليه وسلّم – وأصحابه ليغيظ بهم الكفار"[١] ولقد كان الأمر كذلك، بل لم يزل كذلك فلا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا مشرك أو منافق.

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله– : " ومن هذه الآية انتزع مالك – رحمه الله– في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك."[٢] والمراد أنَّ من أغاظه الصحابة لإسلامهم وصحبتهم للنبي - صلى الله عليه وسلّم – أو لنقلهم الأحاديث الصحيحة التي لا توافق هواه فهذا هو الذي يكفر بالغيظ عليهم؛ لأنَّ هذا هو غيظ الكفار من الصحابة. قال ابن حزم – رحمه الله – : " وقد أخطأ من حمل الآية على هذا؛ لأنَّ الله – عز وجلَّ – لم يقل قط إنَّ كلَّ من أغاظه واحدٌ

(١) جامع البيان جـ٢١ ص٣٣٣

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص٣٢٥٩

منهم فهو كافر، وإنَّما أخبر تعالى أنه يغيظ بهم الكفار فقط. ونعم هذا حقٌّ ، وكلُّ مسلم فهو يغيظ الكفار.

وأيظاً فإنَّه لا يشكُّ أحدٌ ذو حسٍّ سليم في أنَّ عليّاً قد أغاظ معاوية وأن معاوية وعمرو بن العاص أغاظا علياً، وأن عماراً أغاظ أبا الغادية .(١)

وكلُّهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – فقد أغاظ بعضهم بعضاً، فيلزم على هذا تكفير من ذكرنا، وحاشا لله من هذا" (٢)

*** مناسبة قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ لما قبلها :**

لما أثنى الله – سبحانه وتعالى- على عبادتهم وكثرة صلاتهم، وثنى بقوله تعالى: ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا ﴾ ختم هذه الآية بما هو من كريم فضله وإحسانه ورضوانه فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ .

وعلق الوعد بالوصف على عادة القرآن ترغيباً في التمسك به وترهيباً من مجانبته.(٣)

---

(١) أبو الغادية : هو يسار بن سبع الجهني – رضي الله عنه – له صحبة ، وهو قاتل عمار. انظر: الإصابة جـ ٤ ص ١٥٠ رقم : ٨٨١

(٢) انظر: [الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، تحقيق: د. محمد ابراهيم نصر و د. عبدالرحمن عميرة، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع – جدة، ١٤٠٢ هـ] جـ ٣ ص ٢٩٥

(٣) نظم الدرر جـ٢٦ ص٣٤٦

* **ما أفاده قوله : ﴿مِنۡهُم﴾ في الآية الكريمة :**

مِنْ هنا قيل لبيان الجنس وقيل للتبعيض،ومن ذهب أنها للتبعيض جعلها لمن ثبت منهم على الإيمان والعمل الصالح، فلا يخرج من الذين مع النبي – صلى الله عليه وسلّم – إلا الذين ارتدوا، وحملها ابن جرير الطبري على التبعيض لكنه قصرها على من بعد الصحابة، فقال – رحمه الله –:" وقوله : ﴿ مِنۡهُم ﴾ يعني: من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع الذي وصف ربنا – تبارك وتعالى– صفته ... والهاء والميم في قوله: ﴿ مِنۡهُم ﴾ عائدة على معنى الشطء لا على لفظه، ولذلك جمع فقال: ﴿مِنۡهُم ﴾ ولم يقل: منه. وإنما جمع الشطء لأنه أريد به من يدخل في دين محمد – صلى الله عليه وسلّم – إلى يوم القيامة بعد الجماعة الذين وصف الله صفتهم."[(١)]

والقول بأنها للجنس أولى، ومثلها في ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٧٢ وكلهم محسن ومتقٍ.[(٢)] وكقوله تعالى: ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ الحج: ٣٠ والأوثان كلها رجس.[(٣)] فيكون المعنى شاملاً لعامة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والسابقون أولى.

(١) جامع البيان جـ٢١ ص٣٣٣-٣٣٤

(٢) مغني اللبيب ص٤٢١

(٣) انظر روح المعاني جـ٢٦ ص٣٩٢

وهذا القول أولى من القول بالتبعيض خصوصاً وقد استدل به الشيعة على ارتداد أكثر الصحابة ممن حضروا بيعة الرضوان. وهذا مردود عليهم، إذ لا شك أن مدحهم في الآية بما يدل على الاستمرار كقوله تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ . ووصفَهم بما يدل على الدوام والثبات كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ يأبى التبعيض والارتداد الذي زعموه عند من له أدنى إنصاف. ويزيد زعمهم هذا سقوطاً عن درجة الاعتبار أن مدحهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبل أن يخلق السماوات والأرض. ولا يكاد عاقل يقبل أن الله تعالى أطلق المدح وكتبه لأناس لم يثبت على تلك الصفة إلا قليل منهم.[1]

(١) انظر روح المعاني جـ٢٦ ص٣٩٢

المطلب الثالث : التناسق في آية المبحث السابع

لقد أدركنا في المباحث السابقة حتمية النصر للمؤمنين، ووقفنا على دلائل النصر في الآيات الكريمات، أما هذا المبحث فهو خاص بصفات الموعودين بالنصر وهي:

١- الشدة على الكفار، قال تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ ، لقد كان الصحابة الكرام في جهادهم في سبيل الله أشداء على الكفار، وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جمعاء ... وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها.[١] فهذه الشدة قد صرح بها القرآن الكريم، فليس في ذلك عيب ولا منقصة، فهي شدة ليس فيها ظلم، ولا تنافي حقوق الإنسان. وللشدّة وقتها كما في حالة النزال، وللرفق وقته كما في حال دعوتهم واستمالتهم لدين الإسلام.

لكن إظهار الإعتزاز بالدين أمام الكفار مطلوب، أما الضعف أمامهم في كل حالٍ بحيث لا يسمعون منا إلا سمعنا وأطعنا، ليس من أخلاق المؤمنين ولا يكون سبيلاً للعزة والكرامة والنصر، بل هو طريق المذلة والهزيمة.

والمسلمون اليوم يعيشون هزيمة نفسية شديدة ويُظهرون استكانة عجيبة للكفار، وهذا ما يشجعهم علينا وعلى إذلالنا وتهديدنا في كلِّ حين، ولو أن المسلمين أخذوا بالقوة والشدة تجاه أعداء الدين لانخنس أعداؤهم وجبنوا.

---

(١) انظر في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٢٩

قال السعدي – رحمه الله– عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ : " فلم ير الكفار منهم إلا الغلظة والشدة؛ فلذلك ذلَّ أعداؤهم لهم، وانكسروا وقهرهم المسلمون "[١]

٢- التّراحم والتآلف بينهم، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وفي الحديث: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر "[٢]

وهذه الرحمة من صفات المؤمنين فلا تحجزها الحواجز الجغرافية ولا القوانين الوضعية، بل ينبغي أن تظهر آثارها بين المسلمين مهما تباعدت بلدانهم؛ وفي الصحيحين " إنَّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً "[٣]. وشبَّك – صلى الله عليه وسلّم – أصابعه. ومن آثارها نصرة مظلومهم، وإعانة محتاجهم، وكسوة عاريهم و إطعام جائعهم، والتعاون معهم على البر والتقوى، وردعهم عن الظلم والعدوان. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المائدة: ٥٤ ، وليس في ذلتهم لإخوانهم المسلمين إلا العزة والرفعة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٣٤٤

(٢) متفقٌ عليه .صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم: ٦٠١١ ص ١٢٧٩وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: ٢٥٨٦ ص ١٠٤١

(٣) متفقٌ عليه. واللفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم: ٤٨١ ص ١٠٢ وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم:٢٥٨٥ ص ١٠٤١

٣- محافظتهم على العبادات واستمرارهم عليها وتعظيم قدرها، وأهمها الصلاة، قال تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾، وخص الصلاة لأن (الصلاة نور)[(١)] وهي من أسباب الفلاح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ المؤمنون: ١ - ٢ قال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه-: "من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع "[(٢)]

فالصلاة مؤشر مهم للجدية في حياة المسلم، فمتى حافظ عليها وأخلص فيها ظهرت آثارها على قلبه وجوارحه، واستقرت حياته، ومتى ضيعها بَعُد عن ربه فتاه في دروب الحياة .. وهذا تشخيص لحالنا اليوم، ولعل المقارنة بين حضور المسلمين لصلاة المغرب وحضورهم لصلاة الفجر تعطينا مؤشراً على قدر الصلاة عند كثير من المسلمين. بل لعل ازدحام الشوارع والشواطئ والأسواق بالناس في أوقات الصلاة، ولا يؤديها إلا قليل منهم خير شاهد على واقعنا. فإذا أردنا الاقتداء بمن مدحهم الله في هذه الآية فعلينا أن نتوب وأن نغير من أنفسنا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الرعد: ١١.

٤- الإخلاص لله – عز وجل- وابتغاء فضله ورضوانه ، فقد تعلقت قلوبهم بالله، وبما عند الله من الفضل والنعيم، لا يريدون بعبادتهم الحياة الدنيا وزينتها، وإنما يريدون وجه الله – عز وجل – ونعيم الدار الآخرة. صفت قلوبهم فسمت

(١) وفي الحديث:" والصلاة نور..." صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم: ٢٢٣ ص ١١٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ١٦٤

أرواحهم، وتعالت هممهم، ولم تأسرهم زخارف الدنيا، ولا شهوات النفس الأمارة.

وانظر ارتباط الإخلاص بالعبادة فقد ورد كلاهما بلفظ يدل على الاستمرار ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ " وإن المتتبع لكل الآيات التي جاء فيها الأمر بالإخلاص يجد أنها متعلقة بتوجيه العبادة لله وحده لا شريك له. فهي إذن ليست متعلقة بالاعتقاد وحده، إنما هي متعلقة كذلك بسلوك معين مرتبط بالاعتقاد. فالعبادة –كما هو واضح بالبداهة – سلوك واقعي، وليس مجرد مشاعر أو اعتقادات، سلوك مبني على المشاعر ومنبثق عن الاعتقاد. والإخلاص المطلوب في العبادة هو براءة هذه العبادة من الشرك، وتلك هي حقيقة التوحيد."(١)

٥- التميز بسمت خاص في المظهر والسلوك: فالمسلم كالشامة بين الناس، يظهر عليه آثار تدينه وخشوعه وصلته بربه – جل وعز- فإذا به مشعل هداية ومنارُ طريقٍ مستقيم. وهكذا كان صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – نجوماً يهتدى بهم في ظلمات الحياة، قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : " فالصحابة – رضي الله عنهم - خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم. وقال مالك – رحمه الله -: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا. وصدقوا في ذلك، فإنَّ هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدِّمة، وأعظمها

(١) واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر – جدة، ١٤٠٧هـ ص٢٢

وأفضلها أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – وقد نوّه الله بذكرهم في الكتب المنزَّلة."[١] فانظر لشهادة أعدائهم لهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقد ورد في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما- أنه قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلّم -: " إن الهَديَ الصالح، والسَّمتَ الصالح والاقتصاد، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة."[٢] .

٦- من فضائل الرعيل الأول من المؤمنين أن الله اختارهم لصحبة نبيه - صلى الله عليه وسلّم – ووصفهم قبل أن يخلقهم، فكل الصحابة عدول، قد رضي الله عنهم، ووعدهم بتكفير السيئات ودخول الجنات، فلا ينتقِص قدرَهم إلا فاجر لئيم، أو حاقد خبيث. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ... ﴾ الآية. " فهذا المثل ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد - صلى الله عليه وسلّم – إلى هذه الأرض ... وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - ... وتبقى [هذه الصفة] نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات."[٣]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ٣٢٥٩

(٢) قال أحمد شاكر: اسناده صحيح، المسند جـ٤ ص٢٤٤ رقم: ٢٦٩٨، وفيه: قابوس بن أبي ظبيان، قال أحمد شاكر: ثقة، وقال عند تعليقه على الحديث رقم: ١٩٤٦ : سبق أن ضعفناه في (٨٨٨) ولكن رأينا أن بعض الأئمة وثقه كابن معين، ويعقوب بن سفيان، وأن الترمذي والحاكم يصححان حديثه، فاستدركنا ورجعنا إلى توثيقه.

(٣) في ظلال القرآن جـ٦ ص١٣٤٥ ، ومابين المعقوفتين من عندي.

٧- محبة الخير، ومحبة نشره بين الناس، فقد شبهوا بالزرع، والزرع خيره ينتشر فينتفع الناس به، قال السعدي –رحمه الله– : " كذلك الصحابة هم كالزرع في نفعهم للخلق، واحتياج الناس إليهم."(١)

٨- التعاون فيما بينهم على البر والتقوى ومناصرة بعضهم بعضا ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – قال: " المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته. ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة."(٢)

فالمؤازرة والمناصرة على الحق تزيد المسلمين قوة يحسب لها أعداؤهم ألف حساب.

٩- الائتلاف وتوحيد الصف والقوة﴿ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ وهو واجب على عموم الأمة، ولا ينبغي التفريط في ذلك بسبب اليأس في تحصيله، فمتى علم الله صدق النيات يسّره فكان ، لأن التفرق والتنازع من أهم أسباب الهزيمة والتخلف، وقد نهينا عن ذلك ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٠٥

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٦

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٣٤٥

(٢) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم: ٢٤٤٢ ص٤٨٤ ، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: ٢٥٨٠ ص١٠٤٠

١٠- الاستقامة والثبات ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ فهم أهل الاستقامة الذين انقادوا للأمر ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ هود: ١١٢ وقد حماهم الله من الغلو والجفاء، وكانوا كما وصفهم عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه- حيث قال: " إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد - صلى الله عليه وسلّم – خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء "[١] وقال أيضاً ناصحاً للمسلمين: " من كان منكم متأسياً فليتأسَّ بأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلّم، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنهم حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه - صلى الله عليه وسلّم - وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم "[٢]

١١- لهم وقع حسن في نفوس الأخيار ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ فكلما رأوا سمتهم الحسن، وسلوكهم المتميز، ووقفوا على رؤيتهم الثاقبة، وأهدافهم السامية، وأدركوا موافقة أعمالهم لأقوالهم عرفوا أن هذه القيم التي يتمسك بها هؤلاء قيم أصيلة وليست مزيفة.

---

(١) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وهو موقوف على ابن مسعود. المسند للإمام أحمد بن حنبل، ت أحمد شاكر جـ٥ ص٣٦٠١ رقم: ٣٦٠٠

(٢) جامع بيان العلم وفضله، وماينبغي في روايته وحمله، يوسف ابن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ ، جـ٢ ص٩٧

وإلى يومنا هذا فإنه كلما قرأ المنصفون سيرهم متجردين من الهوى أبهروا بما وصلوا إليه في مدة تعتبر يسيرة جداً في عمران الأمم وتاريخ الحضارات.

١٢- لهم وقع شديد في نفوس الأعداء ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ فهم بِعدلهم الفريد وخلقهم الكريم وهيئتهم المهابة وعلمهم الجم وحكمتهم السديدة ورأيهم الصائب، يشكلون بهذه الروح المعنوية التي تسبقها كلمة التقوى وينيرها الصدق واليقين والإخلاص ويزينها الهدي الصالح المستقيم قوةً تزلزل قلوب الأعداء عن بعد، وتضعف عزيمتهم وتهز ثقتهم وتخلخل حساباتهم.

واليوم لن يصل المسلمون إلى ما وصلت إليه تلك الصفوة المختارة – رضي الله عنهم- تماماً، ولكن لو وجد الإيمان بالله والإخلاص له والصدق في الولاء والبراء وحسن التوكل على الله والثقة بوعده لعباده المؤمنين ونصرهم لما وقف في طريقهم أحد. ولعادوا قادة الدنيا كما كانوا. ولكن لا يأس ! فإنْ تخاذل من تخاذل فنحن واثقون بوعد الله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٥٤ فالجهاد قادم لا مناص منه. لكن السؤال من الذي ينال عزَّ الجهاد وفضله وشرفه ؟

أما المخذلون والمنكرون والمراوغون في موضوع الجهاد فإنهم معرِضون محرومون ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ محمد: ٣٨.

وهذه هي خاتمة الصفات الحميدة للصفوة العلية والكوكبة الذهبية من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – و – رضي الله عنهم أجمعين – والتي أهَّلتهم للقيادة والريادة. فكانوا غصة في حلوق الكافرين وشوكة في أعينهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وتضل هذه الإغاظة صفة ثابتة للمؤمنين في كل زمان حين يجتمعون على الحق تحت راية واحدة يبتغون فضل الله ورضوانه ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

وكل حركة في الجهاد الذي تعلوه راية التوحيد تلتزم بأحكام الدين ولا تظلم ولا تعتدي ستكون إغاظة للكفار وشفاء لصدور قوم مؤمنين. وهذه القوة والاتحاد مع إخوانهم ضد أعداء الدين من الكفار لو لم يكن بها إلا إغاظة الكفار لكفى فوزاً وأجرا ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ التوبة: ١٢٠ .

وختمت هذه الآية الكريمة، بل والسورة الكريمة بالوعد الحق للمؤمنين الذي تتطاول إليه أعناقهم وتشتاق إليه أفئدتهم، وهو مغفرة الذنوب ونيل الأجر العظيم والفوز بسلعة الله الغالية جنات تجري من تحتها الأنهار. قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : " ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اكتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة – رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مثواهم –."(١)

*** ومن دلائل النصر في هذه الآية الكريمة ما يلي:**

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٧ ص ٣٢٥٩

١- ذكر النبي - صلى الله عليه وسلّم – باسمه الشريف وأنه رسول الله حقا، لتبقى هذه الجملة الشريفة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ مكتوبة في السطور ومحفوظة في الصدور، رغم كل من أبى ويأبى من الكافرين. وإن طريق النصر ليمر من هنا، **فالنصر الموعود به المؤمنون هو ماوافق ما كان عليه** ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ فعن أبي موسى – رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلّم – فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله."(١)

٢- بيان سمات أولياء الله الذين استحقوا الفتح والنصر والتمكين، وتبؤوا مواطن القيادة والريادة ومنها إخلاص العبادة لله وقوة ولائهم للمؤمنين وغيرها. فالتربية الروحية على منهاج النبوة ضرورة. وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى استفادتهم من التربية النبوية حسب مراحلها المختلفة، والتي أوصلتهم إلى مرحلة النضج والاستواء.

٣- وصف المؤمنين بالشدة على الكفار، لأنها ركيزة من ركائز النصر فالقلب الممتلئ بالضعف والخواء لا يصمد صاحبه أمام الأعداء.

---

(١) متفق عليه. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم: ٢٨١٠ ص٥٧١ ، وصحيح مسلم ،كتاب الإمارة، باب من قاتي لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم: ١٩٠٤ ص٧٩٠

٤- وصف المؤمنين بالرحمة فيما بينهم يعطي معنى تآلف القلوب، وهذا بدوره يساعد على اتحاد الصف والكلمة، مع ما يلازم ذلك من الطاعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلّم – وهذا بلا شك من أسباب الفوز.

٥- لا يستهان بآثار الإيمان التي تظهر في السمت والتواصل وحسن التعامل، وحديث الحديبية خير شاهد على ذلك.

٦- ذكر الوعد بالأجر العظيم للمؤمنين والذي قد تكرر ذكره في السورة ، فإنَّ فيه أنساً للمؤمنين وتقوية لجنابهم ورفعاً لمعنوياتهم؛ لأنَّ من يجاهد وهو يعرف أن مصيره إحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة والتي بعدها ينال هذا الأجر العظيم، ليس كمن يجاهد وهو يهاب الموت ويحرص على الحياة.

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآية الكريمة :

إنَّ محمداً – صلى الله عليه وسلّم – هو رسول الله حقاًّ رغم أنوف المنكرين، والذين معه على دينه من المؤمنين موقفهم من الكفار شديد لا لين فيه ولا ضعف، بينما هم مع إخوانهم متعاطفين متراحمين متوادين. ومن صفاتهم أنهم يحافظون على العبادات، ويعظمون قدر الصلاة، فلا تراهم إلا ركَّعاً سجَّداً، لا يرجون من وراء ذلك إلا فضل الله ورضوانه من المغفرة وتكفير السيئات ودخول الجنات. ولهذه العبادة أثر عليهم إذ تكسوهم نوراً ووضاءة، ويكون الهدي الصالح والسمت الحسن ظاهراً عليهم، وهذه الصفات قد ذكرها الله – سبحانه وتعالى– قبل أن يخلقوا، وكذلك ذكر لهم مثلاً بديعاً في الإنجيل فشبههم بالزرع وهو ينمو ويكتمل، إذ يبدو في بداية أمره ضعيفاً ليناً مفرقاً ثم تظهر أفراخه أو فروعه الصغار حوله وتتكاثر فتشد ساقه أو تشتد به ويقوي بعضها بعضاً حتى يكبر الساق ويغلظ، ويثبت ويعلو ويستوي فيبهج الزرع ناظريه، وهكذا أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلّم – كانوا في أول أمرهم قلة مستضعفين،ثم تكاثروا وتآزروا وتناصروا، واجتمعوا حول نبيهم – صلى الله عليه وسلّم – طائعين لأمره متبعين لهديه حتى أصبح لهم شأن عظيم، يتحدث الناس عنهم ويعجبون بما هم عليه من الصفات. ولا أدل على ذلك من كلام رسل قريش في الحديبية، وكيف أبهرهم جمال الهيئة وحسن الطاعة وقدر التعظيم لرسول الله – صلى الله عليه وسلّم – مع ماهم عليه من الاتفاق على الرأي والائتلاف فيما بينهم والصدق الذي ينساب على ألسنتهم. وهذه الصورة الوضيئة لا شك أنها تغيظ

الكفار. فهم يغيظهم كل اجتماع ووحدة وتآلف للمسلمين، ويغيظهم قوة المسلمين وكثرتهم وانتصارهم، وإنما يفرحون جذلاً بفرقتهم وخلافهم وضعفهم وتشتتهم.

وقد وعد الله — سبحانه وتعالى- الذين آمنوا وعملوا الصالحات ممن كانوا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلّم — وممن سار على نهجهم واقتفى أثرهم المغفرة والفوز بالجنة.

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآية الكريمة :

١- إثبات رسالة محمد - صلى الله عليه وسلّم – وأنها حق، وكل من أنكرها عامداً مختاراً أو أنكر حجية السنة المشرفة فهو كافر خارج عن ملة الإسلام.

٢- أن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي اختار للرسول - صلى الله عليه وسلّم – أصحابه الأبرار ووصفهم قبل أن يخلقهم، فمن طعن فيهم فهو على خطر عظيم.

٣- إثبات بعض صفات الصحابة الكرام –رضي الله عنهم- في التوراة والإنجيل والقرآن. وقد تقدم ذكرها بشيء من التفصيل.

٤- المسلمون لهم سمتهم وهديهم وأخلاقهم وهيئتهم ، فينبغي عدم النزول بها إلى مجاراة الكفار والفساق والمحافظة على تميزهم في المظهر والسلوك.

٥- فضل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – وكفر من يلعنهم ويلحق بهم النقائص.

٦- الشدة على الكفار وكرههم وبغضهم هي الأصل، لكنَّ الأحوال والمواقف لها أحكام، ويرجع في هذا لمن يعلمون ممن يستنبطونه من أهل العلم.

٧- الصدق مع الله والتمسك بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – وهديه وهدي الخلفاء الراشدين هو طريق الجنة، وفي الحديث أن رسول الله - صلى الله

عليه وسلّم – قال: " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى" قالوا: يارسول الله ومن يأبى؟ قال: " من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى."[(١)]

*** وقبل الختام:**

أرى لزاماً علي في نهاية هذا البحث أن أتحدث عن ثلاثة عناصر هي من مكملات البحث. وهذه العناصر هي:

١- الآثار العظيمة لهذا الفتح الذي تحدثت عنه السورة، وهو صلح الحديبية.

٢- حاجة الأمة المسلمة اليوم إلى النصر والتمكين.

٣- معالم في طريق النصر في ضوء آيات السورة الكريمة.

*** آثار صلح الحديبية ودلالته :**

أخرج البيهقي عن المسور ومروان في قصّة الحديبية قالا: " ثمّ انصرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم- راجعاً فلمّا كان بين مكّة والمدينة نزلت سورة الفتح من أولها إلى آخرها فلمّا أمن النّاس وتفاوضوا لم يُكلم أحد بالإسلام إلا دخل فيه، فلقد دخل في تلكَ السنين في الإسلام أكثر مما كان فيه قبل ذلك فكان صلح الحديبية فتحاً عظيماً."[(٢)]

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –، رقم: ٧٢٨٠ ص١٥٢٥

(٢) دلائل النبوة جـ٤ ص ١٢٣ رقم :١٥١٧

وسبق أن ذكرت ما ورد عن الشعبيّ- رحمه الله - أنه قال: " نزلَتْ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ بالحديبية، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوة، أصاب أنْ بُويع بيعة الرضوان، وغُفِر لهُ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدي محلهُ، وأطعموا نخل خيبر، وفرح المؤمنون بتصديق النبي – صلى الله عليهِ وسلّم-، وبظهور الروم على فارس"(١)

وقال الزهري- رحمه الله-: "لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام "(٢)

وقد قال ابن هشام(٣) معلقاً على كلام الزهري : "والدليلُ على قول الزهري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله – رضي الله تعالى عنهما-(٤) ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"(٥).

وقال ابن القيّم – رحمه الله – موضِّحاً سبب ذلك : " كانت صلح الحديبية مقدّمة وتوطِئَة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمن الناس به وكلَّم بعضهم بعضاً وناظرهُ

---

(١) سبق ذكره ، و انظره أيضاً في تفسير القرآن لعبد الرزاق بن همام الصنعاني ، جـ٢ ص ٢٢٥ و دلائل النبوة جـ٤ ص١٢٦ رقم :١٥٢١

(٢) معالم التنزيل ص ١٢٠٢

(٣) ابن هشام : هو عبد الملك بن هشام، مشهور بحمل العلم، متقدم في علم النسب والنحو، وهو حميري معافري، أصله من البصرة، توفي بمصر سنة ثلاث عشرة ومائتين. [الروض الأنف، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، علق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ١٩٧٢م] جـ١ ص٥

(٤) انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ص٨٥٨ رقم: ٤١٥٤

(٥) السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ ص٣٧٢

في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكّة من إظهار دينه، والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشرٌ كثير في الإسلام، ولهذا سماه الله فتحاً."(١)

وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب(٢)- رحمه الله – من فوائد صلح الحديبية مائة وتسع وثلاثين فائدة، أذكر منها بعضاً والباقي يرجع إليه في مصدره: منها وهي أعظمها: تسمية الله تعالى "لا إله إلا الله" كلمة التقوى.

الثانية: تفسير شيء من شهادة أنّ محمداً رسول الله؛ لاستدلال أبي بكر على عمر لما أشكل عليه مسألة من أشكل المسائل.

الثالثة: عظمة أعمال القلوب عند الله؛ لأن أهل الشجرة لم يبلغوا ذلك إلا بأعمال الله في قلوبهم.

الرابعة: الخطر العظيم في أعمال القلوب، لقوله: " كادوا أن يهلكوا ".

الخامسة: أنهم مع ذلك مجاهدون في الدين على﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ زعمهم لم يغضبوا إلا لله فلم تنفعهم النية الخالصة .

السادسة: حاجتهم إلى المدد الجديد، فلولا أن الله أنزل السكينة عليهم لم يقو إيمانهم على تلك الفتنة...

الحادية عشرة: معرفة أنه يتصور أن أعلم الناس وأتقاهم قد يعصي النّص الصّريح ديانةً لقوله: "قوموا فانحروا فلم يفعلوا ".

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيِّم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٣٩٩هـ جـ٣ ص ٤١٩

(٢) محمد بن عبد الوهاب: هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، قام بالدعوة الإصلاحية في جزيرة العرب داعياً إلى التوحيد الخالص، ونبذ الشرك والبدع، له مصنفات كثيرة أشهرها كتاب التوحيد، مات سنة ست ومائتين وألف. انظر الأعلام جـ٦ ص ٢٥٧

الثانية عشرة: معرفة قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ البقرة: ٢١٦

الثالثة عشرة: معرفة قوله تعالى:﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾البقرة: ٢١٦

السادسة عشرة: أن الله يبتلي بما تعجز عنه عقول كبار العلماء .

السابعة عشرة: معرفة رفع الله من تواضع لأجله.

الثامنة عشرة: معرفة إذلال الله من تعزز بمعصيته.

التاسعة عشرة: معرفة فضيلة التسليم للشارع فيما لم يدرك العقل.

العشرون: اختلاف علم أكابر العلماء في ذلك.

الحادية والعشرون: أنهم لم يصلوا إلى السلامة فضلا عن الفضائل إلا بعفو الله.

الثانية والعشرون: رأفته - صلى الله عليه وسلّم - ورحمته حيث لم يغضب."(١)..الخ.

وذكر باشميل(٢) – رحمه الله- من مكاسب هذا الصلح أموراً منها:

---

(١) بعض فوائد صلح الحديبية، محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: د. ناصر بن سعد الرشيد ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطابع الرياض- الرياض، ملحق المصنّفات ص ٣- ١٧

(٢) باشميل : هو محمد بن أحمد باشميل، كاتب إسلامي، ولد بدوعن في حضرموت، ونشأ يتيماً وتفرغ لطلب العلم. كان سلفي المعتقد، مناصراً لقضايا المسلمين، ومدافعاً عنهم في كلِّ مكان،عمل بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرّمة ، وكان عضواً في اللجنة الثقافية برابطة العالم الإسلامي، له مؤلفات عدّة من أشهرها موسوعة الغزوات الكبرى وكتاب كيف نفهم التوحيد الذي ترجم إلى عدة لغات. توفي سنة ست وعشرين وأربعمائة.[عن ملتقى حضرموت للحوار العربي على الشبكة العنكبوتية]

١- إعتراف قريش بكيان المسلمين :

لقد كانت قريش – منذ ظهور دعوة الإسلام في مكّة ومنذ [أكثر من] خمس عشرة سنة وحتى يوم صلح الحديبية – تعتبر النّبي وأصحابه المسلمين شرذمةً لا كيان لها ... وما كانت قريش تفكِّر أنّها في يوم من الأيام ستقعد معهم على مائدةٍ واحدةٍ لتفاوضهم مفاوضة النّد للندّ، وتعترف بهم في معاهدةٍ مسجّلةٍ كأمّةٍ لها كيانها بل كدولة لها هيبتها ونفوذها، الأمر الذي ترفض قريش الاعتراف (رسميّاً) بشيءٍ منه كلّ الرّفض، حتى جاء يوم الحديبية فاعترفت فيه للمسلمين بكلِّ ذلك، ووقّع مندوبها على وثيقةٍ تاريخيّةٍ دوليّةٍ؛ تتضمّن هذا الاعتراف.

وهكذا تكون أُولى مكاسب صلح الحديبية السّياسيّة – بل أهمّها _ إعتراف قريش رسميّاً بأنّ النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – وأصحابه أصبحوا أمّةً لها كيانها، بل دولةً لها خطرها

٢- تفهم المشركين لحقيقة الإسلام :

ومن المكاسب الكبرى التي جنتها الدّعوة الإسلاميّة أثناء المفاوضة في الحديبيّة هو أنّ تصرّف المسلمين – وخاصّةً نبيّهم العظيم – طيلة الأيّام التي قضوها في الحديبية قد جعلتهم محلّ احترامٍ وإكبارٍ كلِّ الزّعماء والسّادة الذين بعثت بهم قريش كوسطاء لحلِّ المشكلة القائمة بينها وبين المسلمين ... فيعود هؤلاء الوسطاء وهم يلقون بكلِّ اللوم على قريش ، ويحمِّلونها وحدها مسؤوليّة تعقيد الموقف، وما قد ينتج

عنه من صدامٍ دامٍ، وذلك بعد أن يلمس هؤلاء الوسطاء بأنفسهم شرف المقصد وحسن النية الصادقة بين المسلمين .

٣- انشقاق معسكر الشرك :

ومن المكاسب التي صاحبت صلح الحديبية الانشقاق الخطير الذي حدث داخل معسكر الشّرك بين قريشٍ وحلفائها، الذين لامها قادتهم من الوسطاء على عنادها ومكابرتها ، عندما وجّهوا إليها اللوم وأسدوا إليها النّصح بأن لا تحول بين المسلمين وبين مباشرة حقّهم الطّبيعي في الطواف بالبيت، بعد أن نقلوا إلى مسامع زعمائها أنّ المسلمين ليسوا مخطئين في إصرارهم على دخول مكّة لأداء مناسك العمرة كغيرهم من فئات العرب الأخرى ... فهذا الانشقاق كان عامل ضعف في جانب القرشيين، بقدر ما كان عامل تقوية وتدعيم لمركز المسلمين. الأمر الذي حذا بقريش – بل أجبرها – على أن تقبل مبدأ الاعتراف بحقّ المسلمين في الطّواف بالبيت، بل وتوقّع على الاعتراف بهذا الحقّ في وثيقة صلح الحديبية، الذي أثبتت الأحداث – فيما بعد – أنه من أعظم الانتصارات التي حقّقها الإسلام على الشّرك والمشركين.

٤- تأثّر المشركين بواقع المسلمين :

ولعلّ من أكبر المكاسب التي جناها الإسلام والمسلمون من صلح الحديبية، هو أنّ هذا الصلح قد أتاح الفرصة للمسلمين والمشركين على السّواء بأن يختلطوا بعضهم ببعض. ولقد كان من نتيجة ذلك الاختلاط، الذي حدث بعد أن أمن النّاس بعضهم بعضاً – نتيجة هذا الصّلح – أن عرف المشركون المسلمين على حقيقتهم والإسلام كما هو – لا كما تصوّره لهم أبواق الوثنية المغرضة في مكّة – وأن

الإسلام، ولا شيء سوى الإسلام، هو الذي أقام هذا المجتمع، وصار الالتزام بتعاليمه والقيام بتكاليفه، مصدر كلّ ما يتحلّى به أفراد هذا المجتمع من فضائل الاستقامة وضبط السلوك وسموّ الأخلاق وانتظام الشّمل واتّحاد الكلمة. وهنا،واقتناعاً بهذا التّفسير الصحيح – والنّبيّ – صلى الله عليه وسلّم – لما يزل في طريقه من الحديبية إلى المدينة _ تأثّر ذوو العقول الكبيرة من سادات مكّة بما نقل إليهم من انطباعات صحيحة عن هذا المجتمع الإسلامي الفاضل الجديد. فاختمرت في نفوس هؤلاء العقلاء فكرة الدّخول في الإسلام ، والانخراط في سلك الأسرة الإسلاميّة، التي كان حسن بنائها، وفضائل شمائل أفرادها – التي شهد بها العائدون إلى مكّة من شاهدي صلح الحديبية – حديثَ مكّة كلّها...

وكان من الزّعماء والقادة الذين تأثّروا بواقع المسلمين الحيّ المشّرف في الحديبية، فاختمرت في نفوسهم فكرة اعتناق الإسلام: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص(١)، وعثمان بن طلحة.(٢)[وقد أسلموا جميعاً ونصروا دين الله].

٥- التّفرّغ ليهود خيبر والشّمال :

كذلك من مكاسب صلح الحديبية – بل ولعله من أهمّ المكاسب السياسية – تفرّغ النبي – صلى الله عليه وسلّم – لتصفية الحساب عسكريا مع يهود خيبر، الذين يعتبرون بحقّ أخطر عنصر محارب عدوٍّ للمسلمين في جزيرة العرب.

---

(١) عمرو بن العاص: هو عمرو بن العاص بن وائل القرشي، فاتح مصر وأميرها، أسلم – رضي الله عنه– قبل الفتح وقيل بين الحديبية وخيبر، وهو من دهاة العرب. مات سنة ثلاث وأربعين. انظر الإصابة جـ٣ ص٢ رقم: ٥٨٨٢

(٢) عثمان بن طلحة: هو عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة؛ عبدالله بن عبد العزّى، أسلم – رضي الله عنه– في هدنة الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد، وشهد الفتح مع النبي –صلى الله عليه وسلم – فأعطاه مفتاح الكعبة. مات سنة اثنتين وأربعين. انظر الإصابة جـ٢ ص٤٦٠ رقم: ٥٤٤٠

فقد كانت تقبع في خيبر، قبل صلح الحديبية، أشدُّ العناصر اليهودية حقداً على النّبيّ – صلى الله عليه وسلّم – تدعمها عشرة آلاف مقاتل من اليهود، لديهم جميعاً الرّغبة الشّديدة الملحّة في الانقضاض على المسلمين ومحوهم من الوجود.

الأمر الذي يحتّم على المسلمين العمل بحزم على إزالة هذا الخطر اليهودي ... وهو ما حدث بالفعل في غزوة خيبر.فقد زحف النّبي – صلى الله عليه وسلّم – بألف وأربعمائة مقاتل نحو خيبر... وفي هذه المعركة قضي على الوجود اليهودي الدخيل الذي كانت تدافع عنه أقوى قوّة ضاربة في جزيرة العرب...

وبالرّغم أنّ قريشاً كانت بعواطفها ومشاعرها مع يهود خيبر تتمنى لهم النَّصر على المسلمين، إلا أن إبرامها صلح الحديبية مع المسلمين قد ألزمها بأن تقف موقف الحياد من القتال الذي ظلّ يدور بين المسلمين واليهود في خيبر والشّمال حوالي شهرين اثنين، حتى انتهى بانتصار المسلمين السّاحق على العناصر اليهودية جميعاً، في خيبر ووادي القرى وفدَك وتيماء(١) وكلّ مناطق الشّمال.

من هنا صحّ يقيناً القول: إنّ تفرّغ القوات الإسلامية الكامل الذي مكّنها من أن ترمي بكامل ثقلها لمحاربة اليهود في خيبر والشّمال، والتغلّب عليهم، هو من المكاسب والثمرات السِّياسيَّة العظيمة التي جناها المسلمون نتيجة إبرامهم الصّلح مع مشركي قريش وحلفائها الكنانيين في الحديبية.

---

(١) تيماء : بالفتح والمدّ: بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاجّ الشام.تقع على بعد نيف وستمائة كيلٍ شمال المدينة. انظر معجم البلدان جـ٢ ص٦٧ و معجم المعالم الجغرافية ص ٣١

٦- دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام :

كما أنّ قيام هدنة الحديبية مكّن النّبي – صلى الله عليه وسلّم – من التفرغ للعمل على إيصال دعوته- وبطريق رسمي- إلى خارج حدود جزيرة العرب... وذلك عن طريق رسائل خاصة بعث بها إلى كل منهم في السنة السابعة من الهجرة حيث بعث إلى كل ملك أو أمير واحدا من أصحابه برسالة يدعوه فيها وشعبه إلى الدخول في الإسلام. وقد كان لهذه الرسائل آثارها المختلفة في الأقطار التي تلقى ملوكها أو أمراؤها هذه الرسائل، ورغم اختلاف الموقف من هذه الرسائل، فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دونما شك. [١]

٧- تغير نظرة القبائل العربية للإسلام :

" كان من فوائد الموقف المسالم الذي وقفه رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ، وما بدا منه من زهدٍ في الحرب ، ورغبة في الصلح، وحلم وأناةٍ أن تغيّرت نظرة القبائل العربية – التي لم تدخل في الإسلام بعد – إلى الدين الجديد، والداعي إليه، ونشأ في نفوسهم إجلالٌ للإسلام، وتقدير له لم يكن من قبل، وكانت فائدة دعوية لا يستهان بقيمتها ."[٢]

(١) باختصار من" صلح الحديبية " لباشميل ص ٣٢٥-٣٥٤

(٢) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار القلم – دمشق، ١٤٢٨هـ ص ٢٨٤

*** حاجة الأمّة إلى النَّصر والتمكين :**

لا شك أن الأمة المسلمة اليوم تقف في مؤخرة ركب الأمم، ويمارس عليها القهر والتسلط، وتستذل عزتها وكرامتها من قبل أعدائها، وتستباح بيضتهم بسبب وبغير سبب، وتنهب ثروات بلادهم بشِبْه عقود أو بلا عقود، وتمارس الضغوط الخارجية عليها من أجل التغريب والعلمنة، ويقضى الأمر في غيابها، ولا يستأذنون وهم شهودُ. تدان في الصغيرة والكبيرة ولا يدان غيرها، وتُسأل عن كل ما تفعل، ويحاصر أو يوقف ما تقوم به من أنشطة وبرامج فيها نفعٌ للناس دُون مبرِّر يُذكر. هزائمُ متكررة، وتراجعٌ للوراء، وضعف مستمر، وانهزامية نفسية، وصمتٌ خطير. تُدنَّس مقدَّساتُها، ويمزق ويحرق كتابُ ربها، ويطعن ويهزأ بنبيها – صلى الله عليه وسلم – وبأزواجه أمهات المؤمنين الطاهرات وآل بيته الأخيار، ويسب ويلعن صحابته الأبرار الأطهار، ولا يُسمع لهم صوت رسمي عدا أصوات بعض الغيورين الخافتة جزاهم الله عن أمتهم خيراً .

وفي ظلِّ صراعٍ غير متكافئ بين المسلمين وأعدائهم؛ صراع مخطط منظم مدعوم، فيه بذل وتضحية وقوة من قبل الأعداء، مقابل صراع داخلي نفسي في قلوب بعض المسلمين الناصحين الغيورين مع مدافعات كلامية يسيرة هنا وهناك ينقصها التخطيط والتنظيم و المنهجة، في غياب الدور الرسمي النابع من نصرة الدين، في معظم الأحيان.

في ظل هذا الصراع المرير والأحداث اليومية المتتالية المؤلمة التي يسمع بها المسلمون أطفالًا وشبابًا وشيوخا، ذكورًا وإناثا، والتي تعكس صورة العداء السافر القبيح المتعمد مع الجرأة الصارخة على الإسلام دينًا ومنهجًا، وعلى حقائقه

وخصائصه وأنواره تشويهًا وتحريفًا، وعلى أهله تضليلًا وتزويرًا من قبل الأعداء، وما يصاحبه في المقابل من ما يسمع ويشاهد من غفلة ولهو ومداهنة وولاء للعدو، ونفاق إعلامي، وتزيين للشهوات، وإغراء بالمنكرات من قبل بعض المنتسبين إلى الإسلام. في ظل هذا الصراع يخيم جو كئيب ويسري إحباط شديد في النفوس، فيصيب بعضها بالشلل والقعود، والتخاذل والكسل، ويصيب بعضا آخر باليأس من نصر الله، بينما يجد آخرون – ولله الحمد – في هذا الجو المكفهر بارقة الأمل، وومضة النور، فكلما احلولك الظلام واشتد غلس الليل فهو مؤذن بانفلاق فجر جديد. وتتطلع نفوسهم وقلوبهم و أرواحهم لنصر قريب وفتح عاجل تقرّ به أعينهم.

وبينما يرقبون ذلك الأمل الوضاء تظل الوجوه المسلمة يعلوها الحزن والكآبة ويتردد على مسامعها قول عمر – رضي الله عنه – : ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ فلماذا نعطي الدنية في ديننا ؟!، لكنَّ عمر – رضي الله عنه – قد وجد جواباً كافياً ورضي به، وعرفه و أطمأن به، وسكنت نفسه إليه.

أما نحن ففي ظل تعددية مصادر التلقي والتوجيه ، والبعد عن المصدر الأصيل؛ كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – يبقى هذا السؤال أمام السامعين يرقب جوابًا عمليًا متمثلًا في طاعة الله ورسوله في الأمر والنهي، والاستسلام الكامل لشرع الله دُون شك أو حرج، وعندها يتبدل الحزن فرحًا وسرورًا والهزيمة فتحًا ونصرا .

حقّاً ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة ! فاليهود والنصارى وبقيه المشركين ما زالوا يحيكون المؤامرات ويدبرون الخطط ويساندهم المنافقون في الداخل فيمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. لكن العجب كل العجب من حال المسلمين اليوم، فبينما كانت

الفتوحات الإسلامية ونشر دعوة الإسلام للناس في شرق الدنيا وغربها لإصلاح الأرض وأهلها بطاعة الله هدفاً يسعى إليه المسلمون، نجدهم اليوم لا يكادون يحافظون على بلدانهم، فيقتطع الكفار أجزاء منها، أو أجزاء من مواردها وخيراتها وهم مستضعفون صامتون.

وبينما كان أسلافنا يرفعون راية الجهاد في سبيل الله وينشدون النصر والعزة والمجد من خلال هذه الفريضة، نجدها اليوم في حياة المسلمين تهمةً وتخلفاً.

وبينما كان المسلمون يتمسكون معتزين فخورين بكلمة التقوى، فيجتمعون تحت ظلها، ويرتوون من فيوضاتها ما يزيدهم قوة واتحادا، نراهم اليوم يركضون مسرعين إلى حمية الجاهلية، فيحييون النعرات الوطنية والقومية، بل ويشجعون الأحزاب الليبرالية الملحدة، وفي المقابل يهزأون ويسخرون من إخوانهم المسلمين.

وبينما نجد الوصف الذي عززه القرآن المجيد في هذه السورة الكريمة عن تربية الرسول – صلى الله عليه وسلّم – لأصحابه الكرام البررة –رضي الله عنهم- بمراحلها المتدرجة من الضعف والقلة إلى المؤازرة والتأييد ثم الاستواء والنضج حتى مراحل متقدمة جداً من القوة والتنظيم وحسن الأخلاق وجودة العمل محلَّ نظرة الناس وإعجابهم، نجد المسلمين اليوم قد أضاعوا التربية واتهموها، وشجعوا الغوغائية والفوضى وخاضوا سبل التفرق والتطاحن والخلاف بسبب وبدون سبب.

وبينما كان أجدادنا من المؤمنين الأوائل محافظين على أوصافهم التي وصفهم الله تعالى بها وأشاد بها القرآن الكريم في هذه السورة الكريمة وأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم محققين لعقيدة الحب في الله والبغض في الله ومعتزين بعقيدة الولاء والبراء. وسار على هذا المنهاج أتباعهم من أصحاب القرون المفضلة ومن جاء بعدهم، نجد

الأحفاد من مسلمي اليوم رحماء بالكفار أشداء بينهم، فيسمعون لأهل الكفر ويمجدونهم ويستشيرونهم بل ويتناصرون بهم أحياناً، وفي المقابل يعرضون عن النصحة البررة من إخوانهم المسلمين.

لقد كانت حوادث الحديبية تمثل عنق الزجاجة بالنسبة للمسلمين، فما إن خرجوا من هذا المنعطف حتى خرجوا للدنيا الفسيحة كلها في بضع سنين.

والمسلمون اليوم وإن كانوا في شدة وضيق وكرب، إلا أنهم يمرون بمنعطف خطير سيتلوه — بإذن الله – فرج قريب؛ منعطف بدأت تتضح للناس فيه كثير من الحقائق عبر وسائل التقنية الإعلامية الحديثة، وبدأ الأعداء يتحدثون فيه بلغة مكشوفة وصريحة، ويؤيد بعضهم بعضا ضد المسلمين لأن لهم مصالح مشتركة، والكفر ملة واحدة.كما بدأ المنافقون ينكشفون شيئاً فشيئا، وبدأ ضغط الاستعباد والقهر يخف شيئاً فشيئا، وبدأ صوت الحق يظهر شيئاً فشيئا ، كما بدأت بعض القواسم المشتركة للشعوب المسلمة تظهر وتتقارب. وبدأ أصحاب الحق و أصحاب الباطل يلتقون – ولو على شاشات القنوات أو صفحات الإنترنت– فيسمع بعضهم من بعض ويحاور بعضهم بعضا. بل بدأت بعض صور النَّصر اليسيرة تضئ في هذا الظلام الدامس، حيث بدأ الجهر بكلمة الحق في حمى الباطل والقذف بها في وجوه الظالمين، واعترفت بعض دول الكفر بنجاحات للمسلمين كاعترافهم بتميز الاقتصاد الإسلامي إبّان النكبة المالية التي تعرضت لها دول أمريكا و أوروبا في السنوات القريبة الماضية. ومن ثم بدأت اللغة التي يُخاطب بها بعضُ المسلمين من قبل الأعداء تلين وتنكسر بعد أن كانت لغة تحريض و اتهام.

ومن هذه الصور المشرقة أنّ كثيراً من عوام المسلمين حينما أتيح لهم أن يسمعوا أهل الباطل – على الهواء مباشرة – وهم يصرخون بعداوتهم للإسلام ازدادوا منهم براءً وللمسلمين ولاءً. وحينما أتيح لهم أن يشاهدوا بالصورة الحية ما يُفعل بالمسلمين من البطش والقتل والتعذيب بدأ يقينهم بنصر الله يزداد.

وفي الحقيقة " حين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة؛ من بطش ومن بغض ومن كيد بكل صنوف الكيد، في عهود متطاولة بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قُتّلوا وشرّدوا وعذّبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية ... يجد مصداق قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ المجادلة: ٢٠ - ٢١ [(١)]

وقد يتساءل البعض وهو يعيش في كربة وشدة و اضطهاد أين وعد الله بالنَّصر؟

" ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيل ... ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير ...

---

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٥١٤

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان ... إننا في حاجة أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور ومن القيم، قبل أن نسأل: أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنَّصر في الحياة الدنيا؟ "[١]

ألا فما أحوج أمتنا إلى النَّصر اليوم ! وما أحراها أن تعد للنصر عدته !

(١) في ظلال القرآن جـ٥ ص ٣٠٨٥

*** معالم في طريق النَّصر في ضوء آيات السّورة الكريمة :**

١- **اليقين بأن النَّصر من عند الله** كما قال تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم – في هذه السورة : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ آل عمران: ١٢٦ وهذا يستلزم توحيده وإخلاص العبادة له وحده، والتوكل عليه وحسن الظن به سبحانه، فهو ولي المؤمنين وناصرهم كما قال تعالى في السورة الكريمة: ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

٢- **لزوم الاستغفار**، فقد أمر به خير البشر – صلى الله عليه وسلم – ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ محمد: ١٩ وقد استجاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأمر ربه فكان يستغفر الله في اليوم أكثر من مئة مرة وكافأه ربه فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وثمرات الاستغفار كثيرة معلومة ومنها النجاة من العذاب ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الأنفال: ٣٣ .

٣- **شكر الله سبحانه.** قال الطبري – رحمه الله - : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ إنما هو خبر من الله – جلّ ثناؤه – لنبيّه- عليه الصّلاة والسّلام- عنْ جزائه لهُ على شكره لهُ، على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره

له ما فتح، لأنّ جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دُون غيرها. وبعد ففي صحة الخبر عنهُ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّهُ كان يقوم حتى ترم قدماه، فقيل له: يا رسول الله تفعل هذا وقد غُفِرَ لك ما تقدّم مِنْ ذنبك وما تأخر؟ فقال: " أفلا أكون عبدًا شَكُورًا ؟ "، الدلالةُ الواضحة على أنّ الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأنّ الله تبارك وتعالى، إنّما وعد نبيه محمدًا - صلّى الله عليه وسلّم- غفرانَ ذنوبه المتقدمة وفتْحَ ما فتح عليه، وبعده، على شكره له، على نعمه التي أنعمها عليه."[١] وشكر الله - سبحانه وتعالى – يزيد النعم ويتممها كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧ ولقد تفضل سبحانه على رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – بزيادة النعم حتى تمت ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ الفتح: ٢ وتمت نعمته سبحانه على الناس باكتمال شرائع الدين ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة: ٣ .

٤- **الثبات على دين الله عز وجل والاستقامة عليه لأنه الصراط المستقيم،** الذي طبيعته هذه الاستقامة التي لا اعوجاج فيها ولا ميل ولا انحراف وكذلك ينبغي أن يكون ثبات المسلم على دينه بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم. وقد امتن الله – سبحانه وتعالى – على رسوله – صلى الله عليه وسلم – بهذا الثبات فقال: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وامتن على المؤمنين بقوله:

---

(١) جامع البيان جـ٢١ ص ٢٣٧

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ وقال تعالى عن الجميع: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ وهذا الثبات ينبغي ألا يتزعزع إذا طال طريق النّصر فإن النّصر مع الصبر. ولنا في حديث خباب بن الأرت[1] – رضي الله عنه – زاد عظيم لهذا الطريق إذ قال: " شكونا إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وهو مُتوسّدٌ بُردةً لهُ في ظلّ الكعبة، قلنا لهُ: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: " كان الرّجل فيمن قبلكم يُحفر لهُ في الأرض، فيُجعل فيه، فَيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دُون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصدّه ذلك عنْ دينه، والله ليُتِمّنّ هذا الأمر، حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلّا الله، أو الذّئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون"[2] ولا شكّ أن ثبات الداعية نصر.

٥- **تعهد القلوب وإروائها بالذكر حتى تطمئن** ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨ ، وسؤال الله عز وجل أن ينزل عليها السكينة كما أنزلها في قلوب المؤمنين الأولين ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفتح: ٤ .

(١) خبّاب بن الأرت :هو خباب بن الأرتّ – بتشديد المثناة –بن جندلة بن أسعد التميمي – رضي الله عنه –كان من السابقين الأولين، أسلم سادس ستة وهو أول من أظهر إسلامه وعذّب لأجل ذلك، شهد المشاهد كلّها، ومات سنة سبع وثلاثين. انظر الإصابة جـ ١ ص ٤١٦ رقم:٢٢١٠

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ص٧٤٠ رقم : ٣٦١٢

٦- **الاجتهاد في العمل على زيادة الإيمان وذلك بالإكثار من الطاعات والابتعاد عن المعاصي والآثام** فقد كان إيمان المؤمنين السابقين يزداد يوما بعد يوم بامتثالهم بطاعة الله ورسوله ومسابقتهم إلى الخيرات وخوفهم من النفاق والمعاصي فكافأهم ربهم على هذا الامتثال والطاعة و ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فلابد للإيمان من حركة وأثر " فما يتحقق النَّصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقةً متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فإذا ظل الإيمان مظهَراً لم يتجسم في القلب، والحق شعارا لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. ويجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب، فتصبحان أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان "(١)

٧- **الثقة بنصرة الله لأوليائه كما وعد في آيات كثيرة واليقين بأن لله جنودَ السموات والأرض ينصر بها من يشاء من عباده ويعذب بها من يشاء.**فقد كان المنافقون يشكّون في نصر الله للمؤمنين، ولذلك لم يطيعوا أمر النبي – صلى الله عليه وسلّم – لهم بالخروج معه إلى مكة، لكنَّ النبيَّ القدوة – بأبي هو وأمي

(١) في ظلال القرآن جـ٤ ص ٢٣٤٤

- كان يظهر كمال استسلامه لربه، **وكان على ثقة تامة بالنَّصر، بل كان على ثقة من التمكين وظهور الدين**. فقد ورد في حديث الحديبية قوله: " **ولينفذن الله أمره**"، وقوله لعثمان – رضي الله عنه- حينما أرسله إلى قريش : " أخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالاً بمكّة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم **ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله- عزّ وجلّ – مظهرٌ دينه بمكّة**، حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان"(١).

٨- **الإيمان بعلم الله وحكمته وعزته – وسائر أسمائه الحسنى وصفاته العلى** – وأنه عالم بعباده وأحوالهم على وجه التفصيل، وعالم بمن يستحق النَّصر ومن لا يستحقه، وهو حكيم في أقواله وأفعاله سبحانه وتعالى فينزل نصره على من يشاء لحكمة، ويؤخر النَّصر لحكمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ الفتح: ٤ .

٩- **الاعتبار بالفوز والنجاة يوم القيامة، والرغبة في نيل المغفرة والأجر، وتعلق القلوب بما عند الله من جنة ورضوان ونعيم مقيم**، فإن هذا من المحفزات القوية التي تدفع للعمل في سبيل الله والعمل بما يقرب إلى الله ونيل جنته ورضوانه ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ الفتح: ٥ فهذه هي الغاية القصوى، والغاية في الدنيا هي إعلاء كلمة الله وإظهار دينه على الدين كله ولو كره الكافرون.

١٠- **اليقين بأن الله يدافع عن الذين آمنوا** وأنه يمهل المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات ولكنه لا يهملهم، بل يجازيهم في الدنيا بالخزي والطرد من

---

(١) زاد المعاد جـ٣ ص٢٩٠

رحمته وفي الآخرة بعذاب النار وبئس المصير ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾إبراهيم: ٤٢– ٤٣.

١١- **الإيمان بالرسول – صلى الله عليه وسلم– وتعظيم سنته المطهرة باتباعها قولا وعملا، والسيرُ على هديه الشريف، ونصرتُه** والذبُّ عن جنابه وعن شريعته الغراء والإكثار من الصلاة والسلام عليه.

١٢- **إيثار الموت في ظل العقيدة على الحياة بدونها** ولهذا بايع أصحاب الشجرة على الموت في سبيل الدفاع عن عقيدتهم، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ووعدهم وعد الصدق جنات تجري من تحتها الأنهار، وذلك لأن " العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن تضطرب الدنيا من حوله، فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع، فيتشبث هو بالصخرة التي لا تتزعزع. وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول. هذه هي قيمة العقيدة في حياة المؤمن" (١)

١٣- **الانتصار على النفس أولاً**، لأن الذي لا ينتصر على نفسه يصعب عليه الانتصار على غيره، فقد رد الله حجة المخلفين من الإعراب الذين قالوا : ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ الفتح: ١١ . ولا يتحقق هذا الانتصار إلا من خلال

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ٢٤١٢

التربية الروحية الجادة وفق منهج الوسطية التي امتاز بها أهل السنة والجماعة عن غيرهم.

١٤- **التخلص من النفاق، وموافقة القول والعمل لما استقر في القلب من الإيمان**، وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة الكريمة المخلفين من الأعراب فقال عنهم: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ الفتح: ١١.

١٥- **أهميّة السكينة** فقد تكرّر ذكرها والامتنان بها في السورة ثلاث مرّات، **إذ هي سبب التثبيت**، وعامل رئيس من عوامل الانتصار على النّفس أولاً، وعلى الأعداء ثانياً.

١٦- **كشف حقيقة المنافقين** ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ الفتح: ١٢ **فلابد من تصفية الصفوف**، وهذه التصفية تحتاج غالباً إلى قرارات حاسمة ولغة قوية ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ الفتح: ١٥ .

١٧- **الانتصار يتمثل في طاعة الله والامتثال لأمره** فقد قال عز وجل في هذه السورة الكريمة: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الفتح: ١٦ . وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ الفتح: ١٧ .

١٨- **الانتصار بالتزام المواثيق والعهود والوفاء بها،** قال تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ الفتح: ١٠ ومدح الصحابة الذين أوفوا بعهدهم في بيعة الرضوان ولم ينكث منهم أحد فقال سبحانه: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الفتح: ١٨ .

١٩- **الانتصار بالإخلاص والصدق مع الله،** قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة: ١١٩ . وفي هذه السورة الكريمة قال: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ الفتح: ١٨ . ونفى هذا الصدق عن المنافقين فقال عز ذكره: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ الفتح: ١١ .

٢٠- **الاستفادة من سنن الله في خلقه، الكونية والاجتماعية** فإنها لا تتبدل ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ الفتح: ٢٣ .

٢١- **ليس النَّصر هو هزيمة الأعداء فقط، بل إن نجاة المؤمنين من بطش الكفار نصرٌ يستحق الشكر،** قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ

تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ الفتح: ٢٠ وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الفتح: ٢٤ . فالانتصار قد يكون أحيانا بمعنى المنع كما قال تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٤٨ أي يمنعون، فالنَّصر قد يكون بمعنى المنع من الأعداء وهذا انتصار للداعية في الحياة الدنيا.[(١)]

٢٢- **حفظ حقوق النفس المؤمنة واحترامها من الواجبات التي يُحسب حسابها في طريق النَّصر** ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾الفتح: ٢٥.

٢٣- **الجهاد في سبيل الله وسيلة لا غاية، فإذا حصل رجوع الناس إلى الحق ودخولهم في دين الإسلام بدون قتال فإن هذا أولى وأحمد** ، وقد يتحقق مثل هذا بالصلح كما حصل في صلح الحديبية فهو طريق من طرق النَّصر وقد قال تعالى في السورة : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ الفتح: ٢٥ .

٢٤- **الأمن مطلب في طريق النَّصر وأثر من آثاره، وتحقيقه سبب من أسباب الاستقرار ودوام الطاعة لرب العالمين.** وقد امتن سبحانه بذلك في هذه السورة الكريمة فقال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾الفتح: ٢٧.

---

(١) حقيقة الانتصار، ناصر بن سليمان العمر، دار القدس – صنعاء -، ط (بدون) ص٢٦

٢٥- **طريق النَّصر طويل** لأن من غاياته ظهور الإسلام على الدين كله ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** ﴾ الفتح: ٢٨،

وهناك فرق كبير بين مفهوم انتصار الدين وظهوره وبين مفهوم انتصار الداعية.[(١)]

٢٦- **نشر الحق وإظهار معالم الهدى لهذا الدين** من طرق تبليغه للناس وكشف مناهجهم القاصرة سواه.

٢٧- **تحقيق عقيدة الولاء والبراء** فقد كان المؤمنون السابقون من صحابة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – ﴿ **أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ** ﴾الفتح: ٢٩ .

٢٨- **تحقيق العبودية لله عز وجل** فقد وصف الصحابة الكرام بما جاء في خاتمة هذه السورة ﴿ **تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ** ﴾ الفتح: ٢٩ . وقد قال علي – رضي الله عنه – عنهم : " لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى اليوم شيئا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعز، قد باتوا لله سجّداً وقياماً، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح،وهملت أعينهم حتى تبلّ ثيابهم "[(٢)]

---

(١) انظر المصدر السابق ص١٧ وما بعدها

(٢) صفة الصفوة جـ١ ص ١٧٣

٢٩- مناصرة المسلمين والتعاون معهم على البرِّ والتَّقوى وتربية الناشئة على الدّين الحقّ والمنهج المستقيم ، فقد وصف الحق - جل وعز- الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – فقال: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ الفتح: ٢٩

٣٠- حبُّ الصحابة من الإيمان، والدفاع عنهم دفاعٌ عن الدين ،ولا يكرههم إلا كافرٌ صريحٌ أو منافقٌ سفيهٌ ، وقد جاء في التّعقيب على وصفهم السابق ذكره، قوله تعالى: ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾الفتح: ٢٩ .والاستفادة من سيرهم وجهادهم فإنَّها تقرب إلينا معا لم الطريق.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وأصلي وأسلم على خير البريَّة القدوة المهداة- صلى الله عليه وسلّم – القائل – وقد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر : "أفلا أكون عبداً شكوراً".(١)

اللهمّ ارزقنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. اللهمَّ لك الحمد ولك الشكر أولاً وآخراً على أن يسَّرتَ لي إتمام هذه الرِّسالة بعونك وتوفيقك. اللهمَّ إنِّي أسألك أن تكون هذه الرِّسالة خالصةً لوجهك الكريم، موافقةً للحقِّ والصَّواب، ونافعةً للنَّاس.

لقد استهدفت هذه الرسالة سورةً من سور القرآن الكريم هي أحبُّ إلى الرَّسول - - صلى الله عليه وسلّم – مما طلعت عليه الشَّمس. اللهمَّ فحبِّبها إلينا، واجعل هداياتها نوراً لنا في حياتنا، و فتحاً من فتوحاتك لأمة محمدٍ – صلى الله عليه وسلّم – تُصلح بها أحوالها، وتُسدِّد بها خطاها، وأنت الفتاح العليم. أما بعد : فإن مشواري الطويل مع آيات هذه السورة الكريمة من خلال دراسة التناسق الموضوعي فيها، قد أسفر عن نتائجَ عظيمةٍ ، سأذكر أهمها – وبالله التوفق – :

*** أهمُّ النتائج :**

١- لقد أظهرت الدِّراسة لتفسير سورة الفتح في ضوء التناسق الموضوعي أنَّ **سورة الفتح تتحدَّث عن موضوع واحد، لكنَّه مستمرٌّ ومتجدِّدٌ وهو :" نصر الله لعباده المؤمنين، ووعده بظهور الدين على الدين كله ولوكره المشركون".**

(١) سبق تخريجه

٢- إن تسمية هذه السورة فتحًا، وتسمية الصلح الذي تحدثت عنه فتحًا، وتسمية بيعة الرضوان فتحًا، وما جاء في السورة من ذكر فتح خيبر، وما جاء فيها من البشارة بفتح مكة، وما جاء فيها من البشارة بالفتوحات المستقبلة من خلال الوعد بمغانم كثيرة، كل ذلك له دلالاته العظيمة في فهم دين الإسلام على الحقيقة وأنه ينبغي أن يكون ظاهرًا ليعم الخير الناس، حتى يستقر الأمن، وينتشر العدل، وتتحقق العبودية لله الواحد القهار؛ لأن **المقصود من الفتح إعزازُ دين الله، و تعبيد الناس لرب العالمين** .

٣- تتحدث هذه السورة عن **الجهاد في سبيل الله** وهو مفتاح هذه الفتوحات، وشعيرة من شعائر الدين، **وسبب عظيم من أسباب العزّة** .
ومع ذلك فإنَّ الحرب في وقتها المناسب، والصلح في وقته المناسب، وحسن سياسة الحرب والمسالمة بما يحقِّق المصالح الدينية والدّنيوية هو الفتح الحقيقي. فليس الفتح في القتال وفتح البلدان عنوةً فقط، بل هذا منه إذا كان يحقِّق إعلاء كلمة الله ونشر دعوة الإسلام، والسلم والمهادنة تكون فتحاً، رغم ما يبدوا فيها من ترك المصاولة والقتال، إذا أدَّت إلى إعزاز دين الله في المستقبل ، كما هو الحال في صلح الحديبية.

٤- لقد بشرت هذه السورة الكريمة رسول الله - صلى الله عليه وسلّم – وصحابته الكرام – رضوان الله عليهم – بهباتٍ كريمة، وعطايا سخيّة، من ربٍ محسنٍ كريم، فضلًا منه ومنّةً، وجزاءً لهم على ما بذلوا في سبيل الله

وإعزاز دينه؛ فقد قدموا أروع صور التسليم والرضا، والإتباع والتضحية، والصبر والإيثار، وحسن الظن بمولاهم الكريم والثقة بنصره، مع ما تعرضوا له من ابتلاءٍ وشدة. **فالتسليم والاتباع** سببٌ لرضوان الله سبحانه وتعالى وإحسانه لعباده.

٥- عاش صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - زمناً ولو يسيراً كان محاطاً بالحيرة والحزن والكآبة فبددتها سورة الفتح.ونعيش اليوم جواً مقارباً لذلك الجو، **وفي سورة الفتح العلاج**.

٦- ينبغي اليقين بالنصر. فمهما احلولك ظلام الليل فلابد لضياء الفجر أن ينبثق، **وسيتنفس الصبح يوماً معلناً النصر لأمة محمد - صلى الله عليه وسلّم - لأنه وعد الله، ولا يخلف الله الميعاد**. فقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ حقيقة شرعية ثابتة يجب أن نؤمن بها، وقد قيلت للمؤمنين الذين حققوا شروط النصر فتحقق لهم الوعد الإلهي ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ النور: ٥٥

فمتى تخلصت البلدان الإسلامية من الشركيات التي تحرسها وتشجعها الحكومات بدعوى التنشيط السياحي أو زيادة الدخل القومي أو غيرها من

الدعاوى الزائفة، مع الإعداد المادي الذي أمر الله به، والتوكل عليه سبحانه فذلك هو الأساس للخطو على الطريق الصحيح.

٧- أظهرت السورة الكريمة أن نتيجة سوء الظن بالله الهزيمة والفشل ومفهوم ذلك أن **حسن الظن بالله مع حسن العمل طريق للنصر والنجاح**. أما ظن السوء فهو من صفات المنافقين وسببٌ لفساد صاحبه وهلاكه.

٨- إن **الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلّم - وتعظيمه وتوقيره ونصرته، والعمل بسنته وتعليمها للناس واجب عظيم وهو من أسباب النصر والعزّة** لأن تعزير الرسول من أسباب نيل معيّة الله الخاصة والتي تقتضي عونه ونصرته - عز وجل - لعباده المؤمنين. كما قال تعالى :

﴿... وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المائدة: ١٢

٩- لابد من اختبار المجاهدين من المسلمين، حتى يتميز الصف المؤمن المجاهد حقًا في سبيل الله، ويخلو من العناصر المترددة التي تؤثر سلامة الأبدان على نصرة دين الرحمن، لأن وجود مثل هؤلاء في صف المجاهدين المؤمنين بربهم الواثقين بنصره يحدث خللًا وزعزعةً في الصف المطلوب منه أن يكون كالبنيان المرصوص، وهؤلاء **المنافقون والمرجفون كثيرًا مايكونون سببًا**

لتأخير النصر، فينبغي إبعادهم وفضح مخططاتهم حتى يكون المؤمنون بمنأىً عن شرهم، وعلى حذر من الاغترار بهم.

١٠- **من النصح في تربية ضعيفي الإيمان إمتحانُهم** حتى يزدادوا يقينًا بنصر الله وتسليمًا وطاعةً لأمره وحكمه.

١١- **وجوب الاعتراف بشرف أصحاب بيعة الرضوان ومعرفة قدرهم،** وقد أثنى عليهم ربهم - جلّ وعزّ - في القرآن الكريم، وشهد لهم النبي - صلى الله عليه وسلّم - بدخول الجنة. وقد سمعوا هذا الثناء - في حياتهم - قرآننا يتلى فلم يصبهم كبر ولا غرور، ولا تعالٍ ولا جفاء، بل زادوا بذلك إيمانًا وخشية، وتواضعًا وعبادة، وشكرًا لمولاهم الحق.

١٢- إن **الاشتغال بالمال والأهل عن القيام بالواجبات الشرعية** ليس بعذر مقبول، بل هو محل الذمّ و**دليلٌ على ضعف الإيمان.**

١٣- قد **يكافأ المطيع الصادق إذا عزم على الأمر ،على طاعته وعزمه ولو لم يتحقَّق الأمر الذي عزم على القيام به،** فإنَّ أصحاب بيعة الرضوان بايعوا الرَّسول - صلى الله عليه وسلّم - على القتال، ولم يحصل يومذاك قتال، ومع ذلك كوفئوا بغنائم خيبر، وبرضا الله عنهم، وبالشهادة لهم بالجنة.

١٤- **التعامل مع المنافقين يحتاج إلى نفسٍ طويلٍ في دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن،** بحيث تسدُّ عليهم مسالك الحوار في بعض المسائل والمطالب التي يثيرونها ويطالبون بها

وليست من حقوقهم، بما يفحمهم ويغلق الباب في وجوههم، فلا تطمع نفوسهم في إثارتها مرّة أخرى؛ لأنهم يتصيدون مواضع الضعف في الحوار، ويحرفون الكلمات ويؤولون المعاني ليدخلوا من مساربها إلى ما يحقّق أطماعهم، فإن حصل ذلك منهم فحينئذٍ يكون الجواب عليهم بصرامة واختصار، كمثل قوله تعالى: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، وأن لا يلتفت بعدها إلى ردِّهم، فلما قالوا -كما ذكر الله عنهم-: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ قوبل هذا الردُّ بالإضراب.

١٥- تقدَّم معنا في التفسير التحليلي أن القوم الموصوفين بأنهم أولي بأسٍ شديد هم: **الفرس والرُّوم**، وهذا اختيار بعض الصحابة وكثيرٍ من السلف، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - **وفيه تلميحٌ لأمة الإسلام بأن تعدَّ لمواجهة هؤلاء أقوى الأسلحة وأمضاها**، وخصوصاً أنهما يذوذان عن أشدِّ الناس عداوةً للذين آمنوا.

١٦- لقد ذمت هذه السورة الكريمة **حمية الجاهلية**، وهذه الحمية القبيحة **محلها القلب**. لكنّ **الذي جعلها في القلب هم أهلها**.

واليوم تستقر حمية الجاهلية في قلوب كثير من الناس بفعلهم واختيارهم، وما لم ينبذوا هذه الحمية البغيضة التي قد حررهم الإسلام من شرّها، فإنها ستقودهم إلى المهالك في الدنيا والآخرة.

إن مناصرة الجاهلية واتباعها وتقليدها في أي عصر من العصور هو من نتاج هذه الحمية التي ذمها الله سبحانه وتعالى وأبدلنا خيرًا منها، وبين

عاقبة أهلها. **وليست دعاوى التغريب والعلمنة التي يدعو إليها اليوم أناس من بني جلدتنا إلا أثرًا من آثار هذه الحمية الجاهلية**. نسأل الله أن يردّ كل ضالٍ إلى نور الهداية، وإلى خير زاد ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ البقرة: ١٩٧

١٧- **الحاجة ماسة وملحة لتربية الناس التربية الجادة على منهاج النبوة** كما كان ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ الفتح: ٢٩ لأن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم.

١٨- وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلّم - بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح: ٢٩ وهذا **تحقيقٌ لعقيدة الولاء والبراء**، ومهما اعترض عليه البشر بأهوائهم وعقولهم القاصرة فإن الذي مدحهم بذلك هو الأصدق حديثا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤.فلا بدّ من إظهار العزّة والقوة أمام الباطل وأهله، وإظهار الحقّ للناس بلا مهادنة ولا محاباة لأحد.

أما الضعف الذي يعيشه المسلمون اليوم والذي يصل لدرجة الولاء للكفار والبراء من المسلمين أحيانًا فإنه نابعٌ من قلة الديانة ونقص المروءة. ولا أدري كيف يرضى بذلك مسلمٌ وهو يرى حقد الكفار وظلمهم لإخوانه المسلمين في وقتٍ أصبحوا يعلنون ويفرضون هذا الظلم والطغيان فرضًا بلا خشيةٍ ولا حياء، فيستكين لهم كثيرٌ من المسلمين دون دفاعٍ أو اعتراض، وكأنهم صمٌ عميٌ فلا يسمعون ولا يبصرون. وما يفعله اليهود في أرض فلسطين وفي غزة بالذات، وما قام به الصليبيون من حربٍ ظالمة لا مبرر لها

في افغانستان والعراق، وما يقوم به البوذيون اليوم في أراكان المسلمة خير شاهدٍ على الوحشية والعداء التي يدافع عنها بعض بني جلدتنا، فكيف تغمض العيون عن العنف والغلظة والشدة والوحشية التي يمارسها الكفار، ثم تتطاول أعناقهم ويشتد نكيرهم على إخوانهم المسلمين الذين ينادون بمواقف حازمة مع الأعداء. ألا ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣ !

١٩- **كثيرٌ من الناس** يعلقون فرج همهم وتنفيس كربهم وكرب المسلمين بالبشر، بل وبالكافرين من أعداء الدين، وتتعلق قلوبهم بالولاء لهم يلتمسون منهم النصر والعون والتأييد، **وينسون التوكل على ربّ البشر الذي بيده ملك السماوات والأرض وله جنود السماوات والأرض**. والملك والحكم والنصر بيده ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ آل عمران: ١٢٦

*** ومن أبرز التوصيات ما يلي :**

١- أوصي كل مسلم يقرأ سورة الفتح أن يستشعر حب النبي - صلى الله عليه وسلّم – لهذه السورة.

٢- آمل من قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى أن يشكل لجنة للاهتمام بهذا المشروع القيم أعني مشروع " التناسق الموضوعي في

سور القرآن الكريم "لإخراجه للناس للانتفاع به حتى لا يبقى رهين الرفوف والأدراج.

٣- أوصي المنظمات والهيئات الإسلامية أن تعنى بدراسة أسباب النصر والتمكين في القرآن الكريم وأن تقرر برامج عملية في هذا الشأن لتطبيقها على أرض الواقع.

* وفي الختام أسأل الله تعالى أن يختم لهذه الرسالة بخير وأن يحسن خاتمتنا أجمعين، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يجعلنا والقارئين لهذه الرسالة والمستفيدين منها هداة مهتدين، صالحين مصلحين، وأن يبرم لأمة محمد - صلى الله عليه وسلّم — أمراً رشداً وأن ينصرها نصراً مؤزراً.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الفهارس العــامة

وتشمل :

١- فهرس الآيات القرآنية
٢- فهرس الأحاديث والآثار
٣- فهرس الأعلام المترجمة
٤- فهرس أسماء القبائل والأمكنة والبلدان
٥- فهرس الشواهد الشعرية
٦- فهرس المراجع والمصادر
٧- فهرس الموضوعات

١- فهرس الآيات القرآنية

السـورة	الآيـة	الصفحة
١- الفاتحة	[٦] :	١٩١
	[٧] :	١٩١
٢- البقرة	[٤٨] :	٤٧٤
	[٨١] :	٢٢٨
	[١٠٦] :	٦٢
	[١٤٣] :	٢٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٤
	[١٨٥] :	٣٢٢
	[١٩٧] :	٤٨٢
	[٢١٣] :	٢٥١
	[٢١٤] :	٨٦
	[٢١٦] :	٣٥٩ ، ٤٥٣
	[٢٥٥] :	١٨٧
	[٢٧٨] :	٤٠٠
	[٢٨٢] :	٢٥٠
	[٢٨٥] :	٥٠
٣- آل عمران	[٧] :	٢٨١
	[٨] :	٢٣٩
	[١٨] :	٢٤٩

[٢٨] : ٢٤١
[٣١] : ٢٥١
[٣٨] : ٢٩٣
[١٠٥] : ٤٤١
[١١١] : ٣٦٠
[١٢٦] : ٢٣٣ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤
[١٣٩] : ٣٦٠
[١٥٤] : ٢٦٧
[١٥٩] : ٢٥٣
[١٦٤] : ٢٤٦
[١٦٧] : ٢٩١
[١٧٢] : ٤٣٣
[١٧٣] : ٤٨٣
[١٨٥] : ٢٢١ ، ٢٤٠
[١٩٢] : ٢٢٨

٤- النساء [١٩] : ٤١٧
[٤١] : ٢٤٩
[٥٢] : ٢٢٨
[٨٠] : ٢٤٨ ، ٢٦٦
[٨٢] : ٤٦ ، ٥٣
[٨٧] : ٣٧

[١٢٣] : ١٨٥
[١٤٥] : ٢٢٤
[١٦٥] : ٢٥١
[١٦٦] : ٢٤٩

٥- المائدة [٣] : ١٨٩ ، ٤٦٧
[١٢] : ٢٦٥ ، ٤٨٠
[١٧] : ٢٩٦
[٤١] : ٢٩٦
[٥٢] : ١٥٩
[٥٤] : ٤٣٧ ، ٤٤٣
[٦٤] : ٣٣٠

٦- الأنعام [١٣] : ٢٤٨
[١٧] : ٢٩٦
[٤٣] : ١٩٩
[٤٨] : ٢٥١
[١٣٠] : ٢٥٠
[١٦١] : ١٩١ ، ١٩٢
[١٦٤] : ١٨٥

٧- الأعراف [٨٩] : ١٥٨

[١٥٦] : ٢٤١

[١٥٧] : ١٠٣ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤

٨- الأنفال [٢٦] : ١٠٢ ، ٤٣١

[٢٨] : ٢٨٩

[٣٣] : ١٩٩ ، ٤٦٦

[٤٦] : ٤٤١

[٦٠] : ٢٠٠ ، ٢٠٤

[٦٢] : ٢١٥

٩- التوبة [٩] : ٢٢٧

[١٤] : ٣٧٣

[٢٥] : ٧٦

[٣٣] : ١٠٧ ، ١٩٣ ، ٤١٢

[٨٣] : ٣٠٧ ، ٣٠٩

[١٠١] : ٣١١

[١٠٢] : ٣١١

[١٠٦] : ٣١١

[١١٩] : ٤٧٣

[١٢٠] : ٤٤٤

[١٢٣] : ٤٢٤

١٠- يونس [٢٣] : ٢٨٣

١١- هود [٣٨] : ٢٧٥
[١١٢] : ١٩٩ ، ٣٦١ ، ٤٤٢
[١١٤] : ٢٤٠

١٢- يوسف [١٠٣] : ٢٥٤
[١١٠] : ١٩٨

١٣- الرعد [١١] : ٤٣٨
[٢٨] : ١٩٥ ، ٢٣٩ ، ٤٦٨

١٤- إبراهيم [٧] : ١٩٩ ، ٢٢٨ ، ٣٦١ ، ٤٦٧
[٤٢] : ٤٦٨
[٤٣] : ٤٦٨

١٥- الحجر [٩] : ٦٧ ، ٨١
[٩٩] : ٢٦٢

١٦- النحل [٨٩] : ٢٤٩
[٩٢] : ٢٨٢

١٧- الإسراء [٩] : ١٩٣
[١٠٥] : ٢٥٢

١٨- الكهف [٢٣] : ٣٩٩ ، ٤٠٢
[٤٩] : ٣٢٧
[٥٦] : ٢٥١

١٩- طه [٧] : ٣٢٦
[٨١] : ٢٢٨

٢٠- الأنبياء [١٠٧] : ٢٤٧

٢١- الحج [٣٠] : ٤٣٣
[٤٠] : ٢٣٥
[٤١] : ٢٦٤ ، ٣٦١
[٧٢] : ٤٢٦

٢٢- المؤمنون [١] : ٢٢٠ ، ٤٣٨
[٢] : ٤٣٨

٢٣- النور [١] : ٤٣
[٥٤] : ١٨٥

[٥٥] : ٤٧١ ، ٤٧٩

٢٤- الفرقان [٥٢] : ٣٢٢
[٥٦] : ٢٥٢

٢٥- العنكبوت [٦٤] : ٢٤٠
[٦٩] : ١٩٩ ، ٢٠٣

٢٦- الروم [١] : ١٦٧
[٢] : ١٦٧
[٤] : ١٦٧
[٥] : ١٦٨
[٤١] : ٢٢٧
[٤٧] : ٣٦٨

٢٧- السجدة [٢٨] : ١٥٩

٢٨- الأحزاب [١٣] : ٣١٩
[٢١] : ٢٦٤
[٤٥] : ٢٥٢ ، ٢٥٥
[٤٦] : ٢٥٥

٢٩- سبأ [٢٨] : ٢٤٧

٣٠- فاطر [٢] : ١٥٩ ، ٢٠٢
[٢٤] : ٢٥٤
[٤٣] : ٢٢٦ ، ٢٨٣

٣١- يس [٢٣] : ٢٩٦

٣٢- ص [٢١] : ٤٢
[٧٠] : ٢٥٦

٣٣- الزمر [٩] : ٢٣٥
[٣٧] : ٢٣٢
[٣٨] : ٢٩٦
[٥٣] : ١٨١

٣٤- غافر [٥] : ٢٦١
[١٩] : ٣٢٥

٣٥- فصلت [٣] : ٣٨

٣٦- الشورى [١١] : ٢٨١

٣٧- الزخرف [٣١] : ٩٠

٣٨- الأحقاف [٨] : ٢٩٩

٣٩- محمد [٢] : ١٠٩
[٣] : ١٠٩
[٤] : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩
[٧] : ١٠٥ ، ٢٣٩
[١١] : ١٠٩
[١٧] : ١٠٩ ، ٢٠٣ ، ٣٦٠
[١٩] : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ٤٦٦
[٢٠] : ١١٠
[٣٠] : ٤٢٦ ، ٤٢٨
[٣٥] : ١٠٥ ، ١١٠
[٣٨] : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ٤٤٣

٤٠- الفتح [١] : ٨ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٧
، ٧٨ ، ٩٨ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٣٣ ،
١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ،

٣٠٤ ، ٤٤٩ ، ٤٦٣
[٢] : ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٩٨ ، ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ٤٥٧
[٣] : ٦٨ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢١٠
[٤] : ١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧
[٥] : ١٦ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٢١ ، ١٣٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٤٦٧
[٦] : ١٣٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٩٦
[٧] : ١٣٥ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦
[٨] : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠
[٩] : ١٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٩٧
[١٠] : ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٢٢ ، ٤٧٠
[١١] : ١٢٢ ، ١٤٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩
[١٢] : ١٤٠ ، ٢٢٢ ، ٢٧٠ ، ٢٩٦ ، ٤٦٩
[١٣] : ١٤٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٣ ، ٣٢٠
[١٤] : ١٤٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٤ ، ٣٢٠
[١٥] : ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٣

[١٦] : ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٥ ، ٣٢٣ ، ٤٦٩
[١٧] : ١٧ ، ١٠٨ ، ١٤٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣١١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣٤٢ ، ٤٧٠
[١٨] : ١٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٢ ، ٤٧٠
[١٩] : ١٢٣ ، ١٤٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤١
[٢٠] : ١٢١ ، ١٤٢ ، ١٦٤ ، ٣٣٣ ، ٣٤٩
[٢١] : ١٢٣ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ٣٣٣ ، ٣٥٩
[٢٢] : ١٠٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٣٦٤ ، ٤٦٣ ، ٤٧٧
[٢٣] : ١٤٢ ، ٣٣٣ ، ٣٦٦ ، ٤٧٠
[٢٤] : ١٨ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٤٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٦٧
[٢٥] : ١٨ ، ١٠٩ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦ ، ٤٧١
[٢٦] : ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٢ ، ٣٣٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٧
[٢٧] : ١٩ ، ٦٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٨٩ ،

٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤٦٥ ، ٤٧١
[٢٨] : ١٢٤ ، ١٤٣ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ، ٤٦٥ ، ٤٧٢
[٢٩] : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٣٠١ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠

٤١- الحجرات [١] : ١١٣
[٢] : ١١٤
[٧] : ١١٥
[٩] : ١١٦
[١٤] : ١١٦
[١٥] : ١١٦

٤٢- الذاريات [٣٢] : ٢٤٦
[٣٨] : ٢٤٦
[٥٠] : ٢٥٦

٤٣- النجم [٢٣] : ٢٢٦
[٣٩] : ١٨٥

٤٤- القمر	[٤٢] :	٢٣٢
٤٥- الحديد	[٢٥] :	١٩٤
٤٦- المجادلة	[٢٠] :	٤٦٤
	[٢١] :	٤٦٤
	[٢٢] :	٣٤٥
٤٧- الممتحنة	[١٠] :	٩٥
٤٨- الصف	[٩] :	١٩٤ ، ٤١٢
	[١٣] :	١٥٩
٤٩- المنافقون	[١] :	٤١٣
	[٤] :	٢٨٨
٥٠- الطلاق	[١] :	٢٥٨
٥١- التحريم	[٦] :	٢٣١
٥٢- الملك	[١٤] :	٤٨٣

٥٣- القلم [٤] : ٢٥٣

٥٤- نوح [١] : ٢٤٦

٥٥- المزمل [١٥] : ٢٤٦

٥٦- المدثر [٣١] : ٢١٥

٥٧- المطففين [٢] : ٣٩١
[٣] : ٣٩١

٥٨- العلق [٥] : ٤٧

٥٩- العاديات [٨] : ٢٨٩

٦٠- الماعون [٤] : ١٠٣
[٥] : ١٠٣
[٦] : ١٠٣
[٧] : ١٠٣

٦١- النصر [١] : ١٦٦ ، ٣٨٤
[٢] : ٣٨٤

[٣] : ١٧٧ ، ٣٨٤

٢- فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
أشهد أني عبد الله ورسوله	أبو هريرة	٢٥٨
اعتمر رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - أربع عمر	قتادة	٧٥
أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - من الحديبية راجعاً	عروة بن الزبير	٧٣
أقبلنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - من الحديبية	عبد الله بن مسعود	١٥٦
أما إنه ليس بالذي ترَوْن	ابن عباس	٤٢٧
إن الزمان قد استدار كهيئتة ..	أبو بكرة	٢٢٧
إن الله نظر في قلوب العباد فوجد	ابن مسعود	٤٤٢
إنَّ المؤمن للمؤمن كالبنيان	أبو موسى الأشعري	٤٣٧
إن الهدي الصالح، والسمت الصالح والاقتصاد	ابن عباس	٤٤٠
أن ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على رسول الله	أنس بن مالك	٣٣٨
إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش	المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم	٨٧

أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – قال: " إنَّ الله – تبارك وتعالى- يقول لأهل الجنَّة:	أبو سعيد الخدري	٣٤٦
أن رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – كان يسير في بعض أسفاره	أسلم العدوي	٦٢
أن سليمان عليه السلام قال: والله لأطوفنَّ الليلة	أبو هريرة	٤٠٢
أن عبداً لحاطب جاء رسولَ الله ...	جابر بن عبد الله	١٨٤
الآن نغزوهم ولا يغزوننا	سليمان بن صُرَر	٨٤
أنا عند ظن عبدي بي	أبو هريرة	٢٤١
أنه سمع جابراً يقول: كنا يوم الحديبية ألف وأربعمائة	عمرو بن دينار	٢٧٦
إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي	أبو مسعود	٨٠
أيها الناس اتهموا أنفسكم	سهل بن حنيف	١٥٥
بينما نحن قائلون زمن الحديبية	سلمه بن الأكوع	٣٣٧
تعدون أنتم الفتح فتح مكة	البراء بن عازب	١٦٤
الحلال بين والحرام بين ... فمن اتقى الشبهات	النعمان بن بشير	٢٠٣
رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – يوم فتح مكة على ناقته	معاوية بن قرَّة	٥٨
سمعت عبد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة	عمرو بن مرة	١٢١

شكونا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – وهو متوسد..	خباب بن الأرت	٤٦٨
شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إلى كراع الغميم	مجمع بن جارية	٧٧
صلح الحديبية، وغفر له ما تقدم وما تأخر	الشعبي	٦٣
طوبى لك صحبت النبي – صلى الله عليه وسلّم –	المسيب بن رافع	١٢١
في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. قال: "فتح خيبر"	أنس بن مالك	١٦٥
في قولِه: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، قال: غُلِبتْ وغَلَبتْ	ابن عباس	١٦٧
قاتلت النبي –صلى الله عليه وسلم– أوّل النهار كافراً	جنيد بن سبع	٣٤٤
قال أصحابه : هنيئاً مريئاً ، فما لنا ؟	أنس بن مالك	٦٦
قال عمر : يا رسول الله، أو فتح هو ؟ قال : نعم	سهل بن حنيف	٩٨
قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك	عبد الله بن عمرو	٢٥٢
قدمنا الحديبية مع رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– ونحن أربع عشرة مائة	سلمه بن الأكوع	٣٣٩
قرأ النبي – صلى الله عليه وسلّم – يوم فتح مكة سورة الفتح	عبد الله بن مغفَّل	٥٨

قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية	يزيد بن أبي عبيد	٢٧٨
قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: " الحديبية "	أنس بن مالك	١٦٢
كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه	أم المؤمنين عائشة	١٨٧
كانت الحديبية سنة ست	نافع المدني	٧٤
كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى	أبو هريرة	٤٥٠
كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بالحديبية في أصل الشجرة التي ...	عبد الله بن مغفل	٣٤١
كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر آخذ بيده	جابر بن عبد الله	٢٧٨
كنت أكتب لرسول الله – صلى الله عليه وسلّم –	زيد بن ثابت	٢٧٣
لا يدخل النار – إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد	جابر بن عبد الله	١٨٤
لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله	أبو هريرة	٣٩
لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ	أسلم العدوي	٨
لقد أنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ ممّا على الأرض	أنس بن مالك	١٧٦

لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى اليوم شيئاً يشبههم	علي بن أبي طالب	٤٢٧
لما أقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – من الحديبية	عبد الله بن مسعود	٦٥
لما كنا بضجنان رأيت الناس يركضون	مجمع بن جارية	٧٨
لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ..	أنس بن مالك	٦٥
لن يدخل أحداً عملُه الجنة	أبو هريرة	٢٤١
لو شئت أن أحكي لكم قراءة النبي – صلى الله عليه وسلّم –	معاوية بن قرَّة	٥٨
ما كنا نعدّ الفتح إلا يوم الحديبية.	جابر بن عبد الله	١٧٠
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم	النعمان بن بشير	٤٣٧
المسلم أخو المسلم	عبد الله بن عمر	٤٤١
من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه	عمر بن الخطاب	٤٣٨
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا	أبو موسى الأشعري	٣٨٣
من كان منكم متأسياً	ابن مسعود	٤٤٢
نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة	المسوَّر بن مخرمة ومروان بن الحكم	٧٤
هي هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.	ابن عباس	٣٦٣
يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك ...	أبو سعيد الخدري	٢٥٠

فهرس الأعـــلام المترجمة

م	العـــــلم	الصفحة
١	إبراهيم بن عمر الجعبري	٤٢
٢	إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي	١٠
٣	إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي	٤٦
	ابن أبي شيبة = عبد الله بن محمد	
	ابن إسحاق = محمد بن إسحاق	
	ابن الجوزي = عبد الرحمن بن علي	
	ابن الزبير الثقفي = أحمد بن إبراهيم	
	ابن الصيرفي = عثمان بن سعيد بن عثمان	
	ابن العربي = أبو بكر محمد بن عبد الله	
	ابن القيم = محمد بن أبي بكر	
	ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم	
	ابن حجر = أحمد بن علي	
٤	ابن زنيم	٣٤١
	ابن زيد = الرحمن بن زيد بن أسلم المدني	
	ابن سعد = محمد بن سعد	
	ابن عاشور = محمد الطاهر	
	ابن عطية = عبد الحق بن غالب	
	ابن فارس = أحمد بن فارس بن زكريا	
	ابن قتيبة = عبد الله بن مسلم	

	ابن كثير = إسماعيل بن عمر	
	ابن منظور = محمد بن مكرم بن علي	
	ابن هشام = عبد الملك بن هشام	
	أبو السعود = محمد بن محمد العمادي	
	أبو برزة الأسلمي = نضلة بن عبيد	
	أبو بصير = صفوان بن أمية	
٥	أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي	٣٧١
	أبو جعفر = يزيد بن القعقاع المدني	
	أبو جندل = العاصي بن سهيل بن عمرو	
	أبو حيان = محمد بن يوسف	
	أبو عمرو الداني = عثمان بن سعيد بن عثمان	
٦	أبي بن كعب	٦٩
٧	أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي	٩
٨	أحمد بن الحسين البيهقي	٧٥
٩	أحمد بن حنبل	٣٤٣
١٠	أحمد بن شعيب بن علي النسائي	٣٤٣
١١	أحمد بن عبد الحليم بن تيمية	٢٦٠
١٢	أحمد بن علي الرازي	٣٩١
١٣	أحمد بن علي بن حجر	١٦٦
١٤	أحمد بن فارس بن زكريا	٣٨
١٥	أحمد بن يحي بن زيد	٣٤
١٦	أسلم العدوي	٧

١٧	إسماعيل بن عبد الرحمن بن كريمة	٢٨٠
١٨	إسماعيل بن عمر بن كثير	١٨٢
	الألوسي = محمود بن عبد الله	
١٩	أم مبشر	١٨٤
٢٠	أنس بن مالك	٦٥
٢١	إياس بن سلمة بن الأكوع	٣٣٧
٢٢	أيوب السختياني	٩٢
	البخاري = محمد بن إسماعيل	
٢٣	بديل بن ورقاء الخزاعي	٨٨
٢٤	البراء بن عازب	١٢١
	البغوي = الحسين بن مسعود	
	البقاعي = إبراهيم بن عمر	
	البيهقي = أحمد بن الحسين	
	الترمذي = محمد بن عيسى	
	ثعلب = أحمد بن يحي بن زيد	
٢٥	جابر بن زيد	٧٩
٢٦	جابر بن عبد الله	١٧٠
	الجصاص = أحمد بن علي	
	الجعبري = إبراهيم بن عمر	
٢٧	جنيد بن سبع	٣٤٤
٢٨	حاطب بن أبي بلتعة	١٨٤
	الحاكم = محمد بن عبد الله	

٢٩	الحسين بن محمد	٣٩
٣٠	الحسين بن مسعود	٨١
	الخازن = علي بن محمد بن إبراهيم	
٣١	خباب بن الأرت	٤٦٨
	ذو الرمة = غيلان بن عقبة العدوي	
	الرازي = محمد بن عمر	
	الراعي النميري = عبيد بن حصين	
	الراغب الأصفهاني = الحسين بن محمد	
	الرماني = علي بن عيسى	
	الزركشي = محمد بن بهاذر	
	الزمخشري = محمود بن عمر	
	الزهري = محمد بن مسلم	
٣٢	زياد بن معاوية بن جناب	٤٠
٣٣	زيد بن أسلم	٧
٣٤	زيد بن حارثة	٢٥٥
٣٥	زينب بنت جحش	٢٥٥
	السدي = إسماعيل بن عبد الرحمن	
	السعدي = عبد الرحمن بن ناصر	
٣٦	سعيد بن المسيب	١٢١
٣٧	سعيد بن جبير	١٦٧
٣٨	سعيد بن منصور	٦٣
٣٩	سلمة بن الأكوع	٣٣٧

٤٠	سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني	٢٧٣
	السمعاني = منصور بن محمد	
٤١	سهل بن حنيف	٥٩
٤٢	سهيل بن عمرو	٩٢
٤٣	سيد قطب إبراهيم	١٢
	السيوطي = عبد الرحمن بن أبي بكر	
	الشاطبي = إبراهيم بن موسى	
	الشافعي = محمد بن إدريس	
٤٤	شعبة بن الحجاج	٢٠٨
	الشعبي = عامر بن شراحيل	
٤٥	شقيق بن سلمة الأسدي (أبو وائل)	١٥٥
	الشوكاني = محمد بن علي الشوكاني	
٤٦	صفوان بن أمية	٩٦
٤٧	الضحاك بن مزاحم الهلالي	١٦٤
	الطبراني = سليمان بن أحمد	
	الطبري = محمد بن جرير	
٤٨	طرفة بن العبد	٣٣
٤٩	طلحة بن عبيد الله	٣٤٠
٥٠	عاصم الجحدري	٦٩
٥١	العاصي بن سهيل بن عمرو	٩٤
٥٢	عامر بن سنان بن الأكوع	٣٣٩
٥٣	عامر بن شراحيل الشعبي	٦٣

٥٤	عامر بن لؤي	٨٩
٥٥	عبد الحق بن غالب بن عطية	٣٧
٥٦	عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان	٣١
٥٧	عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي	١١
٥٨	عبد الرحمن بن زيد	٣٠١
٥٩	عبد الرحمن بن علي بن الجوزي	١٠١
٦٠	عبد الرحمن بن ناصر السعدي	٣٠٨
٦١	عبد الله بن أبي	٨٣
٦٢	عبد الله بن أبي أوفى	١٢١
٦٣	عبد الله بن محمد بن أبي شيبة	١٦٥
٦٤	عبد الله بن مسعود الهذلي	٦٥
٦٥	عبد الله بن مسلم	٣٥
٦٦	عبد الله بن مغفل	٥٨
٦٧	عبد الملك بن هشام	٤٥١
٦٨	عبيد بن حصين	٤١
٦٩	عثمان بن سعيد بن عثمان	٤١
٧٠	عثمان بن طلحة	٤٥٦
٧١	عروة بن الزبير	٧٣
٧٢	عروة بن مسعود	٩٠
٧٣	عطاء بن يسار	٦٩
٧٤	عكرمة بن عبد الله المدني	٩٢
٧٥	العلاء بن المسيب	١٢١

٧٦	علي بن أحمد الواحدي	٣٩٦
٧٧	علي بن عيسى بن علي الرماني	٢٨٦
٧٨	علي بن محمد بن إبراهيم	٢٨٠
٧٩	عمرو بن العاص	٤٥٦
٨٠	عمرو بن دينار	٢٧٦
٨١	عمرو بن مرة	١٢١
٨٢	غيلان بن عقبة العدوي	٣٣
	الفراء = يحيى بن زياد	
	الفراهي = عبد الحميد بن عبد الكريم	
٨٣	الفضل بن شاذان	٦٩
	القاسمي = محمد جمال الدين	
٨٤	قتادة بن دعامة السدوسي	٦٥
	القرطبي = محمد بن أحمد	
٨٥	قيصر	٩١
٨٦	كسرى	٩١
٨٧	كعب بن لؤي	٨٩
٨٨	الليث بن سعد بن عبد الرحمن	٣٦
٨٩	مجاهد بن جبر المكي	١٦٢
٩٠	مجمّع بن جارية	٧٧
٩١	محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي	١٦٤
٩٢	محمد الطاهر بن عاشور	٤٥
٩٣	محمد بن أبي بكر بن القيم	٣٤٩

٩٤	محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي	١٠١
٩٥	محمد بن أحمد باشميل	٤٥٣
٩٦	محمد بن إدريس الشافعي	٢٧٧
٩٧	محمد بن إسحاق بن يسار	٣٧١
٩٨	محمد بن إسماعيل البخاري	٦٢
٩٩	محمد بن بهادر الزركشي	٣٧
١٠٠	محمد بن جرير الطبري	١٦٢
١٠١	محمد بن سعد بن منيع	٧٨
١٠٢	محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم	١٦٥
١٠٣	محمد بن عبد الوهاب	٤٥٢
١٠٤	محمد بن علي الشوكاني	١٧٨
١٠٥	محمد بن عمر بن الحسين الرازي	٩
١٠٦	محمد بن عيسى الأصبهاني	٦٩
١٠٧	محمد بن عيسى بن سورة الترمذي	٦١
١٠٨	محمد بن محمد العمادي أبو السعود	٣٤٧
١٠٩	محمد بن مسلم بن عبيد الله الزهري	٩٣
١١٠	محمد بن مكرم بن علي	٤٠
١١١	محمد بن يوسف بن حيان	٧٦
١١٢	محمد جمال الدين القاسمي	٢٩٧
١١٣	محمد خليل جيجك	١٣٤
١١٤	محمد عبد الله دراز	٥٤
١١٥	محمد ناصر الدين الألباني	٣٧٤

١١٦	محمود بن عبد الله الألوسي	١٦٥
١١٧	محمود بن عمر الزمخشري	٤٩
١١٨	مروان بن الحكم	٧٤
١١٩	مسلم بن الحجاج	٦٥
١٢٠	المسور بن مخرمة	٧٤
١٢١	المسيب بن رافع الأسدي	١٢١
١٢٢	مصطفى مسلم محمد	١٢
١٢٣	معاوية بن أبي سفيان	٩٦
١٢٤	معاوية بن قرة	٥٨
١٢٥	معمر بن راشد الأزدي	٩٢
١٢٦	المغيرة بن شعبة	٩١
١٢٧	مقبل بن هادي الوادعي	٣٤٣
١٢٨	مكرز بن حفص	٩٢
١٢٩	منذر بن سعيد	٣٤٧
١٣٠	منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني	١٠١
	النابغة الذبياني = زياد بن معاوية	
١٣١	نافع المدني	٧٤
١٣٢	النجاشي	٩١
	النسائي = أحمد بن شعيب	
١٣٣	نضلة بن عبيد	٦٠
	الواحدي = علي بن أحمد	
١٣٤	يحي بن ثابت الذماري	٦٩

١٣٥	يحي بن زياد الفراء	١٦٢
١٣٦	يزيد بن أبي عبيد	٢٧٨
١٣٧	يزيد بن القعقاع المدني	٧٠

٣- فهرس أسماء القبائل والأمكنة والبلدان

الاسم	الصفحة
أحد	٨٣
أسد	٣٥٥
أسلم	٢٨٧
أشجع	٢٨٧
الأوس	٨٢
بدر	٨٣
البصره	٥٨
ضجنان	٧٨
بنو المصطلق	٨٥
بنو النضير	٨٤
بنو قريضة	٨٤
بنو قينقاع	٨٣
التنعيم	٣٣٨
تيماء	٤٥٧
ثقيف	٣١٠
الجحفة	٧٨
الجعرانة	٧٥
جهينة	٢٨٧
الحبشة	٨٢

الحديبية	٥٩
حنين	٧٥
خراسان	٣١٤
الخزرج	٨٢
الخندق	٨٣
خيبر	١١٨
دومة الجندل	٨٥
سعد بن بكر	٣٧
صفين	٥٩
العبلات	٣٤٠
غطفان	٣١٠
غفار	٢٨٧
الغميم	٨٧
فدك	٨٥
قريش	٣٧
كراع الغميم	٧٧
كنانه	٣٧
مرو	٦٠
مزينة	٢٨٧
هذيل	٣٧
هوازن	٣١٠
وادي القرى	٨٥

٤- فهرس الشواهد الشعرية

م	البيت	قائله	الصفحة
١	أتـاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب	النابغة الذبياني	٤٠
٢	أتعرف أطلالاً بوهبينَ والحضْرِ لمــيٍّ كـأنيار المفـوّفة الخضْـرِ	ذو الرمّة	٣٤
٣	أشـوس عن سفــارة السفـير ســرت إليه في أعــالي السّـور	العجّاج بن رؤبة	٣٩
٤	أقـلِّي اللـوم عاذل والعـتـابا وقـولي إن أصبت لـقد أصابـا	الراعي النميري	٤١
٥	ألم تـر أن الله أعطاك سورةً ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ	النابغة الذبياني	٤٠
٦	بالفتح ثُمّتْ بالحديد وكـوّرت طرفٌ كلَتْ وبها يواقتُ حُمّلِ	محمد بن أحمد الموصلي	٧٠
٧	خليليّ عوجا من صدور الرواحل بجمهور حُزْوى فابكيا في المنازل	ذو الرمّة	٣٦
٨	شديدٍ كذا اترك آمنيـــــــن	المخللاتي	٧١
٩	صدرن بما أسأرتُ من ماء مقفرٍ صرىً ليس من أعطانه غيرُ حائر	ذو الرمّة	٣٦
١٠	فـرب ذي سـرادق محجــور جم الغـواشي حاضر المحضور	العجّاج بن رؤبة	٣٩

١١	فغض الطرف إنك من نمير فـلا كعباً بلغت ولا كـلابـا	جرير	٤١
١٢	فما من فتىً إلّا له فضلُ سورةٍ عليك وإلّا أنت في اللؤم غالبه	لم أعثر على قائله	٤٠
١٣	مرفوعُهـا زَولٌ وموضُوعهـا كمرِّ صوبِ لجبٍ وسطَ ريحْ	طرفة بن العبد	٣٣
١٤	من عائدي الليلة أم من فصيحْ بتُّ بنصبٍ ففـؤادي قريـحْ	طرفة بن العبد	٣٣
١٥	هنّ الحرائـرُ لا ربّـاتُ أخـمرةٍ سودُ المحاجر لا يقرأن بالسُّوَر	الراعي النميري	٤١
١٦	وربَّ ذي سرادقٍ محجور سرتُ إليه في أعالي السورِ	العجّاج بن رؤبة	٣٩
١٧	وفتحُ كلا طِبْ يسلمون مقصريـ ـن للمؤمنين اترك تخافون واستقْرِ	المخللاتي	٧١

٥- فهرس المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق : أحمد بن علي، دار الحديث – القاهرة، ١٤٢٧هـ.

٣- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ.

٤- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، ط.[بدون].

٥- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق : علي محمد البجاوي، مطبعة : عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، ١٣٩٤هـ.

٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار المصحف – القاهرة، ط.[بدون].

٧- أساس البلاغة ، الزمخشري ، دار مطابع الشعب – القاهرة، ١٩٦٠ م.

٨- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام – القاهرة، ١٤٠٥هـ.

٩- أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه – القاهرة، ١٣٨٨هـ.

١٠- الاستقامة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، ط.جامعة محمد بن سعود الإسلامية – الرياض، ١٤١١هـ.

١١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب" بهامش الإصابة "، ابن عبد البر القرطبي، دار صادر – مصر، ١٣٢٨هـ.

١٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن أبي الكرم بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق : علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ.

١٣- أسرار إعجاز القرآن ، أ. د. جمال مصطفى عبد الحميد النجار، مكتبة الحسين – القاهرة ، ١٤١٧هـ.

١٤- أسرار ترتيب القرآن، المعروف ب(تناسق الدرر في تناسب السور)، جلال الدين السيوطي، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام – القاهرة، ١٣٩٨هـ.

١٥- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د.محمد أبو شهبة، مكتبة السنة – القاهرة، الطبعة الرابعة.

١٦- أسماء سور القرآن وفضائلها، د. منيرة محمد ناصر الدوسري، دار ابن الجوزي – الدمام، ١٤٢٩هـ.

١٧- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار صادر – مصر، ١٣٢٨هـ.

١٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الإفتاء السعودية – الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٩- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، راجعه : طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ١٣٨٨هـ.

٢٠- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين – بيروت، ١٩٨٤م.

٢١- أنباه الرواه على أنباء النحاة، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ١٤٠٦هـ.

٢٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨هـ.

٢٣- أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ١٤٣٠هـ.

٢٤- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق : علي معوض وآخرون، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٣هـ.

٢٥- البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي، المكتبة التجارية، مصطفى الباز – مكة المكرمة، ط.[بدون].

٢٦- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن المهدي الأنجري، تحقيق : أحمد عبد الله رسلان، الناشر : د. حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩هـ.

٢٧- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف – بيروت، ١٩٦٦م.

٢٨- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي – بيروت، ط.[بدون].

٢٩- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن علي الشوكاني ، وضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٨هـ.

٣٠- البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق : سعيد بن جمعة الفلّاح، دار ابن الجوزي – الدمّام، ١٤٢٨هـ.

٣١- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ١٣٧٦هـ.

٣٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق : محمد علي النجار، وزارة الأوقاف المصرية – القاهرة، ١٤١٦هـ.

٣٣- بعض فؤائد صلح الحديبية، محمد بن عبد الوهاب، تحقيق : د.ناصر بن سعيد الرشيد، ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ملحق المصنفات)، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، مطابع الرياض – الرياض.

٣٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- صيدا.

٣٥- البيان في عدِّ آي القرآن، أبو عمرو الداني الأندلسي، تحقيق : غانم قدوري الحمد، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق – الكويت، ١٤١٤هـ.

٣٦- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، إشراف : محمد عبد المعيد خان، دار المعارف العثمانية – حيدر أباد الدكني.

٣٧- تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، علاء الدين علي بن أحمد المهائمي، تحقيق : أحمد فريد المزيدي، كتّاب ناشرون – بيروت، ١٤٣٢هـ.

٣٨- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون - تونس، ط. [بدون]

٣٩- تفسير ابن رجب الحنبلي، الحافظ عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، جمع : طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة – الرياض ، ١٤٢٢هـ.

٤٠- تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد بن عرفة الورعمي، تحقيق : جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠٠٨م.

٤١- تفسير الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة : د.أحمد مصطفى الفران، دار التدمرية – الرياض، ١٤٢٧هـ.

٤٢- تفسير العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين بن عبد السلام، تحقيق : د.عبد الله الوهبي، دار ابن حزم – بيروت، ١٤١٦هـ.

٤٣- تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله المري، المعروف باسم أبي زمنين، تحقيق : حسين بن عكاشه ومحمد بن مصطف الكنز، دار الفاروق الحديثة – القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٤٤- تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل ابن كثير، تحقيق : د.محمد إبراهيم البنّا، دار ابن حزم – بيروت، ١٤١٩هـ.

٤٥- تفسير القرآن العظيم، علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، تحقيق : د.موسى علي موسى مسعود، د.أشرف محمد عبد الله القصاص، دار النشر للجامعات – القاهرة، ١٤٣٠هـ.

٤٦- تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ١٩٩٠م.

٤٧- تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، تحقيق : غنيم بن عبّاس، دار الوطن – الرياض، ١٤١٨هـ.

٤٨- تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق : مصطفى مسلم، مكتبة الرشد – الرياض، ١٤٢٣هـ.

٤٩- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، ط.[بدون].

٥٠- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٤هـ.

٥١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيري، دار الفكر المعاصر – دمشق، ١٤١٨هـ.

٥٢- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، دار النفائس – الأردن، ١٤٢٨هـ.

٥٣- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، إعداد: نخبة من علماء التفسير، إشراف: أ. د. مصطفى مسلم ، جامعة الشارقة – الشارقة ، ١٤٣١هـ.

٥٤- التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، أ. د. زياد الدغامين، دار عمار – الأردن، ١٤٠٨هـ.

٥٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة، ١٩٩٨م.

٥٦- تفسير غريب الحديث، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت، ط.[بدون].

٥٧- تفسير غريب القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق : السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ.

٥٨- تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر التابعي المخزومي، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، المنشورات العلمية – بيروت، ط.[بدون].

٥٩- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، عبد الحميد الفراهي. الدائرة الحميدية – الهند، ٢٠٠٨م (صورة PDF من ملتقى أهل التفسير)

٦٠- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة – بيروت، ١٣١٥هـ.

٦١- تنزيه القرآن عن المطاعن، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد، دار النهضة الحديثة – بيروت.

٦٢- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط.[بدون].

٦٣- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف النظامية – الهند، ١٣٢٧هـ.

٦٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الريان – بيروت، ١٤١٨هـ.

٦٥- الثقات، محمد بن حبان البستي، دار المعارف العثمانية، الهند، ١٣٩٣هـ.

٦٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، تحقيق : د.عبد الله التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٤هـ.

٦٧- جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق : د.محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، ١٤٢٢هـ.

٦٨- جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ.

٦٩- الجامع لأحكام القرآن، محمد ابن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث – بيروت، ط.[بدون].

٧٠- الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب، وهو مشتمل على ديواني الأراجيز للعجاج والزفيان، عناية : وليم بن الورد البروسي، طبع في مدينة ليبسيج سنة ١٩٠٣م. (صورة PDF من موقع الألوكة الإلكتروني).

٧١- جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٤هـ.

٧٢- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : علي بن حسن و عبد العزيز بن إبراهيم و حمدان بن محمد، دار العاصمة – الرياض، ١٤١٩هـ.

٧٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلاف الثعالبي، مؤسسة الأعلامي للمطبوعات – بيروت، ط.[بدون].

٧٤- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محي الدين عبد القادر بن محمد القرشي، تحقيق : عبد الفتاح الحلو، شركة عيسى البابي الحلبي – مصر، ١٣٩٩هـ.

٧٥- حاشية الجرجاني عن الكشاف (مطبوع بهامش الكشاف) ، علي بن محمد بن علي الجرجاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٣٩٢هـ.

٧٦- حقيقة الإنتصار، ناصر بن سليمان العمر، دار القدس – صنعاء، ط.[بدون].

٧٧- حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، محمد إبراهيم الشيباني، مكتبة السوادي – جدة، ١٤٠٧هـ.

٧٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق : د.عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية – القاهرة، ١٤٢٤هـ.

٧٩- درة الحجال في أسماء الرجال " ذيل وفيات الأعيان "، أبو العبّاس أحمد بن محمد المكناسي، الشهير بابن القاضي، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النو، دار التراث – القاهرة والمكتبة العتيقة – تونس.

٨٠- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة – مصر ١٣٥٨هـ.

٨١- دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء – الرياض، ١٤٠٣هـ.

٨٢- دلالة أسماء القرآن الكريم من منظور حضاري، أ.د.محمد خليل جيجك، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٢١هـ.

٨٣- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق : سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ١٤٢٨هـ.

٨٤- دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها – الهند، ط [بدون].

٨٥- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر – القاهرة.

٨٦- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق : كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت – بيروت، ١٣٨٣هـ.

٨٧- ديوان زهير بن أبي سلمة، شرحه : علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨هـ.

٨٨- ديوان شعر ذي الرمة، شرح غريبه : عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، ١٤٢٧هـ.

٨٩- ديوان طرفة بن العبد، عناية : حمدو طماس، دار المعرفة – بيروت، ١٤٢٧هـ.

٩٠- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد – الرياض، ١٤٢٥هـ.

٩١- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، محمد بن جعفر الكتّاني، دار الباز للطباعة والنشر – مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ.

٩٢- روح البيان، إسماعيل حقي الاستانبولي، دار الفكر- بيروت، ط.[بدون].

٩٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، تعليق : محمد الأحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢١هـ.

٩٤- الروض الأنف، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، علق عليه : طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ١٩٧٢م.

٩٥- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن ابن الجوزي، المكتب الإسلامي – بيروت، ط.[بدون].

٩٦- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٣٩٩هـ.

٩٧- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، محمد بن الخطيب الشربيني، مطبعة بولاق – القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٩٨- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السيجيستاني، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت.

٩٩- سنن الترمذي، بتحقيق : محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به : مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤٢٩هـ.

١٠٠- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق : إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، ١٣٩٥هـ.

١٠١- سنن سعيد بن منصور، تحقيق : جماعة من العلماء، بإشراف : د.سعد الحميد. (الكتاب قيد الطبع وقت تحرير هذه الرسالة).

١٠٢- سور القرآن وآياته وحروفه ونزوله، الفضل ابن شاذان الرازي، صححه وعلق عليه : بشير بن حسن الحميري، دار ابن حزم – الرياض، ١٤٣٠هـ.

١٠٣- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حققه جماعة بإشراف : شعيب بن الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٠٤- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د.محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم – دمشق، ١٤٠٩هـ.

١٠٥- السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار القلم – دمشق، ١٤٢٨هـ.

١٠٦- السيرة النبوية، محمد بن حبّان البستي، تحقيق : عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٠٧- سيرة النبي – صلى الله عليه وسلّم –، أبو محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الرياض، ط.[بدون].

١٠٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن العماد الحنبلي ، دار المسيرة – بيروت ، ١٣٩٩هـ.

١٠٩- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٤٠٣هـ.

١١٠- شرح العلّامة المخللاتي المسمّى بالقول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة الزهر لل الشاطبي، رضوان بن محمد بن سليمان، تحقيق : عبد الرزاق بن علي بن إبراهيم موسى، مطابع الرشيد – المدينة المنورة، ١٤١٢هـ.

١١١- شعر الراعي النميري وأخباره، جمعه : نصر الحاني، راجعه : عزالدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق – دمشق، ١٣٨٣هـ.

١١٢- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي – القاهرة، ١٣٩٧هـ.

١١٣- الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق : محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني – الرياض.

١١٤- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ١٤٠٧هـ.

١١٥- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار السلام للنشر والتوزيع – الرياض، ١٤١٧هـ.

١١٦- الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤٠٠هـ.

١١٧- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري، بيت الأفكار الدولية – الرياض، ١٤١٩هـ.

١١٨- صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها – القاهرة، ط.[بدون].

١١٩- صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ضبطه وكتب هوامشه : إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٢٠- صلح الحديبية، محمد أحمد باشميل، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٣هـ.

١٢١- ضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٤١٢هـ.

١٢٢- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة – بيروت.

١٢٣- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر – بيروت، ط.[بدون].

١٢٤- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط [بدون].

١٢٥- طبقات المفسرين، محمد بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت،ط [بدون].

١٢٦- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرح : محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، ١٩٩٤م.

١٢٧- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، عنى بمراجعته : محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية – مصر، ١٤٠٠هـ.

١٢٨- عيون الأثر في سيرة سيد البشر، ابن سيد الناس، دار المعرفة – بيروت، ط.[بدون].

١٢٩- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق : زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٦هـ.

١٣٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مكتبة الرياض الحديثة – الرياض، ط.[بدون].

١٣١- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ١٣٨٣هـ.

١٣٢- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري، تحقيق: د. محمد ابراهيم نصر و د. عبدالرحمن عميرة، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع – جدة، ١٤٠٢ هـ

١٣٣- فقه السيرة، أ.د.زيد بن عبد الكريم الزيد، دار التدمرية – الرياض، ١٤٢٧هـ.

١٣٤- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة – القاهرة، ١٩٧٦م.

١٣٥- فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خلفية الإشبيلي، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ١٣٩٩هـ.

١٣٦- الفهرست، محمد بن النديم، دار المعرفة – بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٣٧- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق – بيروت، القاهرة، ١٣٩٧هـ.

١٣٨- القاموس المحيط ، محمد يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : مكتبة التراث ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٠٦هـ.

١٣٩- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تحقيق : محمد اليونس، وإبراهيم عطوة، دار الكتب الحديثة – القاهرة.

١٤٠- كتاب المحبّر، محمد ابن حبيب البغدادي، رواية أبي سعيد حسن السكري، عناية : الدكتورة إيلزة ليختين شنيتر، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط.[بدون].

١٤١- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق : كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ١٤٠٩هـ.

١٤٢- كتاب تذكير الناهين بسير أسلافهم حفّاظ الحديث السابقين واللاحقين (وهو ضمن مجموع كتب ورسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ربيع بن هادي المدخلي)، د.ربيع بن هادي المدخلي، دار الإمام أحمد، ١٤٣١هـ.

١٤٣- الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، شركة مصطفى الحلبي وأولاده – مصر، ١٣٩٢هـ.

١٤٤- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بـ (حاجي خليفة)، دار العلوم – بيروت، ط [بدون].

١٤٥- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق : أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٢هـ.

١٤٦- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد الشيحي المعروف بالخازن، تحقيق : محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣١٥هـ.

١٤٧- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم – بيروت، ١٩٧٨م.

١٤٨- اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٩هـ.

١٤٩- لسان العرب ، ابن منظور ، مكتبة المعارف – مصر ، ط [بدون]

١٥٠- مباحث في التفسير الموضوعي، أ. د. مصطفى مسلم، دار القلم – دمشق، ١٤٣٠هـ.

١٥١- مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، مكتبة المعارف – الرياض ، ١٤٠١هـ.

١٥٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٠٢هـ.

١٥٣- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد القاسم وساعده ابنه محمد، ط.إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين.

١٥٤- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، علّق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٥٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلوسي، دار ابن حزم – بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٥٦- المحرر الوجيز في عد آي الكتب العزيز، شرح وتوجيه أرجوزة العلّامة الشيخ محمد المتولي، عبد الرزّاق بن علي بن إبراهيم موسى، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤٠٨هـ.

١٥٧- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق : يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٥٨- مختصر الفتاوى المصرية، أحمد عبد الحليم بن تيمية، صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقي، دار نشر الكتب الإسلامية – باكستان، ١٣٩٧هـ.

١٥٩- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، اعتنى به : عبد المجيد طعمه حلبي، دار المعرفة – بيروت، ١٤٢٩هـ.

١٦٠- المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية – مصر، ١٤٢٨هـ.

١٦١- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي، تحقيق : محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٧هـ.

١٦٢- المستدرك على الصحيحين في الحديث، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الباز – مكة المكرمة، ط.[بدون].

١٦٣- مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى أحمد بن علي بن هلال الموصلي، تحقيق : حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، ١٤٠٤هـ.

١٦٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق : مجموعة من العلماء، بإشراف : د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٢٩هـ.

١٦٥- مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف – مصر، ١٣٧٠هـ.

١٦٦- مشارق الأنوار على صحيح الآثار ، القاضي عياض ابن موسى اليحصبي ، المكتبة العتيقة – تونس ، ط [بدون]

١٦٧- مصابيح الدرر في تناسق آيات القرآن الكريم والسور، د. عادل بن محمد أبي العلاء، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. السنة ٣٧ - العدد ١٢٩، ١٤٢٥هـ.

١٦٨- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق : عبد السميع حسنين، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٨هـ.

١٦٩- المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٧٠- "مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد أمين الشنقيطي –رحمه الله–" ، عطية محمد سالم، مجلة الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة. السنة السادسة – العدد الثالث، ١٣٩٤هـ.

١٧١- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، دار ابن حزم – بيروت، ١٤٣٣هـ.

١٧٢- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب – بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٧٣- معاني القرآني، يحيى بن زياد الفراء، تحقيق : احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ١٩٨٠م.

١٧٤- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٧٥- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر – بيروت، ط.[بدون]

١٧٦- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد اللخمي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٧٧- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع – مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.

١٧٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٦٤هـ.

١٧٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٦٤هـ.

١٨٠- المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، المكتبة الإسلامية – تركيا ، ١٣٩٢هـ .

١٨١- معجم تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق : د. رياض زكي قاسم، دار المعرفة – بيروت، ١٤٢٢هـ.

١٨٢- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤١٤هـ.

١٨٣- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٩هـ.

١٨٤- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق : بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٨٥- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، دار الفكر – بيروت، ١٩٧٩م.

١٨٦- مفاتيح الغيب ،محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٢٩هـ.

١٨٧- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق : صفوان عدنان داودي، دار القلم – دمشق، ١٤٣٠هـ.

١٨٨- مفردات القرآن ، عبد الحميد الفراهي ، تحقيق : د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ٢٠٠٢ م.

١٨٩- المكي والمدني في القرآن، د.محمد بن عبد الرحمن الشايع، مركز التفسير والدراسات الإسلامية – الرياض، ١٤١٨هـ.

١٩٠- منار السبيل في الأضواء على التنزيل، محمد العثمان القاضي، الرياض، الطبعة الأولى.

١٩١- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، الطبعة الثالثة.

١٩٢- منهاج السنة النبوية في نقض كمال الشيعة والقدرية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق : د.محمد رشاد سالم، ط.جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض، ١٤١١هـ.

١٩٣- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار المعرفة – بيروت، ١٣٩٥هـ.

١٩٤- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم – الكويت، ١٣٩٠هـ.

١٩٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر البقاعي ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ،١٤٢٧هـ.

١٩٦- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الشهير بالماوردي، تحقيق : السيد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٩٧- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق : إبراهيم الإيبياري، دار الكتّاب اللبنانيين – بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٩٨- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك محمد بن الجزري بن الأثير، اعتنى به : رائد صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية – عمّان، ٢٠٠٣م.

١٩٩- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٠٠- واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر – جدة، ١٤٠٧هـ.

٢٠١- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق : أحمد زيد المريدي، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠٠٨م.

٢٠٢- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق : عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠٣- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، تحقيق : عدنان داوودي، دار القلم – دمشق، ١٤١٥هـ.

٢٠٤- الوحدة القرآنية ، محمد محمود خوجة ، دار كنوز اشبيليا – الرياض ، ١٤٣١هـ.

٢٠٥- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، د. أحمد محمد صيرة ، د. أحمد عبد الغني الجمل، د. عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ.

٢٠٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر – بيروت.

٢٠٧- يتيمة الدهر في النزول وآيات السور، محمد بن أحمد بن الحسين الحنبلي الموصلي المعروف بشعلة، تحقيق : د. محمد بن صالح البراك، مجلة الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة. السنة ٣٩ – العدد ١٣٤، ١٤٢٧هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول : التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية	٢٥
التمهيد : التناسق الموضوعي في السورة لغةً واصطلاحاً	٢٦
أولًا : التناسق الموضوعي لغة واصطلاحًا	٢٧
معنى التناسق لغةً واصطلاحاً	٢٧
معنى الموضوعي لغةً واصطلاحًا	٣٢
ثانيًا : تعريف السورة لغةً واصطلاحًا	٣٥
ثالثًا : المراد بالتناسق الموضوعي في السورة	٤٦
رابعًا : ثمرة دراسة التناسق الموضوعي في السورة	٤٩
الفصل الأول : اسم السورة ، وفضلها، وعدد آياتها، وتاريخ نزولها	٥٧
المبحث الأول : اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من اسماء	٥٨
المبحث الثاني : ما ورد في فضل سورة الفتح أو بعض آياتها من أحاديث	٦٢
أولًا : ما ورد في في فضل السورة..................................	٦٢
ثانيًا : ما ورد في فضل بعض آياتها	٦٥
المبحث الثالث : عدد آيات السورة وأقول العلماء في ذلك	٦٧

المبحث الرابع : تاريخ نزول السورة الكريمة ٧٣
تحديد مكان نزولها ٧٧
تحديد وقت نزولها ٧٨
ترتيبها في نزول السور ٧٩
ترتيبها في المصحف ٨٠
طبيعة المرحلة التاريخية التي نزلت فيها السورة ٨٢

الفصل الثاني : مكيّ السورة ومدنيّها، ومناسبتها لما قبلها، ووجه اختصاصها بما اختصّت به، و مقاصدها ١٠٠

المبحث الأول : المكيّ والمدنيّ في السورة ١٠١
المبحث الثاني : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها ١٠٤
المطلب الأول : مناسبة افتتاحية السورة لخاتمة ما قبلها ١٠٤
المطلب الثاني : المناسبة بين افتتاحية السورة وافتتاحية ما قبلها ١٠٦
المطلب الثالث : المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها ١٠٧
المطلب الرابع : المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها ١٠٨
المطلب الخامس : المناسبة بين خاتمة السورة وخاتمة ما قبلها ١١٢
المطلب السادس : المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة ما بعدها ١١٣
المطلب السابع : المناسبة بين افتتاحية السورة وافتتاحية ما بعدها ١١٤
المطلب الثامن : المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما بعدها ١١٥
المطلب التاسع : المناسبة بين خاتمة السورة وخاتمة ما بعدها ١١٧

المبحث الثالث : وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات ١١٨
المبحث الرابع : مقاصد السورة الكريمة ١٢٨

الباب الثاني : التناسق الموضوعي دراسة تطبيقية ١٣١

الفصل الأول : مناسبات السورة الكريمة والموضوع الكلّي فيها ١٣٢

المبحث الأول : مناسبة اسم السورة لموضوعاتها ١٣٣
المطلب الأول : مناسبة اسم السورة لفاتحتها ١٣٨
المطلب الثاني : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الثاني ١٣٨
المطلب الثالث : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الثالث ١٣٩
المطلب الرابع : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الرابع ١٤٠
المطلب الخامس : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع الخامس ١٤٢
المطلب السادس : مناسبة اسم السورة لموضوع المقطع السادس ١٤٤
المطلب السابع : مناسبة اسم السورة لخاتمتها ١٤٥

المبحث الثاني : مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها ١٤٦
المبحث الثالث : الموضوع الكلّي في السورة الكريمة ١٤٧
الفصل الثاني : موضوعات السورة الكريمة وتناسقها ١٥٢

المبحث الأول : وموضوعه : "المنّة بالفتح العظيم وأثره على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلّم - "ويشمل الآيات : ١ – ٣ .... ١٥٣
المطلب الأول : سبب نزول السورة الكريمة ١٥٤
المطلب الثاني : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي ١٥٨
امطلب الثالث: التناسق الموضوعي في آيات المبحث الأول ١٩٧
علاقة هذا المبحث بموضوع السورة الرئيس ٢٠٠
المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيات ٢٠١
المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيات ٢٠٢

المبحث الثاني : وموضوعه : "آثار الفتح المبين وفضله على المؤمنين" ويشمل الآيات ٤ – ٧ .... ٢٠٥
المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها ٢٠٧
المطلب الثاني: سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴾ ٢٠٨
المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي ٢٠٩
المطلب الرابع : التناسق الموضوعي في آيات المبحث الثاني ٢٣٣
من دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ٢٣٦
المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات ٢٣٧

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات ٢٣٩

المبحث الثالث : وموضوعه : "وظيفة الرسول الكريم وبيان حقه من الطاعة والتعظيم" ويشمل الآيات : ٨ – ٩ .... ٢٤٣

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما ٢٤٤

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي ٢٤٥

المطلب الثالث: التناسق الموضوعي في آيات المبحث الثالث ٢٦٣

من دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ٢٦٥

المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآيتين ٢٦٦

المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآيتان ٢٦٧

المبحث الرابع : وموضوعه : "مغبّة التخلف عن نصرة الدين، وفضح المخلّفين، وبيان المعذورين" ويشمل الآيات : ١٠ – ١٧ .... ٢٦٩

المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها ٢٧١

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ... ﴾ ٢٧٣

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي ٢٧٤

المطلب الرابع: التناسق الموضوعي في آيات المبحث الرابع ٣١٧

من دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ٣٢٣
المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات ٣٢٤
المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات ٣٣٠

المبحث الخامس : وموضوعه : "الوعد بالأجر العظيم لمن نصر الدين، والبشارة بانتصار المؤمنين على الكافرين" ويشمل الآيات ١٨ – ٢٦ ٣٣٣
المطلب الأول : مناسبة الآيات لما قبلها ٣٣٥
المطلب الثاني : أسباب النزول ٣٣٧

- سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ... ﴾ ٣٣٧
- سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ... ﴾ ٣٣٧
- سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ... ﴾ ٣٤٤

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي ٣٤٥
المطلب الرابع: التناسق الموضوعي في آيات المبحث الخامس ٣٧٦
من دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ٣٨٢

المطلب الخامس : المعنى الإجمالي للآيات ٣٨٥

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيات ٣٨٩

المبحث السادس : وموضوعه : " الوعد بدخول المسجد الحرام وظهور دين الإسلام" ويشمل الآيتين : ٢٧ – ٢٨ .... ٣٩٣

المطلب الأول : مناسبة الآيتين لما قبلهما ٣٩٥

المطلب الثاني : سبب نزول قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ...﴾ ٣٩٦

المطلب الثالث : الدراسة التحليلية لهذه الآيات في ضوء التناسق الموضوعي ٣٩٨

المطلبي الرابع: التناسق الموضوعي في آيتي المبحث السادس ٤٠٩

من دلائل هذا المبحث على موضوع السورة الرئيس ٤١٣

المطلب الخامس: المعنى الإجمالي للآيتين ٤١٥

المطلب السادس : أهم ما ترشد إليه الآيتان ٤١٧

المبحث السابع : وموضوعه : "الصفات الحسان لسيد الأنام وصحبه الكرام" ويشمل الآية التاسعة والعشرين ٤١٩

المطلب الأول : مناسبة الآية لما قبلها ٤٢١

المطلب الثاني : الدراسة التحليلية للآية في ضوء التناسق الموضوعي... ٤٢٢

المطلب الثالث: التناسق الموضوعي في آية المبحث السابع ٤٣٦

من دلائل النصر في هذه الآية الكريمة ٤٤٥
المطلب الرابع : المعنى الإجمالي للآية الكريمة ٤٥٧
المطلب الخامس : أهم ما ترشد إليه الآية الكريمة ٤٤٩

قبل الختام ٤٥٠
آثار صلح الحديبية ودلالته ٤٥٠
حاجة الأمة إلى النصر والتمكين ٤٦٠
معالم في طريق النصر في ضوء آيات السورة الكريمة ٤٦٦

الخاتمة وتشمل : ٤٧٧
أهم النتائج ٤٧٧
أبرز التوصيات ٤٨٤

الفهارس العامة : ٤٨٦
فهرس الآيات القرآنية ٤٨٧
فهرس الأحاديث والآثار ٥٠٢
فهرس الأعلام المترجمة ٥٠٧
فهرس أسماء القبائل والأمكنة والبلدان ٥١٧
فهرس الشواهد الشعرية ٥١٩
فهرس المراجع والمصادر ٥٢١
فهرس الموضوعات ٥٤٤